مجلة المؤرخ العربي

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد رقم 2 –يناير 1994م

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العــــــدد

كلــــمة ســـــــواء

بسم الله الرحمن الرحيم نقدم للمشتغلين بالدراسات التاريخية العدد الثانى من مجلة المؤرخ العربى التى تصدر عن الاتحاد الشرعى للمؤرخين العرب بالقاهرة . وقد سبق أن أوضحنا فى أكثر من مناسبة ان هــــذا الاتحاد فى وضعه الجديد يستهدف فى المقام الأول خير العـلم وأهله ، من خلال الكشف عن دور علم التاريخ فى تكييف حياة الانسان والافادة من تجارب الماضى فى مواجهة متاعب الحاضر والاعداد لمستقبل أفضل ولا يتم ذلك على الوجه الأكمل الا عن طـــريق الوصـــول الى الحقيقة التاريخية وعرضـــها مجـــردة من أية اعتبارات أو نزوات عاطفية تتعمــد الانحراف بالتاريخ عن طريق التلاعب بأحداثه .

والمفروض فى التاريخ أن يكون بمثابة مدرســـة ، يســـتفيد فيها اللاحقون من تجارب السابقين ، ويتعلم فيها الحكام وأولو الأمر بصــفة خاصة حتى ينهضـــوا بالأمانة الكبرى الملقـــاة على عواتقهم . يروى المسعودى أن معاوية بن أبى سفيان كان « يستمر الى ثلث الليل فى سماع أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياســتها لرعيتها ، وســـير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ... » . ولعلنا فى ضوء هذه العبارة نستطيع أن نفسر نجاح معاوية ـ وهو الرجل الذى نشأ نشأه بدوية بسيطة محدودة الأفق ـ فى أن يسوس أمة كبيرة ويؤسس دولة واسعة ضمت عـــددا من الشعوب المختلفة الأصول والجذور ، المتباينة المشارب والاتجاهات . أما السلطان الظاهر بيبرس ، صاحب الشهرة الواسعة فى عالمى الحرب والسياسة ، فيروى عنه المؤرخ المعاصر أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى أنه كان دائما يردد عبارة « سماع التاريخ أعظم من التجارب » . وعن هـــذا

الطريق نجح الظاهر بيبرس ـ الذى نشأ مملوكا يباع فى أسواق الرقيق ـ فى أن يصبح المؤسس الحقيقى لدولة من أعظم الدول الاسلامية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى ٠

وعندما قام اتحاد المؤرخين العرب بحركته التصحيحية سنة ١٩٩١، وضع لنفسه سياسة التزم بها ، محورها الحفاظ على كرامة العلم وأهله ، وانتشال علم التاريخ والمشتغلين به من المستنقع الذى سحبهم اليه حكام بغداد واذنابهم من الاتباع والمنتفعين ، والحيلولة دون تسـخير طاقة المؤرخين العرب فى الترويج لسياسة نظام ـ أيا كان ـ يتخذ من الارهاب والعدوان والابتزاز أدوات لتحقيق مجد زائف أثبت التاريخ أنه لا يدوم ٠ وعندما يحين الوقت المناسب يصدر التاريخ حكمه صريحا واضـحا ٠٠٠ والتاريخ لا يرحم ٠

وانطلاقا من مبدأ الحفاظ على الوجه المشرق لعلم التاريخ ، ورعاية كرامة المشتغلين به تحرص هيئة تحرير مجلة المؤرخ العربى على الالتزام بروح الأمانة العلمية ، والعمل على تنقية التاريخ مما علق به من أوهام وأخطاء ، والحرص على تفسير أحداثه تفسيرا بعيدا عن الأهواء والميول والأغراض ٠٠٠٠ مما يعود فى نهاية الأمر على المسيرة البشرية ، وعلى الأمة العربية بوجه خاص ، وعلى المؤرخ العربى بالخير والصلاح ٠

وعندما تقدم هيئة التحرير العـدد الثانى من مجلة المؤرخ العربى للباحثين والقراء ، فانها ترى أن تبدى أسفها لأصحاب البحوث التى لم تنشر ، اما لأنها لم تحـظ بموافقة الحكام ـ وهم من صفوة الأسـاتذة المتخصصين ـ واما لأنها لا تتفق من ناحيتى الكم والكيف مع القواعد التى تلتزم بها المجلة فى مجال النشر

وما دمنا بصدد موضوع التحكيم ، فاننا نرى أن الأمر يتطلب قدرا من الايضاح ، مراعاة لصالح العلم ، وصالح الباحث أو الكاتب ، فضلا عن الحكم والقارىء ٠

ان التحكيم غايته اصدار حكم نهائى على البحث : هل هو صالح

للنشر أم انه دون المستوى المنشود . والحكم لا ينبغى أن يجعل من نفسه سيفا باترا يحجر على حرية الباحث أو يلزمه برأى معين . ان للباحث حريته ، ولكل باحث مستواه الفكرى والعلمى ، كما أن لكل فرد امكاناته فى القدرة على التعبير . قد يصادف الحكم أو القارىء فى البحث ما لا يرضى عنه وما لا يقره ، وربما اعتبر ذلك خطئا وقع فيه الباحث . ولكن عليه أن يضع فى الكفة المقابلة ما يحويه البحث من مزايا واضافات بحيث لا يترك السيئات يذهبن الحسنات . حقيقة أننا ننشد الكمال ، ولكن علينا أن ندرك أن الكمال لله وحده ؛ فعلى ان أسعى ولكن ليس على أن ادرك النجاح . ان العقول تتفاوت فى ادراكها للأمور وفى تفسيرها للحقائق ، ووجهات النظر قد تتباين فى تفسير الحقيقة الواحدة ، وعندئذ ينبغى على اهل العلم وأولى الرأى أن يدخلوا فى نقاش وجدل هادىء بناء بعيدا عن التعصب لرأى بعينه ؛ وليكن شعارنا جميعا الأخذ والعطاء ، فأنا أعلّم وأتعلم ، وفوق كل ذى علم عليم ؛ ولا عيب فى أن اقع فى خطأ ، ولكن العيب هو ألا أحاول الافادة من هذا الخطأ . وحبذا لو تذكرنا أن هذه الحقيقة أدركها ونادى بها بعض الأئمة والفقهاء فى صدر الاسلام ، فشاع بينهم الرأى القائل : « قولى حق يحتمل الخطأ ، وقول مخالفى خطأ يحتمل الصواب » .

ونحن عندما نوضح هذه الحقيقة لا نستهدف تبرير الخطأ أو اغماض العين عنه ، وانما نستهدف ثلاث حقائق نضعها أمام الباحث والحكم والقارىء جميعا : الحقيقة **الأولى** هى أن مهمة الحكم ليست الحجر على حرية الباحث أو الحد من حركته وانما تقييم البحث من ناحية صلاحيته أو عدم صلاحيته للنشر ، ويتم هذا التقييم فى ضوء قوله تعالى « ان الحسنات يذهبن السيئات » والحقيقة **الثانية** : هى أن الباحث هو المسئول الأول والأخير عن كل ما يرد فى بحثه من عبارات وآراء وافكار ومعلومات ، بمعنى أن البحث يعبر أولا وأخيرا عن مستوى الباحث الفكرى ، وحصيلته العلمية وقدراته اللغوية . أما الحقيقة **الثالثة** فهى أن باب النقد البناء والنقاش الهادىء والجدل المثمر مفتوح أمام الجميع ، طالما أن الهدف واحد هو الوصول بالتاريخ وأهله الى المستوى اللائق المنشود .

مرة أخرى ، نفتح قلوبنا ونرفع أيدينا سائلين الله عز وجل الهداية والتوفيق ، مستلهمين اياه خيرا للعرب ، ولتاريخ العرب ، ومســـتقبل العرب ، فى كل زمان ومكان

رئيس التحــرير

نظرية فرويد وأثرها فى البحث التاريخى

بقلم

دكتور منصور أحمد أبو خمسين(*)

مقـــــدمة :

التنظير فى أبسط تعريف له ، هو استخراج نسق أو مجموعة من الانساق الواضحة ، والمفهومة ، والممكنة الاثبات ، من مجمـــوعة من المعطيات العلمية والملاحظات والمشاهدات المثبتة والمدققة فى حقل من حقول المعرفة أو ميدان من ميادين الدراسة . ويستدعى التنظير تراكم كم معين مقبول من المعطيات التى تمكن صاحب النظرية من استخراج هذه الأنماط ثم فحصها أو اختبارها للتأكـــد من صـــدقها وابراز أية استثناءات هامة لها . فالتنظير أو النظرية حسب هذا التعريف هى جزء من العملية الاستقرائية التى تسود اليوم كافة العلوم الطبيعية منـــذ ان روج لها فرانسيس بيكون فى مقالته الشهيرة نوفوم اورجانوم(١) ، والتى دعى فيها الى نسف العلم القديم واقامة بناء جـــديد للمعرفة باستخدام الطريقة الاستقرائية . وبغض النظـــر عما يقوله العـــديد من المؤرخين والفلاسفة ودارسى التاريخ الفكرى حول استحقاق بيكون لشرف التبشير بالطريقة الاستقرائية وارساء قواعد البحث العلمى الحديث ، فان الطريقة الاستقرائية بكل تأكيد ليست وليدة عصرنا هذا كما لا تقتصر الطـــريقة الاستقرائية على العلوم البحتة فلقد كانت العلوم الاجتماعية والانسانية ولا زالت ميدانا واسعا للاستقراء والتنظير منذ أقدم العصور . والتراث الاغريقى يحوى انتاجا استقرائيا وتنظيريا فى غاية الاهمية بما ينم عن نفاذ البصيرة فى المجالين العلمى البحت والانســـانى . لكن الامكانيات الحقيقية للطريقة الاستقرائية لم تتوافر الا فى عصرنا الحديث ، عصر التراكم العلمى الذى تحول اليوم الى انفجار فى المعرفة افرز كما متزايدا

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة الكويت .

من المعطيات التى لم تجعل التنظيـــر واستخراج الانســـاق أمرا ممكنا فحسب ، بل ضروريا ايضا • اذ بدونه يتحول هـــذا الكم من المعطيات العلمية الى ركام هائل مشوش يستعصى على الفهم والاستيعاب والفرز •

ولعل فى تراثنا العلمى مثالا رائعا للعلاقة بين وفـــرة المعطيات وضرورة التنظير يتمثل فى الانتاج العلمى لابن خلدون • فهذا الرجل لم يكن شعلة ثارت فى ميدان الفكر الاسلامى بعد طول غياب كما يصوره البعض بل كان محصلة طبيعية لذلك الفكر فى انتاجه وفى توقيته • لقد ورث ابن خلدون كما كبيرا من المعطيات التى افرزها النشاط العلمى فى ميدان التاريخ وما يتعلق به من علوم على امتداد ستة قرون • وبعد دراسة مستفيضة لهذا التراث قام باستخراج نسـق متكرر للحوادث التاريخية ولمجموعة أخرى من الانساق الاجتماعية والاقتصـــادية المرتبطة ارتباطا مباشرا بالنسق التاريخى المحورى والتى تعطى تفسيرا معقولا لمجمـــل الاحداث السياسية والاجتماعية بل والاقتصـــادية التى مرت بشـــمال افريقية منذ العهد الرومانى وحتى وقت ابن خلدون(٢) • ان الجهـــد التنظيرى لابن خلدون لم يكن ممكنا لولا توفر المعطيات ، ولكنه أيضا كان ضروريا لاستيعاب تلك المعطيات وفهمها وغربلتها وابقاء اللازم منها ثم ترتيبها وفقا لأهميتها وعلاقتها بمنطق داخلى يحكمه النسق التاريخى المحورى والانساق الأخرى المرتبطة به •

التنظير وعــلم التاريخ الأوربى

ولقد ورث المؤرخون وباحثو العلوم الانسانية الأوربيون فى نهاية القرن الماضى وبداية قرننا الحاضر كما كبيرا ومتنوعا من العلوم والمعارف فى مختلف المجالات • ذلك أن أوربا مرت بين نهاية العصور الوسطى وبداية القرن العشرين بأحداث جمة ، وشهدت نشاطا واسعا فى مختلف الميادين وتغيرات واسعة وجـــذرية شـــملت مختلف أوجه النشـــاطات والتنظيمات الانسانية • ولا يمكن مقارنة ذلك التحول خلال هذه القرون الأربعة الا بالنقلة النوعية التى مر بها الانسان فى فجر التاريخ ؛ تلك النقلة التى استغرقت آلاف السنين وعبرت بالبشرية من عصر جماعات الصيد والالتقاط البدائية الى عصر الزراعة والكتابة والامبراطوريات •

ورافق نقلة أوربا من العصر الوسيط الى الحديث جهـــد كبير فى مجالات المعرفة وجمع المعلومات والرصد والتسجيل والملاحظة والمشاهدة والدراسة والتوثيق . وافرز هذا الجهد كما هائلا من المعطيات حول كافة مجالات النشاط الانسانى تقاسمته فروع العلوم الانسانية المختلفة .

وفى ثلاثة من هذه الفروع برزت ثلاث محاولات لاستخراج انساق واضحة من هذه المعطيات تنظم وترتب هذا الكم المتشـــعب الهائل من المعلومات فى نسق واضح ومفهوم يفسر الاحداث ويكشف المعالم ويوضح العلاقات . وشكلت كل واحدة من هذه المحاولات تيـــارا تنظيريا هاما تغلغل فى مختلف فروع المعرفة .

فمن علم الاقتصاد أو مما كان يسمى فى القرن التاسع عشر بعـــلم الاقتصاد السياسى خرجت النظرية الماركسية التى تعود الى كارل ماركس واعتقد أننى لست بحاجة للتعريف بكارل ماركس أو بنظرياته ولكن اكتفى بالاشارة هنا الى ان النظرية الماركسية التى بدأت باستخراج انســـاق الاقتصاد وعلاقاتها بالهرم الاجتماعى والسلطة السياسية ، تطورت لكى تستوعب كافة الأنشطة الانســانية وفروع المعـــرفة المرتبطة بها كالتاريخ والسياسة والفن والفكر والدين والأسرة الخ . وفى كل هـــذه الميادين استخرج الماركسيون انساقا وأدوات تحليـــل ومفاهيم ومفـــردات ترتب وتستوعب المعطيات والاحداث التاريخية والمعاصرة بل والمستقبلية وتعللها جميعا بشكل يتفق والمادية التاريخية التىتشكل محور النظرية الماركسية .

ومن علم الاجتماع برز ما يسمى بالمدرسة الفبرية نسبة الى ماكس فيبر . وفيبر هذا عالم المانى خصب الانتاج حاد الفـــكر توفى فى سنة ١٩٢٠ ، بعد نشاط علمى حافل ساهم من خلاله بتشكيل علم الاجتماع الحديث وترك اثرا واضحا وعميقا فى كافة العـــلوم الاجتماعية(٣) . وتقف نظرية فيبر أو بصورة أدق نظريات فيبر موقفالمعارضة من النظرية الماركسية : اذ بينما تاخذ هذه النظرية الاقتصاد أو العامل الاقتصادى كمحور للتحليل والتعليل واستخراج الانساق وفهم الأحداث والمعطيات ، ينطلق ماكس فيبر من قاعدة فكرية شبه خالصة . واذا كان كارل ماركس قد ارسى قواعد نظرياته لتفسير الاحداث التاريخية فى كتـــاب بعنوان

رأس المال فلقد قام فيبر بذلك فى كتاب عنوانه الاخلاقيات البروتستانتية وروح الرأسمالية(٤) • ولقد علل فيبر فى هذا الكتاب نشأة وتطور الرأسمالية فى أوربا وما رافق ذلك التطور من نمو وتوسع اقتصادى وثورة صناعية وتوسع امبريالى بأسباب تعود الى الطبيعة الخاصة بالاصلاح الدينى المنسوب الى كالفن وموقف هذا المذهب من قضية الخلاص والقسمة الالهية • ومن تحليله للمذهب البورتستانتى انطلق فيبر الى ما يسمى بعلم سوسيولوجيا الأديان والدراسة المقارنة للأديان والقضاء والقيادة السياسية حيث اخرج نظرية متكاملة فسر بها التطور السياسى والاجتماعى للمجتمعات الأوربية والشرقية وعلل الفروق المختلفة بين المجتمعات وأسلوب تطورها باستخدام أدوات تحليل سماها IDEAL TYPES أو النماذج المثالية ، تدور كلها حول الايديولوجيات الفكرية والدينية المختلفة(٥) •

أما المدرسة الثالثة وهى موضوع هذا البحث فهى المدرسة النفسية أو الفرويدية والتى أخذت اسمها من سيجموند فرويد • وفرويد هذا طبيب وباحث ولد وعاش فيما كان يعرف بامبراطورية النمسا المجر وأجرى بحوثه ونشرها باللغة الالمانية فى النمسا والمانيا وكانت أخصب سنوات انتاجه ما بين سنتى ١٨٩٩ ـ ١٩٢٧ ، ورسمت بحوثه واستنتاجاته معالم طريق علم النفس المعاصر واثرت تأثيرا كبيرا فى علوم الطب والتربية والاجتماع والتعليم(٦) •

وكان اهتمام فرويد الأساسى بالاعراض المرضية التى يطلق عليها الطب الآن الهستيريا أى الاضطرابات العضوية التى ليس لها أساس بيولوجى أو فسيولوجى • وخلال سنوات عديدة من البحث والمراقبة ومحاولات العلاج طور نظرية خاصة لتفسير عناصر تكوين وعمل النفس الانسانية أو PSYCHE ولقد اصبح لتلك النظرية بالذات ومفرداتها وأدوات التحليل فيها تطبيقات خرجت عن حدود علم النفس والتربية والتعليم لتشمل دراسة احداث التاريخ والسياسة والمجتمع ، واستخدمت معطيات تلك النظرية لتفسير تلك الاحداث واستخراج انساق معينة منها.

نظـــرية فـــرويد :

مثل معظم التيارات الفكرية الخالدة والمؤثرة تبدأ نظـــرية فرويد بفكرة واحدة فى غاية البساطة واليسر وهى أن النفس الانسانية ليست شيئا واحدا يولد متكاملا بل هى كيان يولد مع الفرد ويتطور بمعية تطور الفرد نفسه(٧) . فعندما يولد الفــرد تكون النفس الخاصــــة به PSYCHE عبارة عن كتلة واحدة مبهمة هى الــ (هو) أو كما يســــميها فرويد ID وهذا الــ (هو) كيان نســـتغرقه ذاته لا يرى ولا يســـمع الا مطالبه الغريزية .والعامل الفعال الوحيد المؤثر فيه هو عامل الــ (هو) الذى يحاول ارضاءه دون الالتفات الى أى عامل آخر . ان هذا الــ (هو) مليىء بالطاقة التى تاتيه من الغرائز ولكن هـــــذه الطاقة غير منظمة ولا يمكن أن تنتج ارادة جماعية فهى تهدف فقط لارضاء الحاجات الغريزية كما يمليها عليه مبدأ اللذة(٨) .

ولكن الــ (هو) سرعان ما يعى وجود عالم خارجى لأن الاشباع يقتضى التعامل مع هذا العالم . وكنتيجة لهذا التعامل يفرز الــ (هو) أو الــ ID كيانا يخرج منه هو الأنا أو كما يسميه فرويد « THE EGO » والأنا » وهو ذلك الجزء من الــ (هو) الذى تم تحويره بسبب قربه من العالم الخارجى وتأثير دلك العالم عليه . لقد تحول ليتمكن من استقبال المؤثرات الخارجية وليكون الدرع الواقى من هذه المؤثرات . ان الأنا تقوم بتمثيل العالم الخارجى أمام الــ (هو) ، ولولا الأنا لما استطاع الــ (هو) أن ينجو من التدمير الذى كان ينتج من سعيه الأعمى لاشباع غرائزه دون الالتفات للقوى والمؤثرات الخارجية »(٩) .

ان الأنا أو Ego هى الجزء المفكر من الــ (هـ و) أو ID الناتج عن تعامل الــ ID مع الخارج خلال نموه وهى لا تختلف عنه فى سعيها لاشباع الرغبات الا فى احساسها وحسن تقديرها للعــالم الخارجى وما يحويه من مخاطر .والأنا قادرة على جمعوتخزين الخبرات وفحصها « REALITY TESTING »

والانا قادرة على تأجيل اندفاع الـ (هو) عن طريق اعمال الفكر واستخدام الخبرات . فالانا بهذه الطريقة الغت مبدأ اللذة الذى يتحكم بمسيرة الاحداث فى عالم الـ (هو) دون قيود،وابدلته بمبدأ الواقع الذى يعد بزيادة فى التأكيد ونجاح أعظم . فالانا اذن أكثر واقعية وليست أقل انانية ؛ تدفعها الرغبة فى الاشباع ولكن تردعها العوامل الخارجية . ويقول فرويد أن أول هذه العوامل الرادعة هى سلطة الوالدين التى تتمثل فى العقاب والثواب اللذين تستجيب لهما الانا أو الـ (Ego) العائدة للطفل بالامتناع عن عمل معين رغم أن فيه اشباعا لغريزة أو أخرى من غرائز الطفل والقيام بعمل آخر رغم أن ذلك العمل لا يعد بأى مردود اشباعى(١٠) .

وفى المرحلة الثالثة من مراحل تطور النفس يتكون ما يسمى بالانا العليا « THE SUPER EGO » حين يتم استيعاب أو استدخال « INTERNALIZE » القيود الخارجية من خارج الـ PSYCFE الى داخله « حيث تأخذ الانا العليا مكان السلطة الأبوية وتقوم بمراقبة وتوجيه وتهديد الانا بنفس الطريقة التى تعامل بها الأبوان مع الطفل » وأساس العملية هى مايسمى «بمطابقةانهوية» IDENTIFICATION أو كما عرفها فرويد نفسه « استيعاب أو تمثل الانا EGO لـ (أنا) أخرى خارجة عنها.وكنتيجة لهذا التمثل تتصرف الانا الاولى كالثانية من بعض النواحى تقلدها وتأخذها فى ذاتها »(١١). وبتكوين الانا العليا تكتمل عناصر النفس أو PSYCHE والأساس هو الانا EGO الذى يخدم ثلاثة سادة هى الـ ID والعالم الخارجى و SUPER EGO

التطبيقات التاريخية لنظرية فرويد :

حملت نظرية فرويد منذ ظهورها فى بداية هذا القرن احساسا قويا بالزمن وبفكرة التطور ، ولا يخفى على الاذهان تاثر فرويد الشديد بداروين . ولقد اعطى هذان البعدان لنظرية فرويد امكانيات واضحة لاستخدامها فى استخراج انساق معينة من المعطيات التاريخية (الأوربية بصورة خاصة) أو العالمية . لقد كان فرويد نفسه أول من تطرق لذلك

فى كتابه (محاضرات حول علم التحليل النفسى)٠ اذ نجد امكانية واضحة لأن تكون فى نظريته عن تطور النفس بذور نظرية أوسع لتفسير التطور الانسانى الحضارى بصورة عامة٠وتكفى المقارنة بين وضع الـ (هو) أو ID وحالة التحرر الأولية للقبائل البدائية عندما يصف فرويد الـ (هو) بقوله :

« ان القوانين المنطقية للافكار لا تنطبق على الـ (هو) ولا يوجد فى الـ (هو) ما يوحى باعتراف بعامل الوقت ٠ ولا تعديل فى العملية الفكرية بسبب مرور الوقت ٠ فعوامل التمنى التى لم تتجاوز الـ (هو) والانطباعات التى رسختها فى الـ (هو) عوامل القهر الخارجية شيئان خالدان اذ بعد مرور عقود من الزمن يفعل العاملان التمنى والمنع الناتج من القهر وكانهما قد حدثا للتو »(١٢) ٠

انهما غير قابلين لفقدان فاعليتهما الا باخراجهما للوعى والتحليل القادر على ارجاعهما الى مكانهما فى الماضى السحيق ، عند ذلك يفقد التمنى والقهر فاعليتهما٠الانا فى الواقع لا يعرف حكما قائما على القيم، ليس لديه خير وشر أو أخلاقية MORAL واقتصاده مرتبط ارتباطا مباشرا بمبدأ الاشباع الذى يسيطر على كل فاعلياته ٠

هذه الحالة بالطبع سوف تتعرض للتغيير بنفس أسلوب تغيير السايكى ، وهو الاتصال بالعالم الخارجى ثم استيعاب الأنا العليا ٠ وعملية الاستيعاب هذه فتحت أمام فرويد نفسه ثم تلاميذه واتباعه فيما بعد بابا واسعا لتوجيه الدراسات التاريخية والتاثير عليها ٠ وهنا أيضا نجد أولى المحاولات على يد فرويد نفسه ٠ اذ ان قوله بأن EGO الفرد تقوم بتمثل EGO أخرى واستيعابها ومن ثم التصرف وفق أوامر ونواهى ذلك الـ EGO يفتح امكانية استيعاب مجموعة الأفراد كبرت أو صغرت لنفس الـ EGO وبالتالى تصرف هذه المجموعة وفقا لأوامر ونواهى هذه الـ EGO نفسها ٠ أو كما يقول فرويد : « أن الأنا العليا تمثل فى النهاية الروادع الأخلاقية وهى تعود لتاثير الآباء والمعلمين وغيرهم ٠ ولكن هؤلاء الآباء والمعلمين ومن فى حكمهم يتبعون الأنا العليا

العائدة لهم THEIR SUPER EGO عندما يخلقون تلك الأنا عند الأطفال . اذن فان الأنا العليا للأطفال لا تتكون على شاكلة الآباء بل على شاكلة الأنا العليا للآباء وبكل ما تحمله تلك الأنا العليا من أوامر ونواهى وأحكام قاومت عوامل مرور الزمن وانتقلت من جيل الى جيل »(١٣) .
وفى اشارة واضحة للفكر الماركسى يتابع فـرويد فيقول أن من الأرجح أن تكون الاراء المادية فى التاريخ على خطأ عندما تقلل من أهمية هـــذا العامل . انهم ينحونها جانبا بقولهم ان الأيديولوجيا ليست سوى البنية الفوقية أو افرازا للظروف الاقتصادية المعاصرة . وقد يكون هذا الكلام حقيقة ولكنه ليس كل الحقيقة . « ان الجنس البشرى لا يعيش فى حاضره فقط ، أن الماضى تراث العرق أو الجنس RACE وتراث الشعب يبقى حيا فى ايديولوجيات وفى الذات العليا « SUPER EGO للأفراد وهى لا تتأثر بالحاضر وتغيـــراته الا بصـــورة بطيئة . وما بقيت هـــذه الايديولوجيات فاعلة فى الذات العليا للأفراد فانها تلعب دورا قويا فى الحياة الانسانية بغض النظر عن الظروف الاقتصادية »(١٤) .

ومن أهم العناصر الايديولوجية التى استحوذت على اهتمام فرويد وأتباعه فيما بعد كانت قضية ظهور وتطور ايديولوجية الدين وأثرها فى بداية التطور الحضارى للانسان . وفى سلســلة من البحـــوث أهمها WELTANSCHAUUNG (١٥) والطوطمية والتحـريم(١٦) وموسى والتوحيد(١٧) ، ابرز فرويد العلاقة بين نشوء الأديان والتطور النفسى للفرد من ناحية والعـــلاقة بين الدين كـــرؤية شـــاملة أو كونية WELTANSCHAUUNG وتكوين الأنا العليا أو SUPER EGO من ناحية أخرى .

يقول فرويد ان حاجة الانسان الى رؤية كونية شـــاملة هى حاجة انسانية ازلية ولقد عرف الانسان مجموعة من هذه الرؤى أهمها الرؤى الدينية ، والفلسفية ، والوضعية ، ثم العملية(١٨) . ولكن انجح هذه الرؤى وأقربها اشباعا لحاجة الانســـان هى الرؤية الدينية لأنهـــا تلبى حاجات ثلاث :

فهى أولا تشفى عطش الانسان المستمر للمعرفة ، ففى الدين اجابة

جاهزة لكل أسئلة الانسان عن ماضـــيه وحاضره ومستقبله • وهى ثانيا تسكن روح الانسان وتعطيه الطمأنينة من مخاوف هذه الحياة ومخاطرها فهى تعطيه الراحة فى الأوقات العصبية وتطمئنه الى حسن الحال والراحة فى نهاية الطريق وهى ثالثا توجه الانسان وتعطيه معالم الطريق وتزوده بالأوامر والنواهى والحـدود • ويرى فرويد تطابقا واضحا بين وظائف الدين ووظائف الأنا العليا أو SUPER EGO كما يجد كذلك تطابقا آخر بين الرموز الدينية المختلفة وشخصية الوالدين • وبعد تجميع العديد من المعطيات حول الديانات القديمة والحديثة وأساليب التربية يخلص الى القول بأن نفس الأب الذى منح الطفل الحياة وحماه من المخاطر هو الذى علمه ما يجب أن يعمل وما لا يجب عمله ودربه كيف يكبح غرائزه الداخلية وجعله يفهم المطلوب منه تجاه والديه واخوانه وأخواته ان أراد أن يصبح عضوا مقبولا فى أسرته ومجتمعه ، كل ذلك فى اطار نظام من المكافأة أو العقوبة(١٩) • ان كافة هذه العلاقات ادخلها الانسان فى ديانته دون تغيير بل ان فحص الديانات القديمة تعطى صورة واضحة للعلاقة الحميمة بين صورة الالهة والوالد أو السلطة الأسرية •

فالاله هو الأب وهو مانح الطعام وهو المعاقب وهو أيضا المثيب • انه كذلك ليس بالصورة الكاملة فالأساطير الدينية القـــديمة ، معظمها لا تعطى الاله الأب كل الفضل فى الخلق فهناك الاله الأم وهناك الشياطين والأرواح ، ومحدودية قدرة الاله الأب بل نواقصه وعيوبه • وقدرة الانسان فى التأثير عليه اما بصورة مباشرة عن طريق الارضـــاء والاستعطاف أو بالاستعانة بقدرات أخرى كالسحر والأرواح والكلمة •

التحليل النفسى وعلم التاريخ :

قام فرويد نفسه بأول محاولة لاستخدام نظـــرياته فى التعليـــل التاريخى وذلك فى كتاب اثار ضجة كبيرة فى وقت هو كتاب (الحضارة والســـخط)(٢٠) • والكتاب مزيج مثير من عـــلوم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والتاريخ ، حاول فيه فرويد الربط بين انتقال الانسان من البدائية الى مرحلة الحضارات والتطور النفسى للانسان البـــدائى • أو حسب تعبيره هو « ••••• ان تطور الحضارة هو عملية خاصة يمكـــن

مقارنتها بالنمو والنضوج الطبيعى للفرد»(٢١) والاطار العام لنظريته هو أن الحضارة الانسانية أو بصورة أدق الجماعات الانسانية التى انشأت الحضارات المبكرة لم يكن بوسعها القيام بذلك لو لم تمر تلك المجتمعات بمرحلة الانتقال من الـ (هو) الى الأنا ثم الأنا العليا أى نفس مراحل تطور النفس الانسانية • ويرى فرويد أن أولى مراحل ذلك الانتقال هى تكوين الأسرة التى يرى فرويد أن السبب الأساسى فى تكوينها هو رغبة الرجل فى اشباع حاجته الجنسية وبعد أن كانت العلاقة بين الرجل والمراة عابرة تحولت الى علاقة دائمة عندما تغلب الرجل على الـ (هو) البدائية فيه وتطور الـ (الأنا) المدرك لمحدودية الممكن وامكان الحصول على الاشباع الدائم عن طريق التعامل بواقعية مع العالم الخارجى •

فالأسرة اذن هى أول خطوة فى تطوير الحضارة ولكن المجتمعات التى اسست الحضارات لم تبرز الى الوجود الا بعد أن تجاوز الانسان الأسرة كوحدة أساسية وكون التجمعات الانسانية الأكبر • ولقد تمت هذه الخطوة بصورة مشابهة لتكوين الأنا العليا فى النفس الانسانية • وبهذا الخصوص يناقش فرويد باستفاضة طبيعة ومظاهر وأهداف الشعور الانسانى أو العاطفة الانسانية التى يسميها الانسان الحب (LOVE) ويدعى هنا بأن الأساس فى شعور الانسانبالحب هو الرغبة الجنسية والتى يكون هدفها هو المراة • وطوال العصر البدائى للانسان لم تخرج هذه العاطفة عن حدودها أو أهدافها • ويرى فرويد كذلك أن الرجل فى تلك المرحلة غاب عنه الشعور بالاطمئنان بسبب الاحتمال القائم دائما بفقدانه هدف عاطفته هذه ـ أىالمراة ـ بسبب الوفاة أو الانفصالمما دعاه كفرد أو أفراد الى تحوير نوعية هذه العاطفة وتوسعة أهدافها عن طريق الـ SUBLIMATION أى التسامى • ولكى لا يفجع الانسان بذلك الفقد اتسع نطاق الشعور بالمحبة من المراة بمفردها أو من الهدف الجنسى بعينه الى مجموعة أكبر هى أفراد المجتمع كافة ، وتحولت العاطفة من عاطفة حب جنسى (EROS) الى عاطفة الاخوة والمواطنة وتم تحويل تلك الطاقة التى صرفها الرجل فى حياته البدائية على اشباع حاجته الجنسية الى طاقة اجتماعية تنظيمية سمحت لأول المجتمعات الانسانية بالظهور والتطور • ويلاحظ فرويد هنا علاقة عكسية بين اهتمام الانسان باشباع حاجاته الغريزية بالمتعة واللعب ومدى تطور حضارات الانسان

وانجازاته المدنية . اذ كلما زاد سعى المجتمع الى تسامى وتصعيد وتحويل وتهذيب طاقة الانسان الجنسية من هدفها المحدود ، وكلما عمل المجتمع على خلق الحواجز والحدود والنواهى حول الممارسة الجنسـيـة واشباع الغرائز واللهو بصورة عامة،تسامت غرائز الانسان ودفعته الى الالتصاق بافراد آخرين من المجتمع خارج حدود الجنس الآخر وانصرفت طاقاته الى اعمال البناء والتشييد والخلق الحضارى .

لقد لقيت أفكار فرويد هذهفي البداية معارضة شديدةكما هو متوقع من مصادر عدة ولكنها لقيت كذلك قبولا واسعا من علماء الانثروبولوجيا الذين استخدموا نظرياته وأساليبه التحليلية فى دراساتهم . والملفت للنظر هو التاثير المحدود لنظريات فرويد فى علم التاريخ بالمقارنة بالعلوم الانسانية الأخرى . وكان أن بقى الوضع كذلك ـ حتى الستينات من هذا القرن ـ حين تغير الوضع تغيرا كبيرا بفضل بعض تلاميذه الذين نقلوا اهتمامهم من التاريخ القديم وعصر ما قبل التاريخ الى التاريخ الحديث والمعاصر ، مستخدمين انساق فرويد نفسها وأدواته التحليلية ومفاهيمه . وانتج هذا الاهتمام سيلا غزيرا من الانتاج التاريخى الذى استخدم الانساق الفرويدية لالقاء الضوء على جوانب متعددة من جوانب التاريخ الأوربى والعالمى .

ومن الرواد الأوائل لهذه الدراسات كان اريك اريكسون . واريكسون هذا تلميذ من تلاميذ فرويد ، هاجر للولايات المتحدة لمواصلة عمله وابحاثه وأحرز مكانة مرموقة فى عالمها الاكاديمى . وفى سنة ١٩٥٠ نشر اريكسون كتابه الطفولة والمجتمع(٢١) والذى حاول فيه الربط بين أسلوب وطريقة تطور الـ (EGO) فى أطفال تلك المجتمعات والتطور التاريخى لها . يقول اريكسون فى هذا المجال أن ما يميز الانسانية هو طول الفترة الزمنية لمرحلة الطفولة عند أفرادها ، وما يميز الانسانية المتحضرة هو أن فترة طفولة أفرادها أكثر طولا(٢٢).وفى فترة الطفولة هذه يتكون الانا والانا العليا ، وهى فى رأى اريكسون لا تتكون بنفس الأسلوب أو الطريقة فى كل المجتمعات اذ يختلف الأسلوب من مجتمع الى آخر . ولا يخلو ذلك التكوين من مخاوف لا عقلانية يحملها الأفراد معهم الى حياتهم البالغة . لذا يقوم اريكسون بدراسة أساليب تربية الأطفال فى عدد من المجتمعات

الانسانية محاولا ايضاح العلاقة بين تلك الأساليب والتطور التاريخى لتلك المجتمعات • ففى بحث عن الهنود الحمر من شعب السيوكس SIOUX يربط اريكسون بين أسلوب تعامل الأمهات الصـــارم مع أطفالهن وحالة الخنوع واللامبالاة التى تميز تلك القبائل(٢٤) • وفى بحث آخر يدرس اريكسون دور الأب والأم فى الأسرة الأمريكية فى الفترة بين سنوات الحرب الأهلية والانطلاقة الصناعية ويخلص الى القـــول بأن طغيان دور الأم وتراجع موقع الاب فى تلك الأسرة قد أدى الى تقهقر الفردية لدى الشعب الأمريكى وخلق قناع جماعى من الفردية يخفى حقيقة ذوبان الفـــروق الفردية(٢٥) • وفى بحث من أهم بحوث الكتاب وأكثرها اثارة للجدل تتبع هذا العالم بعض خصائص تربية الأطفال فى المانيا وظهور الفـكر النازى(٢٦)وكانت أحدى أهم خلاصة أبحاثه أن اهتمام الألمان الغير سوى بانضباط الأطفال فى وقت مبكر خصوصا فى بعض القضـــايا الحيـوية كالتحكم فى البول والغائط وطغيان صورة الأب جعل الشـبان الالمان على استعداد لقبول فكرة الفوهرر والالتزام بتنظيم يمحى صورة الفرد ويمنع انفراديته ، أى أن النظام النازى كان امتدادا طبيعيا لحيـــاة الأفـــراد وأسلوب تكوين السايكى لديهم •

وكان لبحوث اريكسون هذه أثر واسع فى أوساط المؤرخين الأمريكيين الذين اثارتهم الامكانيات الجديدة التى قد تتيحها أســـاليب فـــرويد ونظرياته • وكان لاريكسون فضل استقطاب عدد من هؤلاء المهتمين فى مجموعة ذات طابع بعيد عن الرسميات والشكليات اطلقت على نفســها اسهم مجموعة WELLFLEET • ولقد ضمت هذه المجموعة عددا من العاملين فى البحث التاريخى وعلم النفس والدراسات الأدبية وتناولت بحوثهم مواضيع عديدة تراوحت بين تاريخ الهنود الحمر وغاندى والمانيا النازية وأوضاع اليهود فى أوربا ولكن قد تكون أهم انتاجات تلك المجموعة التى نشطت فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات هى البحوث النظرية التى حاول فيها بعض أفراد المجموعة ارساء القواعد النظرية لاستخدام فكر فرويد فى البحث التاريخى(٢٧) •

وكان أن تحولت هذه البداية المتواضعة الى تيار مؤثر تغلغل فى العديد من مراكز الدراســات التاريخية المهمة فى الولايات المتحدة • ولقد

انتج هذا التيار مجموعة من الابحاث فى غاية الجدة والطرافة والذكاء حاولت اما القاء الضوء على بعض جوانب التاريخ الامريكى المبهمة وغير الواضحة أو القاء أسئلة جديدة حول ذلك التاريخ . ويعتقد أصحاب هذا التيار أن المدرسة الفرويدية هى أكثر المدارس مناسبة لدراسة بعض جوانب التاريخ الأمريكى. فهؤلاء المؤرخون لا يشفى غليلهم التفسير المادىلاحداث الاستعمار الانجليزى والثورة الأمريكية والصراع بين البيض والهنود الحمر والحرب الأهلية . هؤلاء المؤرخون حسب تعبير احدهم يعلمون أن الانسان لا يعيش ويتصرف بدوافع المصلحة وحدها ولا يكفى القول أن الأحداث التاريخية السابقة ينحصر تفسيرها الوحيد فى الصراع على الأرض والموارد الاقتصادية . والمؤرخ يواجه فى كل لفتة من لفتاته عوامل تأثير العادات والتقاليد ، الولاء وروح التعصب ، حرارة الايمان والروح الانتحارية(٢٨) . ولا يمكن قياس هذه القوى أو تفسيرها أو دراسة تفاعلها مع الاحداث الا بالعودة لعلم التحليل النفسى . ومن هذا المنطلق نجد أحد هؤلاء المؤرخين ، ميكل روجن فى كتابه (آباء وأبناء)(٢٩) يسأل سؤالا مهما يتعلق بأسباب اشتداد الصراع بين البيض والهنود الحمر فى السنوات السابقة على الحرب الأهلية وهى سنوات لم يكن البيض فيها بحاجة الى أراضى الهنود . ويرجع روجن أسباب الصراع فى تلك الفترة الى التطور النفسى للأمة الأمريكية التى ربطت بصور لا واعية أو ارادية بين طفولتها ووجود الهنود الحمر . ويستخدم روجن كما كبيرا من المصادر الأدبية المختلفة فى محاولة لاثبات أن الأمريكيين فى أيام جاكسون كانوا فى الواقع يحاولون تدمير طفولتهم عندما كانوا يدمرون الهنود الحمر .

وتناول آخرون بالبحث والتحليل عددا من شخصيات التاريخ الأمريكى المثيرة للجدل . ففى بحث مطول حاول جوزيف بيرنز عن طريق فحص الحياة الخاصة لهنرى ادامز تعليل أسباب الصراعات المتعددة التى خاضها هذا الثورى البارز والسياسى المهم مع معاصريه(٣٠) . وفى محاولة لفهم دوافع ودور ويلسون ، الاكاديمى الذى أصبح رئيسا للولايات المتحدة فى الحرب العالمية الأولى ، قام الكسندر جورج وجولييت جورج بدراسة وتحليل كم كبير ومتنوع من المصادر والوثائق الخاصة بهذا الرجل

فى محاولة تحليل نفسية ويلسون وتفسير الاضطراب الكبير فى حياته العملية وأسباب دفعه للولايات المتحدة الى حلبة السياسة العالمية فى وقت لم تكن مستعدة فيه لذلك(٣١) ٠

ولكن هذه المحاولات كافة تقصر عن اللحاق بتيار فرنسى ارسى دعائمه شارلز فوكو منذ نهاية الستينات ٠ وشارلز فوكو هذا طبيب تخلى عن دراسة الطب ليتحول الى دراسة التاريخ وتدريسه فى أشهر كلية فى فرنسا « COLLEGE DE FRANCE » ٠ وفى سلسلة من البحوث والكتب والمقالات قدم فوكو للفكر الأوربى اطروحات جديدة لتفسير تطور أوربا التاريخى تركت اثرا عميقا على مختلف العلوم الاجتماعية ٠

وتاتى أهمية اطروحات فوكو من طريقة معالجته للقضايا الأساسية فى التاريخ الأوربى الحديث من طبيعة الأدلة التى يستخدمها ٠ اذ نجد ايمان فوكو بنظرية فرويد ومعرفته الوثيقة بتطبيقاتها واستخدامه لانساقها يجعله يطرح قضايا التاريخ الأوربى طرحا جديدا فى غاية الطرافة والابتكار مع التزامه التام بتلك الانساق ٠ فهو يؤمن ايمانا مطلقا بنظرية تطور السايكى التى طرحها فرويد ويخرج بها من اطارها الفردى الى اطار جماعى واسع يشمل أوربا كلها ٠ فالاد أو الـ (هو) والايجو أو الأنا هو حال أوربا فى العصور الوسطى ٠ وما نقلة أوربا من العصور الوسطى الى العصر الحديث الا تكوين الأنا العليا أو SUPER EGO ان تاريخ أوربا الحديث هو تاريخ انتصار البرجوازية وما تبعه من انتصار الدولة المركزية الحديثة وأجهزتها وانتصار البيروقراطية التى قيدت الفرد الأوربى وقننته وحولته من عفويته الأولى الى جزء من آلة دقيقة محكمة النظام والقيود ٠ فالايجو اذن هو المجتمع الأوربى ، اما ثلاثى الدولة والبرجوازية والبيروقراطية فهى عناصر السوبر ايجو التى كبحت ولا تزال تكبح الفرد والمجتمع الأوربى ٠

واذا كانت وحدة التحليل الأساسية فى النظرية الماركسية هى الانتاج ووسائل الانتاج أو أساليب الانتاج فان وحدة التحليل الأساسية لدى فوكو هى السلطة أو القوة POUVOIR باشكالها المختلفة ومظاهرها

ومراكزها وكافة العلاقات الاجتماعيه والسياسية والفكرية والاقتصادية ماهى فى النهاية سوى علاقات قوة.وكافة المؤسسات الفكرية والاجتماعية كالبحث العلمى والزواج والأسرة ماهى الا نقاط مظاهر القوة وأماكن لمارستها . أو كما عبر عن ذلك فى كتابه تاريخ الجنس أو تاريخ العلاقات الجنسية HISTOIRE DE SEXUALITE وعند تحليله للاهتمام العلمى والاجتماعى والحكومى بقضايا الجنس فى نهاية القرن التاسع عشر .

ان الكشف الطبى والفحص النفسى والتقرير البيداغوغى والقيود التى تفرضها العائلة تبدو لأول وهلة « فى تلك الفترة » وكأنها تهدف الى رفض كل أنواع العلاقات الجنسية الغير سوية أو التى لا تقود الى التكاثر .ولكن الحقيقة أنها كلها تعملكأداة ذات غرضين:اللذةوالقوة،وهى اللذة التى تأتى من ممارسة قوة تسأل وتراقب وتبحث وتتجسس وتحسس وتظهر الى الضوء ، واللذة التى تأتى من ناحية ثانية من القدرة على الهروب من هذه القوة أو خداعها . أما القوة فهى التى تتمتع بقدرتها على ملاحقة اللذة تقابلها قوة تؤكد نفسها بالاستلذاذ بالمباهاة والمقاومة أو التصرف الفاضح . وقد شارك فى هذا الصراع الدائم بين اللذة والقوة : الآباء والأبناء ، الكبار والمراهقون، المعلمون والطلاب، أطباء ومرضاهم، الأطباء النفسيون وذوو السلوك الغير سوى »(٣٢) .

وبهذا النمط من التحليل ليس بالمستغرب أن تغيب عن أدلة فوكو أو مجال بحثه الانماط العادية من ميادين البحث ومجالاته كالسياسة أو الطبقة أو الاقتصاد أو ملفات الشركات والوزارات والدوائر الحكومية أو المؤسسات الاقتصادية أو السياسية أو غيرها من ميادين البحث المعتادة .

ان ميدان بحث فوكو الأساسى هو المؤسسات التى تتعامل مع ما يسميه بالعناصر الهامشية أو العناصر غير السوية . ففى بحث رائع بعنوان « الحضارة والجنون »(٣٣) يتتبع فوكو تعامل أوربا مع الجنون والمجانين منذ ايرازموس وحتى نهاية القرن التاسع عشر ليثبت بوضوح كيف تدرجت تلك المعاملة من التسامح الى محاولة ارغام المجنون على التصرف السوى بالقسوة والقوة البدنية ، ثم الى استخدام الضغوط

النفسية لجعل المجنون ذاته يرغم نفسه على السلوك السوى(٣٤) وفى وصف رائع لممارسات مستشفيات المجانين الانجليزية فى بداية ظهورها وكيفكانت تستخدمفيها أكثر الأساليبشيطانية وقسوة لارغامالمجنون على الالتزام بالهدوء والنظام ثم تطور تلك الأساليب ونجاحها فى ارغـــام المجنون على اجبار نفسه ، بدون أى أساليب قسر خارجية، على التصرف العاقل • وفى بحث آخر يتبع فوكو تعامل أوربا مع المجرمين والخارجين على القانون(٣٥) ليخلص الى نفس النتيجة، وهى التطور من التسامح الى القسوة البدنية المفرطة ثم فرض القيود من الداخل • كل ذلك بتزامن وثيق مع تحول أوربا من النظام الاقطاعى والحكم المحدود الى التسلط البرجوازى وقيود الدولة الحديثة ـ فالعناصر الغير سوية تلعب من وجهة نظر فوكو دور الأنا المتطرف الذى يخضعه السوبر ايجو لاستيعابه • ان تاريخ أوربا عند فوكو هو تاريخ اســتيعاب الأنا العليا الأوربية ، الأنا العليا البرجوازية •

ولقد وسع فوكو فيما بعد دائرة بحثه لتشمل مجالين من مجالات البحث فى محاولة لتأكيد وجهة نظره • المجال الأول هو الانتولوجى أو علم المعرفة وذلك فى كتابه « الكلمات والاشـــياء »(٣٦) • ويناقش فى هذا الكتاب مراحل بروز العلم والفن الحديث وتفريعاتهما ليؤكد فى النهاية أن الهدف النهائى لذلك التطور هو فرض القوة والسلطة • ولقد كانت هذه الفكرة هى منطلق ادوارد سعيد فى كتابه الاستشراق والتى ربط فيها بين ظهور علم الاستشراق ومحاولة الغرب ادخال الشرق فى حيز المفهوم وبالتالى حيز السيطرة(٣٧) •

اما المجال الثانى فهو كتابه عن تاريخ الجنس أو العلاقات الجنسية وهو كتاب ضخم تتبع تطور نظرة أوربا للجنس ولأنواع العلاقات الجنسية منذ العصور الوسطى وحتى الوقت الحاضر فى محاولات لابراز مراكز القوة وممارساتها فى المجتمع الأوربى(٣٨) •

الخاتمـــة :

وأخيـراً ...

ما هو التقييم الفعلى لمساهمات فرويد وتلامذته فى علم التاريخ ؟ ان من الصعب تقييم ذلك اذ على الرغم من الانتشار الواسع لميدان بحوثهم الا ان قبول آرائهم لا يزال محصورا فى قلة من العلماء .

ولقد تعرضت محاولات تطبيق النظرية الفرويدية الى الانتقاد من جانبين ، الجانب الأول انصب على معطيات النظرية نفسها التى كانت ولا تزال مثار نقاش وجدل ضمن العاملين فى مجال علم النفس . وكان لمعارضى فرويد فى مجال علم النفس أنصارهم فى علم التاريخ . ولقد تعرض هؤلاء الأنصار بالنقد والتجريح للمؤرخين الذين حاولوا تطبيق النظرية الفرويدية . ومن جانب آخر تعرض مؤرخون آخرون بالنقـــد للتطبيقات الفرويدية بسبب ما وصفوه بالسهولة التى يقفز بها هؤلاء من المقدمات الى النتائج ومحاولتهم تفسير ظواهر واحداث تاريخية شديدة التعقيد بالاعتماد على مصادر قليلة قد لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالحدث التاريخى الا من ناحية التزامن(٣٩) ان التفسير النفسى للتاريخ ليس بالشىء المحدث أو الجديد بل ان محاولات هذا الأسلوب تعود الى أقدم الدراسات التاريخية ابتداء من أرسطو الذى أشار فى كتابه عن الدساتير اليونانية الى العلاقة بين ما أسماه طبيعة سكان المدن اليونانية المختلفة وتطور أنظمتها السياسية المتمثلة بدساتيرها . ولابن خـــلدون كـذلك محاولات فى غاية الأهمية لربط أحداث التاريخ ودوراته بما يعترى نفس الانسان من تطور ابان انتقاله بين مظاهر العيش المختلفة ، ومن البداوة الى الحضارة ومرور الزمن على الحكام وتقادم السلطة الى غير ذلك . كما قام مونسكيو بالقول ان النظام السياسى والاجتماعى لا يبلد وأن أية حضارة ما هى الا انعكاس لنفسية سكانها . وهـــكذا لا يجب اعتبـــار التطبيقات التاريخية لعلم النفس على تلك الدرجة الكبيرة من الشذوذ أو الغرابة التى يصفها بها أعداؤها وهى كذلك ليست بتلك الدرجة من الجدة والابتكار التى يصفها بها أنصارها .

ووفقا لهذا الاعتبار يمكن تقييم مساهمات فرويد وتلامذته على ضوء مساهمتهم فى الجهد العام لدارسى التاريخ من جوانبه المتعددة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ... الخ .

من هذا المنطلق يمكننا القول ان دراسات انصار فرويد لابد من ان تصب فى النهاية فى التيار الهادف الى فهم أفضل وأكثر عمقا لتاريخ الانسان ومؤسساته المختلفة وانجازاته الحضارية المتفاوتة الاهمية . لقد استطاع هؤلاء توسعة دائرة البحث التاريخى لتشمل قضايا لم تكن مطروحة فى السابق كأسلوب تربية الأطفال والعلاقات داخل الأسرة وعلاقة الأسرة بالمجتمع ووضع المرأة . كذلك القت هذه الدراسات الضوء على العديد من المؤسسات التى لم تكن تحظى باهتمام يذكر لدى باحثى التاريخ كالسجون والمستشفيات والعيادات النفسية . وهذا بحد ذاته اضافة ذات أهمية بالغة للدراسات التاريخية وعلم التاريخ تكفى للاهتمام بهذا التيار .

الهـــوامش

(١) نشر فرانسيس بيكون مقالته « الاورجانون الجديد » فى عام ١٦٢٠ وهو بحث عام فى المعرفة وتحليل لاسباب وقوع الاخطاء فى البحث العلمى لكى يحــل محل اورجانون ارسطو ولقد تعارف مؤرخو التاريخ الفكرى الاوربى على اعتبار هذا البحث أول لبنة فى بناء الاسلوب العلمى الاستقرائى الحديث الذى يسود عالمنــا المعاصر • انظر حول الموضوع :

برتراند رسل ، **حكمة الغرب ج ٢ • الفلسفة الحديثة والمعاصرة ترجمة د• فؤاد** زكريا (الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٣) من ٥٨ ـ ٦٦ • وفيها يطرح منهج بيكون واهم انتقاداته •

(٢) MUHSIN MAHDI,
IBN KHALDUN'S PHILOSOPHY OF HISTORY
(CHICAGO : UNIVERSITY OF CHICAGO PRESS, 1971), pp. 288-289.

(٣) ولد ماكس فيبر سنة ١٨٦٤ فى مـــدينة ارفورت بالمانيا وتلقى تعليمه فى جامعاتها وعمل فى سلك القضاء أولا ثم التحق بجامعة فرايبورغ كاستاذ فى سنة ١٨٩٣وقض ى ما تبقى من عمره متنقلا فى جامعات المانيا محاضرا ومؤلفا • ولقــد تحدى فيبر النظرية الماركسية منذ بواكير عمله العلمى • وحاول عن طريق بحوثه فى التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع اثبات بطلان التاريخية المادية التى نادى بها تلاميذ ماركس • ويوجد افضل عرض لافكاره نى كتابه المهم والكبير الحجم (١٤٦٩ صفحة)

MAX WEBER,
ECONOMY AND SOCIETY ED. GUENTHER ROTH AND CLOUS WITTICH, 2 VOLS. (BERKELEY : U.C. PRESS, 1978).

(٤) MAX WEBER,
THE PROTESTANT ETHIC AND THE SPIRIT OF CAPITALISM, (NEW YORK : CHARLES SCRIBNER'S SONS, 1958).

(٥) انظر تعريف فيبر للنماذج المثالية فى :

WEBER,
ECONOMY AND SOCIETY, vol. 1, pp. 18-22.

(٦) تربو كتب ومقالات فرويد عن الستين ترجمت الى معظم اللغات الحية وتوجد قائمة كاملة بانتاجه العلمى والترجمة الانجليزية لذلك الانتاج فى :

SIGMUND FREUD,
NEW INTRODUCTORY LECTURES ON PSYCHOANALYSIS, **TR. AND ED. BY JAMES SERACHERY** (NEW YORK : NORTON AND CO., 1965), pp. 184-190.

(٧) سنعتمد فى هذا المقال عند استعراض نظرية فرويد على الطبعة الاخيرة من كتابه محاضرات فى التحليل النفسى وهو الكتاب الذى ترجمه STRACHEY والمذكور فى الهامش السابق .

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES,** p. 73. (٨)

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES,** p. 75. (٩)

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES,** p. 76. (١٠)

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES,** pp. 62-63. (١١)

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES,** p. 74.

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES,** p. 67. (١٣)

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES,** p. 67. (١٤)

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES,** pp. 158-182. (١٥)

SIGMUND FREUD, **TOTEM AND TABOO** (LONDON, 1950). (١٦)

(١٧)
SIGMUND FREUD, **MOSES AND MONOTHEISM,** (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1967).

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES,** p. 160 (١٨)

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES,** p. 164-19. (١٩)

(٢٠)
SIGMOND FREUD, **CIVILIZATION AND ITS DISCONTENTS** (NEW YORK : NORTON AND CO., 196).

FREUD, **CIVILIZATION,** p. 45. (٢١)

(٢٢) ERIK H. ERIKSON, **CHILDHOOD AND SOCIETY** (NEW YORK : NORTON AND CO., 1950).

(٢٣) كما يوجد للكتاب طبعة أحدث منقحة ومزيدة صدرت من نفس الدار فى سنة ١٩٦٣ .

(٢٤) ERIKSON, **CHILDHOOD**, pp. 133-134.

(٢٥) ERIKSON, **CHILDHOOD**, p. 295.

(٢٦) ERIKSON, **CHILDHOOD**, CH-9 "THE LEGEND OF HITLER'S CHILDHOOD" pp. 326-356.

(٢٧) تم نشر أوراق مجموعة البحث هذه فى :

ROBERT JAY LIFTON, ED., **EXPLORATION IN PSYCHO-HISTORY. THE WELLFLEET PAPERS, EDITED BY ROBERT JAY LIFTON WITH ERIC OLSON AND WITH ESSAYS BY ERIK ERIKSON AND KENNETH KENISTON** (NEW YORK : SIMON AND SCHUSTER, 1974).

ويضم الكتاب أوراق المجموعة منذ أوائل سنوات تشكيلها . حـــول المجموعة نفسها انظر الصفحات pp. 11-19

(٢٨) PETER GAY, **FREUD FOR HISTORIANS** (NEW YORK : OXFORD UNIVERSITY PRESS, 1985), p. 100.

(٢٩) MICHAEL PAUL ROGIN, **FATHER AND CHILDREN, ANDREW JACKSON AND THE SUBJUDICATION OF THE AMERICAN INDIAN**, (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1976).

(٣٠) JOSEPH F. BYRNES. **THE VIRGIN OF CHARTERS : AN INTELLECTUAL AND PSYCHOLOGICAL HISTORY OF THE WORK OF HENRY ADAMS** (NEW YORK : NORTON, 1979).

(٣١)
ALEXANDER L. GEORGE AND JULIETTE L. GEORGE, **WOODROW WILSON AND COLONEL HOUSE : A PERSONALITY STUDY** (NEW YORK : NORTON, 1964).

(٣٢)
MICHEL FOUCOULT, **THE HISTORY OF SEXUALITY** VOL. 1 : **AN INTRODUCTION,** (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1978).

(٣٣)
MICHEL FOUCOULT, **MADNESS AND CIVILIZATION : A HISTORY OF INSANITY IN THE AGE OF REASON,** (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1973).

(٣٤) FOUCOULT, **MADNESS,** p. 247.

(٣٥)
MICHEL FOUCOULT, **DISCIPLINE AND PUNISHMENT, THE BIRTH OF THE PRISON** (NEW YORK : PANTHEON BOOKS, 1977).

(٣٦)
MICHEL FOUCOULT, **THE ORDER OF THINGS AN ARCHAEOLOGY OF THE HUMAN SCIENCES. A TRANSLATION OF LES MOTS ET LES CHOSES** (NEW YORK: VINTAGE BOOKS, 1973).

(٣٧)
EDWARD W. SAID, **ORIENTALISM** (NEW YORK : PANTHEON BOOKS, 1978), pp. 21-24.

(٣٨)
MICHEL FOUCAULT, HISTOIRE DE LA SEXUALITE VOL. 1, **LA VOLONTE DE SAVOIRE** (PARIS : GALLIMARD, 1976). J. VOL. 2 **L'USAGE DES PLAISIRS** VOL. 3 **LA SOCI DE SOI** (PARIS : GALLIMARD, 1984).

(٣٩) حول أهم الانتقادات للتطبيقات التاريخية لفرويد انظر :
DAVID E. STANNARD, **SHRINKING HISTORY : ON FREUD AND THE FAILURE OF PSYCHOHISTORY** (NEW YORK: NORTON AND CO., 1980).

حول العلاقات بين مصر وجنوب الجزيرة العربية في العصر الفرعونى

أ٠د٠ / عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

ربما لا يعبر هذا العنوان تماما عن موضوع البحث لأنه لا توجد ادلة تاريخية أو اثرية على وجود علاقات مباشرة بين مصر وجنوب الجزيرة العربية فى العصر الفرعونى ٠ واقصد بالعلاقات المباشرة الاتصال المباشر بين المصريين القدماء وبين اليمنيين القدماء ، اما بابحار المصريين بسفنهم الى سواحل اليمن ، أو بمجىء اليمنيين القدماء بسفنهم الى موانىء مصر الفرعونية ٠ وقد أوضحت فى بحوث سابقة بالعربية والانجليزية الأدلة التى تنفى هذا الاتصال(١) والخصها فيما يلى :

أولا : تخلو النصوص المصرية التى ترجع للعصر الفرعونى نفسه من الاسم الذى عرفت به الجزيرة العربية فى النصوص القديمة وهو اريبى ARIBI الوارد فى النصوص الآشورية ٠ وأقدم ذكر لهذا الاسم فى النصوص المصرية ورد فى نص ديموطيقى يرجع للعصر البطلمى (٣٢٢ ــ ٣٠ ق٠م٠) أو لعصر الاحتلال الفارسى على أكثر تقدير (٥٢٥ ــ ٣٣٢ ق٠م٠) أى بعد انتهاء العصر الفرعونى ٠

ثانيا : وبالمثل فان كلمة « مصر » وهو الاسم الذى عرفت به فى النصوص الآسيوية ، لم ترد فى نصوص جنوب الجزيرة العربية الا بعد انتهاء العصر الفرعونى وذلك فى نصوص معينة تعاصر فترة الاحتلال الفارسى لمصر(٢) ٠

ثالثا : اقتصر ارتياد المصريين القدماء لسواحل البحر الأحمر على

(*) قسم التاريخ ــ كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية ٠

سواحله الافريقية التى كانوا يطلقون عليها التسمية « بونت » أو « بيا - بونت » ، بمعنى « مناجم (ذهب) بونت » ، ولم يمتد هذا الارتياد فى أى فترة من فترات التاريخ الفرعونى الى سواحله الآسيوية والأدلة على اقتصاره على السواحل الافريقية هى :

(أ) نتائج الحفائر التى توصلت اليها بعثة قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية عام ١٩٧٦ عندما اكتشفت فى منطقة « مرسى جواسيس » على ساحل البحر الأحمر جنوبى ميناء سفاجة بحوالى اثنين وعشرين كيلو متراً ، موقع الميناء الذى كانت تنطلق منه السفن المصرية الى المنطقة التى اطلقت عليها النقوش المكتشفة فى هذا الموقع « بيا - بونت » والتى تبين أنها صحراء العتباى الممتدة على الساحل الشرقى للسودان(٣) . حيث تنتشر مناجم الذهب التى تشير اليها كلمة « بيا » .

(ب) تدل الرسوم التى سجلها المصريون القدماء على آثارهم للحياة الحيوانية فى بلاد بونت هذه على أنها بيئة افريقية ، وأهمها رسم لحيوان الزراف ورد ضمن رسوم بعثة الملكة حتشبسوت الى بونت حيث صورت زرافة وهى ترعى على ورق الشجر ، أى أن هذا الحيوان مثل فى بيئته الأصلية. والمعروف أن الزراف حيوان افريقى بحت ولم يظهر فى آسيا قديما أو حديثا ، وقد أثبت ذلك الباحث الالمانى م. هلسهيمر M. Hilzheimer منذ زمن بعيد(٤) ، وقد أعتمدت على رأيه هذا فى بحوثى السابقة(٥) .

(ج) دون المصريون القدماء على آثارهم ابتداء من عصر الملك تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م.) قوائم بأسماء البلاد والشعوب والمدن والقبائل التى أخضعوها فى المناطق الافريقية والآسيوية ، وقد رتبت قوائم الفرعون تحتمس الثالث ترتيبا جغرافيا من الجنوب الى الشمال ، وتبين من دراسة مكان الاسم « بونت » فى هذه القوائم انه يأتى فى التسلسل بعد اسماء جغرافية من المؤكد انها توجد فى افريقية ولا توجد فى آسيا وهى « كوش » و « واوات » ، فتبدأ هذه القوائم باسم « كوش » وهو اسم النوبة العليا ويندرج تحته ٢٢ اسما جغرافيا

(لمدن أو قبائل) ثم الاسم « واوات » وهو اسم النوبة السفلى ويندرج تحته ٢٤ اسما جغرافيا ، ثم يبدأ الترتيب مرة أخرى من الجنوب مقتربا من ساحل البحر الأحمر فتذكر القوائم الاسم « پونت » ويندرج تحته ٢٤ اسما ، يليه الاسم « مجاى » وهو اسم المنطقة أو القبائل الضاربة فى الصحارى الممتدة فى شرق السودان ويندرج تحته ١٧ اسما ، وأخيرا تأتى منطقة « خاسخت » وتمتد على ساحل مصر حتى خليج جمصة عند مدخل خليج السويس ويندرج تحتها ٢٢ اسما (ويبدو أن المصريين كانوا يعتبرون هذه المنطقة من المناطق المعادية رغم انها تقع فى نطاق خطوط عرض مصر نفسها ربما بسبب سكنى قبائل البدو بها التى كانت دائمة الاغارة على أطراف الوادى الخصيب) .

وهكذا يرتبط الاسم الجغرافى « بونت » بمناطق افـــريقية بحتة ولا يمتد الى مناطق آسيوية.ويستدل من هذا الترتيب على انها كانت تقع فى اقصى جنوب المناطق الأخرى حيث تقع بلاد الصومال .

وفى مقابل هذا التسلسل والوضوح للاسماء الجغرافية الممتدة على الجانب الافريقى للبحر الاحمر ، لم ترد فى هذه القوائم أية اسماء على الجانب الآسيوى لهذا البحر . وكل ما ورد من اسماء آسيوية فى هذه القوائم ينتمى الى بلاد الشام وما يتاخمها ، والى سيناء وما يتصل بها شرقا(٦) .

(د) ورد على لوحـة ترجع لعصر الأسرة السادســة والعشرين الفرعونية نص يربط بين سقوط الأمطار على الجبال المسماة على هذه اللوحة « جبال (أو جبل) بونت » وبين فيضان النيل ، وذلك ينفى أن تكون بلاد بونت هذه فى جنوب الجزيرة العربية لأن من غير المعقول أن تصل الأمطار الى النيل مع وجود فاصل بحرى (البحر الأحمر) بين مصدر هذه الأمطار (اذا كانت بونت فى جنوب الجزيرة العربية) وبين منابع النيل فى افريقيا لأن هذه المياه ستتلاشى بطبيعة الحال فى البحر الأحمر قبل وصولها لافريقيا(٧) .

هذه هى الأدلة على أن التعبير الجغرافى المصرى « بونت » كان

يقتصر على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ولم يمتد الى ساحله الآسيوى وبالتالى فان اتصالات المصريين القدماء المباشرة اقتصرت على الساحل الافريقى لهذا البحر دون ساحله الآسيوى .

ان البحث وراء دوافع المصريين لهـــذه الاتصـالات يؤكد هــذه النتيجة ، فقد ارتاد المصريون القدماء سواحل البحر الأحمر للحصول على نوعين من السلع أولهما « البخور » ذو الأهمية البالغة فى طقوسهم الدينية ، وثانيهما سلع الترف ذات القيمة الكبيرة فى تصوير أبهة الملك ومظهرية السلطان . وهـــذه السلع تتوفر على كلا الجانبين الافريقى والآسيوى للبحر الأحمر ، ولكن الجانب الافريقى كان الأفضل بالنسبة لهم لسببين أولهما أن أشـــجار البخور المعـــروف بـ « الكنـــدر » « Frankincense (المسمى بالعامية « اللبان دكر » والكلمة الانجليزية لاتينية الأصل تعنى « البخور الحر أو النقى ») ، وهو النوع الذى كان يفضله المصريون القدماء . هذا النوع كانت أشجاره تنمو بالقرب من الساحل على الجانب الافريقى للبحر الأحمر فكان يمكنهم الحصـــول عليها مباشرة لنقل زراعتها الى مصر طبقا لما ورد فى نقوش ورسوم بعثة الملكة حتشبسوت الى بونت ، مما كان يوفر الكثير من المصاعب والاخطار التى كانت تواجههم اذا حاولوا الحصول على هذه الاشجار من ساحل اليمن المطل على البحر الأحمر ولا سيما أن هذه الأشجار لم تكن قريبة من الساحل بل كانت فى المناطق الداخلية كما يستفاد من وصف الكتاب الكلاسيكيين(٨) . وكانت المنطقة الوحيدة التى تنمو بها أشجار الكندر قرب الساحل فى جنوب الجزيرة العربية هى المنطقة المعروفة حاليا باسم « ظفار » الواقعة غرب دولة عمان الحالية على البحر العربى فكان على المصريين عبور البحر الأحمر ثم الخروج الى البحر العـــربى والابحار لمسافة تتراوح بين ١٣٠٠ ، ١٥٠٠ كيلو متر من بوغاز باب المندب الى منطقة ظفار هذه (بعد أن يكونوا قد قطعوا المسافة الطويلة من الميناء المصرى فى شمال البحر الأحمر الى بوغاز باب المندب والتى لا تقل عن ١٨٠٠ كيلو متر أيضا) . وهو أمر يبدو مستحيلا .

اما عن سلع الترف من ذهب وعاج وابنوس وريش نعام وغيرها ،

فقد كان الأفضل للمصريين الحصول عليها من الجانب الافريقى للبحر الأحمر حيث موطن انتاج هذه السلع وبالتالى انخفاض أثمانها كثيرا عما يدفعونه فى مقابلها لو حصلوا عليها من جنوب الجزيرة العربية لأن سكانها كانوا يستوردون هذه السلع من خارج بلادهم (من افريقية نفسها ومن الهند) ، وبالتالى تضاف اليها أجور نقلها وحراستها من افريقية الى أسواق جنوب الجزيرة العربية .

يضاف الى هذه العوامل كلها أن ارتياد المصريين لسواحل جنوب الجزيرة العربية كان يعرض سفنهم لاخطار عبور البحر الأحمر الشهير بزوابعه الرعديةوتياراته العنيفة ؛ وخاصة اذا علمنا أنالمصريين استخدموا فى البحر الأحمر نوعا من السفن يمكن أن نسميه السفن « الخيطية » أو « المخيطة » وهى سفن تستخدم الحبال والخيوط فى تثبيت الواحها بدلا من المسامير المعدنية . ولعل السبب فى ذلك هو قدرة هذه السفن على امتصاص الصدمات ضد الشعاب المرجانية التى يشتهر بها البحر الأحمر ، وذلك على عكس السفن ذات المسامير المعدنية التى تكون أكثر قابلية للكسر عند اصطدامها بهذه الشعاب . ولكن فى مقابل هذه الميزة للسفن المخيطة فانها كانت أضعف من السفن ذات المسامير المعدنية أمام العواصف والزوابع التى تعصف بها فى عرض البحر الأحمر اذا حاولت العبور من شاطئه الافريقى الى شاطئه الآسيوى.ولدينا وصف من العصر الاسلامى (الذى استخدم خلاله هذا النوع من السفن فى البحر الأحمر بسبب ميزتها فى امتصاص صدمات الشعاب المرجانية وربما كانت هذه السفن استمرارا للسفن المصرية المخيطة) دونه الرحالة ابن جبير وهو يصف رحلته من عيذاب الى جدة فى احدى هذه السفن التى كانت تسمى فى ذلك العصر « الجلبة » أو « الجلابة » اذ يقول : « وكان نزولنا بجدة حامدين الله عز وجل ، وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عانيناه فى تلك الثمانية أيام طول مقامنا على البحر ، وكانت اهوالا شتى ، عصمنا الله منها بفضله وكرمه ، فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه ، وكثرة شعابه المعترضة فيه ، ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها واقتصامها (انكسارها) المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسى من مراسيه . وربما سنحت (لصقت

بالأرض) الجلبة بأسفلها على شعب من تلك الشـــعاب أثناء تخللها ، فنسمع لها هدا يؤذن باليأس ، فكنا فيها نموت مرارا ونحيا مرارا ٠٠ » (رحلة ابن جبير ص ٥١ ـ ٥٢ ، طبعة بيروت ، عن « تاريخ البحرية المصرية » ، جامعة الاسكندرية ١٩٧٣ ص ٥٦٥) ٠

فاذا كان هذا هو الحال بعد قرون طويلة من العصر الفرعونى لا شك أن صناعة السفن تقدمت خـــلالها ـ رغم بقائها ســـفنا شراعية مخيطة ـ فماذا كان الحال فى العصر الفرعونى ؟ لابد أن السفن فى ذلك العصر كانت أكثر ضعفا من سفن العصر الاسلامى ٠

وازاء ضعف السفن المصرية المخيطة ، واضطرار المصريين القدماء لاستخدامها لميزتها فى الابحار بين الشعاب المرجانية ، يبدو أن المصريين اتبعوا طريقة « المساحلة » أى الابحار فى موازاة الســـاحل الافريقى للبحر الأحمر ابتداء من الساحل المصرى حتى ساحل بلاد بونت وهو الساحل الشمالى الشرقى للصومال وذلك ابتداء من عصر الملكة حتشبسوت، حيث توجد السلع المطلوبة وفى مقدمتها أشجار الكندر ، وهم فى أمان تام اذ يمكنهم كلما استشعروا قرب هبوب العواصف أو اشتداد التيارات البحرية أن يسرعوا بالالتجاء الى الخلجان والشروم الممتدة على طول هذا الساحل فلا تغرقهم هذه العواصف والتيارات ٠

وعلى ذلك ، فمادامت نفس السلع التى يطلبها المصريون القدماء تتوفر على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، ومادام يتوفر لهم ولسفنهم الأمن والأمان اذا أبحروا بحذاء هذا الساحل ، فما الذى يدعوهم لتجاهل كل هذه الظروف المواتية ويجازفون بعبور البحر الأحمر معرضين أنفسهم لاخطاره للحصول على نفس السلع من جنوب الجزيرة العربية ؟

وفى مقابل الادلة القـــوية التى ذكرناها والتى تثبت اتصـــال المصريين المباشر بالساحل الافريقى للبحر الأحمر ، لا يوجد دليل واحد من بين النصوص أو من الرسوم المصرية القديمة يشير الى أى اتصال مباشر لهم بجنوب الجزيرة العربية ٠

ورغم هـــذه الحقائق الواضـــحة ، فان بعض الباحثين ينـادون فى بحوثهم بأن بلاد بونت كانت تقع فى جنـــوب الجزيرة العـــربية أو أن هذه المنطقة (وبالتحديد منطقة « ظفار » فى غرب عمان) هى التى حصلت منها بعثة الملكة حتشبسوت على أشجار البخور ، دون أن يقدموا أى دليل من النصوص أو الرسوم المصرية القديمة التى تؤيد هذا الرأى وانما كان جل اعتمادهم على معـــلومات غير محـــددة أو على تفسيرات لبعض النصوص والرسوم المصرية التى نناقشها فيما يلى :

أولا قرأ بعض الباحثين كلمة «ارم ... المكتوبة فوق صور الزعماء الراكعين أمام الملكة « ار ـ ام ـ مر » وترجمها « الذين يعملون فى البحر » وقال انهم قبائل « المهرة » الذين يسكنون سواحل حضرموت وأن هذه التسمية المصرية لهم تشير الى أرتباطهم بالبحر(٩) .

ونرى أن هذا التفسير قام على أساس غير صحيح لأن هذا الاسم يقرأ « رم » وليس « ار ـ ام ـ مر » باتفاق جميع الباحثين المتخصصين فى هذا المجال(١٠) . وهو اسم شعب افريقى تردد كثيـــرا فى النقوش المصرية وارتبط فى بعض الأحيان بالنوبة والسودان ولم يكن له أى ارتباط بجنوب الجزيرة العربية أو حتى بأى منطقة آسيوية أخرى . ويبدو أن الباحث اقتصر على الاعتماد على رسم الكلمة فى نصوص حتشبسوت فقط حيث وردت بمخصص مسطح مائى ... فقط، ولو رجع الى رسوم الكلمة فى النصوص الأخرى ، حيث وردت حوالى ثلاثين مرة لوجد أنها كتبت بمخصص أرض جبلية ... ايضا(١١) . وقد نشر حديثا بحث مستفيض عن هذا الشعب حدد منطقة انتشـــاره قديما فى شرق السودان(١٢) . ويرجح أنه أحد اسلاف قبائل الجالا التى تسكن فى غرب الصومال أو شرق الحبشة لأن المصريين رسموا أفراده أو زعماءه طبقا للاصطلاح المصرى القديم فى الرسم بطريقة توحى بأن هذا الشعب كان يسكن وراء مناطق البونتيين سكان الصومال . والذى يرجح هـــذا الاستنتاج أيضا ، أن الاسم « جالا » ليس الاسم الوطنى لهذا الشعب

بل هى تسمية الاحباش له ، وان الاسم الوطنى الذى يطلقه هذا الشعب على نفسه فى الوقت الحاضر هو « اروم » أو « اروما » وهو قريب فى نطقه من الاسم المصرى القديم « ارم »(١٣) .

ثانيا : اعتمد بعض الباحثين على بعض القطع الاثرية الصغيرة ذات الطابع المصرى القديم التى وجدت فى اليمن مثل جعران عليه اسم الفرعون امنحتب الثالث وقطعة مربعة من الحجر تحمل اسم الفرعون تحتمس الثالث - اعتمدوا على هذه الآثار الصغيرة فى القول بان المصريين القدماء ربما حملوا هذه الاشياء الى اليمن فى رحلاتهم التجارية(١٤) . ونرى أن هذا افتراض لا يقوم على أساس ، لأن هذه الآثار الصغيرة لا يجب أن تؤخذ دليلا على اتصال المصريين القدماء المباشر ببلاد اليمن لسهولة نقلها بالطرق غير المباشرة أى ليس بواسطة المصريين القدماء أنفسهم ، وانما بواسطة شعب أو شعوب وسيطة أخرى قد يكون من بينهم الفينيقيون الذين كان لهم نشاط ملاحى وتجارى بارز فى البحر الأحمر فضلا عن صلتهم الوثيقة بمصر الفرعونية . وقد برع الفينيقيون فى تقليد الصناعة المصرية ، وربما تكون القطعة المربعة المذكورة التى تحمل اسم الفرعون تحتمس الثالث ، مثالا لهذا التقليد ويتضح ذلك من رسم القرص والهلال عليها متباعدين . ولم يكن هذا هو الأسلوب المصرى الشائع فى رسم القرص (الذى يمثل القمر المكتمل) والهلال وانما كان ذلك شأن الأسلوب اليمنى ، وربما رسمهما الفينيقيون طبقا لهذا الاسلوب ضمانا لرواجه فى أسواق اليمن ، وقد سبق أن تناولت هذا الموضوع فى بحث منشور فى مجلة مؤتمر الدراسات العربية بلندن(١٥) .

ثالثا : ترجم أحد الباحثين ترجمة خاصة عبارة وردت فى نقش من عصر الفرعون امنحتت الثالث وجد فى سيناء لموظف مصرى يدعى « سبك - حتب » ويكنى « بانحسى » وكاتبه المدعو « امون - مس » والنقش كما سبق أن ترجمه الباحثون وهو « يقول (الكاتب امون - مس) لقد تبعت سيدى فى البلاد الآجنبية (أو الجبلية) ونفذت المهمة التى عهد بها الى ، لقد خرجت الى المحيط (حر جسوى - واج ور)

لاستكشاف (سر او سرى) عجائب (بيا يت) بونت للحصـــول على الصموغ العطرية وقد احضرت الامراء الأجانب فى ٠٠ مع جزية بلاد أجنبية (أو جبلية) عديدة ، انظر لقد اتيت أيضا وطرقت بلاد هذه الالهة وأدرت العمل فى استخراج الفيروز »(١٦) ٠

والعبارة التى ترجمها الباحث ترجمة خاصة اختلفت عن ترجمات الباحثين وغيرت من معنى الجملة تعييرا كبيرا تتكون من جـــزئين :

أولهما : « حر جسوى ـ واج ور » ترجمها بمعناها الحرفى اى « على شاطئى البحر » (فى صيغة المثنى) رغم أنهـــا تستخدم فى النصوص المصرية بمعنى « شاطىء البحر » (فى صيغة المفرد) وقد ثبت ذلك من أمثلة أخرى وردت فيها هذه الكلمة واستحال أن يكون معناها على « شاطئى البحر » (فى صيغة المثنى) وقد نبه الى هذه الحقيقة علماء المصريات منذ عهد بعيد(١٧) ٠

وقد افترض الباحث فى ترجمته هذه أن هذا الموظف (امون ـ مس) استقبل الامراء الاجانب على ساحل خليج العقبة(١٨) وحـــدد نقطة هذا اللقاء فى بحث آخر له فى منطقة ايلات(١٩) حيث تســـلم البضاع التى جلبوها أو حصل مكوسها ثم رافق القافلة عبر سيناء حتى مجرى النيل(٢٠ئ) ٠

ونرى أن هذه الاستنتاجات بعيـــدة عن الواقع لانها قامت على ترجمة غير دقيقة لعبـــارة « حرجسوى » ، اذ كيف يقـــوم الموظف المصرى باداء مهمته فى الاشراف على اســـتخراج الفيـــروز من منطقة سيرابيط الخادم فى غرب سيناء (بالقرب من خليج السويس) ثم يتجه الى أقصى شرقها على شاطىء خليج العقبة ليقابل الزعماء الأجانب ثم يصاحبهم الى أقصى الغرب نحو وادى النيل ؟

ثانيهما : كلمة « سر او سرى » ترجمها الباحث بمعنى « يقابل » أو « يتـــرقب وصـــول » وفسر عبـــارة « سرى بيايت نو بونت » تفسيرين أحدهما بأن مهمة الموظف

المصرى صاحب النقش هى مقابلة شيوخ تجارة البخـــور الخارجية وما أتوا به من بضائع من بوينة (بونت)(٢١) ٠

والحقيقة ان كلمة « سر أو سرى » هذه ليس معناها « يقابل » أو ما شابه ذلك ولـــكن معناها « يستكشف » وقـــد توصـــل لهذا المعنى المر ايدل (٢٢) Elmar Edel وفسر الكلمة بأنها تحمل معنى القيام برحلة الى بونت(٢٣) وذلك من دراسته لهذا النقش بالمقارنة مع نقشين اخرين وجدا فى منطقة سيرابيط الخادم بسيناء أيضا ، احدهما وجـــد مهشما وتمكن ايدل من اكماله وقراءته ٠ ويتحدث فيه صاحب النقش عن مهمتين قـــام بهمـــا ، احـــداهما « استكشـــاف عجائب بونت »

أى انه استخدم نفس التعبير الوارد فى نقش بانحسى ــ امون مس » المذكور ، والأخرى استخراج الفيرور فى سيناء(٢٤) وهى نفس المهمة الثانية التى قام بها « امون ــ مس » ٠ والنقش الثانى يتكون من قطعتين كان قد سبق العثور عليهما ونشرت نصوصهما منذ عـــدة سنوات(٢٥) ولكن ظلت قراءتهما مبهمة حتى تمكن المر ايدل من جمعهما وقـــراءة نصوصهما كنص واحد(٢٦) ٠ وأهمية هذا النص انه يذكر رحلة فعلية قام بها صاحب النقش الى بونت اذ جاء فيه « ... الذى سافر خلال جبال بونت ليحضر العجائب لجلالته » ٠ وان الاشارة الى رحلة فعلية لصاحب النقش (الذى وجد فى منطقة سيرابيط الخادم بسـيناء شـــأن النقوش الأخرى) الى بونت بالاضافة الى اقتران كلمـــة « العجائب »

« بيات » بكلمة « احضـــار » (إنت

يدل على أن الجمع بين الرحلة الى بونت لجلب سلعها والرحلة الى سيناء لاستخراج الفيروز ، كان تقليـــدا متبعا وهو ما توصـــل اليه المر ايدل كما ذكرنا ٠

وقد يثار تساؤل عن امكانية قيام شخص واحد بهذه الرحلة المزدوجة رغم التباعد الشديد بين المنطقتين اذ تقع سيناء فى شمال البحر الأحمر بينما تقع بونت أو بالتحديد منطقة أشجار الكندر فى بونت فى أقصى الجنوب - فى شمال شرق الصومال - وهى المنطقة من بونت التى بدأ المصريون يترددون عليها منذ عصر حتشبسوت(٢٧) ولكن اذا لم يكن هدف أصحاب هذه النقوش الحصول على أشجار الكندر والاكتفاء بالحصول على حبات الكندر فقد كان يمكنهم الحصول عليها من أسواقه القريبة نسبيا من مصر مثلما كان الحال فى عصر الدولتين القديمة والوسطى عندما كان المصريون يطلقون التسمية « بونت أو بيا - بونت» على منطقة صحراوية قريبة من مصر هى فى الغالب صحراء العتباى كما تدل على ذلك عبارة حكام الأرض الحمراء أى الصحراء فى نفس «حنو»(٢٨)، وكلمة « بيا - بونت » أى مناجم (ذهب) بونت فى نقوش وادى جواسيس(٢٩) ، وعلى هذا فربما تشير كلمة بونت فى هذه النقوش الثلاثة الى هذه المنطقة الواقعة فى شرق السودان وبذلك يصبح المدى الزمنى بين الرحلتين الى سيناء وبونت أقل بكثير مما لو كانت منطقة أشجار الكندر فى شمال شرق الصومال هى المقصودة بكلمة بونت فى هذه النقوش . وعلى ذلك يمكن لشخص واحد القيام بهاتين الرحلتين .

أما سبب الجمع بين الرحلتين فان المصريين اضطروا لذلك لكى يتمشى الوضع مع الطريقة التى كانوا يتبعونها فى اعداد السفن لهذه الرحلات؛ فقد كانوا يصنعون هذه السفن على شاطىء النيل فى ترسانة قفط كما ورد فى أحد نقوش وادى جواسيس(٣٠) ثم يفككونها وينقلونها على ظهور الرجال والدواب الى شاطىء البحر الأحمر حيث يركبونها فى الميناء الذى يقلعون منه . ولا شك أن هذه العملية كانت تكلفهم كثيرا من المصاريف والجهد والوقت ولا سيما أن عليهم تكرار فك هذه السفن ونقلها الى شاطىء النيل بعد انتهاء مهمتها ، ومن هنا كان عليهم الاستفادة من تشغيل هذه السفن فى البحر الأحمر الى أقصى حد ممكن(٣١) فربما كان الموظف المكلف باداء المهمتين يشرف على نقل هذه السفن للعمال اللازمين لعمليات التعدين ذات المدى الطويل فى مناجم الفيروز بسيناء،

ثم يقوم بالرحلة الى بونت (فى شرق السودان أو بالقرب منه) لجلب منتجاتها وبعد العودة من بونت وتفريغ شحنة السفن فى الميناء المصرى على ساحل صحراء مصر الشرقية ، كان يتوجه بها الى سيناء لنقل العمال وما استخرجوه من فيروز وغيره • وكان الميناء المستخدم هو ميناء مرسى جواسيس كما أثبت الباحثون(٣٢) وكما أثبتنا ذلك فى بحوث سـابقة نظرا لانه الميناء الفرعونى الوحيد على ساحل البحر الأحمر الذى تأكد وجوده بالأدلة الأثرية التى وجدت فى الموقع ذاته(٣٣) • وان الموقع المتوسط لهذا الميناء يلائم تماما هاتين الرحلتين ولا سيما أنه توجد بقايا ميناء مصرى قديم على الساحل الغربى لشبه جزيرة سيناء يشرف على سهل المرخا جنوبى أبى زنيمة حيث يبدأ طريق عبر وادى بابع ووادى سويق يؤدى الى منطقة سيرابط الخادم ويرجع هذا الميـنـاء الى عصر حتشبسوت وتحتمس الثالث(٣٤) وربما كان هذا الميناء يكون مع ميناء مرسى جواسيس نقطتى البداية والنهاية بالنسبة للرحلات بين سـاحل مصر الشرقى وبين ساحل سيناء •

بهذه الطريقة كان يمكن للمصريين الاستفادة من هذه السفن الى أقصى حد ممكن وربما كانت السفن بعد هذه الرحلات الطويلة تصبح فى حالة من البلى لا تصلح معها لفكها واعادتها الى وادى النيل لاستخدامها كسفن نيلية فكانوا يستخدمون أخشابها فى أغراض أخرى كوقود مثلا ، فقد عثرت بعثة قسم التاريخ أثناء حفائرها قرب موقع الميناء الفرعونى فى وادى جواسيس على بقايا أحشـاب بها تعشـيقات مما يدل على استخدامها فى تثبيت بعضها الى بعض طبقا للطريقة المتبعة فى تثبيت ألواح السفن ، وبعض هذه الأخشاب بها آثار حرق وقد تبين من تحليلها انها من خشب الأرز اللبنانى وهو الخشب الذى كان المصريون يصنعون منه سفنهم فى البحر الأحمر(٣٥) •

من كل ما تقدم يتبين أن نقش « بانحسى - امون مس » المذكور يروى أخبار رحلتى الموظف المصرى الى بونت لجلب سلعها والى سيناء لتعدين الفيروز • وقد تأكد ذلك من نقشين آخرين وجدا فى نفس منطقة سيرابيط الخادم بسـيناء ، وعلى ذلك فان ما استخلصـه الباحث من

النقش مما يشير الى اتصالات بين سكان جنــوب الجــزيرة العربية والمصريين فى شمال الجزيرة العــربية ليس له ســند من النصــوص أو الآثار .

رابعا : يقول أحد الباحثين أن التعبير « تا ـ نتر »بمعنى « أرض الاله » فى نصوص بعثة حتشبسوت يشمل الساحل الافريقى للبحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية ، بينما ينحصر التعبير الجغرافى « بونت » على الساحل الافريقى للبحر الأحمر فى عروض اريتريا والصومال(٣٦) . وتمشيا مع رأيه هذا قال ان المصريين الذين أوفدتهم الملكة حتشبسوت الى بونت كان هدفهم الحصول على أشجار الكـندر Frankincense trees من منطقة « ظفار » فى جنوب الجــزيرة العربية (التى ينطبق عليها التسمية « أرض الاله » فى رأيه) حيث يوجد أجود أنواع الكندر المعروف علميا باســم Boswellia Carteri, or B. Sacra قرب الساحل ، وهو أجود من الكندر الصومالى الذى لا يوجد قرب ساحل صوماليا (شمال الصومال) ولكن فى المناطق الداخلية (حرفيا : مناطق الظهير) على ارتفاع ٣٦٠٠ متر(٣٧) . ويسترسل فى هذه الاستنتاجات قائلا ان هؤلاء البونتيين خافوا من أن يؤدى وصول رجال بعثة حتشبسوت الى منطقة نمو أشجار الكندر فى ظفار الى ضياع مكاسبهم كوسطاء فى تجارة بخور ظفار لأنهم كانوا أصلا من سكان جنوب الجــزيرة العربية الذين هاجروا الى الساحل الافريقى للبحر الأحمر واستقروا على ساحل صوماليا واشتغلوا بهذه الوساطة التجارية ، فحاولوا اثناء المصريين عن الوصول الى منطقة ظفار بأن صوروا لهم الصعوبات التى سيلاقونها اذا توجهوا بأنفسهم الى هذه المنطقة ووعدوهم باحضار فسائل من أشجار بخور ظفار وفعلا أحضروها لهم(٣٨) .

هذا هو مجمل رأى الباحث فى هذا الموضوع وقد نشر ملخصا له ضمن بحث آخر بالعربية(٣٩) وسوف نوضح فى الصفحات التالية أن هذه الاستنتاجات أسست على معلومات غير دقيقة .

ان محور رأى الباحث بأن المصريين حصلوا عن طريق الوسطاء المستقرين فى بونت الافريقية (شمال الصومال) على أشجار الكندر

التى استوردوها لهم من منطقة « ظفار » فى جنوب الجزيرة العربية - محور هذا الرأى هو قوله أن هذه الاشجار لا تنمو فى المناطق الساحلية من شمال الصومال بل فى المناطق الداخلية (حرفيا : مناطق الظهير) hinterland وقد نسب هذه المعلومة الى الباحث النباتى « هبر Nigel Hepper » وفيما يلى نص هذه المعلومة فى مقال الباحث :

"...according to Hepper (p. 69-70), unlike Myrrh, trees which grew in the coastal region of Somalia, Frankincense trees grew in the hinterland at an altitude of up to 3600 feet" (40)

فالباحث هنا ينسب الى « هبر » معلومة مؤداها أن أشجار الكندر Frankincense trees (وهى التى جـاء المصريون فى طلبها) لا تنمو على الساحل الشمالى للصومال ، بل فى الداخل وعلى ارتفاع ٣٦٠٠ قدم .

غير اننا اذا رجعنا الى الصـفحة التى ذكرها الباحث فى مقال « هبر » نجده يذكر معلومة مخالفة تماما لما نسبه اليه الباحث وهى :

"Boswellia Frereana grows in the coastal region of Somalia, unlike Boswellia Carteri which inhabits the hinterland at an altitude of up to 3600 feet. It is most likely to be B. Frereana that would have been encountered if Punt is identifiable as Somalia" (41)

أى أن « هبر » يقرر أن أشجار الكندر تنمو فى المناطق الساحلية فى شمال الصومال على عكس ما نسبه اليه الباحث ، بل والأكثر من ذلك يقول « هبر » أن هذه الاشجار فى أغلب الاحتمالات هى التى حصلت عليها بعثة حتشبسوت اذا كانت بونت تقع فى شمال الصومال .

ويلاحظ أن الباحث اختزل هذه المعلومة فحذف أولها وآخرها وأخذ الجزء الأوسط منها الذى جاء فيه أن أشجار الكندر تنمو فى الداخل على ارتفاع ٣٦٠٠ قدم . ولم يذكر الباحث اسم نوع الكندر بينما ذكر « هبر » اسم هذا النوع وهو Boswellia Carteri وقارن بينه وبين النوع الذى ينمو على الساحل وهو Boswellia Frereana كما يلى :

"...Boswellia Frereana yields first quality Frankincense and the resin from Boswellia Carteri, although widely used, is inferior to it" (42)

أى أن « هبر » يخلص من هذه المقارنة بأن نوع B. Frereana أى النوع الذى ينمو على الساحل الشمالى للصومال ينتج أجود أنواع الكندر وان النوع B. Carteri الذى ينمو فى المناطق الداخلية من شمال الصومال ، أقل جودة منه رغم انه أوسع استعمالا .

وقد اغفل الباحث هذه المعلومة فى مقال « هبر » التى تحسم المشكلة لأنها توضح أن الأفضل للمصريين الحصول على كندر الصومال أى من نفس المنطقة التى وصلوا اليها فى شمال الصومال والتى صوروا معالمها على جدران معبد الملكة حتشبسوت ، بل ان الباحث قدم معلومة أخرى مخالفة تماما لها نسبها الى ثلاثة مصادر من بينها مقال « هبر » هذا كما أثبتها الباحث بنصها :

"...while **Frankincense trees** have not been found outside the coastal mountain range of Dhofâr and eastern Hadramaut and [in lesser quantity and of inferior quality in the mountains of northern Somalia]" (43)

فالمعلومة التى بين حاصرتين لا وجود لها أو لما يشبهها فى صفحة ٦٦ من مقال « هبر » كما أشار الباحث أو حتى فى مقال « هبر » كله ، ولا يمكن أن توجد فى هذا المقال بطبيعة الحال لأنها تتعارض تماما مع ما أورده « هبر » فى مقاله كما أثبتنا فى الفقرة السابقة ، اذ كيف يذكر أن أشجار الكندر توجد باعداد أقل ومن نوع أقل جودة فى جبال شمال الصومال بينما يذكر أن الكندر الصومالى المسمى B. Frereana الذى تنمو أشجاه على سواحل شمال الصومال طبقا لرأيه المذكور أجود من النوع المسمى B. Carteri الذى ينمو فى المناطق الداخلية من شمال الصومال على ارتفاع ٣٦٠٠ قدم وهذا النوع الأخير يعتبره الباحث أحد النوعين المتازين اللذين ينموان فى ظفار كما يلى :

"...the land of Dhofar, the main area producing Frankincense (Boswellia Carteri, or B. Sacra)"(")

من هذه المطابقة بين ما جاء فى مقال الباحث وما فى مقال « هبر » (الذى أعتمد عليه الباحث اعتمادا أساسيا فى المعلومات التى أوردها عن الكندر وأشجاره) يتبين ما يلى :

١ ـ أن أشجار الكندر المسماة B. Frereana تدر أجود أنواعه وتنمو فى المناطق الساحلية من شمال الصومال طبقا لما جاء فى مقال « هبر » ولم يذكر الباحث شيئا عنها على الاطلاق .

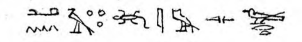
٢ ـ أن أشجار B. Carteri التى يقول الباحث أنها تنمو فى المناطق الساحلية فى ظفار وتنتج أجود أنواع الكندر ، هـــذه الأشجار ـ طبقا لبحوث « هبر » ـ تنمو أيضا فى المناطق الداخلية من شمال الصومال ولكن الكندر الذى تنتجه أقل جـــودة من كنـدر أشـــجار B. Frereana .

وعلى ذلك فان المصريين كان يمكنهم الحصول على أشجار الكندر التى جاءوا فى طلبها من المناطق الساحلية فى شمال الصومال ولم يكن هناك ما يدعوهم الى محاولة الابحار الى ظفار فى جنـــوب الجزيرة العربية ، وبالتالى لا يوجد ما يدعو البونتيين المستقرين فى شـــمال الصومال (بونت) الى تصـــوير مخاطر الرحـــلة الى ظفار للمصريين واقتناعهم باحضار فسائل من أشجار ظفار لهم مثلما ذكر الباحث(٤٥) .

ورغم ما أوردناه من نتائج توضح بجلاء أن المصريين حصلوا على أشجار الكندر من نفس منطقة بونت التى ارتادوها ورسموا معالمها على جدران معبد الملكة حتشبسوت(٤٦) ، فان الادلة من هذه الرسوم ومن النصوص المصاحبة لها ، تؤكد هذه النتائج كما يلى :

١ ـ صور المصريون هذه الأشجار قبل قطعها أى وهى ثابتة فى الأرض وهم يجمعون عصارة الكندر منها فى سلال(٤٧) وبجوار احدى

هذه الأشجار نص هيروغليفى يصف الشجرة على لسان أحد المصريين الذين يجمعون العصارة :



وترجمة هذه الجملة هى : « ان بداخلها كندر غزير جدا »(٤٨) .

بل أكثر من ذلك فقد دون نص هيروغليفى آخر فى نفس المنظر جاءت فيه العبارة الصريحة التالية :

وترجمتها كما يلى : « اقتلاع أشجار الكندر »(٤٩) .

كل ذلك يوضح بجلاء أن أشجار الكندر التى حصلت بعثة حتشبسوت عليها من بونت كما جاء فى النصوص ، اقتلعتها من المنطقة التى رست عندها سفن هذه البعثة اى من شمال الصـــومال ولم تجلب من منطقة « ظفار » فى جنوب الجزيرة العربية كما يرى الباحث الذى رغم هذه الرسوم والنصوص الواضحة الصريحة يقول ان مدرجات الكندر وعمليات اقتلاع أشجار الكندر لم تظهر ضمن رسوم الدير البحرى(٥٠) .

وتمشيا مع وجهة نظره بان البونتيين صوروا الصعوبات التى يمكن أن يلاقيها المصريون اذا صمموا على مواصلة رحلتهم الى منطقة «ظفار» للحصول بأنفسهم على أشجار الكندر ، ترجم الباحث بعض النصوص الهيروغليفية المدونة من رسوم بعثة حتشبسوت ترجمة خاصة خالف فيها الترجمة التى أجمع عليها غيره منالباحثين ومنها النص المدون فوق أمير بونت وأفراد أسرته الذين يخاطبون فيه المصريين مستفسرين عن كيفية وصولهمالى بلادهم (بونت) واجتيازهم الصعوبات التى تعترض الطريق اليها(٥١) ، اذ حول الباحث هذا النص الى تحـــذير من البونتيين

للمصريين من خطورة الطريق الى منطقة أشجار الكندر فى ظفار لكى يجعلونهم يحجمون عن القيام بهذه الرحلة حتى لا يصلوا الى هـــذه المنطقة ويحصلون على أشجار الكندر بأنفسهم فتضيع على البونتيين مكاسبهم من الوساطة فى تجارة الكندر(٥٢) ، كذلك ترجم الباحث نصا آخر يعد فيه الاله آمون الملكة حتشبسوت بأنه سيذلل الطريق أمام رجالها ويجعلهم يخترقون ممرات مائية صعبة الاجتياز(٥٣) - ترجم هذا النص بما يعنى أن هذه الممرات المائية هى التى تفصـــل الجانب الافريقى للبحر الأحمر عن جانبه الآسـيوى (ربما يقصـــد بوغاز باب المندب)(٥٤) ، ثم الطريق الممتد على طول جنوب الجزيرة العربية حتى منطقة ظفار(٥٥) .

وبطبيعة الحال ليستهناكحاجة لمناقشة الترجمة لهذه النصوص لأن ما قدمناه من أدلة نباتية وأثرية ونصية على وجود أشجار الكندر على الساحل الشمالى للصومال (بونت الافريقية فى رأى الباحث) مما ينفى حاجة المصريين للحصول على هذه الأشجار من منطقة ظفار - يجعـل الحقيقة واضحة .

وكما قلنا سابقا بأن رأى الباحث هذا أعتمد على اعتباره أن منطقة ظفار هذه تدخل ضمن نطاق التعبير المصرى « تا - نثر » أى « أرض الاله » - ولكن النصوص الهيروغليفية المصاحبة لرسوم بعثة حتشبسوت توضح بجلاء أن التسمية « تا نثر » أو « أرض الاله » الواردة فى هذه النصوص تنطبق على نفس منطقة بونت التى ارتادها المصريون واقتلعوا منها أشجار الكندر ، أى على الساحل الشمالى للصومال ، ومن هـــذه النصوص ، النص المدون أمام قائد البعثة المصرية الذى يقرأ :



وترجمته هى : « وصول المبعوث الملكى (المصرى) الى أرض الاله (تا ـ نثر) مع الجيش الذى خلفه أمام زعماء بونت »(٥٦) ٠

فالترادف واضح جدا فى هذا النص بين التسـميتين « بونت » و « أرض الاله » أى انهما اسمان لمنطقة واحدة ٠

بل والأكثر تحديدا النص المدون فـوق الحمالين المصريين الذين صوروا أربعة منهم يحملون شجرة كندر فقد جاء فيه على لسان أحـد هؤلاء الحمالين :

وترجمته هى : « هلمى معنا شجرات العنتيو (الكندر) من قلب أرض الاله الى دار (معبد) آمون » (فى مصر)(٥٦) ٠

فهذا النص بدوره يوضح بجلاء وبطـريقة مباشرة أن أرض الاله التى بها أشجار الكندر التى حصل عليها المصريون هى نفس منطقة بونت الافريقية ٠ وبذلك يصبح تفسير الباحث بان « أرض الاله » المقصودة فى نصوص بعثة حتشبسوت هى جنوب الجزيرة العربية ـ يصبح هذا التفسير بدون أى أساس ٠

وفى ختام مناقشة آراء الباحثين فى موضوع التعبير « تا ـ نتر » نشير الى الرأى الذى يترجم هذه العبارة بـ « الارض المقدسة » بدلاً من « أرض الاله »(٥٨) ٠ وصاحب هذا الرأى يفسر سبب هذه التسمية بما يربطها بمنطقة أشجار البخور فى جنوب الجـزيرة العربية (منطقة ظفار) اذ يقول ما معناه أن المصريين اطلقوا التعبير « الأرض المقدسة » على هذه المنطقة لأنهم يحصلون منها على البخور الذى كان له عند جمع محصوله طقوس خاصة مقدسة، ففى موسم جمع المحصول لا يجوز للرجال

الذين يعملون فى هذا المجال أن يفقدوا طهارتهم بلقاء النساء كما يقول بلينى(٥٩) .

وبطبيعة الحال ليس من المعقول أن يطلق المصريون القدماء تسمية ذات قدسية على منطقة لم يرتادوها كما أثبتنا فى الصفحات السابقة ، بالاضافة الى الفارق الزمنى الكبير بين عصر النشاط المصرى الفرعونى مع مناطق انتاج البخور فى البحر الأحمر الذى انتهى حوالى عام ١١٥٠ قبل الميلاد وبين عصر الكاتب الرومانى بلينى الذى عاش حتى أواخر القرن الأول الميلادى أى أن الفارق الزمنى بين العصرين يبلغ حوالى اثنى عشر قرنا ، هذا فضلا عن أن ترجمة « تا ـ نثر » بـ « الأرض المقدسة » غير صحيحة ، والصحيح ترجمتها بـ « أرض الاله » .

اما عن التفسير الحقيقى للتسمية « تا ـ نثر » فان الوصول اليه يقتضى البحث عن الاله المقصود بكلمة « نثر » فى هذه التسمية . ويرشدنا الى ذلك الترادف بين هذه التسمية وبين التسمية « بونت » لأن الاسمين لمنطقة واحدة كما سبق أن قدمنا ، وبعبارة أخرى يجب أن يكون هذا الاله مشتركا بين تا ـ نثر وبين بونت ويكون أيضا من أقدم الآلهة لأن التسميتين ظهرتا فى النصوص المصرية منذ عصر مبكر من التاريخ المصرى القديم فضلا عن ارتباطه بالبحر الأحمر وهو الطريق البحرى الذى كان المصريون يسلكونه للوصول الى تا ـ نثر وبونت .

أن أول ما يرشدنا للتعرف على هذا الاله أن كلمة « نثر » بمعنى « اله » كانت تكتب على الآثار المصرية بمخصص صقر(٦٠)

، والصقر كما هو معروف كان رمز الاله حورس،

وبالفعل نجد الشروط المذكورة كلها تنطبق على الاله حورس فقد اطلقت عليه النصوص المصرية « حور رب بونت » و « الصقر المقدس حاكم بونت » و « الصقر المقدس الذى جاء من أرض الاله »(٦١) ويلاحظ على هذه الالقاب التى خلعت على الاله حورس ، الترادف بين بونت وبين أرض الاله وارتباطهما بالاله حورس ، ثم ربطت النصوص المصرية بين

الاله حورس وبين المشرق فاطلقت عليه نصوص الأهرام « حور - ابتى » أى حور الشرقى(٦٢) .

وبالاضافة الى كل ذلك ربطت نصوص الأهرام بينه وبين البحر الأحمر بأن اطلقت عليه « ذلك الذى فى الاخضر العظيم »(٦٣) والمقصود بالأخضر العظيم (واج - ور) فى ذلك العصر هو البحر الأحمر لأن هذه التسمية لم تطلق على البحر المتوسط الا ابتداء من الأسرة السابعة عشرة(٦٤) .

أما سبب تخصيص الاله حورس بكلمة « نثر » أى « الاله » فى عبارة « أرض الاله » فيمكننا التوصل اليه فى ضوء الحقائق التالية :

١ - كان الفراعنة يعتبرون انفسهم من سلالة أو من ورثة الاله حورس فى حكم مصر ، ففى بردية تورين اطلقت النصوص المصرية التسمية « شمسو حور » أى « اتباع حورس » على حكام مصر فى عصر ما قبل الاسرات . وقد جسد المصريون هذه التسمية فى أقدم رمز للقب الملكى وهو الصرح الذى يكتب بداخله اسم الفرعون ويعلوه رسم الصقر رمز الاله حورس وهو ما نسميه باللقب الحورى الذى ظهر منذ بداية العصور التاريخية المصرية كما تدل على ذلك لوحة الملك نعرمر المعروفة وقد صور الاله حورس عليها مرة أخرى فى صورة الصقر كاله حامى للملك .

٢ - لون المصريون الاله حورس باللون الأحمر سواء رسموه فى شكل صقر أو فى شكل انسان برأس صقر(٦٥) واستخدموا نفس اللون فى تلوين البونتيين . وهو نفس لون المصريين انفسهم وان كان أفتح قليلا من لون البونتيين .

٣ - رسم المصريون البونتيين على الآثار المصرية بنفس ملامحهم - بالاضافة الى نفس اللون تقريبا - وبنفس هيئتهم مع اضافة اللحية المستعارة لاشكال البونتيين التى تشبه لحية الالهة والملوك المصريين ربما باعتبار البونتيين ينتمون لأرض الاله التى نسب المصريون أجدادهم (اتباع حورس) اليها(٦٦) .

هذه الحقائق الثلاثة توحى بوجود شعور لدى المصريين بأن هناك صلة ما بين الاله حورس واســـلاف المصريين من ناحية وبين البونتيين سكان أرض الاله من ناحية أخرى ، وبطبيعة الحال ليس من المعقول أن ينشأ هذا الشعور من فراغ ، اذ لابد أن يكون هناك أساس ما لهذا الشعور وان كان مبهما فى ذاكرة المصريين ٠

واذا علمنا أن الصور المبكرة للاله حورس ظهرت أول ما ظهرت فى المناطق المتاخمة أو القـــريبة من الوديان الممتدة من البحر الأحمر الى النيل مثل وادى الحمامات ووادى عباد ، مثل صورته فى شكل الصقر التى وجدت فى « العمرة » بالقرب من نجع حمادى والتى تمثله فوق الصرح وهى أقدم صورة له وترجع الى عصر نقادة الأولى(٦٧) ، ومثل صورته على لوحة الملك تعرمر التى وجدت فى الكاب بالقرب من ادفو ، واذا علمنا أيضا أن الفراعنة الأوائل (ملوك الأسرة الأولى) ينتسبون الى منطقة قريبة من هذه الوديان وهى منطقة « ثينة » (جرجا) ـ اذا علمنا كل هذه الشواهد ، فان ذلك يوصلنا الى أن نرجح أن هناك اشتراكا فى الأصل البعيد بين أسلاف المصريين (الذين يرمز اليهم الاله حورس) وبين البونتيين وبلادهم الواقعة على الساحل الافريقى للبحر الأحمر وظهيره ٠ وان وجود الصور الأولى للاله حورس بالقـــرب من نهايات الطرق القادمة من البحر الأحمر وكذلك وقوع الموطـــن الأول لفراعنة الأوائل (ملوك الأسرة الأولى) بالقرب من هذه النهايات ، بالاضافة الى اطلاق التسمية « حورس الشرقى » على الاله حورس ـ كل ذلك يشير الى هجرات جاءت من المناطق الواقعة الى الشرق والجنوب الشرقى من مصر ودخلت اليها عبر هذه الوديان ثم انتشرت فى وادى النيل فى الصعيد الأعلى ٠

ولعل هذه الهجرات كانت موجات متأخرة نســـبيا من الهجرات الحامية الكبرى الموغلة فى القدم التى بدأت منذ العصر الحجرى القديم الأعلى(٦٨) واجتازت بوغاز باب المندب (الذى ربما كان جزرا متقاربة فى ذلك العصر البعيد) قادمة من الجزيرة العربية ثم انتشرت فى افريقية الشرقية وزحفت شمالا حتى صحراء مصر الشرقية ثم دخلت مصر عبر

وادى الحمامات ووادى عباد والوديان الأخرى الموازية لها شمالا وجنوبا، واستقرت فى الوادى وكونت قاعدة الشعب المصرى القديم ٠

وربما بقيت ذكرى هـذه الهجرات البعيـدة على هيئـة روايات متواترة مبهمة عبر الأجيـال فى أدهان المصريين فى العصر التاريخى فرمزوا اليها بتلك الرموز التى تربط بينهم وبين سكان الساحل الافريقى للبحر الاحمر وظهيره٠وكان من الطبيعى أن يطلقوا على المنطقة ما يسبغ عليها صفة التقديس ومن هنا جاءت التسمية « تا ـ نثر » التى تجمع بين هذه الصفة وبين نسبتها الى الاله الذى تميزت به والمقصـود بكلمة « نثر » وهو الاله حورس ٠

ويلاحظ أن الاله حورس صار فى العصور اللاحقة الها للشمس وربما كان السبب فى ذلك يرجع الى وصفه بـ « حورس الشرقى » ٠ فالمثابت أن حورس لم يكن له أية صلة فى الأصل باله الشـمس ، ولكن عندما اكتسب هذه الصفة صار رمزه قرص الشمس بين جناحى صقر ، وانتشر هذا الرمز انتشارا كبيرا على واجهات ومداخل المعابد المصرية(٦٩) ٠

وبالنسبة لأقدم ذكر للتعبير « تا نثر » فى النصـوص المصرية ، فحتى عهد قريب كان النقش المعروف بنقش « حننو » أو « حنو » فى وادى الحمامات الذى يرجع لعصر الأسرة الحادية عشرة الفرعونية ـ كان يعتبر أقدم نص ورد به التعبير « تا نثر »(٧٠) ، ولكن أدى الكشـف أخيرا عن نقش من عصر الملك « نفر ـ كاو ـ حور » من الاسرة الثامنة فى مقبرة رجل يدعى « شماى » توجد فى القرية المسماة « كوم المؤمنين» (سابقا كوم الكفار) تقع على مشارف طريق قفط ـ القصير ، حيث ورد هذا التعبير(٧١) ، أدى ذلك الكشف الى ارجاع أقـدم ورود لتعبير « تا ـ نثـر » الى عصر هـذه الأسرة أى الى بداية العصر المتوسـط الأول(٧٢) فضلا عن تقديم معلومات جديدة بشأن مدلول هذا التعبير فى ذلك العصر ٠ وفيما يلى ترجمة النص طبقا لمكتشفه :

« أما بصدد أى عمدة أو حاكم للصعيد يبحر جنوبا فى داخل هذا البحر ويرسوا فى تا ـ نثر ٠٠٠٠ الخ »(٧٣) ٠

فالربط هنا بين الابحار جنوبا ثم الرسو فى تا نثر يشير الى أن

هذا التعبير لا يقتصر على صحراء مصر الشرقية ، بل يمتد الى منطقة ما على الساحل الافريقى للبحر الأحمر الى الجنوب من ساحل صحراء مصر الشرقية ، ربما ليشمل ساحل صحراء العتباى فى شرق السودان وهى المنطقة التى ارتادتها بعثة الملك سنوسرت الأول ثانى ملوك الأسرة الثانية عشرة كما دلت على ذلك الآثار والنقوش التى اكتشفت فى وادى جواسيس(٧٤) .

غير أن مكتشفة النقش فسرته بما يفيد أنه ينطبق على الساحل الحجازى وليس على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، واعتمدت فى ذلك على نصين فى نقش « حنو » أولهما ورد فى السطر العاشر والآخر فى السطرين الرابع عشر والخامس عشر . ولكنها لم تأت بجديد يختلف عن الترجمات السابقة للنصين رغم اعتراضها على هذه الترجمات فيما عدا كلمتين سوف نعرض لهما ، وفيما يلى مقارنة بين ترجمة « برستد » وترجمة الباحثة للنصين :

ترجمة برستد(٧٥)	ترجمة الباحثة(٧٦)
السطر العاشر ارسلنى سيدى لابعث بسفينة الى بونت لكى أحضر له الكندر الطازج من مشايخ الأرض الحمراء .	ارسلنى سيدى لاعداد سفينة لترسل الى بونت ولكى أحضر الكندر الطازج من لدن الشيوخ الذين فى الأرض الحمراء .
السطران الرابع عشر والخامس عشر ثم وصلت الى البحر الأحمر ثم صنعت هذه السفينة وارسلتها بكل شىء وعملت من أجلها قربانا عظيما من الماشية والثيران والوعول . والآن بعد عودتى من البحر الأحمر، نفذت أمر جلالته واحضرت له كل الهدايا (ا ن و) التى وجدتها فى منطقة « أرض الاله » (تا نثر) وعدت عبر (طريق) « واج »(٧٧) وادى الحمامات.	ثم بلغت الأخضر العميق (؟) فشيدت هذه السفينة وارسلتها مجهزة بكل شىء واديت لها قربانا عظيما من الثيران والابقار والماعز ، وهكذا فبعد أن وصلت من الاخضر العميق(؟) وقد نفذت أوامر جلالته محضرا له كل العطايا (ا و ن) التى وجدتها على شواطىء « ارض الاله » .... ؟(٧٧/١)

والكلمتان هما : كلمة «ور» فى التعبير « واج ور » وقد ترجمتها « العميق » بدلا من « العظيم » ، وكلمة « العطايا » ولو أنها الترجمة الصحيحة لكلمة « ا ن و » المصرية الا أنها فسرتها بالعنتيو ، أى الكندر مما أدى الى تناقض فى الترجمة لأنه لا يستقيم مع المعنى لأن الكندر جلبته السفنية التى ارسلها الى بونت من حكام الأرض الحمراء أى من الساحل الافريقى للبحر الأحمر كما ورد فى السطر العاشر الموضح أعلاه بينما وردت الاشارة الى العطايا مقترنة بالتسمية « تا ـ نثر » أى « أرض الاله » فى السطرين الرابع عشر والخامس عشر كما هو موضح أعلاه أيضا ، وعلى ذلك فلا توجد أية صلة بين حكام الأرض الحمراء سكان بونت أى الساحل الافريقى للبحر الأحمر (صحراء العتباى كما يفهم من عبارة « الأرض الحمراء » التى أرتادتها بعثة الملك سنوسرت الأول كما ذكرنا) ، وبين العطايا « ا ن و » التى فسرتها الباحثة بـ « الكندر » وهو تفسير غير صحيح كما سنوضح بعد ٠

ثم فسرت الباحثة عبارة « يبحر جنوبا فى داخل هذا البحر » الواردة فى نقش مقبرة « شماى » المذكورة بأنها تشير الى اتجاه المسافر من الميناء المصرى نحو الجنوب الى ميناء على الساحل الحجازى ، ربما كان ميناء ينبع أو ما كان يحل محله قديما على حد قولها(٧٨) ٠

ونرى أن المعنى لا يستقيم فى الجمع بين الابحار جنوبا والرسو فى تا ـ نثر وبين الاتجاه شرقا عبر البحر الأحمر الى الساحل الحجازى حتى مع وجود عبارة « فى داخل » التى ليس لهـا معنى الاتجاه شرقا ، وعلى ذلك فان الاقرب الى المنطق أن يكون مدلول عبارة « الابحار جنوبا والرسو فى تا نثر » هو الابحار من الميناء المصرى على ساحل الصحراء الشرقية والسير فى موازاة الساحل الافريقى للبحر الأحمر والرسو فى منطقة صحراء العتباى التى تدخل فى نطاق المدلول « تا نثر » والتى ارتادها المصريون بعد ذلك كما يستفاد من نقش « حنو » وكما ثبت من نقوش وادى جواسيس ٠

ويبدو لنا أن السبب فى هـذه الاستنتاجات للباحثة ، انها فسرت

كلمة « ا ن و » فى نقش » « حنو » التى معناها « هدايا » فى النصوص المصرية (وأحيانا « جزية ») بأنها « هدايا العنتيو أى الكندر » وهو تفسير قد يكون صحيحا فى نصوص أخرى ، ولكنه غير صحيح بالنسبة للنص الذى نحن بصدده ، الذى يصف فيه « حنـو » ما جاء به من الصحراء الشرقية بالذات وليس من الساحل الحجازى بدليل أنه يروى فى النص أنه بعد الحصول على هذه الهدايا من شاطىء (أو من منطقة) أرض الاله عاد عبر (طريق) « واج » (وطريق) وادى الحمامات(٧٩)

وقد اغفلت الباحثة ترجمة نص هذه العودة خلال الصحراء الشرقية التى لا يمكن أن تتحقق اذا كانت الأرض المقصودة هىالساحل الحجازى، اذ فى هذه الحالة كان لابد أن يسرد أخبار أبحاره عبر البحر الأحمر من الساحل الحجازى أى من تا ـ نثر أو أرض الاله الى الساحل المصرى ثم أخبار رحلته عبر وادى الحمامات ٠

ان التفسير الحقيقى لكلمة « ا ن و » أى « هدايا » أو بتعبير أدق « كل الهدايا » كما وردت فعلا فى نص « حنو » بالنسبة للصحراء الشرقية ، ما كان يستخرجه المصريون منها من أحجار كريمة ومعادن نفيسة وفى مقدمتها الذهب ، وقد أثبتنا فى بحث سابق أن المصريين أطلقوا عليها « خ ا س ت/ن ب و/» أى « صحراء الذهب »(٨٩) بسبب ما كانوا يستخرجونه منها من الكميات الوفيرة من الذهب ٠ ومن الواضح أن كلمة « ا ن و » فى النص تعنى « الذهب » فقد وردت فى نصوص أخرى بهذا المعنى(٨١) كما أن حنو نفسه حمـل من بين القابه لقب « المشرف على خزانة الذهب الخام »(٨٢) (نوب واج) ، وان وصف الذهب فى هذا اللقب بـ « الخام » (واج) يدل على أن حنو أشرف على عمليات استخراج الذهب من الصحراء الشرقية ٠ والحقيقة أن هذه كانت طريقة المصريين فى استغلال الأيدى العاملة المكلفة بتجهيز سفن البعثات المصرية المسافرة الى بونت ، فقد كانوا يستفيدون من هذه الأيدى العاملة فى مشروعات أخرى فى الصحراء الشرقية(٨٣) ريثما تعود السفن من رحلتها فلا تبقى هذه الأيدىالعاملة معطلة طوال المدة التى تستغرقها هذه الرحلة ، لأن السفن التى كان يستخدمها المصريون فى البحر الأحمر ،

وهى من نوع السفن المخيطة كما ذكرنا سابقا ، كانت تحتاج الى أيدى عاملة كثيرة لنقل أجزائها أولا من دار صناعتها على شاطىء النيل الى ساحل البحر الأحمر حيث يتم تركيبها ، ثم بعـــد عودتها من رحلتها لتفكيكها مرة أرخى ونقل أجزائها (اذا كانت فى حالة صـــالحة) مع شحنتها الى شاطىء النيل . ويبدو أن حنو استغل الايدى العاملة هذه فى استخراج الذهب من المناجم الوفيرة المنتشرة على جوانب الطـــرق الموصلة الى الميناء الذى يرجح أنه « مرسى جواسيس » نظـــرا لوفرة مناجم الذهب على جوانب وديان « عطا الله » و « ساقى » المؤدية الى هذا الميناء بينما لا توجد مناجم ذهب ذات قيمة على جوانب طـــريق وادى الحمامات فى جزئه الشرقى الممتد من بئر الفواخير الى القصير ، ولهذا يرجح الباحثون أن الاسم « واج » الـوارد فى نقش حنو هو اسم الطريق من مرسى جواسيس عبر هذه الوديان الى بئر الفواخير (٨٤) حيث يتلقى بوادى الحمامات الذى أطلق عليه فى النقش « را ـ هنو »

والحقيقة أن هناك أمثلة أخرى من عصور متفرقة تشير الى الجمع بين مشروعى ارسال السفن الى بونت وبين تعدين الذهب فى الصحراء الشرقية بعضها يشير صراحة الى « ذهب صـحراء قفط » أو « ذهب الصحراء » ضمن نصوص هذه الرحلات مثل ما ورد فى نصوص المقبرة رقم ١٤٣ فى طيبـــة والتى ترجع فى الغالب الى عصر الملك امنحتب الثانى(٨٥) ، وفى نصوص بعثة حتشبسوت الى بونت(٨٦) ، وبعضها نصوص تذكر ذهب قفط من عصر ملوك أرسلوا بعثات الى بونت وسجلوا فى الوقت نفسه اسماءهم على جوانب الوديان الواقعة على الطريق الى ميناء مرسى جواسيس وتتوفر بها مناجم الذهب مثـــل الملك رمسيس الثالث(٨٧) والملك سنوسرت الأول (بعثته الى « بيا ـ بونت ، واسمه على صخور وادى ساقى والاشارة الى الذهب فى نقوش عنخو ، والاشارة الى « ذهب قفط » فى نصوص امينى)(٨٨) .

وعلى هذا فان العبارة التى وردت فيها كلمة « ا ن و » هـــذه يستقيم معناها اذا ترجمت كما يلى :

« وبعد عودتى من البحر الأحمر (الأخضر العظيم) نفذت أمر جلالته وأحضرت له جميع الهدايا (من الذهب) التى وجدتها على ساحل (أو فى منطقة)(٨٩) أرض الاله (الصـــحراء الشرقية) ، وعدت على (الطريق المسمى) « واج » (الطريق المتد من ميناء مرسى جواسيس الى وادى الفواخير) ، ووادى الحمامات (را هنو) وأحضرت له (للملك) أحجار التماثيل .... الخ »(٩٠) .

بذلك يستقيم المعنى ويتفق مع المنطق ولا يحتاج الأمر للذهاب بعيدا وتحميل النص أكثر مما يحتمل مثل افتراض عبور البحر الأحمر من غربه الى شرقه للوصول الى الساحل الحجازى للحصول على العنتيو أو الكندر من شيوخ الأرض الحمراء كما ذهبت الباحثة فى استنتاجاتها .

وفى ختام مناقشة مدلول « تا نثر » يلاحظ أن هذا المدلول اتسع فى عصر الدولة الحديثة باتساع الامبراطورية المصرية فشمل بلاد الشام وما يليها شمالا حتى بلاد الحيثيين ، أى المناطق الواقعة الى الشمال الشرقى من مصر التى ارتادها المصريون فى ذلك العصر ، وهذه ظاهرة واضحة فى هذه التسمية ، فليس هناك دليل على أن المصريين أطلقوا هذا الاسم على مناطق لم يرتادوها ، فالذى يلاحظ أن كل منطقة من المناطق الداخلة فى نطاق التسمية « أرض الاله » كان لها اسم خاص بها شأن تسمية الساحل الافريقى للبحر الأحمر « بونت » مثل « خارو » و « رتنو » و « زاهى » و « نهرينا » ، وهى اسماء خاصة بفلسطين وسوريا ولبنان وشمال الشام وشمال غرب العراق على التوالى ، بينما لم يكن للجزيرة العربية وخاصة جنوبها اسم خاص بها فى النصـــوص المصرية كما سبق أن ذكرنا ، وبعبارة أخرى لقد كانت هناك ثلاثة شروط لاطلاق التســـمية « تا ـ نثر » أى « أرض الاله » على منطقة ما : **أولها** ان تكون هذه المنطقة واقعة الى الشرق من مصر أو بتعبير أدق أن يأخذ المصريون وجهتهم نحو الشرق عندما يغادرون وادى مصر فى طريقهم الى هذه المنطقة ، **وثانيها** أن يــكون المصريون قد ارتادوها ،

وثالثها أن تكون مصدر سلع ثمينة فى نظرهم ، اما لعدم وجود هذه السلع فى وادى مصر أو لندرتها فيها . وعلى ذلك فقد اطلقوا هـــذه التسمية على الساحل الافريقى للبحر الأحمر مصدر الكندر ، وعلى سيناء مصدر الفيروز(٩١) وعلى لبنان مصدر أشـــجار الأرز ، ثم على بلاد الشـــام المذكورة فيما سبق لأنها كانت مصـــدر سلع ثمينة متنوعة فى مقدمتها الأحجار الكريمة(٩٢) .

وفى المقابل لم يطلق المصريون هذه التسمية على بلاد النوبة رغم توفر شرطين منها هما أنها كانت مصدرا لنفس سلع بونت تقريبا وأنهم ارتادوها ، ولكن لعدم توفر الشرط الثالث وهو وقوعها الى الشرق من مصر وبالمثل لم يطلقوا هذه التسمية (تا نثر) على جنوب الجزيرة العربية رغم توفر شرطين فيها هو وجود الكندر بها ووقوعها الى الشرق من مصر ، ولكن لعدم توفر الشرط الثالث وهو ارتياد المصريين لها ، ولعل هذا هو السبب فى عدم وجود اسم خاص للجزيرة العـــربية فى النصوص المصرية التى ترجع للعصر الفرعونى .

الحواشى والتذييلات

(١) أ ـ عبد المنعم عبد الحليم سيد ، الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها فى النقوش القديمة فى مصر « بحث منشور فى كتاب بحوث الندوة العالمية الاولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الرياض ١٩٧٩ .

b) Abdel-Monem, A.H. Sayed, "Were there direct relationships between Pharaonic Egypt and Arabia ?" P.S.A.S., Vol. 19 (1989), p. 150-166. ب ـ

وقد أعيد نشر هذين البحثين حديثا فى كتاب للمؤلف عنوانه « البحر الاحمر وظهيره فى العصور القديمة » الاسكندرية ١٩٩٣ ، الصفحات ٤٠١ ـ ٤١٧ ، ١٨١ ـ ١٩٢ على التوالى .

وكنت قد تناولت هذا الموضوع فى رسالة الماجستير التى قدمتها لقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية عام ١٩٦٨ بعنوان « علاقات مصر القديمة ببلاد بونت ونشاطها فى البحر الاحمر .

(٢) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ٣٨٣ .

(٣) رغم مرور ما يقرب من سبعة عشر عاما على هذا الكشف الذى توصلت اليه بعثة الحفائر الموفدة من قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى عام ١٩٧٦ ، ورغم أن المعلومات عن هذا الكشف أصبحت من الموضوعات الثابتة فى مؤلفات علماء المصريات الأجانب ، بل أصبح موضوعا لدراسات فى هذه المؤلفات نذكر منها طبقا لتسلسل صدورها :

1. Honor Frost, "Egypt and stone anchors, some recent discoveries", M.M. Vol. 66 (1979), p. 137 f.
2. W. Kelly Simpson, "Wadi Gawasis", L.A., 1986) Band VI, p. 1097 f.
3. Pascal Vernus, "Une inscription cursive du Ouadi Gawasis", RdE, Tome 37, (1986), p. 139 f.
4. Ogden Goelet, "W3d-Wr and Punt in Wadi Gawasis inscriptions," St. Aeg. Vol. XIV (1992), p. 212 f.

هذا غير عشرات المؤلفات الاجنبية التى تناولت هذا الكشف ضمن موضوعاتها·

رغم كل هذا الاهتمام بالكشف من العلماء الاجانب ، ورغم نشره فى حينه على أوسع نطاق بين الجامعات والهيئات الاثرية المصرية والباحثين المصريين ···

فان مؤلفات كثير من الباحثين ، مازالت حتى اليوم للاسف الشديد ، تخلو تماما من أية اشارة الى هذا الكشف أو حتى الى بعثة سنوسرت الأول هذه رغم أنها أصبحت جزءا من تاريخ الدولة الوسطى الفرعونية ، ومن أمثلة البحوث المتخصصة فى هذا المجال التى اغفلت هذه الحقيقة التاريخية :

M. Hilzheimer; "Zur Geographischen Lokalisierung von Punt" Z.A.S. 68 (1932), S. 112-114.

(٥) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، علاقات مصر القديمة ببلاد بونت ، (رسالة الماجستير) ص ٢٣ ·

(٦) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، « دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الاحمر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية آداب الاسكندرية ، (١٩٧٢) ص ٤٨ وما بعدها ·

(٧) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، الجزيرة العربية ، ص ٤١ وأيضا ، البحر الاحمر ، ص ٤٠٣ وهذه المعلومة عن :

M. Flinders Petrie ; Tanis, Part II (1888), p. 107 and pl. XLII

(٨) تناولت هذا الموضوع بالتفصيل فى رسالة الماجستير ، « علاقات مصر القديمة ببلاد بونت » ص ٣٤ - ٣٧ ·

(٩) أبو العيون بركات ، بونت بين المصادر المصرية ، ص ٩٤ ·

10. a) H. Gauthier, Dictionnaire des noms géographiques contenus dans les textes hiéroglyphiques, Tome I, p. 93.

    b) Zibelius, op. cit., p. 84.

11. Op. cit.

12. D. O'Connor, "The Location of Irem", JEA, Vol. 73 (1987), p. 99 f.

(١٣) عبد المنعم عبد الحليم ، علاقات مصر القديمة ، ص ٣٣ ·

(١٤) عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣١٧ - وأبو العيون بركات ، بونت ، ص ١٠٣ ·

15. Abdel Monem Sayed, Were there direct relationships, p. 160, see also.
Abdel Monem Sayed, The Red Sea and its hinterland in Antiquity, Alexandria, 1993), p. 187.

16. Cerny-Gardiner-Peet, The inscriptions of Sinai, Vol. 2, p. 166 and Vol. 1 pl. LXVI, no. 211.

17. J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol. II § 260 note d. cf. Wb. V S. 194.

(١٨) عبد العزيز صالح : شبه الجزيرة ، ص ٣١٧ - ٣١٨ ·

19. Abdel Aziz Saleh, "An open question on Intermediaries in the Incense Trade during Pharaonic Times" ORIENTALIA, Vol. 42 (1973), p. 381.

(٢٠) عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣١٧ ·

(٢١) نفس المصدر ·

22. Elmar Edel, Beiträge zu den ägyptischen Sinaiinschriften, "Berichte über Puntexpeditionen", N.A.W.G. Nr. 6 (1983), p. 183), p. 183 note 36.

23. Op. cit., p. 181.

24. Op. cit., p. 183-185.

25. Cerny, Sinai, Vol. II, no. 238, p. 173, p. 213 and Vol. I pl. LXVII.

26. Edel, Beiträge, p. 175-182.

(٢٧) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ٥٥ - ٦٠ ·

(٢٨) سيرد الحديث عن نقش حنو بالتفصيل فيما بعد ·

(٢٩) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ١٣١ - ١٣٨ ·

(٣٠) نفس المصدر ، ص ١٤١ ـ ١٤٥ ٠

(٣١) اتفق البروفسور الر ايدل معى فى هذا الاستنتاج أثنــاء انعقاد مؤتمر الآثار المصرية فى جرينوبل بفرنسا عام ١٩٧٩ عند القى محاضرته فى هذا المؤتمر عن نقوش سيرابيط الخادم التى اكملها والمذكورة فى الصفحات السابقة ٠ وقد أشرت الى هذا الاتفاق فى الرأى بيننا فى البحث الذى القيته فى هــذا المؤتمر ونشر فى الدورية التى تصدر فى بروكسل بعنوان :

"Chronique d'Egypte" Tome LVIII, No. 115-116, 1983, p. 32 note 3

وانظر أيضا :

Abdel Monem A.H. Sayed, The Red Sea in its Hinterland in Antiquity, Alexandria, 1993, p. 92 note 3.

32. Louise Bradbury, "Reflections on Traveling to "God's Land" and Punt in the Middle Kingdom", JARCE, Vol. XXV, (1988), p. 128-141.

(٣٣) عبد المنعم عبد الحليم ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ٢٠٩ ٠

(٣٤) اكتشفت هذا الميناء بعثة جامعة كاليفورنيا عام ١٩٤٨ راجع :
Cerny, Sinai II, p. n.e.

(٣٥) عبد المنعم عبد الحليم ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ١١٦ ـ ١١٧ ٠

36. Abdel Aziz Saleh, "Some problems relating to the Pwenet reliefs at Deir el-Bahari" JEA, Vol. 58 (1972), p. 153.

37. Op. cit., p. 155.

38. Op. cit., p. 154-155.

(٣٩) عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٩ ٠

40. Saleh, Op. cit., p. 155 (lines 6-8)

41. F. Nigel Hepper, "Arabian and African Frankuncense trees", JEA, Vol. 55 (1969), p. 69-70.

42. Op. cit., p. 68.

43. Saleh, Op. cit., p. 145 (lines 7-9) and note 1.

44. Op. cit., p. 153 (line 15) and note 1.

45. Op. cit.,

وقارن أيضا لنفس الباحث ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ ٠

(٤٦) أوردت فى بحوث سابقة الادلة على أن الظروف النباتية الحالية السائدة على السواحل الشمالية للصومال من حيث نمو أشجار الكندر ، هى نفسها الظروف التى كانت سائدة فى عصر المصريين القدماء أى منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، وأيضا فى العصر اليونانى الرومانى ، أى منذ الفى عام ، راجع « محاولة لتحديد موقع بونت » ، ص ٥٥ ـ ٦٠ فى كتاب المؤلف ، البحر الاحمر وغيره فى العصور القـــديمة ٠

(٤٧) فى الصف الثالث (من أسفل) ، انظر اللوحة التى جمع فيها « سميث » الاجزاء المتناثرة المنشورة فى كتاب :

Naville, The temple of Deir el-Bahari, III, pl. 70.

واللوحة فى كتاب :

W. Stevenson Smith, "The Land of Punt" JARCE vol. I (1962), p. 61.

48. Smith, Op. cit., and Urk IV 327,g,2.

49. Urk IV 327,g,3.

50. Saleh, Op. cit., p. 154-155.

ولو انه أورد نص اقتلاع الاشجار p. 155 n. 2 ولكن عبارته فى عدم رسم المصريين لدرجات الكندر واقتلاع الاشجار منها غير مفهومة لان رسم مدرجات الكندر يحتاج الى الرسم بالمنظور والمصريون كما هو معروف لم يستخدموا المنظور فى الرسم ، فرسموا أشجار الكندر فى صفين فوق شريط المياه رمزا لساحل البحر وفى صف واحد فوق السفن التى تشحن فيها أشجار الكندر ٠

Naville, Op. cit., pls. 69, 74.

51. Breasted, A.R. Egypt II § 257.

52. Saleh, Op. cit., p. 152.

53. Breasted, Op. cit., § 288.

(٥٤) جاء ذكر بوغاز باب المندب فى مقاله المنشور بالعربية ، راجع عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٩ ولكن لم يرد ذكره فى المقال المنشور بالانجليزية :

55. Saleh, Op. cit., p. 153.

56. Naville, Op. cit., pl. 69 and Breasted, A.R. Egypt II 255.

(٥٧) هـــــذه ترجمة الباحث نفســـــه لهـــــذا النص فى مقاله المنشـــــور بالعربية ولكنه اعتبرها من منطقة ظفار ، أو كما يقول « من الاراضى العربية » رغم أنه قال فى نفس الصفحة بان البونتيين ذهبـــوا بالمبعوثين المصريين الى مدرجات جبالهم الافريقية الداخلية كجزء من مدرجات العنتيو (الكندر) على جانبى البحر الاحمر علهم يكتفون بذلك ، راجع ، عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٩ .

(٥٨) ابو العيون بركات ، بونت (نفس المصدر) ، ص ٧ .

(٥٩) نفس المصدر .

60. Ch. Kuenz, "Autour d'une conception égyptienne méconnue, le Pays du Dieu" BIFAO, Tome XVII (1919), p. 178.

61. Samuel Mercer, Horus, Royal God of Egypt, (1942), p. 89.

62. G. Hart, Dictionary of Egyptian gods andgoddesses, (1986), p. 94.

63. R. Falker, The Ancient Egyptian Pyramid Texts (1969), Spell 1505, p. 231.

64. Gauthier, Op. cit. I, p. 182.

65. V. Loret, "Horus le Faucon", BIFAO, III (1903), p. 15-16.

66. Ibid.

67. Mercer, Op. cit., p. 88.

68. Roland Oliver, History of East Africa, The Early Period, (1967), p. 65.

(٦٩) يرى بعض الباحثين أن الاله آمون رع اله الامبراطورية والذى قرن بآله الشمس ، هو المقصود بكلمة « نثر »(*) ولكن ما دامت النقوش لم تخصص هذا الاله فان الاقرب الى مفهومنا أن يكون الاله حورس هو المقصود بكلمة « نثر » فى عصر الامبراطورية أيضا وخاصة أن هذا التعبير سابق على وصول الاله آمون رع الى مركز الصدارة فى عصر الامبراطورية .

(*) Abdel-Aziz Saleh, "Notes on the Ancient Egyptian T3-NTR "God's Land" Bulletin du Centenaire (supplément au BIFAO, 81), 1981, p. 114.

70. Couyat et Montet, 'êLes inscriptions hiéroglyphiques et hiératiques de Ouadi Hammamat, MIFAO, Tome 34, (1912) no. 114 line 15 ans Breasted, A.R. Egypt, I, §433.

(٧١) من ملخص بحث بعنوان « مصر والساحل الحجازى ، اعادة بحث المصطلح « تا ـ نثر » فى ضوء نصوص الدولتين القديمة والوسطى » ، القته د/مها فريد مصطفى فى ندوة « مصر والجزيرة العربية عبر العصور » التى نظمها قسم التاريخ بكلية الاداب بجامعة القاهرة فى الفترة من ٢ ـ ٥ ابريل ٩٢ .

(٧٢) نفس المصدر ، ص ٣ وقد ضمت الباحثة الاسرة الثامنة الى الدولة القديمة والصحيح الى العصر المتوسط الاول كما تعارف على ذلك علماء المصريات ، راجع قائمة اقسام تاريخ مصر فى نهاية كتاب :

A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, (1961), p. 437.

(٧٣) مها فريد ، نفس المصدر ، ص ٣ .

(٧٤) عبد المنعم عبد الحليم ، الكشف عن موقع ميناء الاسرة الثانية عشرة ، بحث منشور فى كتاب لنفس المؤلف بعنوان « البحر الاحمر وظهيره فى العصور القديمة ، (١٩٩٣) ص ١٣١ ـ ١٣٣ .

75. Couyat, Op. cit., line 10 and Breasted, Op. cit., §429.

(٧٦) مها فريد ، نفس المصدر ، ص ٥ .

(٧٧) كان برستد قد تنبه الى ان كلمة « واج » الواردة فى النص قبل « را ـ هنو » أى وادى الحمامات ، هو اسم لمنطقة أو أرض (طريق) غير وادى الحمامات راجع : Breasted, A.R.E. I §433 note d. وسوف نوضح مسار هذا الطريق فيما بعد .

(١/٧٧) لم تتم الباحثة ترجمة النص رغم أهميته فى وصف طريق خنو من ساحل البحر الاحمر عبر الصحراء الشرقية .

(٢/٧٧) « الاخضر العظيم » هى الترجمة الشائعة للاسم المصرى « واج ـ ور » (البحر الاحمر) لدى علماء المصريات راجع :

ê'Das grosse Grün" in "Wörterbuch der Aegyptischen Sprache, I, 269.

ولا يعرف سبب تغيير الباحثة لهذه الترجمة الى « الاخضر العميق » التى ليس لها أى أساس ، نفس المصدر ، ص ٤ ، ٥ .

(٧٨) مها فريد ، نفس المصدر ، ص ٦ - ٧ .

79. Couyat, Op. cit., line 15 and Breasted, Op. cit., I § 433.

(٨٠) عبد المنعم عبد الحليم « الكشف عن موقع « فى » البحر الاحمر وظهيره ، ص ١٣٣ .

81. WB V 225, 14.

82. Couyat, Op. cit., 1.9.

(٨٣) من هذه المشروعات ايضا قطع احجار الشست من منطقة وادى الفواخير الواقعة فى منتصف وادى الحمامات تقريبا ، وقد جاءت اشارة لذلك فى نص «حنو» (سطر١٥) وفى نقش امينى فى وادى الحمامات الذى جمع بين قطع هذه الاحجار وبين الاشراف على بناء (أو تركيب) السفن فى ميناء مرسى جواسيس

Sayed, "New light on the recently discovered port on the Red sea shore" in, The Red sea and its hinterland in Antiquity, p. 89.

ولكن يبدو أن حنو أضاف الى هذين المشروعين مشروع استخراج الذهب بدليل لقبه الذى ذكرناه وربما كان السبب فى ذلك وفرة مناجم الذهب على جوانب الوديان المؤدية الى وادى جواسيس (وادى عطا الله ووادى ساقى) . وربما يكون لقب « المشرف على الذهب » الوارد بين القاب الموظفين فى مقصورة عنخـــو فى وادى جواسيس مما يشير الى استخراج الذهب من هذه الوديان تحت اشراف عنخو هذا أو « امينى » الوارد اسمه على لوحة انتيفوكر وهو نفس امينى الوارد اسمه فى وادى الفواخير كما ذكرنا اعلاه .

84. Louise Bradbury, Op. cit., p. 134.

85. B. Cumming, Egyptian historical records of the later Eighteenth dynasty, Fasc. 2 (1984) no. 1473.

86. Breasted, A.R.E. II §373.

87. a) Breasted, A.R.E. IV §228, 407.
b) F.W. Green, "Notes on some inscriptions in the Etbai district", P.S.B.A. 31 (1909) pl. LIV.

(٨٨) عن بعثته الى منطقة « بيا - بونت » والاشارة الى الذهب فى نقوش « عنخو » ، سبقت الاشارة الى ذلك ، وعن اسمه فى وادى ساقى راجع note 87,b وعن الاشارة الى ذهب فقط BAR I §521

(٨٩) ترجم برستد كلمة « ادب »

بمعنى « منطقة » region وليس « ساحل » راجع : Breasted, I §429

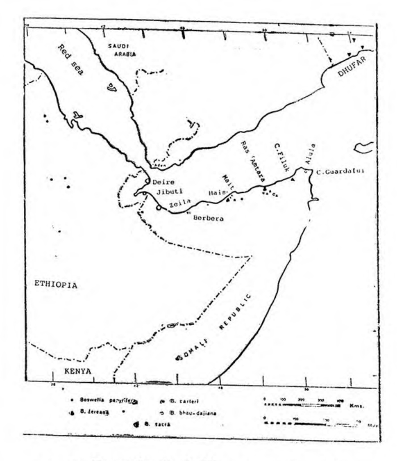
90. Couyant, Op. cit., 1.15 and BAR I §429.

91. Wb V 225,3

92. Wb V 225, 4,12.

ABBREVIATIONS

- BIFAO = Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale.
- JARCE = Journal of the American Research Center in Egypt.
- J.E.A. = Journal of Egyptian Archaeology.
- L.A. = Lexikon der Aegyptologie.
- MIFAO = Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale.
- M.M. = Marriner's Mirror.
- N.A.W.G. = Nachrichten der Akademie der Wissenschaften in Göttingen.
- P.S.A.S. = Proceedings of the Seminar for Arabian Studies.
- P.S.B.A. = Proceedings of the Society of Biblical Archaelogy.
- St. Aeg. = Studia Aegyptiaca.



الخريطة الملحقة بمقال « هبر » Hepper, Op. cit., pl. XV التى توضح توزيع أشجار الكندر حول سواحل البحر الاحمر وخليج عدن والبحر العربى ، ويلاحظ أن الاشجار التى تدر النوع المسمى B. Frereana (التى يرمز اليها المثلث) وهو أجود أنواع الكندر ، هى الاقرب الى شاطىء البحر فى شمال الصومال · وقد جرى توضيح المثلثات التى ترمز اليها لصغر حجمها فى الخريطة الاصلية · كما أضيفت اسماء الموانىء الرئيسية الحالية فى شمال الصومال ·

بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون الأوائل

بقلم
دكتور غيثان بن على بن جريس(*)

عندما نذكر بلاد تهامة والسراة يتبادر الى أذهاننا أماكن عدة فى شبه الجزيرة العربية، ولكن ما نريده فى هذه الدراسة هى السهول التهامية والجبال السروية الواقعة بين نجران وجازان جنوبا ومكة المكرمة والطائف شمالا . والسبب الذى جعلنا نقتصر فى حديثنا على هذه المنطقة دون غيرها هو : أن مدن الحجاز الكبرى (مكة المكرمة والمدينة المنورة وما حولهما) ومدن اليمن مثل : صنعاء وصعدة وزبيد وعدن ، نالت اهتماما كبيرا من المؤلفين الأوائل فى التراث الاسلامى ، وعلى الخصوص من الجغرافين والرحالة .

أما المنطقة الواقعة بين الجزئين السابقى الذكــر ، والتى أطلقنا عليها اسم تهامة والسراة ، فقد بقيت ولازالت مجهولة على مر التاريخ ، فلم يعن المؤلفون والرواة الأوائل بالحديث عنها فى مؤلفاتهم ، واذا ورد ذكرها أو ذكر جــزء منهــا لا يرد الا لمامــا ، اذا قيس بما دون عن الحواضر الكبرى فى الجزيرة العربية . لهذا السبب رأينا من الضرورى اعطاء هذه المنطقة حقها من البحث والدراسة مستعينين بكتب الجغرافيا والرحلات التى دونت فى العصر الاســلامى الوسيط . وما الجغرافيون والرحالة المسلمون الا رافدا من الروافد التى أثرت التراث الاسلامى ، حيث قضوا جل حياتهم فى الترحال والتجوال فى مختلف أقطار العالم وبخاصة الاسلامى، فكتبوا عن سهوله وجباله، وأوديته وأنهاره، وطرقه البريةوالبحرية، وأجناسه، وعناصره، وعاداته،وتقاليده، وعن سكانه وما

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى المشارك ورئيس قســم التاريخ بكلية التربيــة جامعة الملك سعود ـ فرع أبها .

ينتجون من حاصلات وثمار ، وما يصدرون بواسطة الطرق البرية والبحرية ، الى الأسواق الخارجية أو المحلية ٠

وحظيت الجزيرة العربية أكثر من غيرها بوفود عدد كبير من الرحالة اليها قصد الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ ، وهم فى العادة يدونون ما يشاهدون فى رحلاتهم أثناء ذهابهم أو ايابهم لاداء فريضة الحج ، وزيارة قبر الرسول ﷺ حيث كانوا ياتون من كل فج وصقع من الجهات الغربية للدولة الاسلامية كالمغرب والاندلس ، ومن الجهات الشرقية،كالعراق وبلاد فارس ، فضلا عن بلاد الشام ومصر(١)٠وكان مما نال نزرا بسيطا فى التدوين بلاد السراة ، حيث كان للرواة من رجالها دور فى تدوين بعض المعلومات عنها ٠ وقد يقوم بعض الرحالة فى الذهاب الى بعض الأجزاء التهامية والسروية للمشاهدة والمعاينة على أرضها ، أو ربما شاهدوا بعض التهاميين والسرويين عند قدومهم الى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث كانوا يتميزون فى هيئاتهم وألبستهم ٠ وكان لاتجاه الرحالة أثر كبير فى تدوين رحلاتهم ، فابن بطوطة ، على سبيل المثال ، خرج من جزيرة سواكن على شاطىء السودان ، متجها نحو اليمن ، مارا ببعض المدن الساحلية الشرقية على البحر الأحمر فدون عنها معلومات لا بأس بها(٢) ، ومنهم من تنقل بين مدن اليمن والحجاز عبر بلاد السراة كالهمذانى الذى دون هو الآخر معلومات قيمة، عن بعض الأجزاء السروية وما جاورها من المناطق ، قد لا نجدها عند غيره من الجغرافيين والرحالة السابقين واللاحقين(٣) ٠

وفى هذه الدراسة سوف يقتصر حديثنا على الجغرافيين والرحالة الذين ذكروا بلاد تهامة والسراة فى مدوناتهم فى الفترة الواقعة مابين القرنين الثالث والثامن الهجريين ٠ والسبب الذى جعلنا لم نتطرق للفترة التى سبقت القرن الثالث ، هو عدم وجود الكتب والمؤلفات التى دونها الجغرافيون المسلمون أثناء رحلاتهم الى هذه الديار فى ذلك الدور ، فلم تظهر بعض المؤلفات ظهورا واضحا الا فى العصر العباسى الثانى ، وعلى وجه التحديد فى أوائل القرن الثالث الهجرى ٠ على أن تلك المؤلفات عنيت فى المرتبة الأولى بوصف أجزاء وأقاليم الدولة

الاسلامية وما يجاورها من البلاد ، أما باقى أخبـــار رحلاتهم فكانت تتضمن أمورا سياسية واجتماعية وفكرية واقتصـــادية ومعلومات متممة للحديث عن البلد أو المنطقة التى يدونون عنها فى مؤلفاتهم .

وتجدر الاشارة الى أن الرحـــالة والجغرافيين الأوائل لم يرد فى مؤلفاتهم ما أوردناه عنوانا لبحثنا (بلاد تهامة والسراة ....) وانما أشاروا اليها كمنطقتين منفصلتين ، وذهب بعض الجغرافيين الى أن الأجزاء الجبلية الممتدة من الطائف الى نجران جزء من سلسلة جبال السروات أو جبال الحجاز الفاصلة ما بين الأغوار التهامية الساحلية فى الغرب والأجزاء الشرقية النجدية فى الشرق(٤) .

وتبدأ جبال الحجاز أو السراة عنـــد الـكثير من الجغرافيين من فلسطين شمالا الى صنعاء جنوبا . وهناك وجهات نظر متباينة حول طولها وعرضها ، وعن حدود الحجاز شمالا وجنوبا ، لكن الشىء الثابت أن جبال السراة لا تتوقف من جهة الجنوب فى نجران أو صـــعدة وانما تمتد الى أقصى بلاد اليمن(٥) ، ولكن ما يهمنا هو دراسة الجزء الواقع بين المنطقتين السابقتين الذكر (الحجاز واليمن) والذى سميناه (بلاد تهامة والسراة) نظرا لأن هذا الجزء لم يأخذ حقه فى التدوين ، ولم يأخذ أيضا نصيبه فى البحث عند المعاصرين ، لهذا قمنا - بعد التوكل على الله - ببذل الجهد ، لنعمل ما فى وسعنا على ابراز صـــورة لاقليم السراة وتهامة ، وان اختلفت مواقع الحواضر فى تلك المنطقتين حسب ما ورد عند الجغرافيين . فالبعض منهم يرى أن جميع ما يقع غـــرب السراة يسمى بتهامة(٦) . واذا أخـــذنا بوجهة النظر الثابتة ، فان الأجزاء الغربية من بلاد السراة الممتدة على ساحل البحر الأحمر تعـــد جزءا من تهامة ، لهذا اسميناها بتهامة تمييزا لها عن المناطق الجبلية من السراة .

وممن تحدث عن بلاد السراة ابن الفقيه فى **كتابه البـــلدان** الذى الفه فى القرن الرابع الهجرى حيث يقول « ... سراة بين تهامة ونجد أدناها بالطائف ، وأقصـاها قرب صـــنعاء ، والسروات أرض عالية ، وجبال مشرفة على البحر من الغرب وعلى نجد من الشرق ، والطائف

من سراة بنى ثقيف ، وهو أدنى السروات الى مكة ، ومعدن البرم هى السراة الثانية ، بلاد عدوان فى برية العرب وبها معدن البلور...»(٧) ويذكر ياقوت الحموى فى كتابه (معجم البلدان) معلومات جيده ، ومكملة لما ذكره ابن الفقيه فيقول « ... والسراة الثالثة أرض عالية وجبال مشرفة على البحر الأحمر من الغرب وعلى نجد من الشرق ، وسراة بنى شبابه ... »(٨) ، ثم يشير الى بعض الأجزاء الواقعة الى الغرب من السروات فيورد « .. وبأسفل السروات أودية تصب الى البحر الأحمر منها : الليث ، وقنونا ، والحسية ، وضنكان ، وعشم ، وبيش ، ومركوب ، وعليب »(٩) . ويتفق كل من القزوينى وياقوت الحموى على أن أهل السراة القاطنين من الطائف شمالا حتى صعدة جنوبا من أفصح الناس لغة ، وأكثر ممن اتسمت ألسنتهم ببلاغة القول ، كهذيل القاطنة بجوار الطائف ، وبجيلة وثقيف والأزد فى وسط السراة(١٠) . وزيادة فى القول يضيف المقدسى ، من أبناء القرن الرابع الهجرى ، معلومات أكثر تفصيلا من سابقيه ، فيذكر أسماء بعض المواقع ما بين صعدة ونجران جنوبا والطائف شمالا ، حيث يقول : « القبائل تأخذ من السروات نحو أهل الشام فتقع فى أرض الأغر بن هيثم ، ثم تخرج الى ديار يعلى بن أبى يعلى ، ثم الى سردد ، ثم الى ديار عنز وائل فى بنى غزيه ، ثم تقع فى ديار جرش ، والعتل وجلاجل ، ثم الى ديار الشقرة بها خثعم ، ثم فى ديار الحارث .... ثم فى شكر وعامر ، ثم فى بجيلة ، ثم فى فهم ، ثم فى بنى عاصم ، ثم فى عدوان ، ثم فى بنى سلول ، ثم فى مطار .... »(١١) ويستدل مما ذكره المقدسى انه ربط ما بين ذكر الاماكن الواقعة بين صعدة والطائف والقبائل القاطنة لها .

ويشير ابن المجاور ، من مؤرخى القرن السابع الهجرى ، الى معلومات تختص بالنواحى الحضارية لأهل تهامة والسراة ، لا نجدها عند غيره ، فيقول : ــ « فأما السرو فانهم قبائل وفخود من العرب ليس يحكم عليهم سلطان بل مشائخ منهم ، وفيهم بطون متفرقون ... »(١٢ وفى مكان آخر يتحدث عن المناطق الواقعة بين صعدة والطائف ، وبخاصة الأجزاء السروية فيذكر أن جميع تلك المناطق قرى متقاربة

بعضها من بعض فى الكبر والصغر ، ثم أن كل قرية تكون وحدة بأهلها. وكل فخذ أو بطن من البدو يقيم فى قرية ، ولا يسكن قراهم ولا ينزلها أحد سواهم(١٣) ، ثم يواصل حديثه عن تلك الأجزاء السروية وأهلها فيقول « وقد بنى فى كل قرية قصر من حجر وجص وكل واحد من أهل القرية له مخزن فى القصر يخزن فيه جميع ما يكون له من حوزة وملكه ، ولا يأخذ منه الا قوت يوم بيوم(١٤) ، ويكون أهـل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيعه ، ويحكم على كل قرية شيخ من مشائخها كبير القدر والسن ذو عقل وفطنة ، فاذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشير عليهم ويحكم فيهم(١٥) ، وجميع من فى هـذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان، ولا يؤدون حراجا ، ولا يسلمون قطعة ، وكل واحد منهم مع هوى نفسه ، وبهذا لا يزال القتال دابهم ويتغلب بعضهم على مال بعض ، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو ، وهم طول الدهر على هذا الفن ، وجميع زرعهم الحنطة والشعير وشجرهم الكروم والرمان واللوز ويوجد عندهم من جميع الفواكه والخيرات ، واكلهم السـمن والعسل ، وهم فى دعة الله وأمانه ، وهم فخوذ يرجعـون الى قحطان وغيهم من الأنساب ... »(١٦) .

وقد أورد لنا ابن المجاور ، من رحالة القرن السابع ، نصا يؤكد ما تحويه منطقة السراة من حصون ومخازن لغرض الحـرب وتخزين المواد الغذائية عند الحاجة . وما نشاهده الآن ما هو الا رموز تدل على صحة الروايات السابقة . وقد تبين لنا فى مقابلاتنا مع كبار السن فى عدة أماكن من تهامة والسـراة حول الحصـون ومهامها أن لها مهمتين ، الأولى مهمة حربية ، والثانية أنها تعـد مستودعات لخزن الحبـوب ، كما تبين لنا من الأقوال والمشاهدة أن البنية الاجتماعية فى تلك المناطق تعتمد على القبيلة التى تعد الوحدة الأساسية فى المجتمع ، ويعد شيخ القبيلة السيد الحاكم الذى لا ينازعه أحد فى سلطانه ، وهو الذى يعلن الحرب ، وهو الذى يطفئها مع المشايخ الآخرين . ولهذا ينعم بقية الأفراد فى المجتمع القبلى بالأمن بمقـدار ما يمنحه الشـيخ لهم ، ويصحب الحروب عادة السلب والنهب ، وتسود شريعة الغاب ، فالقوة هى الحق . وليس الحق هو القوة .

وينتقل ابن المجاور فى حديثه عن بلاد السراة الى ذكـــر بعض الأجزاء التهامية ، فيذكر ميناء السرين(١٧) ، ويسميه بناية الفرس ، على ساحل البحر الأحمر(١٨) ، ولا ندرى لماذا وصفه بهذه الصفة ، هل لأن مبانيه وبعض سكانه كانوا من الفرس ، أم ماذا ؟ ويشير أيضا الى بلدة حلى(١٩) ، وهى تقع الى الجنوب من السرين فيقول عنها هى « بلد فيه جامع ومنـــارة ، وأول من أخـــربها غازى بن متكلان من بنى حارث الكردى فى أيام دولة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب(٢٠) ، وبقى المكان على حاله الى أن أعاد بناءه موسى بن على بن عطية ، وهو الى الآن مالكها ، وجميع هذه الأعمال لبنى كنانة ... »(٢١) ولم يكن ابن المجاور هو الوحيد الذى انفرد بالحديث عن السرين وحلى وانما أشار المقدسى الى هاتين البلدتين واضاف اليهما بلدتى بيش وعثر ، ثم ذكر عن السرين أنها بلدة صغيرة لها حصـــن وبها جامع ثم قال عن علاقتها ببلاد السراة أنها « فرضة السروات ، والسروات معدن الحبوب والخيرات والتمور والعسل الكثير » ثم قال عن ديار السراة « ولا أدرى هى مدن أم قرى لأنى ما دخلتها »(٢٢) ، وأشار الى حلى فى عهده بأنها مدينة ساحلية عامرة(٢٣) ، أما بيش فوصفها بطيب الهواء وعذوبة الماء ، وأشار الى أن السلطان يقتنى بها بيتا الى جانب الجامع(٢٤) ، ويذكر (عثر) فيقول : هى « ناحية جليلة عليها سلطان يرأســـها ، ومدنها نفيسة ، وهى مدينة كبيرة طيبة مذكورة لأنها قصـــبة الناحية وفرضة صنعاء وصعدة ، بها سوق حسن وجامع عامر يحمل اليهم الماء من بعد ... »(٢٥) ويبدو أن المقدسى يمتاز بدقة المشاهدة والأمانة فى الكلمة بدليل ما ذكره عن بلاد السراة عندما قال : ـ لا أدرى هى مدن أم قرى لأنى ما دخلتها .

وفى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يبرز أحـد الرحالة الكبار ممن ذاع صيتهم ، وهو ناصر خسرو الفارسى الذى حج أربع مرات فيما بين ٤٣٨ ـ ٤٤١هـ ، ثم كتب رحلته المعروفة بـ (رحلة ناصر خسرو) فذكر فيها بعض المعلومات عن بــلاد تهامة والسراة ، نقـــلا من بعض الرواة ، لأنه لم يغادر مكة المكرمة والطائف صوب الجنوب ، فقال عنها « اذا غادرت مكة وسرت جنوبا ، وصلت بعد مرحلة واحدة اليمن ،

وجل السواحل الواقعة على الساحل الجنوبى هى من أرض اليمن·وأرض الحجاز وارض اليمن متصلتان ، وأهل الحجاز واليمن لسانهم العربية ، وتسمى ارض اليمن حمير ، وأرض الحجاز أرض العرب » **ثم يقول فى** مكان آخر « وارض العرب تمتد من **الكوفة الى مكة** ، **أما من مكة الى** عدن فيسمى أرض حمير »(٢٦) ·

وفى اشارة أخرى مما دونه ناصر خسرو عن هذه البلاد ، ذكر أن أرض حمير تنقسم الى ثلاثة أقسام ، **القسم الأول : تهامة ويتضمن ساحل** بحر القلزم ، ويقع هذا الجزء فى الناحية **الغـــربية من أرض حمير** · والقسم الثانى من تهامة سماه نجدا ، **ويذكر أن بهـــذا الجزء مناطق** شديدة البرودة ، ومضائق جبلية ، وحصونا محكمة · **أما القسم الثالث** من تهامة ، فعلى حد قوله ، **يقع الى الشرق من الجزئين الأولين** ، ثم يذكر بعض حواضر ذلك الجزء مثل نجران وبيشة ، بل ويذكر أن بهذا الجزء قرى كثيرة ، وبوادى شاسعة ، كما أن فى كل بادية حاكما مستبدا لا يخضع لأية سلطة مركزية · ثم يشير الى أن مساحة هذا الجزء من تهامة مائتا فرسخ طولا فى مائة وخمسين فرسخا عرضـــا ، **ثم يقـــول** « ويكثر السكان فى هذا الجزء الشرقى من تهامة »(٢٧) ·

أما قول ناصر خسرو «اليمنوموقعها» فلعله يقصد حدودها من جهة الشمال على بعد مرحلة واحدة من مكة المكرمة صوب الجنوب · ومسمى اليمن مثار نقطة خلافية عند الجغرافيين والرحالة ، حيث يرى غير ناصر خسرو أن المقصود باليمن اليمن السعيد **الذى يعود بأســـمه الى كثرة** انتاجه ، وهو يضم الحواضر الكبرى فى اليمن ، **كصنعاء** ، **وصعدة** ، وزبيدة وغيرها · هذا فى حين قال بعض الجغرافيين أن كل ما يقع جنوب الكعبة فهو يمن · ولكن الرحالة ناصر خسرو لم يقف عند حد القول بهذا القولفقط ، وانما أردف تسمية أخرى لليمن زيادة فى الايضاح ، فسمى كل ما يقع جنوبى مكة ببلاد حمير ، وسمى أرض الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) بأرض العرب ، وهذا **رأى لا نتفق معه فيه** ، لأن حمير جزء من العرب ، ثم ا نفى عهده **بعض قبائل حمير كانت تقطن المناطق** الواقعة ما بين صنعاء ونجران وربما الى بيشـــة · أما غالبية المنطقة

الممتدة من مكة المكرمة والطائف شمالا وحتى جازان ونجران وصعدة جنوبا فمعظم سكانها من القبائل العربية الازدية المختلفة فى البطون والعشائر ، الى جانب قبائل عربية مضرية نزحت من المراكز والمناطق الواقعة فى شمال الجزيرة العربية ووسطها والممتدة الى جنوبها .

أما أرض حمير ، فى رأى ناصر خسرو ، فتقسم الى ثلاثة أقسام ، وهذه الأقسام الثلاثة هى المسماه عنده بتهامة . وحقيقة القول ، ان اسم تهامة لا يشمل الا الجزء الأول ، أما القسمان الآخريان فهما من بلاد السراة ، وبخاصة الثانى . أما الثالث فهو منطقة النجود والبوادى الواقعة فى الأجزاء الشرقية من بلاد السراة . واشار خسرو الى كثرة القرى بالأجزاء الشرقية ، والى استبداد شيوخ القبائل فى ذلك الجزء وهو بذلك يؤيد ما أشار اليه ابن المجاور فى أوائل القرن السابع الهجرى.

ويشير بعض الجغرافيين الى الحياة الاجتماعية عند بعض السروية أو التهامية فيذكر ابن المجاور عن لباس النساء فى بلدتى السرين وخلى وما حولهما ، فيقول « ليس يلبس نساؤهم الا الادم ، وذلك ان المرأة تأخذ طاقتين من قديم تخيط بعضه الى بعض ثم تلبسه »(٢٨) ويتكلم فى مكان آخر عن نساء الأجزاء التهامية الساحلية ، فيشير الى أن مصاغهم (النحاس) والرصاص ، وجواهرهم الودع(٢٩) ، بل ان المرأة تطيل شعرها ، وتدهنه بالدهن ، وتغسله بالسدر ، فاذا طال ضفرته الى ضفيرتين طويلتين(٣٠) . ولكثرة الجلود ودباغتها فى كل من صعدة ونجران وجرش ، كانت تستخدم لباسا للجسد ، أو غطاء اثناء الليل ، بل وتصنع منها النعل وأدوات أخرى عديدة(٣١) . ومن الألبسة التى كان يلبسها أهل تهامة والسراة بعض الملاحف ، والأقنعة ، والجباب والبرد التى كانوا يجلبونها من الأسواق الكبيرة فى حواضر الحجاز واليمن(٣٢) ، كما يلبس الرجال والنساء ألبسة سميكة خاصة فى الحواضر الجبلية ذات المناخ البارد ، حيث يؤتى بهذه الألبسة من عدن أو من بعض المراكز الحضارية فى بلاد مصر أو الشام أو بلاد فارس والعراق .

ويذكر ابن المجاور بعض العادات التى كانت جارية بين أهل تهامة والسراة ، حيث كان الرجال يخضبون أيديهم وأرجلهم مثل النســاء فى مناسبات الأعياد والزواج وغيرها(٣٣) . كما ذكر عن السرويين بعض العادات فى الجنائز فقال : « وأهل السراة يرثون البنت عند الموت ... وللقوم عصبية عظيمة اذا مات أحد لا يحمل جنازته الا الشبان ، ومع ذلك يقولون : سلم سلمك الله هذا ما وعد الله نعم القاضى ! وهم يتداولون بالنعش الى المقبرة ، وهم الذين يحفــرون القبــر ... »(٣٤) ومن أطعمتهم اللحم ، والسمن ، والخبز ، ومن اكثر الاسماء شيوعا بينهم سالم ، وغانم ، وقاسم ، ومفرج ، ومفرح ، وراشد وناجى ، وجابر ، ولاحق وصابر ، وسعيد ، ومساعد ، وظافر ، وفاتك ، ومالك ، وغيرها أسماء كثيرة(٣٥) . ومن حسن أهتمامهم بالضيف أنه اذا أطعم لص أو قاتل ، زاد صاحب البيت ، فانه لا يقتل الا بعد خــروجه من البيت ، ويكون ذلك بعد مــدة من الزمــن حتى ينتهى مفعــول الزاد الذى أكله(٣٦) . ويشــير ابن المجــاور الى بعض عــادات السرويين فى الكرم ، خاصة ممن تغلب عليهم البداوة ، حيث يؤخــرون الغداء أو العشاء من أجل ضيف يقدم عليهم ، فان حصل ذلك ، ينحر له على قدر مكانته ، فقد ينحر له جمل ، ويقدم له رأس الجمــل ، وان كان عابر سبيل يذبح له شاه ، ويكسر صــاحب الدار الرغيف الى ثلاث أو أربع كسرات يضعهن أمام الضيف تكريما له ، ثم يقدم له اللحم المطبوخ بعد أن يثرد عليه الخبز ، ويهرق عليه السمن أو المرق ، فيشرب بادىء الأمر المشروب ، ثم يوزع اللحم على الثريد ، وقد يطلق ، أحيانا ، على هذا الصنف من الطعام اسم العربية(٣٧) . ومن عادات السرويين أيضا أن يكون فى مخزنهم صنفان من الحبوب ، ذرة وقمح ، يقدم خبز القمح للضيف ،وخبز الذرة للأسرة ، وهذا السلوك ينم عن ايثار الضيف وتقديمه على الأهل . وما قصة الرجل الذى ينحر بعيره لضيوفه ، أو يقدم لهم أفضل ما لديه وهو فى حالة الفقر الا دليل واضــح على أعلى مراتب الايثار ، وفى هذا يقول الشاعر : ـ

الجــود طبعى ولكن ليس لى مــال
وكيف يصنع من بالقــوت يحتــال

(مجلة المؤرخ العربى)

فهاك خطــب الى أيـام ميســرتى
دينــا على ولى فى الغيب آمـــال

واشارة ابن المجاور وناصر خسرو الى أن بلاد تهامة والسراة كانت تحكم بشيوخ القبــائل المستقلين بسلطتهم فى ديارهم ، قول نوافقهما عليه من حيث المبدأ ، ومن حيث المركز الاجتماعى الذى تحقق لشيوخ القبائل العربية على مر التاريخ قبل الاسلام وبعده(٣٨) ، ولكن فيما عرف فى ظل الدولة الاسلامية ، وبخاصة بعد انتقال الخلافة من الحجاز الى بلاد الشام ثم العراق فى العهدين الأموى ثم العباسى ، ان شـــبه الجزيرة العربية تحول الى عدة ولايات تابعة لمركز الخلافة . ومن أكبر ولايات شبه الجزيرة منطقتى الحجاز واليمن،وبخاصةالأجزاء التى تشمل الحواضر الحجازية واليمنية الكبرى،وظلت المنطقة الواقعة بين المنطقتين السابقتين ، والتى هى محور دراستنا فى هذا البحث ، تابعة فى أغلب الأحيان لوالى الحجاز ، الذى اتخذ مكة المــكرمة أو المدينة المنـورة مقرا له(٣٩) . ومن الواضح فى بعض كتب التراث الاسلامى ، وبخاصة كتب الجغرافيا والرحلات ، ان منطقة تهامة والسراة كانت مقسمة الى مناطق أو مراكز حضارية ، أطلق على كل قسـم اما مخلاف ، أو عمل وجمعه أعمال أو كورة وجمعها كور(٤٠) . فاليعقوبى تحت عنوان سماه (مكة وأعمالها) قام بتعديد أجزاء عديدة تابعة من الناحية الادارية الى والى مكة المكرمة ، ومن تلك الأعمال الواقعة الى الجنـــوب من مكة والطائف ذكر ما يلى فى الأجزاء السروية : « تبالة وأهلهـــا خثعم ، النجران لبنى الحارث بن كعب كانت منازلهم فى الجاهلية ، والسراة وأهلها من الازد(٤١)» . وفى الأجزاء التهامية أشار الى عشم ، وذكر أنها معدن الذهب ، وبيش ، والسرين ، والحسبة ، وعثر ، وكل هذه المناطق تقع على ساحل البحر الأحمر ما بين مكة المكرمة شمالا وجازان جنوبا(٤٢) . وفى موضع آخر ذكر أن لليمن أربعة وثمانين مخلافا ، وأغلبها حول حواضر اليمن الكبرى ، ولكنه أورد بعض الأجزاء التى تقع ضمن نطاق دراستنا ، كجرش فى بلاد السراة ، وبيش ، وقنـــونا ، وبيه ، وضنكان ، والعرش من جازان فى الأجزاء التهامية(٤٣) . ويورد ابن خرداذبة بعض الايضاحات عن مخاليف مكة المكرمة ، فيذكـر أن

الطائف ، وعكاظ ، وبيشة ، وتبالة ، وجرش ، والسراة ، ونجران فى الأجزاء السروية ، وضنكان ، وعشم ، وبيش فى الأجـــزاء التهامية ، وجميعها تابعة لامارة مكة المكرمة أو الحجاز بشكل عام(٤٤) . ويخالف المقدسى اليعقوبى وابن خرداذبة فى بعض ما ذكر حيث يورد أن نجران، وجرش ، وتربة ، والسراة فى الأجزاء الجبليـــة ، وبيش ، وعثر ، وحلى ، والسرين من مخاليف اليمن(٤٥) . ولـــكن الادريسى يخالف المقدسى ويتفق مع اليعقوبى وابن خرداذبة فيقـــول عن بعض مخاليف مكة ، وبخاصة الواقعة بين الطائف ونجـــران « ولمكة مخاليف وهى الحصون فمنها بنجد الطائف ونجران... وتربة وبيشة وجرش والسراة» ثم يضيف ضنكان ، والسرين ، وعشم ، وبيش فى الأجزاء التهامية(٤٦). وفى ضوء هذه الأقوال نستطيع القول أن بلاد تهامة والسراة كانت فى الغالب تابعة لولاية مكة المكرمة ، بل لقد اثبتت بعض الروايات التاريخية ، أن والى الحجاز كان فى بعض الأحيان يمنح تعيينا من الخليفة يتضـــمن ولايته على الحجاز واليمن معا ، وأحيانا اخـــرى تضاف له ولاية بلاد اليمامة الى جانب المنطقتين السابقتين(٤٧) . أما المنطقة التى تقع بين الحجاز واليمن ، والتى أطلقنا عليها اسم (تهامة والسراة) فبدون شك كانت تتبع اداريا والى مكة المـكرمة من حيث دفع الزكاة الى بيت مال المسلمين ، وبالتالى الولاء للخلافة الاسلامية . لكن الذى لا شك فيه هو ما أشـــار اليه ابن المجاور وناصر خسرو من حيث اضطراب الأمن وانتشار الفوضى بين أهل هذه البلاد واستفحال القلاقل بين سكانها ، بل ان شيوخ القبائل كانوا أقـــوى عنصر فى المجتمع فكانوا أصحاب الحل والعقد ، واليهم تؤول جميع الأمور الخاصة بأبناء مجتمعاتهم ، فضـــلا عن العلاقات الخارجية بينهم وبين غيرهم من خارج حدود منطقتهم .

ولم يكن سكان أهل تهامة والسراة منغلقين على أنفسهم ، بل كان بعضهم يسافر الى حواضر شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة مدن الحجاز الكبرى ، فيعملون بالتجارة ، ويؤدون الحج والعمرة ، بل لقد امتلك بعضهم الدور والعقار(٤٨) . وقـــد ذكر لنـــا الجغرافيون والرحـــالة المسلمون الأوائل بعض المعلومات القيمة التى تؤكد ذهاب اعداد كبيرة

من السرويين الى مكة المكرمة من أجل أداء الشعائر الدينية ، والمتاجرة فى بعض سلعهم التى يجلبونها معهم من بلادهم الى أسواق مكة أثناء مواسم العمرة فى رجب ورمضان وفى موسم الحج · وأول من شاهدهم ودون لنا ملاحظاته عنهم فى أسواق مكة المكرمة ، الرحالة الفاسى ناصر خسرو خلال القرن الخامس الهجرى ، حيث أشار الى كثرتهم فى مكة أول رجب من كل سنة ، وفى عيد الفطر ، وفى موسم الحج(٤٩)· وفى القرن السادس الهجرى وبداية القرن السابع زار مكة المكرمة رحالة أندلسى ، هو محمد بن جبير ، فوصف أحوال السرويين الذين يأتون من من بلاد السراة الى مكة المكرمة ومعهم قوافل الأرزاق ، والفواكه والتمر ، فأبدى سروره واعجابه بذلك ، ووصف أولئك القوم البسطاء ، حسب ما شاهدهم ، بالشجاعة ، والنجدة ، والمروءة(٥٠) · ويؤكد الرحالة ابن المجاور ما أورده كل من ناصر خاسرو وابن جبير ، فيشير الى أن السرويين اذا دخلوا مكة المكرمة ملئوها بالحنطة ، والشعير ، والسويق ، والعسل ، والذرة ، والدخن ، والزبيب ، واللوز، وما يشابه ذلك · ولذلك يقول أهل مكة « حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب ، والسرو أمنا تكسب منه القوت »(٥١) · وعندما زار ابن بطوطة مكة المكرمة فى القرن الثامن للهجرة ، شاهد السرويين فى أسواقها يبيعون ويشترون ، وشاهدهم يطوفون حول الكعبة يؤدون الحج أو العمرة ، وقد أورد فى رحلته نبذا مما شاهده فى حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، فقال : - « ··· ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز فترخص الاسعار بمكة ، ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق · ولولا أهل هذه البلاد - ويقصد أهل السراة - لكان أهل مكة فى شظف من العيش · ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ، ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ، ووقع الموت فى مواشيهم ، ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم ، وظهرت فيهم البركة ونمت أموالهم · فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها ، اجتمعت نساؤهم فأخرجنهم ، وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين · وبلاد السرو مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات ، وأهلها فصحاء الألسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد · وهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها ، متعلقين بأستارها ، داعين بأدعية تتصدع

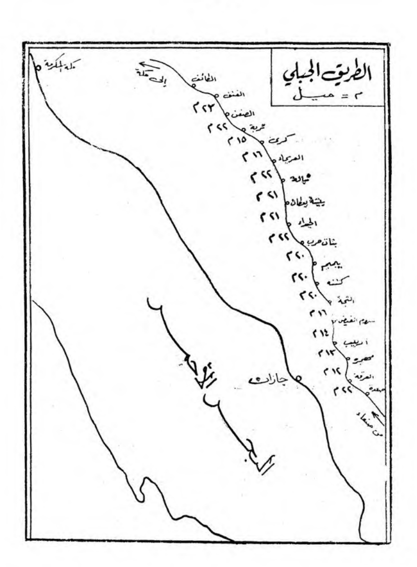
لقوتها القلوب ، وتدمع العيون الجامدة فترى النــاس حولها باسطى أيديهم ، مؤمنين على أدعيتهم ، ولا يمــكن غيرهم الطــواف معهــم ، ولا أستلام الحجر لتزاحمهم على ذلك . وهم شــجعان انجاد ولباسهم الجلود ، واذا وردوا مكة هابت أعــراب الطــرق مقدمهم ، وتجنبوا اعتراضهم ، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم»(٥٢) وليس ابن بطوطة هو الذى أنفرد بهــذه الصفحات بل ذكرها بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة ، فأثنوا على خصوبة تربة السراة وكثرة خيراتها، وعلى ما تحلى به أهلها من السلوك الجيد والقيم الطيبة(٥٣) . كما أشار الى فصاحة السنتهم وخلوها من اللحن كل من الهمــذانى وابن جبير والقزوينى(٥٤) .

وكانت الصلات فيما بين أهل تهامة والسراة وجيرانهم مســتمرة ودائمة لوجود الطرق التى تربط حواضر اليمن (صنعاء ، وصعدة ، وزبيدة ، وغيرها) بحواضر الحجاز (مــكة المــكرمة ، والطائف ، وجدة ، والمدينة المنورة) . ومن الطبيعى أن تلك الطرق الواصلة بين اليمن والحجاز لابد وأن تمر بمحطات ومراكز حضارية فى منطقة تهامة والسراة المعنية فى هذه الدراســة . وبعد البحث فى كتب الرحــالة والجغرافيين الأوائل ، وجدنا غالبيتهم تشــير الى طريقين أســاسيين ، الأول الطريق التى تخرج من مكة المكرمة حتى الطائف ، ثم تاتى عبر الأجزاء الشرقية لبلاد السراة حتى تصل الى صعدة ثم صنعاء ، والثانى يخرج من مكة المكرمة عبر الساحل حتى تصل الى بلد العرش فى جازان، ثم تواصل السير الى بلدة زبيد فى اليمن . ومن الجغرافيين الذين أشاروا الى هــذين الطريقين ، وبخاصــة الطــريق الجبلية السروية ، ابن خرداذبة(٥٥) ، وقدامة(٥٦) ، والحـربى(٥٧) ، واليعقوبى(٥٨) ، والهمذانى(٥٩) ، والمقدسى(٦٠) ، والادريسى(٦١) ، وجميع كتبهم أجمعت على أسماء أغلب المحطات التجارية الهامة الواقعة بين صعدة والطائف فى الأجزاء السروية ، وتوعا ما على المحطات الواقعــة على الطريق الساحلى بين مكة المكرمة وجازان(٦٢) ، ولهذا آثرنا الاعتماد على كتاب الهمذانى (صفة جزيرة العرب) لنذكر المحطات على هذين الطريقين مع ارفاق رسم بيانى بهما . والسبب الذى جعلنا نعتمد على

الهمدانى دون غيره من المصادر التى ذكرنا والتى أشارت الى هـــذين الطريقين ، هو معرفته القوية ببلاد شبه الجزيرة العربية ، فلقـــد ولد وعاش أغلب حياته فى بلاد اليمن ، ثم أنه سافر عـــدة مرات من حواضر اليمن الى حواضر الحجاز ، بل وكانت مهنته فى شبابه جمالا يذهب مع التجار الذين كانوا يذهبون ويأتون ما بين الحجاز واليمن ، ولهذا لابد أن يكون للجغرافيين والرحـــالة معرفة بأحـــوال ومحطات وأطوال الطرق الواصلة بين مدن الحجاز ومدن اليمن والمارة ببلاد تهامة والسراة، الى جانب أنه الجغرافى الوحيد الذى رسم لنا طول الطريق الجبلى الذى يأتى من صنعاء الى الطائف ثم مكة المكرمة ، فذكـــر المسافات بين كل مرحلة وأخرى بالأميال ، ومثل هذه الأسباب تجعلنا فى عداد المنصفين اذا اعتمدنا على كتابة صفة جزيرةالعرب فى ذكر محطات هذين الطريقين الواصلين بين الحجاز واليمن،مع العلم أننا لن ننسى ماذكره الجغرافيون الآخرون عن رخاء بعض المحطات التى كانت على طول الطريقين .

ويشير الهمدانى الى خروج الطريق الجبلى من صنعاء الى صعدة مع ذكر الأطوال بين هاتين المدينتين ، ثم يورد قوله : ـ « من صعدة الى العرفة اثنان وعشرون ميلا، ومن العرفة الى المهجرة اثنا عشر ميلا ،ومن المهجرة الى أرينب ثلاثة عشر ميلا ، ومن أرينب الى سروم الفيض أربعة عشر ميلا ، ومن سروم الفيض الى الثجة ستة عشر ميلا ، ومن الثجة الى كتنة عشرون ميلا ، ومن كتنة الى يبمبم عشرون ميلا ، من يبمبم الى بنات حرب عشرون ميلا ، ومن بنات حـــرب الى الجســـداء اثنان وعشرون ميلا ، ومن الجسداء الى بيشة احدى وعشرون ، ومن بيشـــة الى تبالة احدى وعشرون ميلاً ، ومن تبالة الى القريحاء اثنان وعشرون ميلا ، ومن القريحاء الى كرى ستة عشر ميلا ، ومن كـــرى الى تربة الى الصفن اثنان وعشرون ميلا ، ومن الصفن الى الفتق ثلاثة وعشرون ميلا»(٦٣) (انظر الخريطة رقم (١)) .

أما طريق الساحل فلم يشر الهمـــدانى فيه الى المســـافات بين المحطات ، وانما ذكر الطريق القادم من مـــدن اليمن الكبرى حتى بلد



الطريق الجبلي
م = ميل
مكة المكرمة
إلى مكة
الطائف
٢٣ م
الصفن
٢٢ م
تربة
١٥ م
كرى
١٦ م
العرجاء
٢٢ م
بيشة يعطان
٢١ م
٢١ م
الجراء
٢٢ م
بنات حرب
٢٠ م
٢٠ م
٢٠ م
النجة
١٦ م
سهوم الفيض
١٤ م
١٣ م
١٢ م
العرقة
٢٢ م
صعدة
من صنعاء
جازان
البحر الأحمر

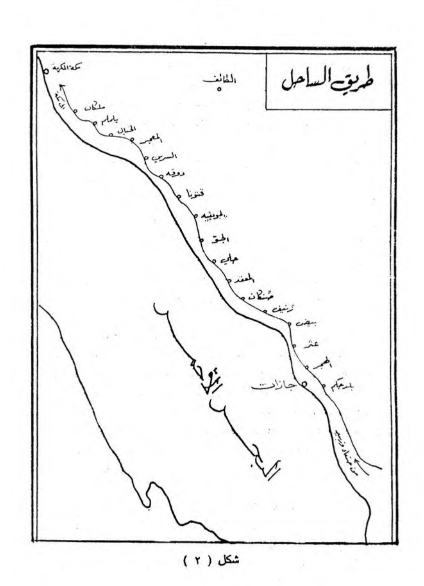
حكم فى جازان ، ثم الى الهجر ، فعثر ، فبيض ، فزنيف ، فضنكان ، فالمعقد ، فحلى ، فالجو ، فالجوينية ، فنونا ، ثم دوقة ، فالسرين ، فالمعجر ، فالخيال ، فيلملم ، فملكان ، فمكة المكرمة(٦٤) (انظر الخريطة رقم (٢)) .

ويتحدث ابن خرداذبة ، وقدامة ، والادريسى عن الطريق السروية التى تربط بين الطائف شمالا وحواضر اليمن الكبرى جنوبا ، والتى كانت أنشط الطرق الواصلة بين الحجاز واليمن ، فكانت تستخدمها الجيوش أثناء ذهابها وايابها ما بين البلاد الحجازية واليمانية ، بل وكان يستخدمها التجار وموظفو الدولة ، كالأمراء والقضاة ، والعلماء وجباة الزكاة وغيرهم . ولهذا فقد أشاروا الى رخاء بعض المحطات التجارية التى كانت على طول الطريق ، فابن خرداذبة أشار الى أن الفتق وتربة قريتان كبيرتان ، أما تبالة وبيشة فذكر أنهما مدينتان كبيرتان بهما من العيون والنخيل الشىء الكثير وأورد بيت شعر عن بيشة لحميد بن ثور الهلالى حيث يقول : -

اذا شئت عنتنى بأجزاع بيشة
الى النخل من تثليث أو بيبمبما

وواصل حديثه عن الجسداء وبنات حرب ، وسروم راح التى أطلق عليها الهمدانى سروم الفيض ، والتى تقع الى الشرق بثمانية أميال من جرش ، فذكر تعدد الآبار بها ، وأشار الى أنها محطات تحتوى على قرى وسكان من عشائر مختلفة(٦٥) .

ويورد لنا قدامة معلومات أكثر دقة من ابن خرداذبة حيث عدد الأماكن التى ذكرها الهمدانى ، وأعطى بعض الأوصاف الحضارية لبعض تلك المحطات فقال « .. ومن الفتق الى تربة ، وهى قرية عظيمة بها عيون جارية وزروع ، وهى قرية خالصة مولاة المهدى ، ومن تربة الى صفر ، وهى منزل فيه داران لصاحب البريد فى الصحراء ، وفيه ماء عذب من بئرين ، ومن صفر الى كرى ، منزل فيه نخل وعين عذبة .



طريق الساحل
مكة المكرمة
الطائف
ملكان
يلملم
السرين
دوقة
قنونا
حلي
المعقد
زنيف
بيض
عثر
الهجر
جازان

شكل (٢)

وليس الا منزل لصاحب البريد ، ومنزل القوافل ، وهى فى بطن واد كثير النخل ، ومن كرى الى رنية ، منزل فى صحراء ، ونخل وعين عظيمة عذبة ، والعمران حولها ، ومن رنية الى تبالة قرية عظيمة كثيرة الأهل مضرية لقيس ، وفيها منبر وعيون وآبار ، ومن تبالة الى بيشة ، قرية عظيمة كثيرة الأهل فى بطن الوادى ، ظاهرة الماء من عيون وآبار ، مضرية قيسية ، ومن بيشة الى الجسداء ، قرية عظيمة ، منزل اعراب من قيس ، ومن جسداء الى بنات حرب ، قرية عظيمة فيها منازل كثيرة وزروع ، ومن بنات حرب الى يبمبم جرش نحو أربعة عشر ميلا ، ومنه الى كثبه قرية عظيمة ، ومنازل وقصور وآبار فى صحراء بينها وبين جرش ثمانية أميال ، ومن كثبه الى الثجه موضع البريد ، وفيه بئر ماء ينزله القوافل ، وهو فى بلاد زبيد ، وحوله اعرابهم ، ومن الثجه الى سروم راح ، وهى قرية عظيمة فى صحراء فيها عيون كثيرة الكروم ، فيها فخذ من همدان يقال اهم جنب ، ومن سروم راح الى المهجرة ، وهى قرية عظيمة جبلية كثيرة العيون والأهل ، وفيما بينها وبين شروم راح شجرة تسمى طلحة الملك(٦٦) وهذه الشجرة حد ما بين اليمن والحجاز ، وهى شجرة تشبه شجرة الغرب ... ومن المهجرة الى العرقه وهى أول عمل اليمن ، وهى الى عمل صعدة(٦٧) ويتعرض الادريسى لنفس الطريق والمحطات التى ذكرها الهمدانى ، وابن خرداذبة ، وقدامة ، ويتفق مع قدامة فيما ذكر عن شجرة (طلحة الملك) التى قيل أنها كانت الحد بين الحجاز واليمن ، ويضيف معلومات اكثر عن مدينتى تبالة وبيشة ، فيذكر تبالة وما بها من عيون كثيرة ، ومزارع ، ثم يقول : - « وهى صغيرة فى منخفض اكمة » أما بيشة فهى أيضا مدينة صغيرة متحضرة جيدة المساكن ، حسنة البقعة ، وبها ماء ونخل كثير(٦٨) .

ويلاحظ على ما ذكر الأدريسى وقدامة وغيرهما رخاء بعض المدن التى تقع على قارعة الطريق الواصل بين اليمن والحجاز ، عبر الأجزاء السروية(٦٩) ، مع العلم أن قدامة أوضح لنا نقطة مهمة ، وهى وجود محطات للبريد ، ودور خاصة بالأعمال البريدية . ومما يؤكد قوله أن خلفاء المسلمين الأوائل ، وخاصة الأول من بنى العباس ، نشطوا البريد

الذى كان يربط أجزاء شبه الجزيرة العربية بعاصمتهم فى مدينة بغداد ، فكانوا يأمرون باصلاح الطرق التى يرتادها بريد الخلافة ، ويزودون عمال البريد بكل ما يحتاجون اليه من زاد ورواحل ، ووسائل بريدية أخرى(٧٠) ، ولهذا فالطرق الجبلية الواصلة بين اليمن والحجاز كانت من أهم الطرق ، بل وفى بعض الأحيان كان يطلق عليها طريق السلطان، ولذا فلابد وانها حظيت ببعض الاصلاحات لأجل استخدامها من قبل جيوش وموظفى الخلافة العباسية فى بغداد(٧١) ٠

ويلاحظ اختلاف بسيط بين ما ذكره قدامة والهمدانى حيث عدد الأخير المحطات الواقعة فى الأرض السروية القريبة من الطائف ، ومنها الى جهة الجنوب ، فذكر الفتق ثم الصفن ، ثم تربة ثم القريحا ، ثم تبالة الى أن ذكر كتنة ، فالثجة ، ثم سروم الفيض ، واستمر تعداده على باقى المحطات حتى وصل صعدة (انظر الخريطة رقم (١)) ٠ اما قدامة فلم يسلك نفس الترتيب فى ذكر المحطاتوانما ذكر مدينة تربة بعد الفتق، ثم قال : ــ « ومن تربة الى صفر » فكلمة صفر هنا ربما أنها صحفت من اسم الصفن الذى ذكره الهمدانى ، والتصحيف كثيرا ما يرد فى كتب التراث اما التقديم والتأخير فى ذكر المحطات فنميل الى قول الهمدانى لنفس الأسباب التى ذكرناها سابقا ، والتى جعلتنا نعتمد على كتابه (صفة جزيرة العرب) ٠ وذكر محطة كثبة عند قدامة وكتنة عند الهمدانى ربما نتج عن قلب التاء ثاء ، وهذا كثيرا ما يحدث عند الكتاب أو النساخ ، وسروم الفبض عند الهمدانى أو سروم راح عند قدامة انما تعنى منطقة واحدة تقع الى الجنوب من محطة الثجة التى أشار اليها كل من الهمدانى وقدامة ٠ أما الاشارة الى شجرة طلحة الملك بأنها الحد بين اعمال الحجاز واليمن فهذا مما يؤكد أن نفوذ الوالى فى الحجاز كان يمتد جنوبا الى المناطق القريبة من شمالى مدينتى بجران وصعدة ٠

وبعد الاشارة الى ما سبق ذكره نجد أن الجغرافيين والرحالة المسلمين الأوائل حفظوا لنا بعض المعلومات الحضارية القيمة عن بلاد تهامة والسراة ، ولكن الذى استطعنا الحصول عليه فى هذه الدراسة لا يكاد يفى بالغرض ، فلا زالت أوضاع هذه المناطق المعنية مجهولة ،

مع العلم أنها من أغنى أجزاء شبه الجزيرة العربية بكثافة أشجارها ، وتنوع خيراتها ، وكثرة سكانها ، وصفاء هوائها ، وكثرة أمطارها ، الى غير ذلك من الصفات الملائمة لخلق ظروف مناخية واجتماعية مناسبة للعيش فيها ، وقد يقيض الله من أبناء هذه البلاد ، من يستكمل أو يعثر على مالم نستطع استكماله أو العثور عليه ، أو من يصوب ماقد أخطانا فيه . ورغم أن جهدنا جهد المقل ، الا أننا نرى فيه بداية عمل لبحوث أخرى فى المستقبل ، وكل ما نرجوه التوفيق والسداد ، والله من وراء القصد .

« الضميمة الأولى »

أسماء محطات الطريق الساحلى التى وردت فى أغلب المصادر التى استقينا منها بحثنا .

الهمدانى	اليعقوبى	الادريسى	ابن قدامة	ابن خرداذبة
ضنكان	ضنكان	ضنكان	ضنكان	ضنكان
حلى	—	حلى	حلى	حلى
قنونا	قنونا	قنونا	—	قنونا
دوقه	—	دوقه	—	دوقه
—	عليب	غليب	عليب	عليب
—	الليث	—	الليث	الليث
يلملم	يلملم	يلملم	يلملم	يلملم
ملكان	ملكان	ملكان	ملكان	ملكان
مكة	مكة	مكة	مكة	مكة

« الضميمة الثانية »

أسماء محطات الطريق الساحلى التى وردت فى بعض المصادر
دون المصادر الأخرى

الهمدانى	اليعقوبى	الادريسى	ابن قدامة	ابن خرداذبة
—	—	خولان ذى سحيم	خولان ذى سحيم	خولان ذى سحيم
—	بيش	—	—	—
—	ريـيم	—	—	—
—	—	بيئة بقطان	—	—
—	—	—	بيشة	—
—	—	—	—	بيشة بعطان
—	بيه	—	بيه	بيه
—	—	—	ابن جاوان	بيشه ابن جاوان
—	—	الحسبة وتسمى اليوم بالأحسبة		الحسبة (الأحسبة)
—	—	بيشة حازان	—	—

« الحواشى والتعليقات »

(١) لمزيد من التفصيل عن بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين الأوائل ، انظر ٠ أحمد رمضان أحمد ٠ **الرحلة والرحالة المسلمون** (جدة : دار البيان العربى للطباعة والنشر ، د٠ت) ؛ عبد المجيد الدويب « الجغرافيون العـــرب ودورهم فى التعريف بالجزيرة العربية » **مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الثانى** ، الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية فى ٥ ـ ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٣ ـ ٢٨ ابريل ١٩٧٧م ، قســـم التاريخ كلية الآداب ، جامعة الرياض ، ص ٢٨٥ ـ ٢٩٨ ٠

(٢) ومن المدن التى أشار اليها ابن بطوطة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر، مدينة حلى ، حيث ذكر من كان يسكنها من القبائل ، بل وأشار الى بعض العلماء الذين كانوا يسكنونها أثناء مروره بها ، كما تعرض لبعض الجوانب الاجتماعية فى تلك المدينة ، كذكر بعض الأطعمة التى كان يقتات بها السكان ، وبعض الألبسة التى كانوا يلبسون ٠ انظر أبو عبد الله محمد ابن بطوطة ٠ **رحلة ابن بطوطة ، المسماة تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار** ، تحقيق على المنتصر الكتانى ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) جـ ١ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ ، وللمزيد من التفصيل عن مدينة حلى ، انظر ، أحمد بن عمر الزيلعى ٠ « المواقع الاســلامية المندثرة فى وادى حلى » **حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت** ، الحولية السابعة ، الرسالة (٣٩) (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ، ص ١١ ـ ١٩ ٠

(٣) ولأهمية مادون الهمدانى عن بلاد السراة ، وبخاصة ما ذكـــر فى كتابه (صفة جزيرة العرب) فقد أفردنا لذلك بحثا مستقلا حول ما رأى وشاهد ، أثناء ذهابه وايابه فى تلك البلاد ، وسينشر هذا البحث فى أحد أعداد مجلة الدارة القادمة (ان شاء الله) ٠

(٤) للمزيد من التوضيحات ، انظر ٠ عبد الله بن عبد العزيز البكرى ٠ **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع** ، تحقيق مصطفى السقا ، (بيروت : عالم الكتب ، ١٣٦٤هـ/٢٤٥) مج ١ ، جـ ١ ، ص ٦ وما بعدها ؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى ٠ **معجم البلدان** (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) جـ ٢ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ ، ٢١٨ ـ ٢٢٠ ؛ صالح أحمد العلى « تحديد الحجاز عند المتقدمين » **مجلة العرب** (١٣٨٨هـ/١٩٧٨م) جـ ١ ، ص ١ ـ ٩ ؛ عبد اللــه الوهيبى ٠ « الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب » **مجلة كلية الآداب ، جامعــة الرياض** (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) جـ ١ ، ص ٥٣ ـ ٧٠ ٠

(٥) ياقوت ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٨ - ٢٢٠ ، ج ٣ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ ، الوهيبي ، المصدر نفسه .

(٦) انظر مقالتي العلي والوهيبي السابقتي الذكر في ملاحظة (٤) .

(٧) أبو بكر أحمد بن محمد بن الفقيه . **كتاب البلدان** ، تحقيق ، أم دي غوى (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤) ص ٣١ - ٣٢ .

(٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) زكريا محمد محمود القزويني . **آثار البلاد وأخبار العباد** (بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص ٨٩ ؛ ياقوت ، **معجم** ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

(١١) شمس الدين أبو عبد الله المقدسي . **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، تحقيق ، ام . دي غوى (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٧٧م) ص ١٠٤ .

(١٢) جمال الدين يوسف بن المجاور . **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المسمى تاريخ المستبصر** ، تحقيق ، أو . لو فغرين (ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٥١ - ١٩٥٤م) جـ١ ، ص ٢٦ .

(١٣) المصدر نفسه .

(١٤) يبدو أن وجود المخازن المسماة في بعض المناطق الاسلامية (بالأهراء) أي صوامع الغلال ، هو المعمار الوحيد المنتشر في البقاع الاسلامية لهذا الغرض ، لما امتاز به من حسن الموقع حيث يكون على مرتفع ، الى جانب حسن المناخ ، والبعد عن الأماكن الرديئة التهوية ، ولهذا كانت الحبوب تدوم فيها مدة طويلة دون أن يصيبها العطب والفساد . والمتجول في وقتنا الحالي ، بالمنطقة الواقعة بين نجران والطائف يلاحظ جميع القرى وبها حصون مختلفة الاحجام ، وأغلبها كانت تستخدم لخزن الحبوب المتنوعة لأفراد القرية ، مع العلم أن هذه الحصون في يومنا هذا ، اصابها الخراب والدمار ، لأنها لم تعد تستخدم ، ولم تجد أيضا من يوليها الاهتمام ويحافظ عليها من الانهيار .

(١٥) لقد عمل أهل السراة بما يمليه العرف القبلي ، فكان شيخ القبيلة من كبار السن الذين يتمتعون بتجربة واسعة في الحياة ، وما المثل العربي القائل عن مثل هذه الشخصية « حلب الدهر أشطره » الا دليل واضح على حسن الاختيار .

(١٦) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ج ١ ، ص ٣٧ .

(١٧) ميناء السرين من الموانى النشيطة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ،

ويقع الى الجنوب من مكة المكرمة بحوالى خمس مراحل • وللمزيد من التفصيل عن هذا الميناء • انظر أحمد عمر الزيلعى • **مكة وعلاقاتها الخارجية** (٣٠١ - ٤٨٧ هـ)• (الرياض : عمادة شؤون المكتبات - جامعة الرياض ، ١٩٨١م) ، ص ١٨٤ - ١٨٦ •

(١٨) ابن المجاور ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٣ •

(١٩) وللمزيد من التوضيح عن مدينة حلى ، انظر • الزيلعى « المواقع الاسلامية المندثرة فى وادى حلى » ص ١١ وما بعدها •

(٢٠) لمزيد من التفصيل عن السلطان طغتكين بن أيوب ، وبخاصة عندما عين سلطانا على بلاد اليمن فى عهد أخيه صلاح الدين الأيوبى عام (٥٧٩ هـ) ، انظر • القاضى عبد الله بن عبد الكريم الجرافى • **المقتطف من تاريخ اليمن** (بيروت : منشورات العصر الحديث ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ١٢٩ - ١٣١ ؛ محمود كامل • **اليمن شماله وجنوبه ، تاريخه وعلاقاته الدولية** (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٨م) ص ١٨٠ - ١٨٤ •

(٢١) ابن المجاور ، **المصدر السابق** ، جـ ١ ، ص ٥٣ - ٥٤ •

(٢٢) المقدسى ، **أحسن التقاسيم** ، ص ٨٦ •

(٢٣) المصدر نفسه •

(٢٤) المصدر نفسه •

(٢٥) المصدر نفسه •

(٢٦) انظر • أبو معين الدين ناصر خسرو • **سفر نامه (رحلة ناصر خاسرو)** ترجمه من الفارسية وحققه ، أحمد خالد البدلى (الرياض : عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود ، ١٩٨٣ م) ص ١٤١ - ١٤٢ •

(٢٧) المصدر نفسه •

(٢٨) ابن المجاور ، **المصدر السابق** ، جـ ١ ، ص ٥٢ •

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٥٤ •

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٥٦ •

(٣١ انظر ، المقدسى ، **أحسن التقاسيم** ، ص ٨٧ ؛ الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى • **صفة جزيرة العرب** ، تحقيق ، محمد بن على الأكوع الحوالى (الرياض : دار اليمامة لبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ٢٦٠ •

(٣٢) أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى · **أخبـار مـكة وما جاء فيها من الآثار** ، تحقيق رشدى ملحس ، ط ٤ ، (مكة المكرمة : مطابع دار الثقافة ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) جـ ٢ ، ص ٢٣٩ ؛ ناصر خسرو ، **الرحلة** ، ص ١٣٦ ؛ ابن المجاور ، **المصدر السابق** ، جـ ١ ، ص ٥ ـ ٦ ·

(٣٣) ابن المجاور ، جـ ١ ، ص ٧ ، ومثل هذه العادة لازالت مألوفة بين بعض السكان فى الأجزاء التهامية والسروية ، وبخاصة عند كبار السن من الرجال ·

(٣٤) ابن المجاور ، جـ ١ ، ص ٢٥ · وهذه العادة أيضا لازالت تمارس عند بعض الاسر والعشائر والأفخاذ الساكنة فى البلاد السروية والتهامية على وجهالعموم·

(٣٥) ابن المجاور ، جـ ١ ، ص ٦ · ومن يتجول فى بلاد السراة أو تهامة فى وقتنا الحالى يجد اسماء لكثير من الأسر ، وبخاصة أجدادهم الأوائل ، وسيجدها على منوال ما ذكر ابن المجاور ، بل ويجد أسماء مستمدة من أســـماء الطبيعة ، كحجر ، وفارس ، وعصفور ، وريحان وغيرها من أسماء الرجال ، أما أسماء النساء فمنها ريحانة ، وعصفورة ، وعفارة ، وضرمة وعطـرة وغيرها من الأســـماء · ويا حبذا ان يتصدى أحد الباحثين فى المنطقة لمثل هذه الأسماء وغيرها فيدرسها مع تتبع جذورها من العهود القديمة ، ثم أيضا يدرس علاقتها بالسكان والبيئات التى تســتخدمها ·

(٣٦) ابن المجاور ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ ·

(٣٧) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ ، ولازال الكرم صفة حميدة بين أهالى بلاد تهامة والسراة الى وقتنا الحالى ·

(٣٨) للمزيد من التفصيل عن شيخ القبيـــــلة ودوره فى المجتمع منذ العصر الجاهلى ، انظر · جواد على · **المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام** (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٠م) جـ ٤ ، ص ٥ ـ ٢٧١ ، جـ ٥ ، ص ٢٥٣ ـ ٣٣٣ ·

(٣٩) للمزيد من التوضيح عن ولاة الحجاز وكيف كان بعضهم يعين من قبل الخليفة الأموى أو العباسى فى كل من اليمـــامة والحجاز واليمن ، وأحيـــانا بلاد البحرين ، انظر · تقى الدين محمد الفاسى · **شفاء الغرام بأخبار البلد الحـرام** ، تحقيق لجنة من كبار العلماء ، (بيروت : دار الكتب العلمية د·ت) جـ ٢ ، ص ١٦٢ وما بعدها ، انظر أيضا :

G.A. Jrais
"The Governorshop in the Hijaz During the Early Abbasid Period.
Ages (مجلة العصور) Vol. (7) January, 1992.
(مجلة المؤرخ العربى)

(٤٠) والكورة ، أو المخلاف ، أو العمل جمع أعمال ، تساوى ما يسمى اليوم بالمحافظة ، أو الامارة ، وكانت ولازالت تسمى فى المغرب بـ (الحوز) وفى الجزائر بـ (العمالة) ·

(٤١) أحمد بن يعقوب اليعقوبى · كتاب البلدان ، تحقيق ، أم· دى غوى (ليدن: مطبعة بريل ، ، ١٢٨٩٢م) ص ٣١٦ ·

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٣١٦ ، ٣١٨ ·

(٤٣) المصدر نفسة ، ص ٣١٧ - ٣١٨ ·

(٤٤) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن حرداذبة · **كتاب المسالك والممالك** ، تحقيق ، ام· دى غوى (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م) ص ١٣٣ ·

(٤٥) المقدسى ، **أحسن التقاسيم** ، ص ٦٩ - ٧٠ ، ٨٨ ·

(٤٦) محمد بن محمد بن عبد الله الادريسى · **كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق** (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) جـ ١ ، ص ١٤٥ ·

(٤٧) انظر ، الفاسى ، **شفاء الغرام** ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ وما بعدها ·

(٤٨) ولمزيد من التفصيلات عن اتصال أهل تهامة والسراة بأسواق مكة ، انظر· الأزرقى ، أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ؛ محمد بن أحمد بن جبير · **رحلة ابن جبير** (بيروت : دار الكتب د·ت) ص ١٠٢ وما بعدها ·

(٤٩) ناصر خاسرو ، **الرحلة** ، ص ١٣٦ ·

(٥٠) ابن جبير ، **المصدر السابق** ، ص ١٠٢ - ١٠٥ ·

(٥١) ابن المجاور ، **المصدر السابق** ، جـ ١ ، ص ٢٧ ·

(٥٢) انظر ابن بطوطة ، **الرحلة** ، جـ ١ ، ص ١٥٢ ·

(٥٣) للمزيد من التفصيلات عن توافر الحبوب والخيرات فى بلاد تهامة والسراة، انظر : عرام بن الأصبغ السلمى : **كتاب أسماء جبـــال تهامة وسكانها** ، تحقيق ، عبد السلام هارون (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمـــة والنشر ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م) ص ٤١٧ ، ٤٢٠ - ٤٢١ ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٨٩ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٠٤ ؛ ياقوت ، معجم ، جـ ٣ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن المجاور ، جـ ١ ، ص ٢٦ - ٢٧ ·

(٥٤) الهمدانى ، **صفة جزيرة العرب** ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ، ابن جبير **الرحلة** ، ص ١٠٤ ، القزوينى ، **آثار البلاد** ، ص ٨٩ ·

(٥٥) **المسالك والممالك** ، ص ١٣٤ ـ ١٣٦ ، ١٤٨ ـ ١٤٩ ٠

(٥٦) أبو الفرج قدامة : **نبذ من كتاب الخراج** ، ضمن كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، تحقيق ، ام· دى غوى (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م) ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ، ١٩٢ ـ ١٩٣ ٠

(٥٧) أبو اسحاق الحربى· **كتاب « المناسك » وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة،** تحقيق حمد الجاسر ، (الرياض : دار اليمامة لبحث والترجمة والنشر ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ٠

(٥٨) **البلدان،** ، ص ٣١٧ ٠

(٥٩) **صفة جزيرة العرب** ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤١ ٠

(٦٠) **أحسن التقاسيم** ، ص ١١١ ـ ١١٢ ٠

(٦١) **نزهة المشتاق** ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٨ ٠

(٦٢) أجمعت المصادر على ذكر أغلب المحطات التى **تقع على الطريق** الجبلى السروى ، أما الطريق الساحلى فقد ذكرته بعض المصادر ، **لكن ظهر بعض الاختلاف** فى ذكر اسماء بعض المحطات على تلك الطريق ، **ولهذا الأمر الحقنا بالبحث ضميمتين،** الاولى تبين أغلب أسماء المحطات التى وردت فى **المصادر التى استقينا منها بحثنا** حول هذا الطريق ، والثانية تبين اسماء المحطات التى وردت **فى بعض المصادر** دون المصادر الأخرى ٠

(٦٣) الهمدانى : **المصدر السابق** ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ٠

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٣٤١ ٠

(٦٥) ابن خرداذبة ، المسالك ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ٠

(٦٦) وطلحة الملك لازالت الى يومنا هذا **تعرف باسم قرية طلحة** ، وتقع فى الأجزاء الشرقية من ظهران الجنوب فى بلاد **قحطان** ، **والى الشمال من مدينة نجران** ٠

(٦٧) قدامة ، **المصدر السابق** ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ٠

(٦٨) الادريسى ، **نزهة المشتاق** ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ٠

(٦٩) وقد يعود رخاء هذه المدن الى **موقعها التجارى** ، **وكثرة القادمين** اليها ، لبيع سلعهم ، أو لشراء سلع منها ، أو **للمبيت فيها** ، **والانفاق طيلة** اقامتهم بها ٠ وبعض هذه المحطات مثل (بيشة ، ورنية ، **وتربة** ، **وغيرها**) مازالت الى يومنا هذا تؤدى خدماتها للمارة بها ، وكلما **تحسنت خدماتها** ، **كلما** أدى الأمر الى ازدهارها ٠

(٧٠) للمزيد من التفصيل عن أحوال البريد خلال العصر العباسى وما جرى عليه من اصلاحات ، انظر • حسن ابراهيم حسن • **تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى** (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤م) ج ٢ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧١ •

(٧١) والأمر الذى يجعلنا نجزم بأن تلك الطريق حظيت ببعض الاصلاحات ، وبخاصة ، خلال العصور العباسية الأولى ، هو ما بذله خلفاء بنى العباس الأوائل فى اصلاحات بعض الطرق الأخرى ، كطريق العراق الحجاز ، أو طريق العراق الشام الحجاز أو غيرها ، ثم ان بلاد اليمن كانت من الأجزاء المهمة لدى خلفاء بنى العباس الأول لتكون تحت حوزتهم فكانوا يرسلون اليها الولاة وغيرهم من موظفى الدولة ، بل ويسعون الى قمع أى ثورة تظهر فيها ، وربما نتج ذلك الاهتمام عن حرصهم على ضم شمل دولتهم ، بل وعن معرفتهم بغنى أرض بلاد اليمن وما بها من خيرات قد تعود زكاتها وجبايتها الى بيت مال المسلمين فى بغداد •

كناش الكشكرى : وثيقة مهمة عن التطبيب العملى فى بعض بيمارستانات بغداد فى القرنين الثالث والرابع الهجريين

بقـلم
دكتور مريزن سـعيد مريزن عسيرى(*)

المقــــدمة :

حفل تاريخ الفكر الاسـلامى بالعـــديد من المبدعين الذين وضعوا الأسس الأولى للعلوم الحديثة ، وكان لمساهماتهم أكبر الأثر فى تطور هذه العلوم ، حتى وصلت الى المســتوى الذى تمكنت بواسطته الحضـــارة الاسلامية من افادة مجتمعها والمجتمع الانسانى بنتاج فكرها ، واضحى ذلك التطور العلمى من أهم ما يميز الحضــارة الاسـلامية بين حضارات العـــالم .

والطب كان واحداً من تلك العلوم ، الا أنه حظى طوال العصور الاسلامية بمكانة عالية بين سائر العلوم التطبيقية ، كما حظى الأطباء الحقيقيون بمكانة مرموقة بين كافة الأوساط الاجتماعية لم يرق اليها الا القليل من العلماء .

والدراسات الحديثة المعنية تظهر لنــا كل يوم الجديد فيما يخص الدراسات الطبية عند المسلمين ، مما يشـــير الى الكثير من الاكتشافات والحقائق الطبية التى توصلوا اليها وسبقوا بها الغرب قبل قرون عديدة .

وفى ظل اهتمامى بدراسة تاريخ العلوم الاســـلامية لا سيما علم الطب ، اطلعت على كتاب طبى مخطـــوط بنســـخة فريدة معنون

(*) أستاذ مشارك بقسم الحضارة والنظم الاسلامية بجامعة أم القرى بمـــكة المـــكرمة .

بـ « الكناش فى الطب » لمؤلفه يعقوب الكشكرى من رجال القرن الثالث والرابع الهجريين ، ولاحظت أن هذا الكتاب الطبى يتميز عن الكثير من الكنانيش الطبية للأطباء المسلمين باحتوائه على مادة علمية غزيرة فيما يخص التطبيب العملى ، والتجارب الطبية المختلفة ، والمجريات الدوائية العديدة التى قام بها المؤلف أو شاهدها من زملاء المهنة فى بيمارستانات بغداد بشكل خاص ، وفى بعض مدن العراق الأخرى كحالات فردية ، فقد وصف لنا الكثير من المعالجات ، وأعطانا صورة واضحة عن الحالات المرضية الموجودة فى أيامه ، وكيف كانت تتم المعالجة لكل حالة على حدة ، ذاكراً أسماء تلك الحالات ، وبعض أسماء أصحابها ، وكيف تعامل معها ، وكيف تمت المعالجة ، وكيف كانت النتيجة .

كما عرض لنا المؤلف دراساته وتجـــاربه الطبية بكافة أنواعها فى البيمارستانات الثلاثة ، ومع بعض الشخصيات المشهورة آنذاك ، لا سيما أولئك الذين تربطه بهم رابطة الصداقة ، حتى أنه أصبح ملازما لبعضهم ومشرفا على معالجتهم وتطبيبهم .

والمتتبع لدراساته وتجاربه تلك يدرك أن يعقـوب الكشـكرى كان واحداً من الأطباء المهرة المتمرسين فى عصره علماً وعملا وتجربة ، فقد كان موفقا فى معالجاته الى حد بعيد ، وأوصـــلته تجاربه العملية الى نتائج علاجية كانت تفوق توقعاته .

ولقد قسمت الدراسة الى قسمين :

خصصت القسم الأول لتحقيق شخصية المؤلف ، حياته ، عصره ، وثقافته .

وأفردت القسم الثانى للحديث عن كتابه الكناش ، أهميته ومصادره المختلفة ، والحقت بهذا القسم دراسة عامة لأهم تجاربه ودراساته وأعماله الطبية فى بيمارستانات بغداد ، ومع تلك الشخصيات المشـهورة التى عاصرها فى زمنه .

أرجو أن تكون هذه الدراسة قد أسهمت باضافة جيدة لتاريخ العلوم عند المسلمين ، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

القســـم الأول

التعريف بالكشكرى : حياته ، عصره ، ثقافته ، ومصنفاته .

حياته وتحقيق شـخصيته :

على الرغم أن كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة يعتبر مصدراً أولياً وجامعاً للكثير من مشاهير الطب فى تاريخ الاسلام ، الا أنه يبدو من خلال نظرتنا فى بعض الكتب الطبية الأخرى أنه صب اهتمامه أو اقتصر على ذكر أولئك الأطباء الذين اشتهروا شهرة واسعة واقترنت شـــهرتهم بمؤلفاتهم الطبية التى لقيت انتشـــاراً بين الناس ، أما تلك الفئة الأخـــرى من أطبـــاء المحققين الذين اشتهروا بأعمالهم الطبية ومعالجتهم فى الميدان العملى سواء أولئك الذين كانوا يطببون النـــاس فى منازلهم أو أولئك الذين اشـــتهروا بمداواتهم فى البيمارستانات المنتشرة فى المشرق والمغـــرب ، ولم يكن لهم مصـنفات تنشر أسماءهم بين الناس ، هذه الفئة من الأطباء العمليين المهرة لم نجد لها ذلك الاهتمام فى كتابه « عيون الأنباء » .

ولعل سبب ذلك يعـــود الى المنهج الدقيق الذى انتهجه ابن أبى أصيبعة فى كتابه ، اذ أنه كان يهدف الى الوصـــول الى أدق المعلومات وأصدقها فى ترجمته لأعلام الأطباء ، فنلاحظ غالبـــا أنه كان يربط فى تحقيق شخصيات كتابه بالاعتماد على مصنفاتهم الطبية ومدى شهرتها بين الناس ، فى سبيل الكشف عن مدى انتمائهم لمهنة الطب ، واعطاء أفضل المعلومات عن حياتهم .

انه بالقاء نظرة سريعة على كتاب « الكناش » للكشكرى ، يعطينا صورة واضحة للكثير من أسماء الأطباء الحذاق الذين كانوا يعملون فى بيمارستانات بغداد ومدن العراق الأخرى ولم تجد تلك الأسماء طريقاً الى كتاب ابن أبى أصيبعة(١) .

والكشكرى كان واحداً من مهرة الأطباء العمليين المغمورين ، والذى

قضى شـــطراً كبيراً من حيـــاته فى المعالجـة والتطبيب ، وتقلب بين بيمارستانات بغداد الشـــهيرة مثل : « مارســـتان صاعد رحمه الله(٢) ومارستان بدر رحمه الله(٣) ، ومارستان الســـيدة أم أمير المؤمنـــين المقتدر(٤) أعزهما الله »(٥) ، كما أنه خدم عدداً من الخلفاء الى جانب مجموعة من الأطباء(٦) أمثال : « جـــابر المتطبب الذى كان فى دار الخلافة ، وكان تلميذ حبيش ، وكان يدخـل الى المعتصـــم مع حبيش الأعسم »(٧) ، واشتهر حتى أنس بمعالجته وتطبيبه الوزراء والقواد، أمثال الوزير القراريطى(٨) فقد كان هذا الوزير يعتمد عليه فى المداواة الى حد بعيد(٩) ،ومن الكبراء أشرافه على معالجة أبى الفوارس ياقوت، اذ تدل النصوص المتكررة على أنه لازمه مدة طويلة(١٠) ، وأبى على عمر بن يحيى العلوى(١١) ، والقشورى(١٢) ، وأمثالهم .

وبتتبع كتاب ابن أبى أصيبعة نجده لا يذكر ما يشير الى شخصية الكشكرى ولم ينبه الى أية معلومات تكشف لنا شخصيته وحياته ومولده، وأين عاش ، سوى أنه أعطى اشارة سريعة فى ترجمته لسهل الكوسج الطبيب وذكر أنه كان من أقرانه عـــدد من الأطباء من بينهم « يعقوب صاحب البيمارستان(١٣) ولا نعلم حقيقة هل قصد به مؤلفنا أم لا ، لأن الفترة التى عاش فيها هؤلاء الأطبـــاء جميعا كانت الى حدود الســـنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م ، والدلائل تشير الى أن يعقوب الكشكرى اشتهر وبرز فى نهاية القرن الثالث وشطراً كبيراً من القرن الرابع الهجرى .

كما أننا لا نستطيع أن نقطع باليقين فى كشف شخصيته بما أشار اليه ابن أبى أصيبعه فى ترجمته لأبى الحسين بن كشكرايا والذى أثنى عليه بانه : كان طبيباً عالماً مشـــهوراً بالفضـــل والاتقان لصناعة الطب وجودة المزاولة لأعمالها »(١٤) .

واذا اعتبرنا المعـــلومات التى أوردها ابن أبى أصـــيبعه عن أبى الحسين بن كشكرايا ، وقارناها بتلك المعـــلومات التى أوردها يعقوب الكشكرى فى كتابه الكناش لوجدنا هناك تقاربا وتجانسا بين الشخصيتين الى حد ليس بالقليل ونستطيع أن نجمل تلك القرائن فى النقاط التالية :

★ أن الاثنين عاشا تقريباً فى فترة واحدة نستطيع تحديدها بشكل نسبى منذ نهاية القرن الثالث الهجرى وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى .

★ يلاحظ أن ابن كشكرايا تلقى تعليمه على يد سنان بن ثابت بن قرة(١٥)،كما أن الكشكرى تلقى تعليمه على يد ثابت بن قرة(١٦) والد سنان ، والزيادة والتصحيف والسقط ، والخطأ والنسيان وارد بشكل أو آخر على يد النساخين كما هو معلوم .

★ يذكر ابن أبى أصيبعة أن ابن كشكرايا كان : « له حقنه تنفع من قيام الأغراس والمواد الحادة ، ويعرف بصاحب الحقنة »(١٧) ، ويعقوب الكشكرى يذكر انه كان له دربة جيدة بالعمل « بالزراقة ـ المحقنة(١٨) وقد عالجت أنا بهذه الصفة لمن تقوم له المدة(١٩) فى المقعدة فى أول المعا المستقيما »(٢٠) .

★ يذكر ابن أبى أصيبعة أن لابن كشكرايا من التصانيف : كناشة المعروف بالحاوى ، وكناش آخر باسم من وضعه اليه(٢١) ، وماهو معروف ليعقوب الكشكرى من المصنفات كتابه الأقرباذين(٢٢) أشار اليه فى كتابه هذا المعروف بالكناش(٢٣) .

ومما يلفت النظر فى كناش يعقوب الكشكرى أنه كتب فى أول ورقة فيه تصحيفاً « كتاب كناش بن سرافيون » كما يوجد بعد ذلك قوله : « الباب الأول من هذا الكتاب فى تولد الشعر فى سائر البدن من كناش ابن سرافيون الكبير »(٢٤) ، والسؤال المراد طرحه هنا هل أن ابن أبى أصيبعة كان يقصد هذا الكناش عندما قال فى حق ابن كشكرايا : بأن له كناش آخر باسم من وضعه اليه(٢٥) ، فمن المحتمل جداً أن يكون ابن أبى أصيبعة قد اطلع على هذه النسخة الفريدة أو نسخة منقولة عنها وهى كناش الكشكرى لا سيما وأن تاريخ نسخها هو سنة ٥٩٧هـ/١١٧١م والمعروف أن ابن أصيبعة توفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م .

ولعله من أقوى القرائن التى توحى بتقارب الشخصيتين ، أن ابن

أبى أصيبعة ذكر أن أبا الحسين بن كشكرايا كان فى خدمة الأمير سيف الدولة بن حمدان ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م ثم انتقل بعد ذلك الى بغداد(٢٦) ، ونجد أن يعقوب الكشكرى يقول : انه عالج جارية محمد بن على بن مقاتل(٢٧) ، وابن مقاتل هذا كان احد قواد الدولة الحمدانية بالموصل(٢٨) .

فما أشرنا اليه آنفاً اضافة الى القرائن السابقة ، تلقى أضواء جيدة بصورة أو بأخرى تجعل الشك يقرب الى اليقين أن ابن كشكرايا ويعقوب الكشكرى اسمين لشخصية واحدة بدأ حياته الطبية فى الموصل ، أو واسط اللتين سيطر عليهما الحمدانيون آنذاك ، ثم انتقل الى بغداد وهناك اشتهر وبدأ دوراً جديداً فى حياته .

ويبدو أنه من المؤكد أن يعقوب الكشكرى عاش فى الفترة الواقعة بين سنتى ٢٧٠هـ/٨٨٣م و ٣٧٠هـ/٩٨٠م ويظهر ذلك واضاً من خلال كتابه الكناش ، اذ أنه ذكر فيه أحداثاً وقعت له فى هذه الفترة وذلك من خلال عمله فى بيمارستان صاعد ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م ، وبيمارستان السيدة والدة الخليفة المقتدر ت ٣٢١هـ/٩٩٣م وبيمارستان بدر غلام المعتضد ت ٢٨٩هـ/٩٠١م ، هذا بالاضافة الى ذكره للعديد من أعلام الفترة الذين كان يعالجهم أو تربطه بهم رابطة الصداقة أمثال شفيع(٢٩) ، ومحمد ابن أحمد القراريطى الوزير ت ٣٢٩هـ/٩٤٠م ، وأبى الفوارس ياقوت المدبر(٣٠) الذى يبدو أنه لازمه فترة طويلة للمعالجة والتطبيب حتى أثناء حروبه فى الكوفة(٣١) ، وأبى عبد الله البريدى(٣٢) ، وأحمد ابن نصر القشورى حاجب الخليفة المقتدر(٣٣) ، وابن مقاتل ، كما ذكر لنا يعقوب الكشكرى فى كتابه هذا العديد من أسماء الأطباء الذين كانوا يعملون معه فى بيمارستانات بغداد ، وكان بالامكان الاستفادة منها بشكل كبير لتحديد ولادة أو وفاة الكشكرى أو على الأقل تحديد فترة حياته بدقة أكثر ، الا أن المصادر المهتمة بتراجم الأطباء لم تعطنا معلومات كافية عن أولئك الأطباء ، ولم تذكر على الأقل سنة ولادة أو وفاة واحد منهم ، هذا بالاضافة الى أن الكشكرى لم يعطنا أسماءهم كاملة مما سيعين على كشف شخصياتهم وحياتهم ، بل نجده يكتفى أحياناً بذكر الاسم فقط مثل

حارث(٣٤) حسن(٣٥) جابر المتطبب(٣٦) سليمان الجرائحى(٣٧) ، ان هذه اسماء وأمثالها كثير لم نسعفنا المصــــادر باعطاء أى معلومات عنهم البتة .

أما بالنسبة لسنة ولادة يعقوب الكشكرى فلا نستطيع تحديدها بسنة معينة الا أنه اخبرنا أنه تلقى تعليمه على يد الطبيب الماهر ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م ، وبمقارنة هذا التاريخ مع تواريخ وفيات من عاصرهم من المشاهير ، تفيد أن يعقوب درس على يد ثابت وهو لازال يافعا فى أول حياته ، ويبدو أن ذلك كان فى أواخر سنى ثابت بن قرة ، مما يعطينا يقينا أن يعقوب الكشكرى ولد بعد أو قبل سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م بسنوات قليلة .

ثقافته ومصـــنفاته :

مما سبق ظهر لنا أن يعقوب الكشكرى عاش خلال الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى وحتى ما بعد منتصف القرن الرابع الهجرى وكانت من فترات العصر العباسى الثانى التى شهدت سيطرة العناصر الأجنبية، وضعف الخلافة ، وتدهور الأوضاع السياسية الذى أعطى الفرصة للكثير من الطامعين كالقواد الأتراك الذين سيطروا على الأمور بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م(٣٨) ســـيطرة كاملـة ، وزادت بينهم المشــــاحنات والمؤامرات والدسائس ، وكثرت الفتن وقل الأمن ، وأدى ذلك الوضـــع المتدهور الى ظهـــور ثورة الزنج(٣٩) التى أثارت الرعب فى حاضرة الخلافة العباسية بقيادة العلوى المزعوم ، واستمرت هـــذه الفتنة حتى قضى عليها أبو أحمد الموفق بعد حرب استمرت سنين عديدة وذلك ســـنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م(٤٠) .

ثم كانت حركة القرامطة والتى بدأت نيرانها تضطرم سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م(٤١) ، بالاضافة الى ذلك فان هذا العصر شاهد استقلال العديد من الدويلات بالمشرق الاسلامى كالدولة الطاهرية ، والزيدية ، والصفارية ، والسامانية ، وانتهى الأمر بظهور الدولة البويهية التى ســـيطرت على مقاليد الأمور فى بغداد ودار الخـــلافة العباســـية منـــذ عام ٣٣٤هـ/

٩٤٥م(٤٢) ، وبدخول البويهيين بغداد بدأت مرحلة جديدة من مراحل الانحلال السياسى فى دار الخلافة العباسية والمشرق الاسلامى ، الا أنها كانت العصر الذهبى للمشرق الاسلامى فى ميادين الفكر والعلم والأدب، اذ لا شك أنه كان من أهم حسنات البويهيين سلاطينهم وأمرائهم ووزرائهم هو اهتمامهم بالعلم والأدب وتشجيعهم للعلماء والشعراء ، وتبنيهم للمفكرين على مختلف فئاتهم وانتماءاتهم ، وأدى ذلك حقيقة الى أن يجتمع فى هذا العصر من الاجلاء والمبدعين منهم مالم يجتمع فى غيره من العصور .

عاش يعقوب الكشكرى فى هذه الفترة المضطربة سياسياً ، المستنيرة فكراً وعلماً ، أنها فترة مخضرمة شهدت اكتمال حركة الترجمة من العلوم الأجنبية الى اللغة العربية فى كافة ميادين العلم والمعرفة ، وبداية الانتفاضة العلمية العربية الاسلامية ، التى ظهر للناس فيها علم جديد ومفيد على يد المفكرين المسلمين الذين جعلوا من المنهج التجريبى طريقهم الأول للتعامل مع العلوم الصرفة والتطبيقية لجنى ثمار المعرفة فى افادة الانسان ورفاهيته(٤٣) .

وبلا شك أن من يعيش من طلاب المعرفة فى مثل هذا المناخ العلمى النشط ، الذى عمر مدن العراق وأقاليم المشرق الاسلامى فى هذه الفترة لابد له أن يتأثر به وينطبع بطابعه ، وهذا ما حدث ليعقوب الكشكرى الذى استقى من علوم عصره ، وتلقى تعليمه فى الطب وعلومه المساعدة من منطق وخلافه على يد ثابت ابن قرة أحد كبار الأطباء فى عصره قاطبة ، ولقد ظهر ذلك واضحاً فى كتابه هذا الكناش فان من يطلع عليه ويتصفح أوراقه ويحقق دراساته يدرك أن مؤلفه كان على جانب كبير من التقدم فى علوم الفلسفة والمنطق ، وعلم تقويم البلدان ، والنجوم ، والطبيعة ، أما فيما يخص العلوم الطبية فيتضح تماماً أنه كان متفنناً فى بابها متقنا لأصولها وفروعها ، اذ أن مصادره(٤٤) فقط فى هذا الكتاب تخبرنا ما كان عليه الرجل من ثقافة وسعة أفق وتبحر فى علوم الطب ، هذا عوضاً عما أودعه فى أبوابه وفصوله من دراسات جادة وتجارب رائعة فى المعالجة والتطبيب والأدوية(٤٥) .

أما مؤلفاته فهى هذا الكناش .

كتاب الأقرباذين ، ذكره فى كتابه الكناش(٤٦) .

وعلى الرغم من قلة مؤلفاته ، الا أنها ذات أهمية كبيرة فى الطب العملى ، كما أن ذلك يؤكد لنا أن الكشكرى لم يكن لديه ذلك التوجه فى الكتابة الطبية ، أو أنه لم يكن لديه الوقت الكافى للتأليف بسبب انشغاله فى البيمارستانات الثلاثة ، وعمله مع بعض الكبراء فى عصره ، اذ يبدو أنه كان يهتم بالممارسة العملية والتطبيب أكثر من اهتمامه بالطب الأكاديمى التأليفى،ولعل ذلك كان من أهم الأسباب فى غموض شخصيته.

القسم الثانى

التعريف بكتاب الكناش ليعقوب الكشكرى وتحقيق نسبته :

ان النسخة الوحيدة المعروفة الى الآن من كتاب الكناش للكشكرى موجودة فى مكتبة آياصوفيا برقم ٣٧٦١(٤٧) ، وكتب على الورقة الأولى منه تصحيفاً كتاب كناش بن سرافيون فى الطب » ، كما كتب فى الباب الأول(٤٨) « الباب الأول من هذا الكتاب فى تولد الشعر فى سائر البدن من كناش بن سرافيون الكبير » ، وهذا حقيقة ما حدا ببروكلمان الى الاعتقاد بأن هذا الكتاب هو الكناش الكبير ليحيى (يوحنا) بن سرافيون(٤٩) ، كما ورد ذلك أيضاً فى كتاب - فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيا(٥٠) ، اذ نسب الكتاب الى يحيى بن سرافيون .

والكتاب حقيقة ليس لابن سرافيون انما مصنفه هو يعقوب الكشكرى ، فقد اشار الكتاب الى ذلك مرات عديدة اذ يقول : « قال يعقوب الكشكرى » ، واحداها اكدت يقيناً نسبة الكتاب اليه حيث قال : « قال يعقوب الكشكرى جامع هذا الكتاب »(٥١) .

ويقع هذا الكناش فى ٢٩٣ ورقة بمقياس ١١ر٦ × ٧ر١٨ سم وكتب بخط نسخ ليس فيه عناية ولا جمال ، وكان نسخه سنة ٥٩٧هـ ، أما

عــدد الأسطر فلا يتجاوز واحداً وعشرين ســطراً ولا يقل عن تسـعة عشر سـطراً .

وكتب على الورقة الأولى عنوان الكتاب خطأ حيث نسب الى ابن سرافيون كما مر ، أما بقية الأوراق حتى الورقة ٦ب فقد خصصت لذكر فهرس الكتاب ، بخط سيء غير واضح وكتب بقلم غير ذاك الذى كتب به المتن ، ويبدو أن هذه الأوراق ليست ضمن أصل الكتاب ، انما أضيفت على يد أحد النساخ فيما بعد ، كما يلاحظ وجود بعض الحواشى على جانبى الأوراق كتصحيح أو تعليق أو تفسـير لبعض الكلمات أو اكمال لبعض الجمل الناقصة .

والمتتبع لأبواب وأوراق الكتاب بدقة يدرك تماماً أن الناسخ له نسخه من مخطوط آخر يكثر فيه النقص ، وعدم الدقة والتنظيم ، والتقديم والتأخير فى أبوابه وأوراقه ، مما اسـتنفذ وقتاً طـويلا لمحاولة ربط موضوعات الكتاب بشكل يؤدى الى تحديد الوحدة الموضوعية لكل مادة، وذلك لمعـرفة المنهج العلمى الذى اتبعه المؤلف فى معالجة موضـوعات الكتاب لأن معرفة ذلك سيؤدى بالتأكيد الى الاستفادة منه بشكل جيد .

مصادر الكشكرى فى كتابه الكناش :

لعله من أهم المزايا التى اتصف بها العلماء والمفكرون المسلمون ، أمانتهم العلمية وأخلاقهم الكريمة وسيرتهم القدوة ، وحسن أدبهم مع معلميهم ، وتقديرهم لمن سبقهم من المفكرين الذين أسدوا خدمات جليلة فى تاريخ العلم .

وفى القرن الثالث الهجرى ، كانت كتب القدماء لا تزال مصـدراً أولياً للعلماء المسلمين فى كافة جوانب العلوم الصرفه والتطبيقية على الرغم من التطور الكيفى الذى حدث لتلك العـلوم على أيدى العلماء المسلمين بعد معرفتهم وتطبيقهم المنهج التجريبى فى التعامل مع تلك العلوم ، الا أن أفاضل من علماء اليونان فى الفلسفة والطب والطبيعيات كانت لا تزال كتبهم هى المنبع الوحيد للعلماء المسـلمين فى العـلوم الحكمية ، فكثيراً ما نجد فى كتب جابر بن حيـان الكوفى وحنين بن

اسحاق العبادى ، وثابت بن قـــرة ، وابن ربن الطبرى ، وأبى بكـر الرازى ، وأمثالهم من الأطباء قولهم : قال المعلم ابقراط ، قال الفاضل جالينوس ، قال الأستاذ ، قال الحكيم ، فكانوا يعترفون لأهل الفضل بفضلهم ، ويقرون لأهل العلم بعلمهم ، وكانوا هم أهل الفضل والعلم .

ولقد كان يعقوب الكشكرى واحـداً من أولئك الأطباء المســلمين الذين نهلوا وتعلموا وتأثروا بفـكر العصر الذى اتسم برواج المعـارف اليونانية القديمة وكتبها ، فى ظل حركة الترجمة النشطة فى القـــرن الثالث الهجرى .

ولذلك نلاحظ أن كتابه الكناش هذا اعتمد فى تصنيفه بشكل كبير على كتب ، وأقوال ، واشارات العلماء والمفكرين الأغريق القدماء ، وذلك فى الجانب النظرى ، اما فى الجانب العملى فبطبيعة الحال لابد أن أن يكون مصدره الأولى هو ما ثبت نفعــه وفائدته بالتجريب على يد الأطباء المسلمين الذين عاصرهم وأخذ عنهم فى هذا العصر ، اضافة الى اعتماده على كتب البعض منهم فى الجـــانب النظـرى والعمــلى على حد ســواء .

ونستطيع أن نقسم مصادره الى قسمين :

أولا : المصادر اليونانية .

ثانيا : المصادر العربية .

أولا : المصادر اليونانية :

مصنفات جالينوس : وجالينوس آخر كبار الأطباء الذين ظهروا فى العصور القديمة ، بل أنه افضلهم جميعا ، ولم يات بعـده من الأطباء الا من هو دون منزلته ومتعلم منه ، وكان زمان ولادته بعد ابقراط بنحو ٦٥٠ سنة ، أى بعد زمان المسيح عليه السلام بنحو مئتى سنة ، جدد العلوم الطبية بعد اندثارها وانمحاء محاسنها ، وصنف مالا يقل عن مائة وعشرين كتاباً فى الطب والعلوم الحكمية(٥٢) ، وظلت مصنفاته من

أهم مصادر تعليم الطب حتى القرون الأربعة الهجرية الأولى(٥٣) حين ظهرت كتب المبدعين من الأطباء المسلمين أمثال الرازى ، وابن سينا ، والزهراوى وغيرهم ، أما كتبه تلك التى اعتمـدها الكشكرى كمصادر لتاليف كتابه الكناش فان أغلبها كانت من ضمن تلك الكتب التى قررها أطباء الاسكندرية لتعـليم الطب ، وكانت أهم مصـادر عصره للتعليم والتأليف الطبى وهى على النحو التالى :

١ - كتاب تركيب الأدوية : وقد سماه الكشكرى « الأدوية المركبة » « وكتاب جالينوس هذا سبع عشرة مقالة ، السبع الأولى منها عرفت لدى الأطباء المسلمين باسم « كتاب قاطاجانس » ، والعشر مقالات الأخرى عرفت لديهم باسم « كتاب الميامر »(٥٤) .

ولقد إعتمد الكشكرى على كتاب جاليونس هذا فى أكثر من أربعين موضعاً مما يظهر أهمية كبيرة لهذا الكتاب فى هـذه الفتـرة باعتباره المصدر الأول لعلم الصيدلة وتركيب الأدوية .

٢ - كتاب جالينوس الى أغلوقن فى التأنى لشـفاء الأمـراض : واغلوقن كان من الفلاسفة على عهـد جالينوس ، وكان يجمعهما حب العلم وتمجيد الحكمة فطلب منه أن يؤلف له كتاباً فى الطب ، وترجم هذا الكتاب الى العربية حنين بن اسحاق العبادى ، واعتمد عليه الكشكرى فى أكثر من عشرة مواضع(٥٥) .

٣ - كتاب حلية البرء : وهو أربع عشرة مقالة ذكره الكشكرى فى سبعة مواضع ، ترجمه حبيش الأعسم ، وصححه حنين بن اسحاق(٥٦).

٤ - كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة : ترجمة سرجس ، وكانت ترجمته غير دقيقة ، ثم ترجمه حنين بن اسحاق ، وترجمه أيضا حبيش الأعسم الى العربية(٥٧) .

٥ - كتاب الأدوية المفردة : ترجم الكتاب الى العربية والى السريانية فى القرن الثانى من الهجرة ، على أن أفضل ترجمة له بالعربية هى تلك التى قام بها حبيش الأعسم ترجمه لأحمد بن موسى(٥٨) وقد اعتمد

الكشكرى على هذا الكتاب فى تحقيق المعالجة بالأدوية المفردة وذلك فى مواضع متعددة .

٦ ـ كتاب أصناف الحميات : ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية والسريانية(٥٩) .

٧ ـ كتاب المواضع الآلمة : لم أجد فى رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحيى ، ولافى الفهرست للنديم ، ولا فى عيون الأنباء كتاباً بهذا الاسم لجالينوس ، ولعل الكشكرى قصد بهذا الكتاب العشر مقالات الأخيرة من كتاب تركيب الأدوية لجالينوس وهى المعروفة بالميامر وقد جعل جالينوس عنوانها « فى تركيب الأدوية بحسب المواضع الآلمة » ، ويوجد بعنوان « كتاب المواضع الآلمة من كتب جالينوس » نسخة فى آيا صوفيا برقم ٣٥٨٩(٦٠) .

٨ ـ كتاب ابدال الأدوية ، كذلك لم أجده فى رسالة حنين ، والفهرست ، ذكر ابن أبى أصيبعة أنه مقالة واحدة ، توجد منه أوراق فى سليم آغا بتركيا برقم ٨٨٣ـ٣(٦١) .

٩ ـ كتاب الأعضاء المتشابهة : واسمه كتاب فى اختلاف الأعضاء المتشابهة الأجزاء » وهى مقالة ترجمها عيسى بن يحيى(٦٢) .

١٠ ـ كتاب تدبير الأصحاء : ذكره النديم فىكتابه بهذا العنوان وهو من ترجمة حبيش الأعسم ، ويقع فى ست مقالات(٦٣) ، وسماه حنين ابن اسحاق « كتاب فى الحيلة لحفظ الصحة » وذكر له ترجمات متعددة الى السريانية ، كما ذكر أنه ترجمه ابنه اسحاق الى العربية بالاضافة الى ترجمة حبيش الأعسم له لمحمد ابن موسى(٦٤) .

١١ ـ مقالة فى صفات لصبى يصرع : ترجمها ابراهيم بن الصلت الى السريانية والعربية(٦٥) ، وسماها الكشكرى « مقالة فى تدبير صبى يصرع » .

١٢ ـ كتاب النبض الكبير : من أهم كتب جالينوس الطبية ، ترجمه العديد من الأطباء الى السريانية والى العربية مثل أيوب الرهاوى وحنين ابن اسحاق ، وحبيش الأعسم(٦٦) .

١٣ ـ كتاب قوى الأغذية : سماه الكشكرى كتاب الأغـــذية ترجمه حنين الى السريانية والعربية ثم ترجمه حبيش الأعسم بشكل أدق لمحمد ابن موسى(٦٧) .

١٤ ـ كتاب الترياق : لجالينوس كتابان فى الترياق أحدهما «كتاب فى الترياق الى بمفوليانس » وترجمه عيسى الى العــربية ، والآخـر « كتابه فى الترياق الى فيســن » ترجمـــه يحى بن البطـــريق الى العربية(٦٨) ولا نعلم أى الكتابين يقصد الكشكرى .

١٥ ـ مقالة فى الرعشة والنافض والاختلاج والتشنج : ترجمة حبيش الأعسم الى العربية(٦٩) .

١٦ ـ كتاب الصناعة الصغيرة : مقالة واحدة أوجز فيه جالينوس علم الطب ، وجعله بذلك نافعا للمتعلمين وللمستكملين ، ترجمة العديد من التراجمة الى السريانية وترجمـــه حنين الى العـــربية لمحمـد بن موسى(٧٠) .

١٧ ـ كتاب الفرق : مقالة واحدة ، جعله جالينوس أول كتاب يجب على متعلم الطب قراءته ابتداء ، ليعلم الطالب فرق الطب وآرائهم من أصحاب التجربة ، والقياس ، والحيــل ، ترجمه حنين الى العـــربية لمحمد بن موسى(٧١) .

١٨ ـ كتاب فى المرة السوداء : ترجمه اصطفن الى العربية ، ثم ترجمه حنين بن اسحاق بعد ذلك(٧٢) .

١٩ ـ كتاب الميامر(٧٣) .

٢٠ ـ كتاب النبض : فى ثمان مقالات ذكـــر حنين أنه لم ير له نسخة باليونانية(٧٤) .

٢١ ـ كتاب النبض الصغير : وهو اختصار لكتابه النبض الكبير ، بحيث جعله مقالة واحدة ، ترجمها سرجس الى السريانية(٧٥) .

مصـنفات ابقراط :

ومن ضمن الكتب اليونانية التى اعتمد عليها الكشكرى فى تصنيف كتابه الكناش،بعض مؤلفات ابقراط الطبيبالمعروفالذى عاش قبلالمسيح عليه السلام بنحو ٤٥٠ سنة وكان على أيام الملك الفارسى بهمن اردشير، يعتبر ابقراط من رواد الأطباء فى العالم ، فقد جاء فى وقت اندثرت فيه الصناعة الطبية بسبب انحصارها فى أسرة آل اسقلبيوس ، فعمل ابقراط على نشرها فى عامة الناس فيمن تتوفر فيه الشروط اللازمة لأن يكون طبيباً ماهراً ، الف فى حدود ثلاثين كتاباً فى الطب قرر أطباء الاسكندرية اثنا عشر كتاباً منها لتعـليم الطب للمتعلمين بعـد كتب جالينوس الستة عشر(٧٦) ، وكانت كتبه التى قررها أطباء الاسكندرية من أهم مصادر تعليم الطب فى عصر يعقوب الكشكرى ، بل ان كتبه تلك لم تفقد أهميتها التعليمية لدى بعض الأطباء المسلمين فى العصور اللاحقة وقد اعتمد الكشكرى فى كتابه هذا على عدد منها وهى كالآتى : -

١ ـ كتاب الفصول : اختصر فيه أبقراط عدداً من كتبه الطبية ، ظل كتابه هذا ذا قيمة علمية للمتعلمين حتى ألف الرازى كتابه «الفصول» فاقبل عليه طلبة الطب وأهملوا فصول ابقراط ، وقـد اعتمد الكشكرى على الفصول لأبقراط كثيراً اذ كان من كتبه المقررة للمتعلمين ، ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية(٧٧) .

٢ ـ كتاب ابيديما : ويسمى أيضاً الأمراض الوافدة، فسره جالينوس وترجمه حنين بن اسحاق الى العربية(٧٨) .

٣ ـ كتاب الأمراض الحادة : ويسمى أيضاً « تدبير الأمراض الحادة لجالينوس » ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية(٧٩) .

٤ ـ كتاب عهد ابقراط الى أهل صناعة الطب ، ويعرف أيضاً بكتاب الايمان ، جعله ابقـراط للمتعلمين ، وللمعلمين ، بحيث لا يخالفـوا ما شرطه عليهم فيه(٨٠) .

مصـــنفات يونانية أخرى :

١ ـ كتاب طيماوس : لأفلاطون بن أرسطن الفيلســـوف اليونانى المعروف (ت ٣٤٧ ق٠م) وكتابه هذا فى الطب بعث به الى تلميـــذه طيماوس(٨١) ، واعتمد الكشكرى على كتابه هذا فى مواضع عدة ٠

٢ ـ كتاب فى داء الماليخوليا : لروفس الحكيم الطبائعى من أشهر الأطباء والحكماء بعد ابقراط وقبل جالينوس ، وهو من مدينة أفسس له الكثير من الكتب فى الحكمة والطب(٨٢) ٠

٣ ـ مقالة فى الألبان : لروفس الحكيم(٨٣) ٠

٤ ـ كتاب الأحجار : للفيلسوف أرسطو طاليس بن نيقوماخس ، صاحب دار التعليم المنسوبة الى الفلاسفة المشائين ، أخـــذ الحكمة عن افلاطون واشتهر حتى أصبح من أساطين الحـــكمه المعـــروفين ببـــلاد اليونان(٨٤) ٠

٥ ـ كتاب الكى : لأفلاطون المعـــروف بصاحب الكى ، قيـل ان جالينوس أخذ عنه(٨٥) ٠

٦ ـ كتاب الكناش فى الطب : لفولس الأجانيطى ، ولا يعتبر من أطباء اليونان لأن حيـــاته كانت فى بداية ظهـــور الاســـلام ، عاش بالاسكندرية وكان يعرف بالقوابلى لأنه كان خبيراً بعلل النساء ، كتابه هذا ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية(٨٦) ، واعتمد عليه الكشكرى فى مواضع عده ٠

نقولات ومقولات يونانية :

كما واعتمد يعقوب الكشكرى فى تصنيفه لكتابه الكناش على العديد من النقولات والمقولات لبعض الأطبـــاء والحكماء اليونانيين ، دون أن يحدد لنا المصدر الذى استقى منه معلوماته تلك ، انما يشير الى اســـم صاحب المقولة أو الكتاب فيقول : فأما فلان فانه زعم ، وقد وصف فلان، كما ذكر فلان ، وقد عمله فلان ، مثل الدواء الذى ألفه فلان ، وفسره فلان ، وقال فلان ويفهم من كلام فلان ٠٠٠ الخ ٠

وقد أكثر من الاستشهاد والنقل عن كتب جالينوس ، فقد اعتمد عليه فى أكثر من خمسين موضعاً ، أما أبقراط فقد اعتمد على كتبه فى عشر مواضع .

هذا بالاضافة الى اعتماده على مصنفات العديد من الأطباء والحكماء اليونانيين الآخرين أمثال : اسقلبيادوس ، وارسطو طاليس وذيسقوريدس ، وارسيجانس ، ولوغاذيا ، وبادريطوس ، وروفس ، واندروماخس ، وثمطريوس ومغنيس رئيس الأطباء على عهد جالينوس.

ويلاحظ أن هؤلاء جميعاً كما يتضح ذلك من تراجمهم كانوا من أشهر الأطباء فى أزمانهم ، فقد تركو العديد من الكتب الطبية والحكمية، والعشبية ، وترجمت أغلب مصنفاتهم الى العربية فكانت المعين الأول للدراسة والتأليف الطبى فى العصر الذى عاش فيه يعقوب الكشكرى ، وهو العصر الذى بدأت تظهر فيه المصنفات والموسوعات الطبية الاسلامية.

المصادر العربية :

مصنفات يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) أحد أشهر أطباء القرن الثالث الهجرى ، تولى أحد بيمارستانات بغداد ، وأصبح الطبيب الخاص للخلفاء من المامون الى الواثق ، ترجم الكثير من المصنفات اليونانية(٨٧) أما كتبه التى اعتمدها الكشكرى فهى :

١ ـ كتاب الكامل الكبير : واعتمد عليه الكشكرى فى مواضع عدة(٨٨) .

٢ ـ كتاب الحميات(٨٩) .

٣ ـ كتاب الكمال والتمام(٩٠) .

مصنفات حنين بن اسحاق العبادى :

أشهر المترجمين فى تاريخ الاسلام على الاطلاق ومن كبار أطباء القرن الثالث الهجرى ، وأشتهر بين الأطباء بعلمه وتآليفه الطبية المتقنة، ولم يشتهر كطبيب عملى (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م) وله العديد من المصنفات

الطبية ، أشتهر بعضها وظل من أهم مصادر التعلم والامتحان الطبى لقرون عديدة ، مثل كتاب العشر مقالات فى العين، وكتاب المسائل(٩١)، أما كتبه التى اعتمد عليها الكشكرى فهى :

٤ ـ كتاب المسائل ، أو المدخل الى صناعة الطب ، بدأ حنين فى تصنيفه وأكمله ابن أخته وتلميذه حبيش ، وكان هذا الكتاب من ضمن الكتب المهمة التى وضعها حنين للمتعلمين على طريق السؤال والجواب(٩٢) .

٥ ـ كتاب الأغذية : وسماه ابن أبى أصيبعة : كتاب قوى الأغذية(٩٣) .

مصنفات طبية عربية مختلفة :

٦ ـ كناش الساهر : واسمه يوسف ويعرف بالقس ، من أطباء القرن الثالث المعدودين ، اشتهر على أيام المكتفى ، واقترن اسمه بكناشه المعروف والمشهور بين الأطباء ، والذى احتوى على الكثير من تجاربه(٩٤)، وقد اعتمد الكشكرى على كتابه هذا فى أكثر من عشرة مواضع .

٧ ـ الكناش الكبير : ليوحنا سرابيون ، ألفه بالسريانية ونقله الى العربية موسى ابن ابراهيم الحديثى سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م ونقله أيضاً الى العربية الحسن البهلول ، وأبو البشر متى(٩٥) ، وقد واعتمد عليه الكشكرى فى عدة مواضع .

٨ ـ كتاب فردوس الحكمة : لأبى الحسن على بن سهل بن ربن الطبرى ، كان على أيام الخليفة المعتصم وأسلم على يديه ، وأصبح له المكانة العالية على أيام المتوكل ، ويعتبر كتابه هذا من أوائل الكتب الطبية التى ألفت فى الطب الطبائعى(٩٦) ، وكان لكتابه هذا منزلة معروفة لدى الأطباء فى القرن الثالث الهجرى .

٩ ـ كتاب الذخيرة فى علم الطب : لثابت بن قرة الحرانى (ت

٢٨٨هـ/٩٠٠م) ، وكان ثابت من كبار الأطباء والحكماء فى القرن الثالث الهجرى ، وصنف عشرات الكتب فى الطب والحكمة والهندسة والفلك والرياضة(٩٧) ، وكتابه هذا عبارة عن كناش طبى ألفه لابنه سنان ، ويعد حقيقة من أهم مصادر الطب وتعلمه فى القرن الثالث الهجرى ٠

١٠ ـ كتاب اصلاح الأدوية المسهلة : لحبيش بن الحسن الدمشقى تلميذ حنين بن اسحاق وابن أخته(٩٨) ٠

١١ ـ الاقرباذين السابورى : لسابور بن سهل ، كان من الفضلاء فى مهنة الطب علماً وعملا ، واشتهر على أيام الخليفة المتوكل العباسى حيث لازمه ومن بعده من الخلفاء الى المهتدى بالله ، ولازم العمل فى بيمارستان جند يسابور (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) وعلى الرغم من أن الأطباء وتلامذة الطب فى عصر الكشكرى كانوا يعتمدون بشكل كبير فى دراساتهم ومصنفاتهم الطبية على كتب اليونان ، الا أن الكثير من الكتب الطبية التى صنفت منذ بداية القرن الثالث الهجرى فى الدولة الاسلامية كانت لا تقل أهمية عن تلك اليونانية ، بل أن بعضها كان من الأهمية ما فاق المصنفات اليونانية من حيث المنهجية ، والبناء العلمى الذى اعتمد التجريب ، لا سيما تلك المصنفات المتقنة التى لم تفقد أهميتها حتى بعد ظهور الموسوعات الطبية التى برزت كمصنفات طبية أولية فى القرن التالى ، مثل كتاب الذخيرة لثابت بن قرة ، والمسائل فى الطب لحنين بن اسحاق ، وفردوس الحكمة لأبى الحسن على ابن سهل ٠ هذه المصنفات لم تفقد أهميتها التعليمية والطبية فى القرون التالية ٠

نقولات ومقولات لبعض الأطباء العرب :

وبالاضافة الى المصادر العربية السابقة الذكر ، نجد أن الكشكرى اعتمد أيضاً على عدد كبير من المقولات والنقولات لمجموعة من الأطباء والحكماء العرب والمسلمين دون أن يحدد لنا مصدره فى ذلك ، وأحيانا يحدد لنا اسم القائل أو اسم مؤلف الكتاب الذى اعتمده ، وأحياناً أخرى يهمل الاسم ٠

كما أننا لا نستطيع تدقيق بعض مصادره المقولة والمنقولة تلك ،

أهو سمعها مباشرة من أصحابها ؟ أو قـرأها ؟ أو رويت له ؟ أو قرئت عليه ؟ فيقول أحياناً « ذكر رجل رومى »(١٠٠) ، « وذكر بعض الأطباء الكحالين »(١٠١) ، « وذكر بعض الأطباء »(١٠٢) ... الخ .

هذا بالاضافة الى أنه أحيانا أخـرى ينسـب المقولة أو المعلومة المستقاة الى عدد من الأطباء جملة ، ولا نعلم نوعية مصدره فى ذلك هل هو عن طريق المصادر المكتوبة ؟ أو المسموعة ومثال ذلك قوله : « صفة كحل تسمية الكحالين بالبصرة »(١٠٣) وقـوله : « وهـو من أسرار الـكحالين بالبصرة »(١٠٤) ، وقوله « وهـذا يسـميه كحـالو البصرة ... »(١٠٥) .

أما الغالب الأعم من تلك النقولات فنجده يحدد أسماء قائليها دون ذكر اسم مؤلفاتهم وهى كثيرة جـداً منها قوله : « وجابر بن حيـان الصوفى يقول فى بعض كتبه »(١٠٦) ، وقوله : « وكان سنان يعمـل جوارشن »(١٠٧) ، وقوله : « وهذه نسـخة أبو سـعيد سنان بن ـ ثابت »(١٠٨) ، وقوله : « صفة قرص ذكره ثابت بن قرة »(١٠٩) .

دراسات الكشكرى وتجاربه وأعماله الطبية :

لقد سبقت الاشارة الى أن يعقوب الكشكرى يعد من أطباء القرن الثالث الهجرى ، الذين كان لهم تجارب وخبرات عملية وافرة ، وذلك من خلال عمله الذى استمر زمناً طويلا فى بيمارستانات بغداد ،فقد هيأ له ذلك فرصة جيدة للالتقاء بالكثير من أطباء عصره ، وبالكثير من المرضى الذين يطببهم ويشرف على معالجتهم ، وبالتـالى فان « تجـارب ، ومعالجات ، وأحداث ومشاورات طبية مختلفة قد حدثت له بالضرورة ، وكان ما رآه وعاينه ، ومنها ما سمعه أو وصف له ، فكانت بذلك من ضمن أهم مصادره فى تأليف كتابه هذا(١١٠) ، فان من يطلع عليه سيدرك مدى اهتمام المؤلف بهذا النوع من الدراسة الميدانية .

ان هـذا الكتاب تنطوى أهميته على ما أودعه فيـه المؤلف من دراسات طبية جادة ، فقد أعطى صورة مشرقة عن الفكر الطبى خلال

ذلك العصر ، اذ تشير مباحث الكتاب الى الكثير من الأفكار الطبية الجديدة ، والمعالجات الغريبة المتطورة التى تناقش بعض القضايا الطبية التى تشغل بال الأطباء فى العصر الحديث ، والتى لازالت دراساتها فى سبيل التطور والبحث ، فالكتاب تناول مثلا وفى أماكن كثيرة الجراحة التجميلية ، وأعطى أنواعاً من الوصفات الطبية التى تتناول وتعالج هذا الجانب من الطب ، وكان لها آثاراً ايجابية بشكل مثير ٠

أما ما تفرد به هذا الكتاب عن كثير من كتب الطب العربى فانه قدم لنا وصفاً رائعاً وشيقا عن التطبيب العملى ، والمعالجة ، وكيفية التعامل مع المرضى والأمراض ، والأدوية فى بيمارستانات بغداد فى القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، وهذا حقيقة مالا نجده فى كتب الطب الأخرى للأطباء المسلمين ، فالكشكرى هنا يصف لنا الأمراض التى تناولها فى كتابه ، ويعطينا عنها دراسة علمية واضحة معتمداً فى ذلك على أمهات مصادر الطب فى عصره ، ثم نجده بعد ذلك يوضح لنا الطريق الأمثل فى التعامل مع كل مرض وكيفية علاجه ، ذاكراً العديد من الأمثلة عن معالجاته الطبية ، وأسماء الحالات المرضية والكثير من أسماء أصحابها ، وكيف تمت المعالجة وكيف كانت النتيجة ، وهو فى ذلك كله لا يقتصر على معالجاته فقط ، بل يذكر لنا الكثير مما شاهده وعاينه فى بيمارستانات بغداد من مرضى وحالات مرضية مختلفة ومعالجات لأطباء آخرين ٠

وسنعرض لأهم ما ورد فى كتابه هذا من دراسات طبية ، ومعالجات ومجربات ، لا سيما تلك التى تتسم بالسمة العملية وكان لها قيمة طبية جيدة ٠

فنجده يتحدث فى الباب الأول عن أسباب وجود الشعر فى جسم الانسان ويعلل سبب اختلاف الشعر عند البشر ما بين كثيف وقليل ، وجعد وسبط ، وأسود وأشقر وأبيض ، فيعلل سبب ذلك الى اختلاف أمزجة الأجسام ، وما يتبع ذلك من اختلاف الأقاليم وتأثيرها على

السلالات البشرية ، ويضرب لنا بذلك الأمثلة على أهل الحبشة والهند والصقالبة(١١١) .

على أن أهم ما تعرض له فى هذا الجانب هو مناقشته لمسألتين مهمتين هما : -

الأولى : الأمراض التى تصيب الأماكن التى يتولد فيها الشعر كالرأس وبعض أجزاء الجسم كمرض داء الثعلب - الثعلبة - اذ يقول عنه : « فاما داء الثعلب فمن الأمراض التى تخص الرأس فيتقرع الشعر، وربما تعدى فيتقرع أيضاً شعر اللحية والأجفان والحواجب وسائر البدن حتى يصير الجلد أملس براق ... ومولدها عن رطوبة رديئة متعفنة »(١١٢) .

وتناول داء الحية والفرق بينه وبين داء الثعلب فذكر أن داء الحيه يسبب الصلع ، الا أن مسببات أقوى تؤدى مع الصلع أيضاً الى انسلاخ وتقشر فى الجلد ، وقد رأى ذلك بنفسه فيقول : « وهذا الصنف من داء الحية رأيته فى بيمارستان صاعد برجل قد سعى هذا المرض فى سائر بدنه ، وتشكل بشكل سلخ الحيات وتشققت أطراف أصابعه ، وذكر أصحابنا أنها صنف من داء الحية »(١١٣) ، ثم أعطى الكثير من الوصفات الطبية المختلفة لمعالجة كل مرض على حدة ، ويؤكد أن لبعضها قوة شفائية عجيبة بعد أن اختبرها وجربها(١١٤) ويؤكد ذلك قوله : « فأول ما ينتفع به صاحب هذه العلة ... »(١١٥) .

الثانية : وقد أولى أثناء حديثه عن تلك الأمراض ومعالجتها الجانب التطبيقى الدوائى اهتماماً كبيراً ، لا سيما تلك الأدوية التى جربها والتى تهتم بالطب التجميلى نظراً لما تتركه تلك الأمراض من آثار خلقية ، ومن تشويه لأجزاء الجسم مثل الصلع ، وتساقط الشعر ، واكتسابه اللون الأبيض .

وساقه هذا الاهتمام الى أن أفرد أبواباً وعناوين تعالج نظافة الشعر والاهتمام به ، ذاكراً أنواعاً كثيرة من الأدوية ومن الوصفات الطبية التى تخدم الطب التجميلى .

فنجده يتحدث عن مرض تساقط الشعر والذى تسببه تلك الأمراض، مما حدا به الى أن جرب العديد من الوصفات الطبية التى تمنع تساقطه، وكان يقوم بعمل تلك الأدوية بنفسه ثم يجربها ، وقد أوصلته التجربة الى معرفة أنواع من الأدوية لها قوة شفائية رائعة فنجده يقول : « وما رأيت دواء أفضل فى علاج تساقط الشعر من دواء يتخذ من اللادن(١١٦) ومن دهن شجرة المصطكى ... »(١١٧) ، ويسوق لنا بعد هذا أدوية أخرى كثيرة ومجربة لعلاج تساقط الشعر الى أن يقول بآخرها : « قال يعقوب مؤلفه وجامعه : هذا ما وجدته وأضفته الى قول جالينوس فى علاج هاء الحية ، وداء الثعلب ، والصلع »(١١٨) .

ثم يفصل فى عناوين متفرقة أنواعاً من الأدوية المركبة منها ما يساعد على انبات الشعر وتطويله ، ومنها ما يمنع انتشار الشعر ، وأدوية أخرى تستخدم لغسل الرأس ، وتساعد على ازالة الأوساخ والأبرية ، والحزازة(١١٩) ، والسعفة(١٢) .

وتحدث عن مجريات ومشاهدات حدثت له مع أدوية الزينة كالخضابات التى تسود الشعر ، فقد رأى بعض الأطباء يستخدمون نوعاً منها خضبوا بها شعر رؤوسهم ولحاهم فاكتسبت اللون الأسود ، ومنعت تساقط الشعر(١٢١) .

كما أنه شاهد طبيباً كان نصرانياً ثم أسلم واسمه حبرون وكان أبيض الشعر ، وكان يستخدم خضاباً يسود شعره فسأله عن كيفية صنعه فأخبره بذلك(١٢٢) .

وأخذ تركيبة مجربة من أحدهم عندما كان بالكوفة ، وكان الرجل يخضب بها لحيته فتسود وتبقى على ذلك أياماً كثيرة لا يتغير لونها(١٢٣) ، وقد أكثر من ذكر هذه المجربات من الخضابات التى تسود الشعر تسويداً شديداً(١٢٤) .

وذكر أنواعاً مختلفة من أدوية الزينة المجربة التى يستخدمها النساء والتى أكد أن لها مفعولا عجيبا ، منها تلك الملونة للشعر فتجعله

أشقراً ، أو أحمراً وأدوية أخرى تجعله جعدا متفرقاً ، وأخرى تجعل الشعر المجعد سبطاً ناعماً ، ومنها ماله تأثير عجيب فى ازالة الشعر الزائد من الجسم ، كما أنه لا ينبت اذا طلى الموضع مراراً(١٢٥) .

ثم يعقد الكشكرى فى الفصل الحادى عشر من كتابه الكناش(١٢٦) دراسة علمية عن العين وتركيبها ، وطبقاتها ، وأعصابها ، وعروقها ، وأمراضها ، وكيفية الابصار وما لذلك كله من علاقة بالدماغ .

على أن ما يهمنا فى دراسته تلك هو ما أورده فيها من تجارب وملاحظات فى علاج أمراض العيون المختلفة ، والكثير من تلك المعالجات والمجريات تمت معالجة أصحابها فى بيمارستانات بغداد ، فيذكر أنواعاً مختلفة من الأدوية المفردة والمركبة كالاكحال ، والآشياف ، والسعوطات، والذرورات(١٢٧) وأدوية أخرى تم استخدامها بعد تجريبها فى علاج أمراض العيون ، وكان لها نتائج علاجية جيدة ، والكثير من تلك المعالجات كان يعملها بنفسه ، والبعض منها تمت بحضرته وكان يقوم بها بعض أطباء من زملائه فى تلك البيمارستانات ، فأما ما جرب من تلك الأدوية فهى كثيرة وصفها بالجودة وحسن المعالجة فيقول : « وهى نسخة مجربة »(١٢٨) ويقول : « فانه صحيح مجرب »(١٢٩) .

وأما الأدوية التى كانت تركب فى البيمارستانات التى عمل بها فذكر منها أنواعاً مختلفة وسماها « نسخة البيمارستانات » وبعضها ينسب تركيبها الى بعض زملائه فى هذه البيمارستانات ، ويبدو أنها كانت مشهورة وجيدة حتى أنها عرفت بأسمائهم فيقول « نسخة حارث ، كنا نستخدمها فى بيمارستانات صاعد »(١٣٠) ونسخة « ابراهيم بن زيتونة البصرى الذى كان معنا فى مارستان صاعد رحمه الله »(١٣١) ، وكانت وصفات البيمارستان تلك نافعة جداً منها ما يمنع سيلان الدموع، ويسكن الصداع ، ومنها ما يعالج القروح ، والرمد ، ويقطع المدة(١٣٢) من العين ، ومنها ما كان يعالج الشبكره(١٣٣) ، وبعضها يمنع نزول الماء فى العين ، وابتداء نزوله(١٣٤) .

ومن ضمن مشاهداته وملاحظاته الطبية عن أمراض العيون ما كان

يخبره به بعض الأطباء عن أدوية ومعالجات حدثت لهم ، مثل اسماعيل الكحال الذى عالج بدر غلام المعتضد من شبكرة قديمة كانت به(١٣٥) ، كما يتحدث عن أمراض وتجارب طبية شاهدها بنفسه وهى كثيرة ، واعجب ما أورده منها ، مما يدل على شدة ملاحظته « القمر الذى يحدثه الثلج فتجمد الحدقة منه فلا يبصر الانسان »(١٣٦) فيقول : « يقول المصنف اننى قد رأيت هذا العارض بارمينية واذربيجان »(١٣٧) .

وسبق وأن ذكرنا زيارة المؤلف لجنوب العراق مع ياقوت المدبر(١٣٨) ، ولاحظ كثرة مرضى العيون بالبصرة فيقول عن كحاليها : « ان كحالى البصرة حذاق بعمل الكحل لكثرة أمراض العين عندهم... ولهم كحل ربما ذروه فى اخراج المدة اذا خرجت فى الطبقة القرنية قرحة وشد برفادة فتخرج المدة بسرعة »(١٣٩) ، ويتحدث أيضا عن كحل آخر من عمل أطباء البصرة له ميزة خاصة فى علاج البثرة(١٤٠) فيقول عنه : « وهو من أسرار الكحالين البصريين ، لأن أهل البصرة بكثرة أوجاع أعينهم من الحر فيها ... »(١٤١) .

ويبدو أن الكشكرى كان مع دربته الطويلة جراحاً ماهراً ، فقد أفرد صفحات عديدة يتحدث فيها عن الكثير من العمليات الجراحية الدقيقة التى تتم فى العين ، والتى كان يجربها لمرضاه ، وعنون عملياته تلك بـ « فى علاجات العين باليد وكيف ينبغى أن يستعمل العلاج »(١٤٢) .

والمتتبع لتلك الصفحات يدرك أن مؤلفها كان ذا معرفة واسعة بعلم التشريح ، وأنه بلا شك كان يجرى تلك العمليات فى البيمارستانات بصفة دائمة ، فقد أعطى وصفا غاية فى الدقة لكل عملية ، وكيف يجب أن تتم، شارحاً الأوضاع التى ينبغى أن يكون عليها المريض ليضمن نجاح العملية، وكيف يتوجب على الطبيب السيطرة على حركة العين خوف الخطأ ، وفى أى اتجاه يكون الطبيب ، وكيف يمسك الأدوات الجراحية ، ومن أى جهة يكون ذلك ، ذاكراً أسماء الأدوات المستخدمة فى كل عملية نوعها ، ونظافتها ، وكيفية التعامل معها لضرورة اتقان صنعها ونظافتها،

انه يعطى صورة كاملة تكاد تكون مرئية لكل تلك العمليات خطوة خطوة من أولها والى أن تتم خياطة الجرح ، ووضع الدواء وتضميد العين .

ونجده يناقش ويبدى رأيه ، وينتقد جالينوس ويخالفه فى معالجة انسداد الأذن وما يسببه من ثقل فى الرأس فيقول : « فالصواب أن يخلط مع الأدوية التى يعالج بها رغوة البورق ، والنطرون(١٤٣) ودهن اللوز المر ، وسائر الأدوية التى تفتت الحصى تفتح السدد العارض فى ثقب الإذن »(١٤٤) .

ويشرح لنا الكثير من العمليات النافعة لازالة الأوساخ المتحجرة فى الأذن التى تمنع السمع ، وكيف ينبغى أن تتم العملية ، ويعطينا أمثلة لذلك منها معالجته للقراريطى الوزير حين ثقل عليه سمعه وعالجه واسترد سمعه(١٤٥) ، ويقول فى مكان آخر : « فقد عالجت فتى قد كان له عسر فى سمعه .. فاسقيته حب الصبر ، ثم فتحت اذنه وجعلت فيها فتيلة شربتها بدهن النادرين(١٤٦) فعاداليه سمعه وقد كان فقد سمعه شهوراً كثيرة فسر ذلك الفتى غاية السرور »(١٤٧) . وكان يقوم باجراء تلك العمليات بنفسه ذاكراً العديد من الأدوية المجربة لمعالجة الأمراض المختلفة التى تصيب الأذن(١٤٨) .

ويتحدث المؤلف فى مواضع كثيرة من كتابه هذا عن معالجاته للكثير من الأمراض الجلدية التى تكون فى الوجه وفى الجسم عامة ، وعن العديد من أدوية الزينة المجربة التى أفادت مرضاه لمعالجة الكلف ، والنمش(١٤٩) وآثار الجدرى ، والبثور ، والقوابى(١٥٠) وغيرها ، ولم يقتصر على الأدوية بل تحدث عن الأغذية المختلفة التى تمنع مثل هذه الأمراض وتحافظ على حيوية البشرة ، وهذا يعد بابا مهماً فى العلوم الطبية فى العصر الحديث .

ويلاحظ أنه أثناء استعراضه لمجرباته تلك يوصى بالابتعاد عن بعض الأدوية مما عرف فى كتب القدماء ، لأنه وجد لبعضها آثاراً سيئة على الأمراض كما يبين ذلك حديثه عن بعض الأدوية المستخدمة فى مداواة القوابى(١٥١) ، أما الأدوية الأخرى التى جربها مع مرضاه ولم يكن لها

أية آثار جانبية لا على الجلد أو المرض ذاته كالقروح والبثور وأمثالها فانها كثيرة جداً ، وكان لأغلبها آثاراً ايجـابية وسريعة لمعالجـة تلك الأمراض الجلدية فمجرباته التى كانت تعالج الكلف كثيرة وناجحة(١٥٢)، أما الأدوية التى كان يستخدمها مع زملاء مهنته فى البيمارستات لعـلاج الجرب فذكر ان منها له من القوة ما يقلعه ويزيله لساعة(١٥٣) ، ومنها اذا ما طلى به « الجرب والسعفة قلعها قلعاً عجيباً(١٥٤) ، ويحدثنا عن ابن البريدى ومعاناته من قواب كانت به فطلاها مرات بدهن الحنطة فبرأ(١٥٥) ، ويذكر أدوية مجربة أخذها من زميله سليمان الجرائحى ، وابن الماى ، وكان يستخدمها فى البيمارستان ومع مرضـاه خارجه ، فذكر تركيبة لمرهم مجرب كان له تأثير فعـال فى أكـل اللحم الزائد كالثاليل فيقول : انه عالج به جارية ابن مقاتل من توثه كانت تجدها فبرئت بعد أيام ، من دون استخدام دواء آخر(١٥٦) .

أما علاج النمش فيذكر أن أطباء الكوفة كانوا يسقون النساء بعض الأدوية التى تسمن ليذهب النمش(١٥٧) ، وقد عالج بهـذه الطريقة جارية فى دار العـلوى كان بوجهها نمش ، فكان يعطيها بعض الأدوية المسمنة(١٥٨) . على أن أفضل المجربات التى كان يستخدمها فى معالجة النمش هو ما أخذه من أحد زملائه فى بيمارستان صاعد ، فذكر أنه كان يطلى النمش بعسل البلاذر(١٥٩) ويتركه لساعةثم يغسله ويطليه بمرهم الاسفيذاج(١٦٠) والكافور(١٦١) فيزيل النمش(١٦٢) .

وأورد لنا عدداً من السنونات ، وهى أدوية مركبة تستخدم لتنظيف الأسنان وحفظها من التآكل والتسوس ، وأوصى فى استخدامها بأن توضع على السواك ثم تجلى به الأسنان(١٦٣) ، ويسوق الينا مركبات أخرى من الأدوية التى لها من الأثر ما يمكن معـه قلع الضروس المتآكلة بغير حديد ، وأخرى يمكن استخدامها فى قلع الضروس من غير ألم(١٦٤) ، وذكر عدداً من الأدوية المجربة فى البيمارستانات والتى كان يستخدمها مع مرضـاه لعـلاج أمراض الفم المختلفة كالبثور ، والقروح(١٦٥) ، والتهاب الحلق(١٦٦) والسعال(١٦٧) والأدوية التى تقوى اللثة وتقطع الدم المنبعث منها(١٦٨) ، وسـاق لنا حكايته عن الدواء الذى عمله

للأستاذ أبى الفوارس ياقوت وكان له منفعة عظيمة فى معالجة الخناق(١٦٩) الذى كان يعانى منه(١٧٠) ٠

وعقد الكشكرى دراسة رائعة عن المعدة وأمراضها ومداواتها ، واتسمت دراسته تلك بالطابع العملى بشكل كبير لا نجده فى أغلب موضوعات كتابه ، فذكر أمراض المعدة المختلفة ، وكيفية علاجها وذكر الكثير من الوصفات الطبية المفردة والمركبة والتى كان يعدها بنفسه ذاكراً أهميتها وقدرتها الدوائية بعد التجريب ٠

ونجده هنا يناقش بعض مسائل الطب ويطرح وجهة نظر من سبقه من الأطباء اليونانيين ، ثم يبدى وجهة نظره ويؤكد خطأ من سبقه من الأطباء وصحة وجهة نظره المدعمة بالتجريب ، فشكوكه ووجهات نظره تلك جاءت من باب ايمانه وقناعته بالتجريب ، ومن باب طول الخبرة وكثرة الممارسة فى الأعمال الطبية ، ومن ذلك ما أكده أثناء استعراضه لآراء بعض الأطباء فى كيفية استخدام الصبر(١٧١) واختلافهم فى ذلك فيذكر ما صح عمله واثبتته التجربة قائلا : « فأما نحن فينبغى أن نعلم أن الصبر الذى لم يغسل أوفق وأصلح للبطن »(١٧٢) ٠

وفى موقع آخر يؤكد خطأ ما ذهب اليه ابقراط فى احدى معالجاته فيقول :« قال المصنف : ليس هذا من علاج البيمارستان وانما كتبته ليعرف ما قال ابقراط ، ولم تجر العادة باستعماله فلا تستعمله »(١٧٣)٠

ولطول دربته فى المعالجة يلاحظ معرفته وادراكه لأنواع الأدوية كيف تستخدم ، ومتى ينبغى ذلك ، وما هى الحالات التى يمكن أن تعطى فيها تلك الأدوية فنجده يحذر ويوصى بعدم استخدام الكندرس(١٧٤) والخربق(١٧٥) مع أدوية القيىء لأنها تحدث للمريض « القيىء المنكر الذريع البالغ فيعرض من ذلك التشنج »(١٧٦) ٠

وكان شديد الحرص فى أعماله الطبية ومعالجاته على سلامة المريض ، وتجنب الخطأ فى المعالجة ، لعظم المسئولية الملقاه على على الطبيب فى عمله ، فيحذر قائلا ، « قال يعقوب ان استعمال الفصد فى

هذا المرض من جهات فلا تستعمله ، فان أطباء هذا البلد يخطئونك ، وينسبونك انك أعنت على قتله »(١٧٧) .

وفى مداواته لعلل المعدة يذكر لنا أصنافاً من الأدوية المجربة النافعة منها وصفات كان يعالج بها بعض الكبراء فى وقته ، ومنها وصفات مجربة أخذها من زملائه الأطباء ، وهناك المجربات التى كان يستخدمها فى البيمارستانات مع المرضى ، وهناك بعض الأدوية التى كأن يقوم بتركيبها بنفسه ويعالج بها عامة المرضى . فيذكر أن أبا الفوارس ياقوت كان مع كبر سنه يعانى من آلام فى معدته وسوء هضم فعمل له دواء مركباً وجد منفعته كبيرة(١٧٨) ، وكذلك عمل دواء لأبى على عمر بن يحى العلوى كان يأخذه بعد الغذاء وكان يساعده على هضم الطعام ، وتحليل الرياح التى تتولد فى المعدة والأمعاء(١٧٩) ، كما أنه كان يركب الكثير من أنواع الجوارشنات(١٨٠) والتى كان يهديها لأصدقائه(١٨١) .

وكان من ضمن أدوية المعدة ما كان يأخذ صفته من زملاء المهنة فيذكر صفة جوارشن الأترج وماله من سمات طبية جيدة ، يقول أنه أخذ نسخته من جابر المتطبب الذى كان فى دار الخـــلافة(١٨٢) ، وكذلك شراب المصطكى الذى أخذ نسخته من عيسى متطبب شفيع وعمله الاثنان للأستاذ أبى الفوارس ياقوت(١٨٣) .

وذكر أصنافاً متعددة من الأدوية المفردة والمركبة التى كانت تركب فى البيمارستانات التى كان يعمل فيها ، وأشار الى أن بعض هـــذه الأدوية كان يقوم بتركيبها مباشرة بعض زملائه مثل ابراهيم بن صدقه الذى كان يعمل الأدوية والأشربة فى بيمارستان صـــاعد ، ومارســتان السيدة(١٨٤) ، والبعض منها كان ضمن قائمة الأدوية المعدة مسبقاً فى البيمارستان والتى كان يقوم الصيادلة بتركيبها باستمرار لكثرة الطلب عليها ، وكانت هذه الأدوية من ضمن أشهر الأدوية التى اتفق على أهميتها وضرورتها الأطباء والصيادلة لما لها من قوة شفائية فى معالجة الأمراض المختلفة التى تصيب المعدة(١٨٥) على أن أهم ما أورده من تلك الأدوية والذى أثبت قوته الشفائية بعد التجريب هو : « ترياق الأربعة(١٨٦) الذى يقول عنه : « وجربته أنا ، وصح على يدى ، وقد قابلت به النسخ

المعمولة فى البيمارستانات ، ولهذا الترياق المعروف بالأربعة منافع من الرياح الغليظة التى تحدث فى المعدة ، ومن السموم القاتلة المشروبة ... »(١٨٧) .

وأشار الى العديد من المجربات الأخرى التى تخفف آلام المعدة بشكل عام ، وجربها وكانت منفعتها جيدة مثل شراب التفاح(١٨٨) ، وبعض الجوارشنات اللطيفة التى كانت تعطى للمرضى الذين يكرهون شرب الأدوية شديدة المرارة(١٨٩) . وأدوية أخرى مركبة تخلط مع الصبر(١٩٠) تنفع من آلام المعدة ، وتحلل الرياح التى تتولد فيها(١٩١) ومن أهم ما ذكره مما يخص هذه الرياح : « قال يعقوب : قد رأيت فواقاً(١٩٢) من ريح حدثت ، تولدت فى المعدة من غذاء يولد رياحا ، فدفعت الى من أصابه ذلك صعتر(١٩٣) وكمون كرمانى(١٩٤) بماء حار فسكن الفواق لساعته »(١٩٥) ، ويذكر أيضاً تركيبة دوائية تعمل أقراصاً كانوا يستخدمونها فى البيمارستان للمرضى الذين يعانون التهاب المعدة ونفث الدم وسماها « أقراص الكرباء »(١٩٦) ، ومن ضمن ما أشار اليه من الأدوية التى لاحظ قوتها الشفائية تلك الوصفة الدوائية التى أخذها من بعض الأطباء ، وكان لها منفعة جيدة للمعدة وللحميات الحادة يقول عنها : « وقد عملته أنا بالكوفة وكان نافع طيب »(١٩٧) .

ولم يكن الكشكرى من الأطباء الذين يأخذون بالموروثات الطبية كمسلمات وحقائق غير قابلة للنقاش ، بل أنه كان ينتقد ويصحح ويجرب ويقيس فيقول منتقداً ومصححاً : « ذكر بعض المتطببين اليونانيين أن اسم النشأ باليونانية ـ أملن ـ(١٩٨) وأن الناسخ غلط فى وقت نسخه فأسقط نصف الاسم من الشبرم ، واسمه باليونانية ـ توث أملن ـ قال يعقوب انه لم يكن فى القديم نشأ وانما كان فيه شبرم(١٩٩) وانما غلط الناسخ الذى نقل من اليونانية الى العربية »(٢٠٠) .

ويسوق الينا الكثير من الأدوية المختلفة من مجربات البيمارستان مثل حب العدد الذى كان يداوى به المستسقين(٢٠١) ، وأدوية أخرى

لمعالجة التهابات الكلى والمثانة(٢٠٢) ، وصفات طبية متعددة لمداوة أمراض الدم ، وأخرى لمنع الحمل(٢٠٣) .

ويبدو من خلال حديثه عن الأمراض التى تحدث فى المستقيم كالبواسير والتوث وأمثالها أنه كان خبيراً بها الى درجة بعيدة ، فقد اشتهر بمحقنته التى توضع فيها الأدوية ويحقن بها المرضى الذين كانوا يعانون من القروح والتوث فى المستقيم ، ويذكر أنه أخذ تلك الطريقة فى المعالجة من ابن الماى الطبيب قائلا : « وقد عالجت بهذه الصفة لمن تقوم المدة فى المقعدة فى أول المعا المستقيم ... وجعلته فى المحقنة وعالجت به فنفع »(٢٠٤) .

ويذكر فى ثنايا حديثه الكثير من الوصفات الطبية لأدوية مفردة ومركبة لبواسير والتوث والتهابت المستقيم وقروحه ، بعضها كان يعمله بنفسه وجربها مع مرضاه ووصفها بأنها كانت قوية وعجيبة المعالجة(٢٠٥) ، ومنها ما كان مخصصا لقلع التوث وأكل اللحم الزائد(٢٠٦) ، والبعض الآخر كان يعطيها للمرضى الذين يعانون الزحير وأمراض الامساك المزمن(٢٠٧)، وأغلب تلك الأدوية كان من مجرباته وبعضها أخذ وصفاتها من زملائه الأطباء(٢٠٨) والبعض كان ضمن أدوية البيمارستانات التى كان يعمل فيها(٢٠٩) .

لقد كانت البيمارستانات الثلاثة ميداناً رحباً لاجراء تجاربه بالمشاورة بينه وبين زملائه الأطباء ، والظاهر أن أغلب المعالجات والأدوية لم يكن يسمح بوضعها فى قائمة أدوية البيمارستانات حتى تثبت قدرتها العلاجية بشكل أفضل من غيرها ، وأن لا تترك آثاراً ضارة على حياة الناس وصحة أبدانهم فنجده يقول بعد أحد تجاربه الدوائية الناجحة : « وانا مثبت ما استعملته وجربته فى علاجى لهذا المرض أعنى : الوسواس السوداوى(٢١٠) فى البيمارستانات التى خدمت فيها ... »(٢١١) وأكد أن الكثير منها من عمله وتوليفه وكانت نتيجة خبراته وتجاربه(٢١٢) .

ويلاحظ أنه كان يقارن بين ما توصل اليه من نتائج فى معالجاته

المبنية على التجربة ، وبين ما كان يأخذه من زملاء المهنة من وصفات مختلفة ، أو ما كان يجده فى أقرباذينات البيمارستان من وصفات أخرى، فيتحدث عن الفرق الحاصل بينها فى العمل والمعالجة فيقول : أنه وجد فى بعض الوصفات الموجودة فى البيمارستان مفردات أخرى زائدة عن الحد الذى يتوجبه صنع ذلك الدواء(٢١٣) .

ويحذر من اســـتخدام بعض الادوية القـوية على الأبدان والمغيرة للأمزجة الا بعد أن تكون الأبدان مستعدة لقبول تلك الأدوية فهو يقول : « قال يعقوب المصنف الكشكرانى : ليس يجب أن يسقى **مفلوج**(٢١٤) أو من به لقـــوه(٢١٥) أو صرع ايارج(٢١٦) لوغاديا الا بعـــد أن ينقى البدن »(٢١٧) .

واستعرض لذكر بعض الحالات المرضية الغريبة التى صادفته أثناء عمله فى البيمارستانات ، وقارن بينها وبين مالديه من علم نظـــرى ، وساق منها بعض الأخبار التى تؤكد التوافق العلمى بين ما يدلى به من آراء نظرية وبين تلك الحالات التى تشهد بصدق ما ذهب اليه ، بل انه يعارض أحياناً ما ذهب اليه الأطباء ولم يعاينه فيقول أثناء كلامه عن التشنج وآثاره السيئة على الانسان : « فقد رأيت فى بيمارستان صاعد جماعة لصوص قطعت أيديهم فتشنجوا فما عاش واحد منهم »(٢١٨) ، ويقول فى موضع آخر لكلامه ومخالفاً لراى ابقراط : « ويعقوب الكشكرى يقول : اننا لم نر هـــذه الحميات فى خـــدمتنا لبيمارستانات عرضت لأحد ... »(٢١٩) ، أما مالاحظه فى بيمارستانات بغداد من أعمال جيدة ومعالجات رائعة لبعض زملائه الأطباء ، فقد أوردنا منها البعض وأسوق أخيرا شهادته بذكر تقدم وفضل أحـد أطبـــاء الحجاز ومهارته قائلا : « وقد كان معنا فى بيمارستان السيدة أم أمير المؤمنين المقتدر أيدهما الله رجل من أهل الحجاز كان يحسن اخراج العرق المدينى(٢٢٠) ومداواته حتى لا يبقى منه شىء البته »(٢٢١) .

الهـــوامش

(١) سنتعرض لهذه الأسماء أثناء الحديث عن مصادره .

(٢) لم أجد من المشاهير والذى كان له عناية بالأطباء ، وكان يحب الخير وينفذ الصدقات كل يوم على الفقراء سوى الوزير الملقب بذى الرياستين صاعد بن مخلد ، كان كريما عطوفا على الفقراء محبا لهم ، فيبدو أنه هو الذى أنشأ هذا البيمارستان ، وقد عاش الكشكرى فى أواخر أيامه ، توفى سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م ، ابن الجوزى : المنتظم جـ ١٢ ، ص ٢٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٣٢٧ – ٣٩٣ – ٤١١ – ٤١٤ – ٤١٧ – ٤١٩ .

(٣) بدر بن عبد الله الحمامى ، يلقب بأبى النجم كان مولى للمعتضد بالله ، اشتهر بالشجاعة وحب العلم والعلماء ، تدرج حتى أصبح بمنزلة كبيرة من دار الخلافة ، تولى الشرطة ، وتولى الامارة فى العديد من البلدان كفارس ، ومصر مع ابن طولون ، توفى ٢٨٩هـ/٩٠١م ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ ٧ ، ص ١٠٥ ، ابن الأثير : الكامل ، حـ ٧ ، ص ٥٤٦ – ٤٨٠ – ٥٠٩ – ٥١٧ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠١ – ٣٠٢ .

(٤) مارستان السيدة ، واسمها شغب ، كانت جارية للمعتضد بالله ثم تزوجها بعد عتقها ، وكانت متنفذه متصرفة فى أمور الخلافة على أيام ابنها المقتدر ، وكانت حازمة صالحة كثيرة الخير والبر ، توفيت سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م ، ابن الأثير : الكامل، جـ ٧ ، ص ٤٧٤ ، جـ ٨ ، ص ١١ – ١٤٧ – ١٥٨ – ٢٠١ – ٢٠٢ – ٢٤١ – ٢٥٠ – ٢٥١ – ٢٨٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهـــرة ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ – ١٩٣ – ٢٠٤ – ٢٢٣ – ٢٣٩ .

(٥) الكشكرى : الكناش ، الورقة ١٣٠ ب .

(٦) ن. م. س. الورقة ٧٦ ب

(٧) ن. م. س ، الورقة ١٠٢ ب .

(٨) محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الاسكافى ، استوزره المتقى العباسى مرات عديدة وكان أولها ســـنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م ، اشتهر بالشـــدة والغلظة ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٤٩ – ٣٠٥ – ٣٧٥ – ٣٧٩ – ٤٠٤ – ٤٦٨ .

(٩) الكشكرى : الكناش ، الورقة ٦٠ ب .

(١٠) انظر مثلا ن. م. س ، الورقة ١٠٥ أ – ب – ١٠٦ ب .

(١١) ن· م· س ، الورقة ١٠٨ ب ·

(١٢) ن· م· س ، الورقة ١٠٥ ب ، والقشورى هو أحمد بن نصر وكان حاجبا للخليفة المقتدر ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٩٨ ــ ٢١٩ ·

(١٣) عيون الأنباء ، ص ٢٢٩ ·

(١٤) ن· م· س ، ص ٣٢١ ·

(١٥) ن· م· س ، ص ٣٢٢ ·

(١٦) الكشكرى : الكناش ، الورقة ٧٨ أ ، وكانت وفاة ثابت بن قرة سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٢٩٧ ·

(١٧) عيون الأنباء ، ص ٣٢٢ ·

(١٨) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٤٠ ، أحمد عيسى بيك : آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ، ص ٩ ·

(١٩) المدة : (بكسر الميم) هو قيح لم يكتمل نضجه ، الخطابى : الأغذية والأدوية عند مؤلفى الغرب الاسلامى ، ص ٥٧٩ ·

(٢٠) الكشكرى : الكناش · الورقة ٧٨ ب ·

(٢١) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٢٢٢ ·

(٢٢) الأقرباذين : معجم لاسماء الأدوية ·

(٢٣) الورقة ٢٨٧ ب ·

(٢٤) الورقة ٧ ب ·

(٢٥) عيون الأنباء ، ص ٣٢٢ ·

(٢٦) عيون الأنباء ، ص ٣٢٢ ·

(٢٧) الكناش · الورقة ٧٧ أ ·

(٢٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤١٧ ، أخبار سنة ٣٣٢ هـ ، والموصل مدينة معروفة تقع شمال العراق ·

(٢٩) الكناش : الورقة ٢٠٥ ب · وشفيع هنا هو شفيع اللؤلوى ، اشتهر على أيا الخليفة المقتدر العباسى · وكان يتولى البريد وغيره من الأعمال ت ٣١٢هـ/٩٢٤م، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٥٧ ·

(٣٠) كان ياقوت المدبر أشهر قواد عصره ، وكان له دور بارز فى حرب القرامطة فى الكوفة وجنوب العراق ، تولى عدة مناصب أبان خلافة المقتدر العباسى ، قتله جنود البريدى سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣١٥ ·

(٣١) الكناش ، الورقة ١٧ أ - ٧٢ ب - ٢٥٠ ب ٠

(٣٢) ن٠ م٠ س ، ٧٤ أ ، وكان البريدى من كبار القواد على عهد المقتدر والقاهر ، والراضى والمتقى ، برز نجمه واخوته على عهد وزارة ابن مقله فى خلافة المقتدر ت ٣٣٢هـ/٩٤٣م ٠ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤١٠ ٠

(٣٣) الكناش ، الورقة ١٠٥أ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٩٨ - ٢١٩ ٠

(٣٤) الكناش ، الورقة ٤٨ أ ٠

(٣٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٠٣ ب ٠

(٣٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٢ ب ٠

(٣٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٦ ب ٠

(٣٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٩٥ ٠

(٣٩) لمعلومات موسعة عن هذه الثورة ٠ انظر ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، صص ٢٠٥ - ٤٠٦ ٠

(٤٠) ن٠ م٠ س ، جـ ٧ ، ص ٣٩٩ - ٤٠٦ ٠

(٤١) ن٠ م٠ س ، جـ ٨ ، ص ١٨١ ٠

(٤٢) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ٢ ، ص ٨٥ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤٤٩ ٠

(٤٣) لمعلومات مفصلة عن الحركة الفكرية والعلمية فى هذا العصر انظر ، متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ ١ ، ص ٣١٩ - ٥٠٩ ، جـ ٢ ، صص ٧ - ١٨ ، لوبون : حضارة العرب صص ٤٣٣ - ٤٩٤ ٠

(٤٤) سيأتى الحديث عنها بالتفصيل فى بابها ٠

(٤٥) سيأتى الحديث عن ذلك فيما بعد أيضا ٠

(٤٦) الورقة ٢٨٧ ب ٠

(٤٧) طبعت بالتصوير ، ضمن منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية، فى فرانكفورت ، بألمانيا الاتحادية ، من اصدار البروفسور فؤاد سزكين ١٤٠٥ هـ ٠

(٤٨) الورقة ٧ ب ٠

(٤٩) من أطباء القرن الثالث الهجرى ، له من الكتب الكناش الكبير ، والكناش الصغير نقلها هو من السريانى الى العربى ، النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، جـ ٤ ، ص ٢٦٩ ٠

(٥٠) ص ٤٤ ٠

(٥١) الكناش ، الورقة ١٩٢ ٠

(٥٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٧ وما بعدها ، ابن فاتك : مختـــار الحكم ومحاسن الكلم ، ص ٢٨٨ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، صص ١٠٩ ـ ١٤٩ ٠

(٥٣) العسيرى : تعليم الطب فى المشرق الاسلامى ، نظمه ومناهجه حتى نهاية القرن السابع الهجرى ، ص ٣٤ وما بعدها ٠

(٥٤) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ٠

(٥٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٨ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ٠ وهذا الكتاب مطبوع بتحقيق د/محمد سليم سالم ، ضـــمن جوامع الاسكندرانيين ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢ م ٠

(٥٦) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم ، ص ١٥٧ ، النديم الفهرست ، ص ٣٤٨ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٧ ٠

(١٥٧) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٥٥ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٦ ٠

(٥٨) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اســـحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٥ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤١ ٠

(٥٩) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اســـحاق الى على بن يحى ، ص ١٦١ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٣٩ ٠

(٦٣) الفهرست ، ص ٣٤٨ ٠

(٦٤) رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ٠

(٦٥) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اســـحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٩ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٣ ٠

(٦٦) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اســـحاق الى على بن يحى ، ص ١٥٥ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٦ ٠

(٦٧) حنين ن اســـحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٩ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٣ ٠

(٦٨) حنين بن اســـحاق : رســالة حنين بن أبى اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٧٠ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٤ ٠

(٦٩) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٦ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ ·

(٧٠) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٥١ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٤ ·

(٧١) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٥٠ - ١٥١ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٤ ·

(٧٢) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٧ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ ·

(٧٣) انظر كتاب تركيب الأدوية رقم (١) من كتب جالينوس التى اعتمدها الكشكرى فى مصادره ·

(٧٤) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٧ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ ·

(٧٥) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ؛ ص ١٦٧ ، ابن أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ ·

(٧٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٦ ، ابن فاتك : مختار الحكم ، ص ٤٤ ، القفطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٦٤ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٤٣ وما بعدها ·

(٧٧) ابن بى أصيبعه ـ عيون الأنباء ، ص ٥٤ ، فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيا ، ص ٧ ·

(٧٨) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٥٤ ، فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيا ، ص ٢ ·

(٨٠) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٥٥ ، فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيا ، ص ٦ ·

(٨١) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٢٣ ، النديم : الفهرست ، ص ٣٠٦ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٨١ ·

(٨٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٠ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص ١٢٧ ·

(٨٣) انظر الحاشية السابقة ·

(٨٤) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٢٥ ، النديم : الفهرست ، ص ٣٠٧ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص٢١ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص٨٦·

(٨٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٥١ ٠

(٨٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٥١ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص ١٧٢ ٠

(٨٧) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، ابن أبى أصيبعه ، عيون الأنباء ، صص ٢٤٦ ـ ٢٥٥ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، جـ ٤ ، ص ٢٦٤ ، القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٤٩ ٠

(٨٨) القفطى : أخبار العلماء ، ص ٢٤٩ ٠

(٨٩) انظر حاشية ١ ، ٢ ٠

(٩٠) سماه القفطى « كتاب التمام والكمال » ، انظر الحواشى ١ ـ ٢ ـ ٣ ٠

(٩١) ابن أبى أصيبعه : عيون الانباء ، ص ٢٥٧ ـ ٢٧١ ٠

(٩٢) ن٠ م٠ س ، ص ٢٧٦ ٠

(٩٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٣ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص٢٧٣٠

(٩٤) النديم : الفهرست ، ص ٢٥٦ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص ٢٥٧ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٢٧٨ ٠

(٩٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، القفطى ، أخبار العلماء ، ص ٢٤٨ ٠ ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٥٨ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، جـ ٤ ص ٢٦٩ ٠

(٩٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، وسماه على بن ربل ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٤١٤ ٠

(٩٧) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٨٠ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الانباء ، ص ٢٩٥ وما بعدها ٠

(٩٨) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٥ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص٢٧٦٠

(٩٩) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٥ ، ابن أبى أصيبعه : عيونالأنباء ،ص٢٣٠٠

(١٠٠) الكناش ، الورقة ٣٤ ب ٠

(١٠١) ن٠ م٠ س ، الورقة ٤٣ أ ٠

(١٠٢) ن٠ م٠ س ، الورقة ٨٧ أ ٠

(١٠٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ٥٢ أ ٠

(١٠٤) ن٠ م٠ س ، الورقة ٥٢ ب ٠

(١٠٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٥٢ أ ٠

(١٠٦) الكناش ، الورقة ٨٤ أ ٠

(١٠٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٩ أ ٠

(١٠٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٦٥ أ ٠

(١٠٩) ن٠ م٠ س ، الورقة ١١٦ أ ٠

(١٠٩) ن٠ م٠ س ، الورقة ١١٦ أ ٠

(١١٠) وسنتعرض لذلك بالتفصيل والاستشهاد عند الحديث عن أهم دراساته وتجاربه العملية ٠

(١١١) الكناش ، الورقة ٧ ب ـ ٨ أ ب ـ ٩ أ ٠

(١١٢) الكناش ، الورقة ١٠ أ ٠

(١١٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ١١ ب ٠

(١١٤) الكناش ، الورقة ٩ ب ٠

(١١٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ١١ ب ٠

(١١٦) اللادن : نوع من الشجر يستخرج منها مادة صمغية يعمل منها البعض أقراصا تستخدم كدواء ، ابن البيطـــار : الجامع لمفـــردات الأدوية والأغـذية ، جـ ٤ ، ص ٣٥٩ ٠

(١١٧) الكناش ، الورقة ٩ ب ٠

(١١٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٣ ب ـ ٢١ ب ٠ وداء الحية : أن يتقشر الجلد مع تناثر الشعر ، وداء الثعلب : أن يتناثر الشعر من الرأس واللحية حتى يتعرى مكانه ٠ العمرى : التنوير فى الاصطلاحات الطبية ، ص ٦١ ٠

(١١٩) الابرية ، والحزاز : النخالة التى تتكون فى الرأس ، وهو ما هو معروف الآن بالقشرة ، ابن سينا : القانون ، جـ ٣ ، ص ٢٧٥ ٠

(١٢٠) السعفه : بثور وتقرحات تحدث فى الرأس وتصاحبها حكة ، ن٠ م٠ س ، جـ ٣ ، ص ٢٨٧ ٠

(١٢١) الكناش ، الورقة ١٧ أ ٠

(١٢٢) ن٠ م٠ س ، الورقة ٤٠ أ ٠

(١٢٣) الكناش ، الورقة ١٨ ب ٠

(١٢٤) ن٠ م٠ س ، و و ١٦ أ ـ ١٩ ب ٠

(١٢٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٠ ب ـ ٢١ أ ٠

(١٢٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٣ أ ٠

(١٢٧) الاشياف : كلمة يونانية تعنى المعجونة والمستخدمة لعلاج العيون وقد يطلق على ما يتحمل فى المقعدة ، حنين بن اسحاق : كتاب العشر مقالات فى العين ، ص ١٩٥ ، القمرى : التنوير ، ص ٧٩ ٠

والسعوط : كلمة يونانية « بطو منقى » ومعناه المعطس ، ابن البيطار : الجامع، جـ ٣ ، ص ٢١ ٠

الذرورات : الأدوية المسحوقة ومنها ما يستخدم لعلاج العين ، الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٤٠ ، القمرى : التنوير ، ص ٧٨ ٠

(١٢٨) الكناش ، الورقة ٤٨ ب ٠

(١٢٩) ن٠ م٠ س ، الورقة ٤٢ أ ٠

(١٣٠) الكناش ، الورقة ٤٨ ب ٠

(١٣١) ن٠ م٠ س ، الورقة ٥٢ ب ٠

(١٣٢) المدة : الصـــديد ٠

(١٣٣) الشبكرة : لفظة فارسية ومعناها عمى الليل ، وأصلها شــــوكورا ، الحموى : نور العيون وجامع الفنون ، ص ٥٠٦ ٠

(١٣٤) الكناش ، الورقة ٤٣ أ ب ، ٤٤ أ ـ ٤٨ ب ـ ٥٢ ب ٠

(١٣٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٥١ أ ٠

(١٣٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ٤٨ أ ، والقمر : يقول ابن منظور القمر تحير البصر من الثلج ، وقمر الرجل : حار بصره فى الثلج فلم يبصر ، لسان العرب جـ ٥ ،ص١٤٤:

(١٣٧) الكناش ، الورقة ٤٨ أ ٠

(١٣٨) ص ٥ ٠

(١٣٩) الكناش ، الورقة ٥٢ أ ٠

(١٤٠) البثر : نفاخات مائية فى بعض قشور القرنية ما بين قشرتين ، لمعلومات موسعة انظر : الحموى : نور العيون وجامع الفنون ، ص ٣٣٩ ٠

(١٤١) الكناش ، الورقة ٥٢ ب ٠

(١٤٢) ن٠ م٠ ش ، و و ٥٣ ب ـ ٥٩ أ ٠

(١٤٣) عن البورق ، النطرون ٠ انظر على التوالى ابن البيطار : الجامع ، جـ ١ ، ص ١٧٠ ، جـ ٤ ، ص ٤٧٩ ٠

(١٤٤) الكناش ، الورقة ٦٠ ب ٠

(١٤٥) الكناش ، الورقة ٦١ أ ٠

(١٤٦) ابن البيطار : الجامع ، جـ ٤ ، ص ٤٧١ ٠

(١٤٧) الكناش ، الورقة ٦٠ ب ٠

(١٤٨) الكناش و و ٦٠ ب ـ ٦٤ أ ٠

(١٤٩) يقول ابن سينا : أنه اذا احتقن الدم تحت أعلى الجلد فى موضع فان الجلد يتأذى ويتغير لونه فما هو الى الحمرة يكون نمشا ، واللطخى منه أو النقطى يسمى كلفا ٠ القانون ، جـ ٣ ، ص ٢٧٩ ، القمـــرى : التنوير فى الاصـــطلاحات الطبية ، ص ٦ ٠

(١٥٠) القوابى : بثور قرحية مجتمعه ترشح ماء قليلا اذا حكت ويكون مثل الدواير فى الأكثر ٠ ابن سينا : القانون ، جـ٣ ، ص٢٨٨ ، القمرى : التنوير ،ص٦٣ ٠

(١٥١) الكناش ، الورقة ٧٥ ب ٠

(١٥٢) الكناش ، الورقة ٧١ أ ٠

(١٥٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٣٥ ب ـ ٢٣٦ أ ٠

(١٥٤) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٨ أ ٠

(١٥٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٤ ب ٠

(١٥٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٧ أ ب ، ٧٨ ب ٠

(١٥٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٨ أ ٠

(١٥٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٧ ب ٠

(١٥٩) ابن البيطار : الجامع ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ٠

(١٦٠) ن٠ م٠ س ، جـ ١ ، ص ٤٢ ٠

(١٦١) ن٠ م٠ س ، جـ ٤ ، ص ٢٩٦ ٠

(١٦٢) الكناش ، الورقة ٢٣٧ أ ٠

(١٦٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ٨٣ ب ٠

(١٦٤) الكناش ، الورقة ٨٣ ب ٠

(١٦٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٨٧ أ ٠

(١٦٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ٨٩ ب ٠

(١٦٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٥٢ ب - ١٥٦ ب ٠

(١٦٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ٨٨ ب ٠

(١٦٩) الخناق : هو امتناع التنفس وله أسباب متعددة منها الالتهابات الشديدة الحادثة فى الحلق واللوزتين فتسبب انسداد مجارى التنفس ٠ ابن سينا : القانون، جـ ٢ ، ص ١٩٨ ٠

(١٧٠) الكناش ، الورقة ٩٢ أ ٠

(١٧٠) الكناش ، الورقة ٩٢ أ ٠

(١٧١) ابن البيطار : الجامع ، جـ ٣ ، ص ١٠٤ ٠

(١٧٢) الكناش ، الورقة ٩٣ ب ٠

(١٧٣) الكناش ، الورقة ١٢٤ أ ٠

(١٧٣) ابن البيطار : الجامع ، جـ ٤ ، ص ٣٤٨ ٠

(١٧٥) ن٠ م٠ س ، جـ ٢ ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ ٠

(١٧٦) الكناش ، الورقة ١١٣ ب ٠

(١٧٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٢٣ أ ٠

(١٧٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٦ أ - ١١٢ ب ٠

(١٧٩) الكناش ، الورقة ٢٠٩ أ ٠

(١٨٠) الجوارشن : كلمة فارسية تعنى هاضم الطعام ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على المعجونات التى فيها الأفاوية والزنجبيل ، وتكون عذبة الطعم طيبة الرائحة٠ القمرى : التنوير ، ص ٨٧ ٠

(١٨١) الكناش ، الورقة ١٠٠ ب ٠

(١٨٢) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٣ أ ٠

(١٨٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٧ أ ٠

(١٨٤) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٥ ب ٠

(١٨٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٩٧ ب - ١٠٠ أ - ١٠٥ أ ٠

(١٨٦) الترياق : مشتق من تيريون باليونانية ، وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأفاعى ونحوها ، وترياق الأربعة سمى بذلك لانه مركب من أربعة أخلاط من الادوية٠ الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٣٩ ٠

(١٨٧) الكناش ، الورقة ١٠١ ب ٠

(١٨٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٦ ب ٠

(١٨٩) الكناش ، الورقة ١٠٧ ب - ١٠٨ أ ٠

(١٩٠) الصبر ، معروف ، ذكر ابن البيطار أن له فوائد جمة فى معالجة الكثير من الأمراض ٠ الجامع ، جـ ٣ ، ص ١٠٤ ٠

(١٩١) الكناش ، الورقة ٩٧ أ ٠

(١٩٢) القواق : يقول ابن سيناء انه : حركة مختلفة مركبة كتشنج انقباضى مع تمدد انبساطى كان فى فم المعدة ، أو جميع جرمها ، أو المرى منها يجتمع الى ذاتها بالتشنج هربا من المؤذى ٠ القانون ، جـ ٣ ، ص ٣٤٥ ٠

(١٩٣) ابن البيطار : الجامع ، جـ ٣ ، ص ١١١ ٠

(١٩٤) ن٠ م٠ س ، جـ ٤ ، ص ٣٤٦ حيث ذكر نقلا عن ابن سيناء أن من أنواع الكمون ما يسمى بالكرمانى ٠

(١٩٥) الكناش ، الورقة ٩٤ ب ٠

(١٩٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٥٦ ب - ١٥٨ ب ، وعن الكارباء ، انظــر ابن البيطار : الجامع ، جـ ٤ ، ص ٢٩٩ ٠

(١٩٧) الكناش ، الورقة ٢٥١ أ ٠

(١٩٨) ابن البيطار : الجامع ، جـ ٤ ، ص ٧٨ أ ٠

(١٩٩) ن٠ م٠ س ، جـ ٣ ، ص ٦٧ ٠

(٢٠٠) الكناش ، الورقة ٢٤٥ أ ٠

(٢٠١) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٦٤ ب ، والاستسقاء : هو انتفاخ البطن وهو أنواع زقى ، وطبلى ، ولحمى ٠ الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٣٢ ٠

(٢٠٢) الكناش ، الورقة ٢٦٩ أ ٠

(٢٠٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٧٩ أ ٠

(٢٠٤) الكناش ، الورقة ٧٩ أ ٠

(٢٠٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٥٧ أ ب ٠

(٢٠٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٧ أ ٠

(٢٠٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٥٤ أ ب - ٢٥٦ أ ٠

(٢٠٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٥٤ أ ب ٠

(٢٠٩) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٥٦ أ ٠

(٢١٠) الوسواس السوداوى : وهو ما يعرف بالماليخوليا ، وهو مرض يضر بالفكر من غير تعطل الأفعال · القمرى : التنوير ، ص ٥٢ ·

(٢١١) الكناش ، الورقة ١٣١ أ ·

(٢١٢) ن· م· س ، الورقة ١٣٦ أ ·

(٢١٣) الكناش ، الورقة ٧٨ أ ·

(٢١٤) الفالج : هو استرخاء أحد الجانبين من الانسان ، وقد فلج اذا ذهب الحس والحركة عن بعض أعضائه · الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٣١ ، وهو ما يعرف اليوم بالشلل النصفى ·

(٢١٥) اللقوه : ان يتعوج وجه الانسان فلا يقدر على تغميض احدى عينيه · ن· م· س ، ص ١٣١ ، القمرى : التنوير ، ص ٥٤ ·

(٢١٦) الايارج : أو الأرياج تركيبة من الأدوية تزداد فيها المرارة ويغلب عليها شحم الحنظل · الزهراوى : التصريف لمن عجز عن التاليف ، الورقة ١٩٦ أ ·

(٢١٧) الكناش ، الورقة ١٢٧ أ ·

(٢١٨) ن· م· س ، الورقة ١٤٥ ب ·

(٢١٩) ن· م· س ، الورقة ١٧٢ ب ·

(٢٢٠) العرق المدينى : عرق يبرز من مكان الى مكان فى الرجل أولا فأولا ثم ينقطع · القمرى : التنوير ، ص ٦٠ ·

(٢٢١) الكناش ، الورقة ٢٩٠ أ ·

المصـادر والمراجع

أولا : المصادر المخطوطة :

- الزهراوى : خلف بن عباس (ت ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) « التصريف لمن عجز عن التأليف » مخطوط بشـير آغـا رقم ٥٠٢ ، مكتبة السليمانية ، استانبول .
- الكشكرى : يعقوب (ت فى النصـف الثانى من القـرن الرابع الهجرى) « الكناش » مخطوط آيا صوفيا رقم ٣٧١٦ ، مكتبة السلميانية ، استانبول ، نشره مصوراً معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية ، جامعة فرانكفورت ألمانيا ، من اصـدار البروفسور فؤاد سزكين .

ثانيا : المصادر المطبوعة :

- ابن أبى أصيبعة : أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسـم بن خليفة (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » تحقيق د/نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م .
- ابن الأثير : عز الدين على بن محمد الجزرى (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، « الكامل فى التاريخ » دار بيروت للطباعة والنشر ، دار صادر بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .
- ابن البيطار : ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسى المالقى (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
- ابن تغر بردى : جمال الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكى (ت ٨٧٤هـ/١٣٦٩م) « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » المؤسسة المصرية العـامة للتأليف والترجمة والطبـاعة والنشر ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

— ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى (بعد ٣٧٧هـ/ بعد ٩٨٧م) « طبقات الأطباء والحكماء » ، تحقيق / فؤاد سيد ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

— الحموى : صلاح الدين بن يوسف الكحال (ت ٦٩٦هـ/١٢٩٦م) « نور العيون وجامع الفنون » تحقيق د/محمد ظافر الوفائى ، الطبعة الأولى ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، الرياض ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

— حنين : أبو زيد بن اسحاق العبادى (ت ٢٦٠هـ/٨٧٥م) ، « رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم » نشره الدكتور/ عبد الرحمن بدوى ضمن كتاب « دراسات ونصوص فى الفلسفة والعلوم عند العرب » ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨١م .

— الخطيب البغدادى : الحافظ أبو بكر أحمد بن على (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) « تاريخ بغداد » دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان، (بد ت) .

— ابن سينا : الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن على (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٣٦م) « القانون فى الطب » دار صادر ، بيروت (بد ت) .

— المبشر بن فاتك : أبو الوفاء الآمرى (ت أواخر المئة الخامسة من الهجرة) « مختار الحكم ومحاسن الكلم » تحقيق/عبد الرحمن بدوى ، الطبعة الثانية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠م .

— القفطى : الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) « كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء » دار الآثار لطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان (بد ت) .

— القمرى : الحسن بن نوح (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) . « التنوير فى

الاصطلاحات الطبية » مكتب التـــربية العـربى لدول الخليج ، الرياض ١٤١١هـ/١٩٩١م ٠

— مسكويه : أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) « كتاب تجارب الأمم) ، دار الكتاب العربى ، القاهرة (بد ت) ٠

— ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصرى (ت ٧١١هـ/١٣١١م) ، « لسان العرب » ، دار صادر ، الطبعة الأولى بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ٠

— النديم : محمد بن اسحاق (ت ٤٣٨هـ/١٠٤٦م) « الفهرست » تحقيق رضا تجدد ابن على المازندرانى ، دار المسيرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م ٠

ثالثا : المراجع العربية والمعربة :

— بروكلمان : كارل : « تاريخ الأدب العربى » ترجمة د/سيد يعقوب بكر ـ د/رمضان عبد التواب ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، (بد ت) ٠

— بيك : أحمد عيسى : « آلات الطب والجـــراحة والكحالة عنـــد العرب ، القاهرة ١٩٢٥م ٠

— الخطابى : محمد العربى : « الأغذية والأدوية عند مؤلفى الغرب الاسلامى » دار الغـرب الاســلامى ، الطبعة الأولى ، بيروت ، بيروت ، ١٩٩٠م ٠

— ششن : رمضان وآخرون : « فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيا » اشراف أكمل الدين احسان ، استانبول ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ٠

— عسيرى : مريزن سعيد : « تعليم الطب فى المشرق الاسلامى نظمه ومناهجه حتى نهاية القرن الســابع الهجرى » معهـــد البحوث الاسلامية واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٤١٢ هـ ٠

— لوبون : الدكتور غوستاف : « حضـــارة العـــرب » ترجمة عادل زعيتر ، طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه (بدت٠ن) ٠

— متز : الأستاذ آدم : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى» ترجمة/محمد عبد الهادى أبو ريدة ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م ٠

أضواء على مدينة الرى فى صدر الاسـلام
(٣٠ هـ - ٣٣٠ هـ)

بقلم
دكتور حسـين على المسـرى(*)

مقـــدمة :

تحوى مصادر التاريخ الاسلامى ، أثناء حديثها عن المدن الفارسية فى المشرق ، اشـــارات متنـاثرة عن مـــدينة الرى ، وهى اشـــارات تتضمن معلومات ترتبط بجوانب الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية ، وقد ولدت هذه المعلومات شعوراً بأهمية هذه المدينة ، فكانت دافعا لجمع المزيد من المعلومات فى هذا المجال ، لبنـــاء هذا البحث الذى يعالج تاريخ مدينة الرى فى عصر من أبرز عصور التاريخ الاسلامى نشاطا وحيوية .

ولعل الموقع الجغرافى الهام الذى تتمتع به مدينة الرى ، كان من العوامل التى ساعدت على اكسابها مثل هـــذه الأهمية ، فهى تقع على الممر التجارى العـــالمى الذى يربط بلدان الشرق الأقصى ، أعنى بذلك بلاد ما وراء النهر والصين بأوروبا ، وهو الطريق المعروف بطريق الحرير Silk Road ، هذا فضلا عن موقعها الهـام فى قلب بلاد فارس مما يجعلها حلقة الوصل بين العديد من المدن ، التى تمر بها وتربط بينها .

وهكذا فان هذه الأهمية الاستراتيجية التى حظيت بها مدينة الرى، جعلتها تتفاعل مع الاحداث ، سواء كان ذلك على الصعيد السياسى أو الدينى أو الاقتصادى .

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الكويت .

اما الفترة الزمنية التى يعالجها هذا البحث ، فانها تبدأ بالفتح الاسلامى لمدينة الرى ، وتمتد وحتى نهاية العصر العباسى الأول ، وقد ركزنا فيها على الجوانب السياسية ، مع العناية بتحليل احداثها ، فضلا عن الجوانب الدينية والاقتصادية وما حفلت به من تيارات ، وذلك بدءا بالتعريف . وقد بدأنا الحديث بالتعريف بالمدينة ، من حيث نشأتها واصل تسميتها .

على اننا رأينا أن نبدأ بالاشارة الى المصادر التى أستقينا منها هذه المعلومات وهى :

أولا : كتب الفتوح ، فقد افادتنا كثيراً فى ابراز الدور الذى قامت به مدينة الرى على الصعيد السياسى ، ومن هذه الكتب ، كتاب فتوح الاسلام لبلاد فارس للواقدى . وكتاب ، فتوح البلدان للبلاذرى ، بالاضافة الى كتب التاريخ التى عززت هذه المعلومات وأكدتها مثل كتاب : تاريخ الطبرى ، وكتاب الفتوح ، لابن اعثم الكوفى ، وتاريخ خليفة بن خياط ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وغير ذلك من كتب التاريخ .

ثانيا : كتب الجغرافيا والرحلات ، ويعود لها الفضل فى التعريف بمدينة الرى من حيث التسمية والموقع ، هذا فضلا عن المعلومات المتعلقة بالنواحى الاقتصادية لمدينة الرى التى لابد منها لهذا البحث ، وقد افادتنا هذه المصادر أيضاً فى تحقيق بعض المواضع الجغرافية التى لها علاقة بمدينة الرى ، مثل كتب المعاجم الجغرافية .

ثالثا : المعاجم اللغوية ، التى افادتنا كثيراً فى تفسير وتحقيق بعض الألفاظ التى صعب علينا فهمها ، كذلك كتب الطبقات والانساب ، افادتنا فى تحقيق بعض الشخصيات العامة وبخاصة من الفقهاء والعلماء وقادة الفتح الاسلامى .

ملخص البحث :

مدينة الرى من المدن الفارسية القديمة ، وقد أجرينا فى هذه الدراسة تحقيقاً تاريخياً حول تأسيسها وأول من قام ببنائها وتحديد

موقعها الجغرافى ، وتحدثنا بعد ذلك عن الرى فى صدر الاسلام ، وأوضحنا كيف تم فتحها زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، وأقوال المؤرخين فى ذلك ، واستمر الحديث عن هذه المدينة طوال العصر الراشدى ، ولم يكن الاسلام قد انتشر خلال هذه الفترة فى جميع ربوع مدينة الرى ، لذلك فان الأوضاع لم تكن مستقرة فيها عندئذ ، الا أن ظاهرة عدم الاستقرار هذه اختفت تقريباً فى العصر الأموى لدخول معظم أهلها فى الاسلام .

وكان النفوذ الأموى على مدينة الرى ضعيفا بصورة عامة لا سيما فى عهد يزيد بن معاوية والفترة التى اعقبته ، أى قبل أن يستتب الأمر لآل مروان ، وذلك بسبب النزاع الدائر بين الأمويين وآل الزبير وجماعة المختار بن عبيد الثقفى ، مع حزب الخوارج، فكان العالم الاسلامى يموج بالفتن والاضطرابات الداخلية خلال هذه الفترة .

ثم جاء العباسيون الذين احكموا سيطرتهم على الولايات الاسلامية لا سيما فى العصر العباسى الأول ، وبخاصة الجهات الشرقية من الحاضره بغداد زمن أبى جعفر المنصور ، وكثيراً ما كانت مدينة الرى تتأثر بالنزاعات التى تقع بين الخلفاء ، كما حدث أثناء الفتنة التى حدثت بين الاخوين الأمين والمأمون .

وكان لمدينة الرى مساهمات فعالة فى الحياة الدينية والثقافية عندئذ ،فهى تعد واحدة من كبرى مراكز الثقافة والعلم فى العالم الاسلامى ، فكان لذلك تأثيراته الايجابية على الحركة العلمية بمدينة الرى ، انجبت العديد من العلماء ورجال الدين الذين حملوا راية الحركة العلمية .

وكانت الحياة الاقتصادية بمدينة الرى مزدهرة ، فهى تنتج العديد من المحاصيل الزراعية فضلا عن الثروة المعدنية ، وقد قامت على هذه المنتجات بعض الصناعات ، مثل صناعة النسيج والاوانى ، وسرعان ما غدت مدينة الرى من كبرى مراكز التجارة فى العالم ، فهى تقع على الطريق التجارى الهام الذى يربط أواسط آسيا وبلدان الشرق الأقصى ،

الصين والهند بأوربا ، فكانت أسواقها مملوءة بأصناف السلع التجارية والبضائع الهامة التى أشتد الطلب عليها فى حركة التجارة العالمية ٠

أولا : التعريف بمدينة الرى :

الرى مدينة فارسية قديمة ، وقد اختلف المؤرخون حـــول تاريخ نشأتها وبنائها ، ومن المعروف أن الروايات التى تتناول الأمور والقضايا البعيدة زمنيا تنقصها الدقة ولا تتوفر فيها الموضوعية ، بمعنى أنها أقرب الى الأساطير ٠ من ذلك ترد فى بعض المصـــادر من أن : مهلائيل بن قنان ، ويعرف بـ « أوشنج » ، أحد ملوك الفرس القدماء هو الذى بنى الرى ، وقد ملك الأقاليم السبعة ، وكانت أول مدينة بنيت بعد مدينة « جيومرت » ، وهى مدينة قديمة ، ولم تحدد تلك الروايات التاريخ الذى بنيت فيه مدينة الرى(١) ، كذلك قيل : ان أول من بنـــاها هو فيروز بن يزدجرد ، وسماها « رام فيروز »(٢) ، وذكر قـــدامة بن جعفر ، فقد ذكر ان الاسكندر المعـــروف بذى القرنين لما وصـــل الى جرجان ، أمر ببناء مدينة الرى(٣) ٠

وكانت عادة ملوك الفرس أنهم يضعون اسماءهم على المدن التى يشيدونها أو يفتحونها ، وهناك عدة آراء حول بناء مدينة الرى ، فمن أقوالهم : ان الملك فيروز هو الذىبناها أو اعاد بناءها،ووضعاسمه عليها، كما أشرنا الى ذلك من قبل(٤) ٠ وقيل ان الذى بناها هو الملك اردشير ، وكانت تسمى (رى اردشير) وقد عثروا على آثار هذا الملك فى هذه المدينة(٥) ، كذلك قالوا : ان الذى بناها ، راز بن خراسان ، وقـــد أكدوا هذا القول ، بأن النسبة اليها « رازى »(٦) ٠ وجاء فى كتابات اليونان ان سلوق نفاتورى Seleucus Nicator (٣١٢ - ٢٨٠) اعاد بنـــاء راكاى Rhagae ، وســـماها أوربوس Europos تخليداً لذكرى مسقط رأسه مقدونيا(٧) ٠

أما عن سبب التسمية ، فذكروا ان الرى عرفت بهذا الاسم ، نسبة الى رجل اسمه (رى) ، من بنى شيلان بن اصـــبهان بن فلوج(٨) ، فاخذت أسمها عن هذا الرجل ، وكان اسمها قبل ذلك (بورانجير) ،

وهى كلمة فارسية من مقطعين (انجير) ، وتعنى تين ، و (بور) ، وتعنى طائر ، واسم هذا الطائر بالعربية (دراج)(٩) وبمرور الوقت حولوا اسمها الى (رى) ، وكان اسمها فى العصور القديمة (ارازى)(١٠) ، وهى تعنى الشىء الجميل(١١) ، وفى كتابات اليونان ، ان هذه المدينة سميت من جديد باسم (أرساكيا) Arsakia بعد مجيىء الفرثيين ، وقد ورد ان الملوك الفرثيين كانوا يمضون الربيع فى راكاى Rhagae ، أى الرى ، والشتاء فى بابل Babylon (١٢) ويتضح مما تقدم ان اسم مدينة الرى تعرض لكثير من التغير والتبدل تبعا للظروف السياسية والدينية .

أما عن الموقع فقد ورد ان مدينة الرى تتبع اقليم الجبل ، وهو الاقليم الذى يضم الرى وطبرستان(١٣) وقزوين(١٤) وزنجان(١٥) وقم(١٦) واصبهان (١٧) وهمذان(١٨) ونهاوند(١٩) والدينور(٢٠) وحلوان(٢١) وماسبذان(٢٢) ومهرجان قذ(٢٣) وشهرزور(٢٤) والصامغان(٢٥) واذربيجان(٢٦) وهذه التقسيمات الادارية وردت فى تاريخ اليعقوبى كما وردت فى (أحسن التقاسيم)(٢٧) ، معظم هذه المدن تتبع اقليم بلاد الجبل ، ومدينة الرى ، تقع فى الطرف الشمالى الشرقى من هذا الاقليم ، فى آخر هذه المقاطعة حتى ان البعض اعتبرها من اقليم خراسان(٢٨) ، وقال المقدسى فى هذا الصدد : « أول مدن خراسان الرى »(٢٩) ، وفى « الروض المعطار » تأكيدا لهذه المعلومة، فيذكر : « أنها تنسب الى الجبل وليست منه ، بل هى أقرب الى خراسان »(٣٠) ، وقد وردت مدينة الرى فى كتابات الجغرافيين مقترنة دائما » بالـ « التعريف » ، وهى مدينة ريجس Rhages عند اليونان(٣١) ، وقد قدرت المسافات بين هذه المدن بالفراسخ(٣٢) ، كما قدروا المساحة التى تشغلها مدينة الرى ، وفق ما جاء فى الجغرافيا القديمة لبطليموس القلوذى(٣٣) .

اما الاصطخرى وابن حوقل ، فيذكران أن مدينة الرى تتبع بلاد الديلم(٣٤) ، وهى تضم مدينة قزوين وقومس(٣٥) ، وطبرستان والرى(٣٦) ، ويؤكد ابن حوقل ، ان مدينة الرى لا تتصل باقليم الجبال

ودليله على ذلك ان هناك سلسلة من الجبال على شكل منحنى تفصل بين اقليم الجبل وبلاد الديلم ، وتقع مدينة الرى وقزوين وزنجان خلف هذه السلسلة من الجبال ، أى ضمن بلاد الديلم(٣٧) .

ولو قارنا بين قول اليعقوبى السابق وقول كل من الاصطخرى وابن حوقل ، لوجدنا أن القول الأخير أكثر دقة من قول اليعقوبى فى تحديد موقع مدينة الرى ، حيث أن الرأى الأخير مبنى على دراسة ميدانية قام بها كل من الاصطخرى وابن حوقل لتلك المناطق بصورة عامة ولمدينة الرى بصورة خاصة ، هذا فضلا عن أنهما أكثر تخصصا ودراية فى علم الجغرافيا من اليعقوبى(٣٨) .

وظلت مدينة الرى على مر عصور التاريخ محتفظة بأهميتها رغم تعرضها لمحن وكوارث عديدة،فلما زارها الاصطخرى وكذلك ابن حوقل، فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، أشادا بجمالها وكثافة السكان والعمران بها ، كما تحدثا عن تجارتها وتجارها ، وقال الأصطخرى انها أفضل مدينة فى اقليم الديلم(٣٩) ، وقد ازدادت أهمية مدينة الرى على يد البويهيين حكام بغداد، فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى، فكانت دواوين الدولة بمدينة الرى ، وأدى ذلك الى ازدهار الحياة بها ، كذلك أعجب ابن حوقل بجمالها ومكانتها ، فقال : « ليس بعد بغداد فى المشرق مدينة أعمر من الرى »(٤٠) .

وقد تحدث الاصطخرى عن بناء الدور ، فذكر أن أهل مدينة الرى يعتمدون على الطين ممزوجا بالجص ، كما يستعملون طابوق الآجر ، وكانت مدينة الرى محاطة بسور ، كما كانت العادة المتبعة قديما فى تسوير المدن ، وهى تتصل بجيرانها عن طريق أبواب مشهورة ، فمن أبوابها : باب طاق ، يصلها باقليم الجبال ومنه الى العراق ، وباب بليسان ، يصلها بمدينة قزوين ، وباب كوهكين ، يؤدى الى مدينة طبرستان ، وباب هشام الى مدينة قومس وخراسان ، وباب سين يصلها بمدينة قم ، وهذه هى المخارج والمداخل الرئيسية لمدينة الرى(٤١) .

كذلك كان لمدينة الرى أسواق وخانات تجارية كثيرة ، تتمركز

جميعها فى شارع رئيسى واحد يمتاز بالسعة والضخامة ، وتتوفر فيه جميع صنوف الأمتعة والسلع التجارية ، أما العملة المتـــداولة فكانت الدرهم والدينار ، وفى شـــربهم وريهم كانوا يعتمدون على نهـــرين يخترقان المدينة ، احدهما عرف بأسم « سورقنى » والآخر « الجيلانى » .

وأحاطت بمدينة الرى ، عدة مدن صغيرة تابعة لها ، من هـــذه المدن ، « الخوار » ، وكانت آهلة بالسكان وبها ضياع وبساتين ، ومدينتا « يمــه » و « شلنبه » وهما أصغر حجما من « الخوار » ، تكثر فيهما البساتين والمزارع والمياه(٤٢) ، ومن أكثر الرساتيق فيها خصـــوبة ، رستاق « روذه » أو « الروذه » ، و « رامين » الذى صار من أكبر مدن ذلك الاقليم ، وحلت محل مدينة الرى فيما بعد ، و « رامين » ، اسم لقريتين على بعد مسيرة يوم من مدينة الرى ، والقريتان هما : « ديزة القصرين » أو « ديزة رامين » ، ومدينة « بشاويه » ، ومازالت هذه المدينة قائمة الى الآن ، وهى تعرف باسم « قشـــاوية » ، ومن مدنها « قوسين »(٤٣) .

والى جانب هذه المدن تحيط بها هناك عدد من القرى ، التى كانت مساحة تحذف بعضها تزيد عن مساحة بعض المدن ، واشتهرت هـــذه القرى « ســد » و « أرنبويه » و « ورزنيو » « دزاه »(٤٤) .

اما موقع مدينة الرى على الخريطة ، فقد ورد فى كتب الجغرافيا القديمة أنها تقع فى أقصى شمال عراق العجم(٤٥) وهذا التحديد يبدو غير دقيق . ان لفظة عراق اصطلاح جغرافى قديم يحمل معانى كثيرة ، فكلمة « عراقان » ، تعنى البصره والكوفة ، و « عراق » ، تعنى ما قرب من البحر وبعد عن « نجد » و « عراق » ، تعنى المناطق المشرفة على شواطىء نهرى دجلة والفرات ، وتعنى أيضا المناطق القريبة من البحر . وكانوا يطلقون على وسط مملكة الفرس « العراق » ، كما أن هذه الكلمة تعنى الاستواء فى الأرض ، ومن المتعارف عليه عند الجغرافيين القدامى، ان « العراق » تعنى أرض بابل فقط ، وهى احدى مدن العـــراق فى الوقت الحاضر(٤٦) .

وقد اتخذ هذا اللفظ فى العصر الأموى مفهوما جديدا ذا صبغة سياسية ، فصار المقصود « بالعراق » تلك الاقليم الممتدة من مدينة هيت(٤٧) بالعراق ، حتى حدود الصين ، بمعنى أن والى العراق فى ذلك العصر كان مسئولا اداريا وسياسيا عن هذه الاقاليم فهو الذى يعين العمال عليها ، وهى تتبع من الناحية الادارية ولاية العراق(٤٨) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن كتب المسالك والممالك لها أهمية فى تحديد المواضع ومواقع المدن ، وفى أثناء تعرضها للطرق والممرات التى تربط المدن ببعضها ، أشارت الى موضع مدينة الرى(٤٩) ، كما وصفت الطريق الذى يربط بغداد بمدينة الرى)٥٠) .

اما عن موضع مدينة الرى فى الوقت الحاضر ، فانها تبعد عن العاصمة الايرانية طهران بحوالى ٨ كيلو متر ، وبها ضريح الحسين بن على بن موسى الرضا ، وعلى بن موسى هو أحد الأئمة الاثنى عشر وهو الامام الثامن بينهم، كما يوجد فى ضواحيها ضريح امام زاده عبد العظيم، أحد أبناء الأئمة من آل البيت النبوى الشريف ، وهو المعروف بشاه عبد العظيم ، ويعتبر من المشاهد المكرمة عند أهل مدينة طهران وسائر الشيعة . وقد اقترن اسمه بالمدينة ، فصارت تعرف « بشاه عبد العظيم»، وهو الاسم الحديث للمدينة بدل الرى ، وتعد « شاه عبد العظيم » من المدن المقدسة فى ايران ، حتى ان شاه ايران السابق حرص على اقامة مقبرة ملكية ضخمة فى هذه المدينة ، لدفن والده « شاه رضا بهلوى »(٥١) .

ثانيا ـ الدور السياسى لمدينة الرى :

حتى نتمكن من توضيح الدور السياسى لمدينة الرى ، لابد لنا من عرض مراحل الفتح الاسلامى لبلاد فارس ، منذ العهد الراشدى والعهود التى تلته ، وذلك لما كان لمدينة الرى من مساهمات فعالة فى مساندة ومساعدة الجيش الفارسى قبل ان يصل اليها الجيش الاسلامى ، وقدمت الرى هذه المساعدة النشطة لتدرأ عن نفسها الخطر ، بمعنى أنها

محاولة منها ومن باقى مدن فارس لتجهز على المد الاسلامى قبل ان يصل الى حدودها · ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل ·

١ ـ العـــهد الراشـدى :

لم يكن للجيوش الاسـلامية وجـــود فى بلاد فارس زمن الخليفة أبى بكر ، ولكن فى ضوء المعلومات التى نقلهـــا المثنى بن حارثة بن سلمه بن ضمضم الشـيبانى ، كان الخليفة أبو بـكر على علم بالاوضاع السياسية للعراق تحت النفوذ الفارسى ، ويبدو أن هذه الأوضاع شجعت الخليفة على التفكير فى غزو بلاد فارس ، الا أن المرض لم يمكنه من ذلك ، فأوصى عمر بن الخطاب بارسال الجيوش الى العراق(٥٢) ·

وبعد أن تولى عمر بن الخطاب الخلافة ، أخذت جيوش المسلمين تتجه صوب المشرق ، وقد حققت انتصـــارات عظيمة فى معاركها مع الفرس ، انتصرت فى معركة القادسية والمدائن وجلولاء ، وقد دارت هذه المعارك فى سنة ١٦ هـ (٦٣٧م)(٥٣) ، كانت القادسية والمدائن بقيادة سعد بن أبى وقاص ، أما جلولاء فكانت بقيادة هاشم بن عتبه بن أبى وقاص ، ابن أخى سعد ، وهو الذى بعثه لقتال الفرس فى هذه المعركة ، ولكن النويرى فى « نهاية الأرب » يقول : ان سعد بن أبى وقاص باشر هذه المعركة بنفســه(٥٤) ، وحـــلوان التى فتحت صــلحا سنة ١٩ هـ (٦٤٠م) ، فتحها جرير بن عبد الله البجلى(٥٥) ·

فى أعقاب هذه الهزائم المتلاحقة التى ألمت بالفرس ، أحست المدن الفارسية التى لم يصل اليها الفتح الاسلامى بالخطر ، فأرادت أن تفعل شيئا لتوقف المد الاسلامى على الأقل ، ومن أجل ذلك قام الملك يزدجرد الثالث ، بمكاتبة امراء المدن الفارسية ، فبعث برسائل الى مدينة الرى وقوس واصبهان وهمذان وغيرها ، وقد استجابت مـــدينة الرى لهــذا النداء ، فقدمت المساعدات العسكرية وحذت حذوها باقى المدن الفارسية ، كان ذلك فى ســنة ٢٠ هـ (٦٤١م) ، وقد اختلف المؤرخون فى تقـدير العســاكر التى تجمعــت عنــدئذ ، بين مكثر ومقــل ، فحصروها ما بين (٥٠ و ١٥٠ ألف مقاتل(٥٦) · والواقع أن هـــذا الحشـــد

الهائل كان له ما يبرره فى نظر الفرس ، اذ أرادت مدينة الرى وباقى مدن الفرس أن يوحدوا صفوفهم ليتمكنوا من اعادة مجدهم السياسى ، وقد عبر سعد بن أبى وقاص عن ذلك مخاطبا الخليفة عمر بن الخطاب فقال : « انهم انما جمعوا للنقمة »(٥٧) .

وعندما سمع الخليفة عمر بن الخطاب بأمر هذه الجموع الكثيفة اجتمع بأصحابه للأخذ برأيهم ومشورتهم ، وانتهى الاجتماع الى الأخذ برأى على بن أبى طالب ، الذى نادى بالاعتماد على الكوفة والبصرة ، فيأخذوا من كل مدينة الثلث من رجالها المقاتلين ، ويبقى الثلثان فى كل مدينة للحماية(٥٨) ، وتم اعداد هذا الجيش بقيادة النعمان بن عمرو بن مقرن المزنى ، حتى انتصر المسلمون على الفرس فى المعركة التى جرت على أرض « نهاوند » وقد اقترن اسم المعركة بهذا الموضع ، فصارت تعرف باسم « معركة نهاوند » ولم يتفق المؤرخون فى تحديد السنة التى جرت بها هذه المعركة ، الا أنهم حصروها فى سنوات (١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١)(٥٩) .

ولا شك فى أن هذه الانتصارات الرائعة التى حققها المسلمون فى معركة نهاوند ، كان لها آثارها السـلبية على الصـعيدين السياسى والاجتماعى ، بعد أن انهزم الملك يزدجرد الى مناطق نائية بعيدا عن الخطر ، كما ولدت هذه الهزائم ردود فعـل سـيئة بين أوساط العامة والخاصة فى مدينة الرى وفى غيرها من المدن . فى ظل هذه الاوضاع توجه القائد نعيم بن مقرن الى مـدينة همـذان ، فتمكن من فتحها صلحا(٦٠) ، ثم نقضت الصلح ، فعاد وفتحها(٦١) .

وبعد سقوط مدينة همذان أصبح الوضع بمدينة الرى حرجا وخطرا فى نفس الوقت ، لا سيما وان همذان تقع بالقرب من مدينة الرى ، لذلك فانها أخـذت تعمل على الصـعيدين السـياسى والعسكرى بما يوائم هذه الظروف ، فعقدت تحالفا عسكريا يضـم ، بلاد الديلم وأذربيجان ومدينة الرى ، وكان الهدف من هـذا التحالف محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه ، فهى محاولة قد تكون يائسة فى نظر قادة مدينة الرى وغيرها،

ولكنها محاولة مادامت تعبر عن رأى الأغلبية التى تريد أن تحقق الحلم الفارسى المنشود(٦٢) .

وكان أن تقدمت جيوش الفرس المتحالفة وعسكرت فى موضع يقال له « واج الروذ »(٦٣) بقيادة قائد مدينة الرى ، الزينبى أبو الفرخان ، وقائد بلاد الديلم موتا أو موثا ، وقائد أذربيجان ، يقال له اسفنديار ، ولقد انتصر المسلمون فى معركة « واج روذ » سنة ٢٢ هـ (٦٤٢م) بقيادة نعيم بن مقرن ، وهى المعركة التى وصفت بالشدة والضراوه ، حتى ان الخليفة عمر بن الخطاب كان قلقا على المسلمين ، فهى تعد من المعارك الفاصلة فى تاريخ الفتوح الاسلامية التى جرت فى العصر الراشدى ، اذ تكبد الفرس فيها خسائر فادحة فى الأرواح والأموال(٦٤) .

وفى اعقاب معركة « واج روذ » جاءت رسالة من الخليفة عمر بن الخطاب الى نعيم بن مقرن تدعوه للتوجه الى مدينة الرى لفتحها ، فتهيأ للذهاب ، وترك على مدينة همذان بكير بن عبد الله بن سماك بن خرشه(٦٥) ، وكذلك تضمنت هذه الرسالة بعض الوصايا العسكرية فيما يتعلق بمدينة الرى ، من ذلك قول الخليفة عمر بن الخطاب للقائد نعيم: « أقم بها فانها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد »(٦٦) .

هذه العبارة تؤكد أهمية موقع مدينة الرى فى النواحى العسكرية، فضلا عن موقعها كمركز تجارى هام ، وهو أمر يأتى الحديث عنه فيما بعد ، وقد أدرك الخليفة عمر هذه الأهمية الاستراتيجية العسكرية لمدينة الرى ، نظرا لموقعها الذى يتوسط المدن الفارسية ، وهى الأهمية التى أكدها الرحالة والجغرافى المقدسى بقوله : « الرى واسطة خراسان وجرجان والعراق » ، ونفهم من ذلك أن السيطرة على مدينة الرى ، تعنى احكام السيطرة على باقى المدن الفارسية المجاورة لها(٦٧) .

لذلك حرص القائد نعيم على اخضاع مدينة الرى ، فتوجه اليها بجيشه سنة ٢٢ هـ . وكانت المدينة على استعداد للقائه ، ولكن حدثت خلافات بين قادة مدينة الرى ، ذلك أن القائد الزينبى أبو الفرخان

تمرد على ملك الرى المدعو : سياوخش بن مهران بن بهرام شوبين ، فترك القائد الزينبى المدينة والتحق بجيش المسلمين فى موضع يقال له « قها »(٦٨) لاجئا يطلب الامان ، فأمنه القائد نعيم(٦٩) .

ومن المؤكد أن المسلمين استفادوا عسكريا من وجود القائد الزينبى بينهم ، بوصفه على علم ودرايه كبيرة بأمور مدينة الرى ، فضلا عن كونه قائدها العسكرى ، وسرعان ما ادرك أمير مدينة الرى سياوخش خطورة الموقف ، فهـو أمام جيش قوى مدرب وله خبـــرة ودراية فى الحروب فى مثل هذه المواضع وسبق له أن حقق انتصارات كثيرة ، فضلا عن انشقاق القائد الزينبى ، وكان أن دفعه ذلك الموقف الى طلب المساعدة من جيرانه ، مثل : دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان ، فراح يتفاوض معهم ، مبينا لهم خطورة الموقف عليهم وعليه ، ومما جاء فى أقواله لهم : « قد علمتم ان هؤلاء ان حلوا بالرى ، انه لا مقام لكم »(٧٠) .

وتوحى هذه العبارة الأخيرة بالأهمية التى تتمتع بها مدينة الرى بالنسبة الى المـــدن المجاورة لها ، ولذا استجاب حكام المدن المجاورة لطلب سياوخش ، وقدموا المساعدات العســكرية ، فبعثوا بجيوشهم وتجمعت هذه العساكر عند سفح جبل مدينة الرى ، ويبدو انهم شكلوا قوة كبيرة فاقت قوة المسلمين بكثير ، مما بعث فى نفوسهم الغرور ، فراحوا يتحرشون بجيش المسلمين ويستعجلونهم القتال ، وعندما بدأت المعركة ، لاحظ القائد الزينبى أبو الفرخان هذا التباين الشـديد بين جيوش الطرفين ، ولم يكن من صالحه أن ينهزم الجيش الاســلامى ، فعرض على القائد نعيم بن مقرن أن يبعثه مع مجمـــوعة من العساكر ليدخل المدينة من أحد أبوابها السرية ، فيكون من الخلف والمسلمون من الامام ، فاستصوب القائد نعيم رأيه وبعثه فى المساء مع خيل بقيادة ابن أخيه المنذر بن عمرو ، فتمكنوا من دخول المدينة وأخذوا مواقعهم فى مؤخرة الجيش الفارسى ، وأدت هذه الخطة الى هزيمة نكراء ، فسقطت مدينة الرى ودخلتها جيوش المسلمين ، وغنموا أموالا كثيرة(٧١) .

وبعد أن حقق المسلمون هـــذا النصر بعث القائد نعيم بكتاب الى

الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بفتح مدينة الرى ، وقد حمل هـذا الكتاب ، شخص يقال له ، مضارب العجلى ، وبعد ذلك بعث بالاخماس والغنائم التى حصل عليها المسلمون فى هذه المعركة ، وقد قام بنقلها عتبه بن النهاس وأبى مفزر ، مع وجوه من أهل الكوفة(٧٢) .

والواقع ان المسلمين استفادوا من الخلافات التى وقعت بين الأسر الفارسية والمسئولين فى مدينة الرى ومع ذلك يبدو أن الجيش الفارسى قد أبدى مقاومة عنيفة ، بقيادة سياوخش بن مهران بن بهرام شوبين ، ولعل ذلك هو الذى دفع نعيم بن مقرن الى هدم المدينة القديمة(٧٣) ، ثم أمر الزينبى أبو الفرخان ببناء مدينة جديدة ، فكانت تسمى « مدينة الرى الحدثى » ، فى حين أطلق على القديمة اسم « العتيقة »(٧٤) .

ومن الاعمال الادارية التى قام بها نعيم بن مقرن بمدينة الرى عقب فتحها أنه جعل القائد الزينبى أبو الفرخان واليا عليها ، ويقول الطبرى فى هذا الصدد : « ومرزبه عليهم » ، ولفظة « مرزبان » بالفارسية ، تعنى والى(٧٥) . ثم عقد مع أهل الرى صلحا ضمنه بعض الجوانب التى تتعلق بالنواحى الأمنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وهى شروط تتناسب مع أوضاع وظروف أهل مدينة الرى الذين لم يدخلوا فى الاسلام بعد ، وهذا نص الصلح : « بسم الله الرحمن الرحيم هـذا ما أعطى نعيم بن مقرن الزينبى بن قوله أعطاه الأمان على أهل الرى ومن كان معهم من غيرهم على الجزاء طاقة كل حالم فى كل سنة وعلى ان ينصحوا ويدلوا ولا يغلوا ولا يسلوا(٧٦) وعلى ان يقروا(٧٧) المسلمين يوما وليله وعلى ان يفخموا المسلم فمن سب مسلما أو استخف به نهك عقوبة ومن ضربه قتل ومن بدل منهم فلم يسلم برمته فقد غير جماعتكم »(٧٨) .

ومن الملاحظ أن هناك اختلافات فى الاراء حول موضوع فتح مدينة الرى ، فلم يتفق المؤرخون فى تحديد سنة الفتح ، وكذلك لم يتفقوا على قائد الفتح ، فمن اقوالهم : ان الفتح كان فى سنة ٢١ هـ ، أو فى سنة

٢٢ هـ أو سنة ٢٣ هـ ، كذلك ذكروا أن قائد الفتح ، نعيم بن مقرن ، وتارة قالوا أنه قرظة بن كعب(٧٩)،أو مرة عروة بن زيد الخيل الطائى(٨٠).

هذه الاختلافات فى الآراء حول تحـــــديد سنة الفتح وكذلك قائد الفتح ، ربما نشأت من عدم استقرار الوضع بمدينة الرى فى تلك الحقبة، فكانوا فى كل مرة ينقضون الصلح المعقود بينهم وبين المسلمين ، مما يضطر قادة الفتح الى اعادة فتحها ، وقد ادى ذلك الى وقوع مثل هذا الالتباس ثم الاختلاف فى الآراء .

على أية حال ، فقد كان لسقوط مدينة الرى بيد المســـلمين آثاره الواضحة على باقى المدن الفارسية ، فقد تدافعت هذه المدن ، مثل قومس وجرجان وطبرستان تطلب الصلح مع المسلمين مقابل الجزية ، بعد أن ادركت أنه لا طائل من المقـاومة ، مادامت مدينـــة الرى ذات الموقع الحصين قد سقطت ، لذلك ارادت أن تجنب نفسها ويلات الحروب ، وهـــذا دليـــل على الدور الريادى الذى تبوأته مدينة الرى بين هـــذه المـــــدن(٨١) .

وكانت مدينة الرى والمدن الفارسية الأخرى التى فتحها المسلمون زمن الخلفاء الراشدين ، تتبع من الناحية الادارية ولاية الكوفة ، ففى أغلب الأحيان كان والى الكوفة هو المسئول عن تعيين العمال على هذه المدن ، فلما عزل عمار بن ياسر عن ولاية الكوفة فى سنة ٢٣ هـ (٦٤٣م)، عين الخليفة عمر بن الخطاب مكانه المغيرة بن شعبة الثقفى ، وقام هذا الأخير بتعيين العمال ، فعين كثير بن شهاب الحارثى(٨٢) عاملا على مدينة الرى ودستبى(٨٣) ، وعند وصول العامل كثير فوجىء بتمرد أهل مدينة الرى ، اذ نقضوا الصلح المعقود بينهم وبين المسلمين ، وقد تمكن كثير من القضاء على هذا التمرد ، فعادوا الى الطاعة ودفع الجـــزية والخراج ، وذكروا أن كثير بن شهاب كان مسئولا عن قزوين بالاضافة الى عمله السابق(٨٤) .

كذلك قامت مدينة الرى فى سنة ٢٤ هـ (٦٤٤م) بالثورة والتمرد ، وامتنعت عن دفع الجزية والخراج(٨٥) ، وفى أواخر سنة ٢٤ هـ أوائل

سنة ٢٥ هـ (٦٤٥م) انتقضت مدينة الرى مرة أخـــرى ، مما دفع والى الكوفة سعد بن أبى وقاص أن يذهب بنفسه الى مدينة الرى وتمكن من اخضاعها واعادة الهدوء والاستقرار اليها ، وقد عبر البلاذرى عن ذلك بقوله : « وكانت (أى مدينة الرى) ملتاثه فأصلحها »(٨٦) .

وقد قامت مدينة الرى بالثورة واعلنت العصيان فى اعقاب مقتل عمر بن الخطاب واختيار الخليفة الجديد عثمان بن عفان ، وما أعقب ذلك من تغييرات فى النواحى الادارية بمدينة الكوفة والرى ، فقد عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وتولاها أبو موسى الأشعرى ، والذى عين قرظة بن كعب الأنصارى عاملا على مدينـــة الرى ، وكان أن تمكن من اخماد هذه الثورة(٨٧) .

يتضح مما سبق أن هذه السلسلة من الثورات والانتفاضات المتلاحقة التى شهدتها مدينة الرى ، كانت دائما تحدث فى الفترات التى تجرى فيها تغييرات ادارية أثناء تعيين أو عزل الولاة أو العمال،سواء كان ذلك على الكوفة أو الرى ، ويبدو أن مدينة الرى ، كانت تتأثر بهذه الاحداث والتغييرات ، وتغتنمها للقيام بمثل هذه الانتفاضات بغية التخلص من التبعية للدولة الاسلامية .

وربما كانت هناك اعتبارات دينية واقتصادية وراء هـــذا التمرد وعدم الاستقرار بمدينة الرى ، فعلى الصعيد الدينى ، فان مدينة الرى كانت من المراكز الدينية الكبرى فى بلاد فارس ، ولها مكانة روحية خاصة عند الفرس ، لذلك فقد صعب على حكامها الخضوع للسيطرة الاسلامية ، وهى بهذا الحجم من القداسة الروحية ، ومن هذا المنطلق يبدو أن العامل الدينى أسهم فى حركات الانتفاضات والتمرد(٨٨) .

ويرتبط بذلك العامل الاقتصادى ؛ أعنى به ما تدفعه مدينة الرى للمسلمين من خراج وجزية فى كل عام ، فضريبة الخراج مقدارها كبير ، وهى تشكل موردا اقتصاديا هاما ، من ذلك أن اليعقوبى يذكر أن مقدار ضريبة الخراج لمدينة الرى وحدها زمن معاوية بن أبى سفيان كان يصل الى (٣٠) ألف ألف درهم ، أى ما يعادل (٣٠) مليون درهم ، فاذا

علمنا أن أهل الرى كانوا يدفعون هذه الضريبة لدولة لا يرتبطون بها بأى نوع من الروابط ، الدينية أو العرقية ، أدركنا أن العامل الاقتصادى كان سببا لعدم الاستقرار بمدينة الرى(٨٩) .

على أنه من الملاحظ أن ظاهرة العصيان والتمرد التى كانت تحدث بمدينة الرى قد خفت حدتها . عندما دخلت اعداد كبيرة من سكانها فى الاسلام ، فى سنة٢٤ هـ وما بعدها ، مما ترتب عليه زوال كثير من العوامل التى كانت تحرك هذه الثورات ، ذلك أن المسلمين الجدد من أهل مدينة الرى انتظموا فى دفع الخراج الى بيت مال المسلمين عن ايمان وقناعة ، وقد اعتبر البلاذرى أن الفتح الحقيقى لمدينة الرى كان فى سنة ٢٤ هـ ، عندما دخل معظم أهلها فى الاسلام ، فلم تعد تنتقض كما كانت من قبل ، الا فى حالات نادرة ، بسبب ما كانت تقوم به بعض الفئات من شغب ، وقد اتخذ عمال مدينة الرى من حصن الزنبدى أو الزينبى مقرا لحكمهم(٩٠) .

والواقع أن الفتوحات الاسلامية زمن الخليفة عثمان بن عفان اقتصر دورها على تثبيت نفوذ المسلمين والمحافظة على ما توصلوا اليه من فتوحات زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، فأمير الجيوش فى المشرق كان أبو موسى الأشعرى ، ومن الأعمال العسكرية التى قام بها أنه فتح ما تبقى من أعمال مدينة الرى ، وهذا يدفعنا الى الاعتقاد بأن مدينة الرى لم تكن قد فتحت بأكملها زمن الخليفة عمر بن الخطاب(٩١) .

وفى أواخر عهد عثمان بن عفان ، أى فى حدود سنة ٣٤هـ (٦٥٤م) أجريت بعض التغييرات الادارية بمدينة الرى فيما يتعلق بأمر الولاة ، فقد بعث سعيد بن العاص(٩٢) والى الكوفة ، سعيد بن قيس ليكون عاملا على مدينة الرى(٩٣) ، وفى سنة ٣٥ هـ (٦٥٥م) ، فى السنة التى قتل فيها الخليفة عثمان بن عفان ، كان عامل مدينة الرى واصبهان السائب بن الاقرع ، بينما يذكر الطبرى أن سعيد بن قيس أستمر عاملا على مدينة الرى حتى السنة المذكورة(٩٤) .

وعندما تولى على بن أبى طالب الخلافة أحدث تغييرات جذرية

فى الادارة ، فيما يتعلق بأمر الولاة والعمال ، فقد أسند ولاية الكوفة الى قرظة بن كعب الانصارى ، الذى كان عاملا على الرى زمن الخليفة عثمان ، أما مدينة الرى ، فقد كان عامله عليها الربيع بن خيثم ، واضاف اليه قزوين(٩٥) ، ثم عزله واقر مكانه يزيد بن حجبه بن عامر بن تيم الله بن ثعلبه بن عكابه ، الذى صار عاملا على الرى ودستبى(٩٦) .

ولا شك فى ان مدينة الرى أو بالأحرى عمالها تأثروا بما كان يجرى فى الدولة الاسلامية من احداث ، لا سيما فى القضايا السياسية ، ففى أثناء النزاع القـــائم بين الخليفة على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، انحاز عامل الرى يزيد بن حجبة الى جانب معاوية ضد الخليفة على بن أبى طالب ، فأستولى على أموال الخراج الخاصة بمدينة الرى ، ومقدارها (٣٠) ألف درهم ، وهرب بها الى دمشق حيث قدمها الى معـــاوية(٩٧) .

وكان أن عين الخليفة على بن أبى طالب عاملا آخر على الرى ، هو يزيد بن قيس ، وضم اليه اصبهان ، ويبدو أنه أستمر فى عمله حتى نهاية عهد الخليفة على بن بن أبى طالب سنة ٤٠ هـ (٦٦٠م)(٩٨) .

ومما يدل على تأثر وتفاعل مدينة الرى بالاحداث السياسية التى تمر بها الدولة الاسلامية أنه حدث فى أعقاب معركة النهروان التى جرت بين الخليفة على بن أبى طالب وبين الخوارج فى سنة ٣٧ هـ (٦٥٧) أن التحقت مجموعة من الخوارج ممن عفا عنهم الخليفة على بن أبى طالب بمدينة الرى ، ولعل اختيارهم لمـــدينة الرى جاء نتيجة لوجود عناصر مؤيدة لهم ، وظلوا هناك حتى بعد مقتل الخليفة على ، ثم عادوا الى الكوفة من الرى فى سنة ٤٢ هـ (٦٦٢م)(٩٩) .

٢ العصـر الأمـــوى :

أولت الدولة الأموية منذ قيامها اهتماما واضحا بأمـــر الفتوحات والتوسع ، الأمر الذى جاء مصحوبا باختيار الخلافة الأموية ولاة وعمالا موالين لها ، من ذلك أن معاوية بن أبى سفيان لما تولى الخلافة ، اقر على مدينة الرى كثير بن شهاب بن الحصين بن ذى القصة الحارثى ،

وهو صاحب الخبرة والدراية بأمور وأوضاع مدينة الرى ، منذ أن كان عاملا عليها زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، ثم زمن الخليفة عثمان ، ولما تولى معاوية بن أبى سفيان، عين المغيرة بن شعبة واليا على الكوفة، وقد اهتم المغيرة بأمر مدينة الرى ، فجدد العهد للعامل كثير بن شهاب ، وحذا حذوه والى الكوفة الجديد زياد بن ابيه(١٠٠) .

ويبدو أن عمال الدولة الأموية قاموا بنقل ما بينهم وبين العلويين أو بالأحرى على بن أبى طالب ، من خلافات الى الولايات والمدن البعيدة عن مركز الخلافة ، وحاولوا ترسيخ هذا العداء لعلى بن أبى طالب فى نفوس أهل هذه الولايات ، من ذلك ما قام به عامل مدينة الرى ، كثير ابن شهاب ، اذ أمر بسب على بن أبى طالب من فوق منابر مدينة الرى(١٠١) .

ومن المؤكد أن هذه الممارسات الخاطئة التى قام بها بعض عمال الدولة الأموية لا سيما زمن معاوية بن أبى سفيان كانت لها ، آثارها وأبعادها السيئة فى هذه الولايات ، سواء فى النواحى الروحية أو السياسية أو الاجتماعية ، فمن آثارها أنها أدت الى انقسام المجتمع الى طوائف وأحزاب ، بعضها مع العلويين والآخر مع الأمويين ، وبديهى أن يتخذ الأمويون موقفا عدائيا من العناصر التى لا تؤيدها ، فتعمدوا اضطهادهم وتشريدهم ، الأمر الذى أدى الى شيوع الطائفية ، وتولد البغضاء بين أفراد المجتمع مما كانت له آثاره السيئة على النواحى الدينية والاجتماعية .

ومن ناحية أخرى فان كثير بن شهاب قام أثناء وجوده بمدينة الرى ، بنشاط عسكرى فى نواحى الديلم ، وعمل على تثبيت نفوذ المسلمين فى تلك المناطق(١٠٢) ، ولكن العلاقة بين معاوية بن أبى سفيان وكثير بن شهاب سرعان ما ساءت ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أمر معاوية بجلده وحبسه بدمشق ، ولم يخلصه من هذه العقوبة ، الا توسط من القاضى شريح بن هانىء المرادى ، ولا نعرف سبب هذه الخصومة ، ولكن كثير بن شهاب تبوأ مناصب عالية فى الدولة فى زمن يزيد بن معاوية(١٠٣) .

وقد حرص الأمويون على انتقاء الولاة الاكفاء على الكوفة ، لأن الهدوء والاستقرار فى المدن والولايات الشرقية مقرون بكفاءة والى الكوفة، فهو المسئول عن العمال وعن تعيينهم ، لذلك فان يزيد بن معاوية اختار على الكوفة عبيد الله بن زياد بناء على نصيحة أحد مستشاريه(١٠٤) ، وقد عهد والى الكوفة الجديد عبيد الله بن زياد الى عمر بن سعد بن أبى وقاص بالولاية على مدينة الرى(١٠٥) ، وكلفه بمحاربة المتمردين ببلاد الديلم ، الا أنه ربط هذا العهد بشرط ، وهو أن لا يعطيه الولاية الا اذا وافق على محاربة الحسين بن على بن أبى طالب ، الذى قدم الى الكوفة بناء على مكاتبة أهل الكوفة ، وقد تردد عمر بن سعد بن أبى وقاص أول الأمر واقترح على عبيد الله بن زياد أن يختار غيره لمحاربة الحسين، ويدعه يذهب الى مدينة الرى لمحاربة المتمردين من أهل الديلم ، ولكن والى الكوفة عبيد الله بن زياد أصر على رأيه ، خاصة لما وجد أن عمر بن سعد متهالك على ولاية الرى ، وقال له : اما الموافقة أو أن يسترد العهد(١٠٦) ، وكانت الحيرة بادية على عمر بن سعد ، فتمثل بهذه الأبيات :

أأترك ملك الرى والرى منيتى ... أم ارجع مذموما بقتل حسين
وفى قتله النار التى ليس دونها ... حجاب وملك الرى قرة عين

على انه استجاب أخيرا لطلب عبيد الله بن زياد ، ويعلق أبو حنيفة الدينورى فى كتابه «الاخبار الطوال» على هذا الموقف بقوله : « فاقبل يميل بين الخروج وولاية الرى والقعود ، ... فغلبه حب الدنيا والرياسة حتى خرج فكان من قتل الحسين »(١٠٧) .

وهكذا أقدم عمر بن سعد على محاربة الحسين وقتله ، الا أن عبيد الله بن زياد لم يف بوعده ، فلم يكافئه وحرمه من ولاية مدينة الرى(١٠٨) .

وقد تعرضت الدولة الاسلامية فى اعقاب موت يزيد بن معاوية ، فى حدود سنة ٦٤ هـ (٦٨٣م) لموجة من الفوضى والاضطراب والصراعات على السلطة فى الشام والحجاز والعراق ، بين الفرعين المروانى

والسفيانى فى الشام ، وبين المروانية وآل الزبير فى الشــام والحجاز والعــراق ، وكذا بين آل الزبير وجماعة المختــار بن عبيد الثقفى بالكوفة ، وأخيرا الصراع بين هذه القوى مجتمعة وحزب الخوارج ، فهذه القوى المتصارعة أخذت تتجاذب مناطق النفوذ والسيطرة ، وكان أن أسفر الصراع بين هذه القوى ، عن آثار سلبية الت بالدولة الاسلامية، وشكلت حافزا للمناطق البعيدة عن مركز الخــلافة ، للقيــام بالتمرد ومحاولة الانفصال ، من ذلك ما حدث بمدينة الرى فى حدود سنة ٦٤هـ فى أعقاب موت يزيد بن معاوية ، ابان هذه الفوضى العارمة ، اذ أعلنت التمرد والعصيان ، لولا أن والى الكوفة عامر بن مسعود تدارك الموقف ، فبعث جيشا بقيادة محمد بن عمير بن عطارد(١٠٩) ، على أن هــذا الجيش فشل فى تحقيق النصر واخضاع مــدينة الرى(١١٠) ، وبذلك ظلت مدينة الرى على تمردها وانفصالها عن الدولة الاسلامية ، وقــد تزعم هذه الحركة شخص يقال له ، الفرخان ، ومما ساعدها على ذلك التمرد النزاع القائم على أشده بين الأمويين وآل الزبير(١١١) .

أما والى الكوفة عامر بن مسعود فقد أخذ يتابع أحداث هذا التمرد الى أن سنحت له الفرصة ، فبعث بجيش آخر بقيادة عتاب بن ورقاء الرياحى ، الذى تمكن من دحر هــذا التمرد ، وقتــل الفرخان زعيم الحــركة ، وبذلك أصبح عتاب عاملا على الـــرى ، وضمت اليــه اصبهان(١١٢) ، على ان الحجاج بن يوسف الثقفى فصل اصبهان عن الرى وجعل مسئوليات عتاب على اصبهان فقط ، بينما عين يزيد بن الحرث بن رئيم الشيبانى عاملا على مدينة الرى ، وكان ليزيد خبــرة ودراية بشئون الرى ، اذ كان عاملا عليهــا زمن الخليفة على بن أبى طالب(١١٣) .

كذلك حدث فى أثناء الحروب والثورات التى اشعلها الخوارج ، لا سيما فرق الأزارقة ؛ اتباع نافع بن الأزرق ، فى حدود سنوات ٦٥ هـ (٦٨٤م) وما بعدها ، أن داهمت جيوش الخوارج مدينة الرى ، فتمكنوا من دخولها وقتلوا عاملها ، يزيد بن الحرث بن رئيم(١١٤) .

ومن الملاحظ أن جماعات من أهــل الرى تعاطفت مع الخوارج

ربما تمثل المنافقين أو الذين لم يدخلوا فى الاسلام ، فاغتنموا فرصة وجود الخوارج فوقفوا الى جانبهم لاضعاف المسلمين . وهناك احتمال آخر يكمن فى عمال الدولة الأموية أنفسهم ، فأهل الرى لا يميلون اليهم منذ حادث السرقة لأموال خراج مدينة الرى التى قام بها يزيد بن نجبة لسنة كاملة ومقداره (٣٠) ألف درهم،زمن الخليفة على بن أبى طالب، وهرب بها الى معاوية بن أبى سفيان ، هذا الموقف جعلهم يتوصلون الى قناعة فيما يتعلق بأمر العمال الأمويين وتتوائم هذه القناعة مع مبادىء الخوارج ، الأمر الذى يبرر موقفهم الى جانب الخوارج ضد العامل يزيد وأعوانه(١١٥) .

وقد تمكنت هذه الجماعات من السيطرة على مدينة الرى فى اعقاب مقتل يزيد بن حجبة عامل مدينة الرى ، ولكن مصعب بن الزبير والى البصرة آنذاك لأخيه عبد الله ابن الزبير ، بعث الى عتاب بن ورقاء الرياحى فى سنة ٦٨ هـ (٦٨٧م) - وكان عاملا على اصبهان - بترك اصبهان والتوجه الى مدينة الرى لمحاربة المتمردين ، وقد تمكن عتاب بعد قتال عنيف من اخضاع المدينة وفتح سائر القلاع عنوة ، وغنم جيش الخلافة من جراء ذلك أموالا كثيرة(١١٦) .

ولا شك فى أن الصراع الدائر بين القوى الاسلامية كانت له تاثيراته المباشرة على الولايات التى تقع فى الأجزاء الشرقية من مركز الخلافة ، وهذه التأثيرات كانت تمس الجانب الادارى والسياسى ، حيث تداولت قوى الصراع السيطرة على مدينة الرى ، اذ خضعت لآل الزبير ثم لجماعة المختار بن عبيد الثقفى ، ثم للأمويين ، من ذلك أنه فى أعقاب انتصار المختار بن عبيد على آل الزبير فى سنة ٦٦ هـ (٦٨٥م) أن خضعت له الكوفة(١١٧) ، وتبع ذلك طبعا خضوع جميع الولايات التى تتبع الكوفة فى النواحى الادارية ، وهذا يعنى خضوع مدينة الرى أيضا ، فعين المختار عليها يزيد بن نجبة الفزارى فى حدود سنة ٦٨ هـ (٦٨٧م) ، وضم اليه دستبى ، فكانت أموال الخراج لهذه الولايات تصل الى المختار بالكوفة ، واستمر ذلك لمدة ثمانية عشر شهرا(١١٨) .

ويفهم من ذلك أن يزيد بن نجبة الفزارى تمكن من أبعاد عتاب بن ورقاء الرياحى عن مدينة الرى ، وتمت له السيطرة على المدينة ، ولكن حدث بعد أن قضى آل الزبير على حركة المختار بن عبيد فى سنة ٦٩ هـ (٦٨٨م) أن عادت مدينة الرى لنفـــوذ آل الزبير . وبعـــد أن تغلب عبد الملك بن مروان على عبد الله بن الزبير ، خضعت جميع الولايات الاسلامية للنفوذ الاموى ومنها مدينة الرى(١١٩) ففى سنة ٧١ هـ(٦٩٠م) قلد الأمويون يزيد بن ورقاء الرياحى الرى ، فأصبح عاملا عليها . ويزيد هذا كما هو واضح من أسم أبيه هو أخو عتاب بن ورقاء(١٢٠) .

وفى ضوء هذه المعطيات التاريخية أصبح الأمويون هم أصـــحاب السيادة الفعلية فى مشرق العالم الاسلامى ، الا أن تحـــركات الخوارج أقلقت راحتهم ، لا سيما فى المناطق الشرقية من العالم الاسلامى ، اذ كان للخوارج نشـــاط واضح فى بـــلاد فارس ونواحى الخليج ، وتكـــررت اعتداءاتهم على المدن الفارسية ، مثل مدينة الرى واصبهان وطبرستان. وقد عمل عبد الملك بن مروان على الحد من نشـــاط الخوارج فى تلك المناطق ، فاحدث تغييرات ادارية شملت ولاية العراق وتوابعها ، ذلك انه عزل خالد بن عبد الله بن اسيد عن ولاية العراق وقلدها الحجاج بن يوسف الثقفى(١٢١) ، وفى سنة ٧٧ هـ (٦٩٦م) قام مطرف بن المغيرة بن شعبة عامل الحجاج على المدائن بالتمرد ، واعتنق مذهب الخوارج، فترك المدائن وذهب الى نواحى مدينة الرى واصبهان وهمذان ، يدعو الناس الى خلع بيعة عبد الملك بن مروان ، فاستجابت له جماعات فى هذه المدن ، ومن مدينة الرى انضم اليه نحو مائة رجل عليهم بكير بن هارون النخعى ، وقد طلب الحجاج من عدى بن زياد الآيادى عامله على مدينـــة الرى ، كذلك طلب من البراء بن قبيصـــه عامـــله على اصبهان ، بالتصدى لهذه الحركة ، فخرجوا له بقوة عسكرية بلغ عددها نحو (٦) آلاف مقاتل ، بقيادة عـــدى بن زياد عامل مدينة الرى ، فتمكنوا من دحر الخوارج وقتل مطرف بن المغيرة ، وبعـــد ذلك أمر الحجاج بعزل عدى ابن زياد عن الرى(١٢٢) وقلدها خالد بن الوليد عتاب بن زرقاء الرياحى(١٢٣) .

على أنه حدث فى سنوات ٧٩ هـ (٦٩٨م) وما بعدها أن أخذ نفوذ الخوارج يتعاظم فى نواحى مدينة الرى وهمذان واصبهان وطبرستان ٠ واجتهد الحجاج لقتالهم ، وأختار لهذه المهمة القادة الاكفاء مثل المهلب بن أبى صفرة،حتى تمكن الحجاج من قطع الطريق على زعيم الخوارج، قطرى بن الفجاءة ، الذى كان ينوى احتلال مدينة الرى ، فبعث اليه جيشا يقوده سفيان بن الابرد تمكن من صد الخوارج وفوت عليهم فرصة الاحتلال ٠ وكان عامل الحجاج على مدينة الرى قبل مجيىء الخوارج ، اسحاق بن محمد بن الاشعث(١٢٤) ويذكر اليعقوبى ، ان سفيان بن الابرد هو العامل على مدينة الرى وليس اسحاق بن محمد بن الاشعث، وقد عزله الحجاج ، وأقر مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى(١٢٥) ٠

ومهما يكن الأمر فان الهدوء والاستقرار ساد مدينة الرى فى سنة ٨٣ هـ (٧٠٢م) وما بعدها ، فكانت تعد من المناطق الآمنة ، لا سيما بعد ان قضى الحجاج على الثائر عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فى معركة « دير الجماجم » سنة ٨٢ هـ (٧٠١م) ، وقد لجأ معظم المنهزمين فى هذه المعركة الى مدينة الرى ، خاصة بعد أن أعلن الحجاج ، أن من دخل مدينة الرى فهو آمن(١٢٦) ٠

ولكن هؤلاء اللاجئين لم يكونوا مخلصين فى ولائهم للحجاج ، اذ عمدوا الى زرع القلاقل والفتن بمدينة الرى ، فكانوا يناصرون الحركات المناوئة للحجاج ، كما قاموا بدور واضح فى تشجيعها ، لذلك الحوا على عمر بن أبى الصلت أحد أصحاب النفوذ بمدينة الرى - حتى اقنعوه بخلع الطاعة للحجاج بن يوسف الثقفى وعامله على الرى،قتيبة بن مسلم الباهلى ٠ وتحت هذه الضغوط ، وتأثير أبيه الذى كان يبغض الحجاج ، استجاب عمر بن أبى الصلت لهم ، واعلن الثورة ٠ وقد دارت بين عمر وبين قتيبة بن مسلم عامل الرى معركة عنيفة ، أسفرت عن هزيمة بن أبى الصلت ، بسبب تخلى اتباعه عنه(١٢٧) ٠

وفى سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) عزل الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلى عن الرى ، وقلده الامارة على خراسان ، ولا نعرف من أقر مكانه على الرى،

ولم تذكر المصادر أسباب العزل ، وهكذا أستمرت عمليات العزل والتولية هذه دون ذكر الأسباب ، فالمصادر التى بين أيدينا فى معظم الأحيان لم تفصح عن ذلك ، واكتفت بذكر العزل أو التولية فقط ، وعلى العموم فان ذلك لم يؤثر على الدور السياسى الذى كانت تقوم به مدينة الرى ، وعلى تفاعلها مع الاحداث التى كانت تجرى فى تلك المناطق القريبة منها(١٢٨) ، من ذلك أنها شاركت فى حدود سنة ٩٨ هـ (٧١٦م) مع جيوش المسلمين من أهل الكوفة والبصرة والشام وخراسان فى فتح مدينة جرجان بقيادة يزيد بن المهلب بن أبى صـــفرة ، وبعد فتح جرجان قام يزيد بزيارة لمدينة الرى(١٢٩) ٠

وفى سنة ١٠٨ هـ (٧٢٦م) أخذ نفوذ الخـــوارج الازارقة يتغلغل داخل مدينة الرى ، وقد شجعهم ذلك على الثورة ومحاولة السيطرة على المدينة ، بزعامة امامهم عباد الحرورى ، وقد تمكنوا بالفعل من السيطرة على مدينة الرى ، الا أن الدولة الأموية زمن هشام بن عبد الملك عملت على أقصائهم ، فبعث يوسف بن عمر والى العراق جيشا استطاع اخماد ثورتهم والقضاء على نفوذهم ، وقتل زعيمهم عباد(١٣٠) ٠

ومن الملاحظ أن مدينة الرى أو البعض من أهلها تشـــيعوا فأيدوا العلويين وناصروهم ضد الأمويين ، من ذلك انهم وقفوا الى جانب زيد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، عندما اعلن الثورة فى الكوفة على هشـــام بن عبد الملك فى سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩م) ٠ وكان أن بعثوا بالرســـل يحملون بيعتهم لزيد بن على ليعـــربوا له عن تأييدهم ومناصرتهم له ، وقد شاركت مدينة الرى فى هذا التأييد مدن فارسية اخرى مما يدل على أن المذهب العلوى أخذ يشـــق طــــريقه الى المدن الفارسية ، لا سيما وان نشاط دعاة بنى العباس أخذا فى التزايد خـــلال هذه الفترة وما بعدها(١٣١) ٠

وبعد موت الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة١٢٦هـ(٧٤٣م) خلفه ابنه يزيد بن الوليد ، وقد تميز عهده بعدم الاستقرار فى النواحى الادارية ، لا سيما فى الولايات والمدن الشرقية زمن الخلافة ،فعمليات العزل والتولية الجزافية خلقت جوا من الخلاف بين الولاة بعضهم وبعض ، وبينهم وبين

الخلافة ، فبعضهم أظهر عدم الاستجابة للعزل ، مما ترتب عليه حدوث الفتن والاضطرابات ، كما حدث بين منصور بن جمهور الكلبى ، الذى أقر اخاه عاملا على مدينة الرى وخراسان ، وبين نصر بن سيار والى خراسان ، هذه الاضطرابات العارمة بدأت تأخذ أبعادا واسعة ليس فقط فى المدن الفارسية ومن بينها مدينة الرى ، بل أيضا امتدت حتى شملت العراق ، ومن ناحية أخرى فان هذه الاوضاع دفعت يزيد بن الوليد الى عزل منصور بن جمهور ، بعد أن رأى أنه وراء هذه الفوضى السياسية ، فهو الذى أقر اخاه عاملا على مدينة الرى ، واضاف اليه خراسان بعد أن أبعد عنها نصر بن سيار(١٣٢) ٠

ولم تكن الأوضاع فى عهد مروان بن محمد الجعـــدى الذى خلف يزيد بن الوليد سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤م) ، بأفضل مما كانتعليه فى السابق، اذ ثار عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة يريد الخلافة ، ولما قضى على ثورته هرب الى بلاد فارس ، فلاقت دعوته تأييدا فى بعض المدن ، وجمع الاتباع، حتى أصبح قوة مرهوبة الجانب، فاحتل مدينة الرى وهمذان وماهين وقوس واصبهان(١٣٣) ٠

وكان مروان يتابع عن كثب حركات الثائر عبد الله بن معاوية فى بلاد فارس(١٣٤) ، وبعد أن هدأت الاوضاع ببلاد الشام تقريبا تفرغ لمجابهته استطاع الحد من نشاطه ، فاستعاد مدينة الرى ، وولى عليها نباته بن حنظله(١٣٥) ،ثم عزله وقلدها حبيب بن بديل النهشلى(١٣٦)٠

وفى سنوات ١٢٧ هـ وما بعـدها حققت الدعوة العباســية نجاحا واضحا فى خراسان وفى باقى مدن فارس ، على حساب النفوذ الأموى المتداعى والآخذ فى الانحسار والضعف ، ولا يعنيينا هنا الحديث عن الدعوة العباسية أو النفوذ الأموى فى خراسان أو فى غيرها من المدن ، بقدر ما تركز على موقف مدينة الرى من الدعوة العباسية ، وعندما أحتل دعاة بنى العباس خراسان هرب عاملها نصر بن سيار الى مدينة الرى ونزل فى قرية خوار من ضواحى الرى متخفيا(١٣٧) ، ثم دخل مدينة الرى والتقى بعاملها الأموى حبيب بن بديل النهشلى(١٣٨) ٠

وقد بعث القائد العباسى قحطبة بن شبيب فى سنة ١٣١ هـ(٧٤٨م) ابنه الحسن بن قحطبة لفتح مدينة الرى ، فهرب حبيب بن بديل ومن معه من أهل الشام من المدينة فدخلها الحسن دون أدنى مقاومة ، لأن الامدادات التى طلبها نصر بن سيار من والى العراق تأخر وصولها ، وظل الحسن بمدينة الرى الى أن قدم عليه أبوه قحطبه ، ثم كتب قحطبه الى أبى مسلم الخراسانى القائد الأعلى يخبره بفتح مدينة الرى(١٣٩)٠

٣ ـ الرى فى العصر العباسى :

تمكن العباسيون من بسط نفوذهم على بلاد فارس ، وسقطت مدينة الرى فى أيديهم ، ولكن خلال الوجود الأموى بمدينة الرى ، نشأت بين جماعات من أهلها وبين الأمويين وعمالهم علاقات من الود والولاء ، ولما خضعت مدينة الرى للنفوذ العباسى ، أصبح موقف هذه الجماعات حرجا ، فهربوا من المدينة ، ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله : « لميلهم الى بنى أمية لأنهم كانوا سفيانية(١٤٠) ، وقد رفع قحطبه بن شبيب هذا الأمر الى أبى مسلم الخراسانى ، فأمره بمصادرة أموالهم وأملاكهم ، وقد اتجهت هذه الجماعات الهاربة الى مكة لأداء فريضة الحج ، وفى العودة ذهبوا الى الكوفة فى سـنة ١٣٢ هـ(٧٤٩م) حيث أبو العباس السفاح ، فرفعوا ظلامتهم اليه ، وشكوه أبا مسلم وما صنع بهم ، فبعث أبو العباس الى أبى مسلم يأمره برد ما أخذه منهم من الأموال ، ولكن أبا مسلم امتنع وتعلل أنهم أعـداء لا يستحقون الرحمة ، حتى أجبره أبو العباس على رد جميع الأموال ، فأعيدت اليهم أموالهم كاملة ٠ هذه السياسة الحكيمة من جانب أبى العباس السفاح تجاه أهل مدينة الرى تركت أثرا طيبا فى نفوسهم تجاه أبى العباس بصـورة خاصة والدولة العباسية بصورة عامة(١٤١) ٠

ومع ذلك كانت مدينة الرى ملاذا يحتمى به الفارون من السلطة ، مما يدل على مناعتها وحصانة موقعها ، فمن ذلك أنه فى سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣م) اراد أبو مسلم الخراسانى الاحتماء بمدينة الرى بنـاء على نصيحة أحد مستشاريه ، عندما ساءت العلاقة بينه وبين المنصور ، ومما جاء فى أقوال هذا المستشار لأبى مسلم : « ان تاتى الرى فتقيم بها ،

فتصير ما بين خراسان والرى »(١٤٢) ، وقد تردد أبو مسلم الخراسانى فى قبول هذه النصيحة،ومع أنه يمتلك قوة عسكرية تقدر بحوالى (٨) آلاف مقاتل ، موزعة ما بين مدينة الرى ونيسابور(١٤٣) ، الا أن خوفه من أبى جعفر المنصور جعله يعرض عن رأى المستشار ، ويقرر الذهاب الى أبى جعفر المنصور ، ولكنه فى اللحظات الأخيرة ندم على رأيه يوم لا ينفع الندم ، فقد أصبح على مشارف معسكر المنصور ، فسأل مستشاره فى أمر العودة الى الرى ، فرد عليه المستشار : « تركت الرأى بالرى » ، فصارت مثلا ، وكانت نهاية أبى مسلم معروفة ،فقد قتله المنصور(١٤٤) وكانت لأبى مسلم الخراسانى ، أموا ل وخزائن كثيرة تركها بمدينة الرى قبل ذهابه الى أبى جعفر المنصور(١٤٥) .

وقد ثار سنباذ - ويقال له : فيروز اصبهيذ - بمدينة خراسان فى سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤م) لمقتل أبى مسلم الخراسانى ، وتعاطف مع هذه الثورة كثير من الناس ، وممن أيدها وناصرها جماعات من أهل مدينة الرى ، فأعلنوا الثورة والعصيان ، ويقول خليفة بن خياط فى هـذا الصدد : « استغوى سنباذ أهل الرى فانتقضوا » فعمد سنباذ الى خزائن أبى مسلم الموجودة بمدينة الرى وأستولى عليها(١٤٦) .

وقد أستنكرت جماعات من أهل مدينة الرى هذه الثورة ، بل قامت ضدها وحاربتها ، وتزعم هذه الحركة المضادة شخص يقال له : عمر بن العلاء ، من أهل مدينة الرى ، وكان يعمل جزارا ، فقد فتمكن من الحد من هذه الحركة بمدينة الرى على الأقل(١٤٧) ، ريثما يأتيه المدد من الخلافة العباسية ، وكان أن بعث أبو جعفر المنصـور على الفور جيشا بقيادة جمهور بن مرار العجلى ، يضم نحم (١٠) آلاف مقاتل ، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة سنباذ ، وبلغ عدد القتلى فى جيش سنباذ كما يقول الطبرى نحو (٦٠) ألف . وقد يكون هذا الرقم مبالغا فيه ، الا أنه يدل فى نفس الوقت على فداحة هذه الثورة وخطرها على الأمن والاستقرار فى مدينة الرى وباقى مدن فارس(١٤٨).

وقد أراد أبو جعفر المنصور مكافأة عمر بن العلاء الجزار ، فاوفده جمهور بن مرار العجلى على المنصور ، فانعم عليه وجعله قائدا على أحد

الفرق العسكرية ، ثم قلده ولاية طبرستان ، حتى قتل زمن محمد المهدى ابن منصور فى احدى المعارك(١٤٩) .

اما القائد العباسى جمهور بن مرار العجلى،فلم يكن امينا، اذ عمد الى أموال وخزائن أبى مسلم الخراسانى الموجودة بالرى وأستولى عليها، ورفض ارسالها الى أبى جعفر المنصور ، لذلك اضطر المنصور الى قتله ، فبعث اليه جيشا بقيادة محمد بن الاشعث ، ولما علم جمهور بن مرار بقدوم الجيش الى مدينة الرى هرب الى مدينة اصبهان ، فدخل محمد ابن الاشعث مدينة الرى ، ثم تبع جمهور بن مرار الى اصـــبهان ودار بينهما قتال انتهى بمقتل جمهور بن مرار(١٥٠) .

كذلك لجأ الى مدينة الرى يحى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب ، لما قضى المنصور على ثورة أخيه محمد المعروف بذى النفس الزكيه فى المدينة المنورة ، وعنـــدما أصبح وضع أسرة آل الحسن حرجا ، هرب يحى الى مدينة الرى ، ولعل اختياره لمدينة الرى كان لاعتبارات دينية وسياسية ، كما عبر عن ذلك المسعودى فى «مروج الذهب »(١٥١) .

وحتى الخليفة المنصور نفسه فكر فى الهرب الى مدينة الرى فى سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢م) لما أوشكت ثورة ابراهيم بن عبد الله أخو محمد ذو النفس الزكية ان يكتب لها النجاح ، لكى أبا جعفر المنصور تمكن فى اللحظات الأخيرة من اخمادها(١٥٢) .

وفى ضوء هذه الاحداث التاريخية تلاحظ أن مـــدينة الرى غدت ملاذا آمنا لجميع الخصوم المتصارعين ، وقد رأينا أن أبا مسلم الخراسانى أراد التحصن بمدينة الرى ، وكذلك يحى بن عبد الله الهارب من أبى جعفر المنصور ـ لجأ الى مدينة الرى ، ومن الغـــريب ان أبا جعفـــر المنصور هو أيضا أراد الذهاب الى مدينة الرى ، ولعل هذا يدفعنا الى الاعتقاد بأن مدينة الرى حوت العديد من الطوائف المتباينة ، فبعضها يميل الى قوميته الفارسية فيتعاطف مع أبى مسلم الخراسانى ، وبعضها مع العلويين ، والبعض الآخر مع العباسيين .

ولما ترسخت أقدام المنصــور فى السلطة ، اتجه الى العمران ، فكانت لديه اهتمامات بالنهضة العمرانية ، ومن المعــروف أنه بنى فى العراق العديد من المدن ، مثل بغداد ، والرصافة التى بناها لابنه المهدى، وكانت تسمى « العسكر » لأن المهدى عسكر بها قبـل ذهابه الى مدينة الرى ، كذلك بنى المنصور مدينة الرقة ، ولم يقتصر هذا الاهتمام على العراق فقط ، بل شمل أيضا الاقاليم البعيدة عن مركز الخلافة ، فلما ذهب المهدى الى خراسان فى سنة ١٤١ هـ (٧٥٨م) ، طلب منه المنصور النزول بمدينة الرى(١٥٣) ، وقبل دخوله المدينة نزل فى قرية يقال لها « السيروان »(١٥٤) ؛ وهى من ضواحى مدينة الرى ، وخلال وجود المهدى بالرى ، كلف عمار بن أبى الخصيبى ، أحد المهندسين ، ببناء مدينة جديدة بالرى ، وتم بناء هذه المدينة ، وقد أحيطت بسور ، وبنى بها مسجدا جامعا كتب على حائطه اسم المهـــدى وجعلوا بين المدينة الجديدة والقديمة حاجزا من الطابوق والأجر ، وكتبـوا تاريخ الانتهاء من بناء المدينة : فى سنة ١٥٨ هـ (٧٧٤م) ، واطلقوا على هذه المدينة اسم « المحمدية » ، فكان أهل الرى يسمون المدينة القديمة الداخلة ، أو العتيقة والجديدة الخارجة(١٥٥) .

ويبدو ان ظاهرة العزل والتوليه على مدينة الرى اختفت تقريبا زمن المنصور ، وربما يعود السبب فى ذلك الى هدوء المنطقة نسبيا فى تلك النواحى ، واكتفت المصادر بذكر العمال على خراسان وسجستان ولم تشر الى مدينة الرى ، ولعل السبب فى ذلك يعزى الى ما تتمتع به خراسان خلال هذه الفترة ، ونعنى بها صدر الدولة العباسية ، من مكانة مرموقة فى الادارة السياسية بلاد فارس ، ويحتمل أنه أسند الى ولاتها مهمة تعيين العمال على المدن ، كمدينة الرى وغيرها ، حيث يتم هذا فى الغالب فى حالات الهدوء والاستقرار ، أما فى حالات الاضطرابات والفتن ، فقد حرصت الخلافة على اقـــرار الأمن والنظام بها ، مثال ذلك ، أنه لما عمت الفوضى ببـــلاد فارس ابان عهد محمـــد المهدى بن المنصور ، تولى بنفسه تعيين العمال ، فأسند ولاية الرى الى شخص يقال له : عيسى مولى جعفر فى سنة ١٦٥ هـ (٧٨١م) بعـــد أن عزل

عنها خلف بن عبد الله ، ثم عزل عنها عيسى سنة ١٦٦ هـ (٨٧٢م) ، وولاها مولاه سعد فى سنة ١٦٧ هـ (٧٨٣م)(١٥٦) .

ففى الفترة الأخيرة نلاحظ أن عمليات التولية والعزل كانت تتم بسرعة ، نتيجة لعدم الاستقرار بمدينة الرى ، وفى عهد موسى الهادى ابن محمد المهدى ١٦٩ هـ (٧٨٥م) ، لم ترد أى اشارة عن مدينة الرى ودورها السياسى أو عن من تولاها من العمال ، ويعزى ذلك الى قصر عهد موسى الهادى ، اذ مات بعد سنة من توليه ، فى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦م) ، وتولى بعده هارون الرشيد بن محمد المهدى ، فقد بويع فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ(١٥٧) ، وذكروا أن هارون الرشيد ولد بمدينة الرى فى سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥م)(١٥٨) ، وذكر خليفة بن خياط فى تاريخية ان موسى الهادى ولد أيضا بمدينة الرى فى ١٤٦هـ(٧٦٣م)، فى موضع يقال له « السيروان » من ضواحى مدينة الرى(١٥٩) . مما يدل على أن خلفاء بنى العباس وأمراءهم كانوا كثيرى التردد على مدينة الرى(١٦٠) .

وأعتاد البعض من عمال مدينة الرى أن يبعثوا بالهدايا الثمينة الى ولاة البصرة ، فبعد وفاة محمد بن سليمان بن على العباس والى البصرة فى سنة ١٧٤ هـ (٩٧٠م) ، أمر هارون الرشيد بمصادرة أملاكه ، فوجدوا من بينها بعض الهدايا والتحف المرسلة من مدينة الرى ، الى جانب هدايا أخرى من عمان والبحرين ومكران وكرمان(١٦١) .

والسؤال هنا ، لماذا كان عمال مدينة الرى أو بالأحرى أهل مدينة الرى يبعثون بالهداليا الى والى البصرة ، فهل هناك دوافع اقتصادية تهم الطبقات الغنية بمدينة الرى ، التى أرادت كسب ود والى البصرة لتسهيل مرور بضائعها وسلعها التجارية عبر ميناء البصرة الى الخليج العربى ، ولذا حرص عمال مدينة الرى على اقامة مثل هذه العلاقات الطيبة مع والى البصرة ، ذلك أن مدينة البصرة تعتبر من المراكز التجارية البرية والبحرية الهامة فى التجارة الداخلية والخارجية ، وقد عبر عن ذلك ابن البصرة الجاحظ ،بقوله ان البصرة عين العراق(١٦٢)، هذا فضلا عن مكانتها الادارية ، ومن ناحية أخرى فان مدينة الرى التى

تقع على الطريق التجارى البرى الهام ، المعروف بطريق الحـــرير ، ومدينة البصره تتصل بهذا الطريق بواسطة مدينة الاهواز(١٦٣) ، مما يتطلب وجود علاقات وطيدة بين هاتين المدينتين .

وقد تاثرت مدينة الرى بالثورة التى أججها يحيى بن عبد الله بن حسن بن حســن بن على بن أبى طالب على الرشـــيد فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢م) فى نواحى الديلم ، ذلك أن هذه الثورة اقلقت راحة الرشيد ، فاختار القيادة الكفاة للقضاء عليها ، فبعث الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى ، وأسند اليه ولاية مدينة الرى ، وضم اليـــه جرجان وقومس وطبرستان ، ولكن تم اخضاع هذه الثورة بالطرق السلمية(١٦٤) ، ثم عزل الرشيد الفضل بن يحيى عن مدينة الرى فى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦م) وولاها محمد بن يحيى بن الحارث بن شخير(١٦٥) .

وفى اطار التقسيمات الادارية التى أحدثها الرشيد فى حياته بين ابنيه عبد الله المامون ومحمد الأمين فى سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢م) ، كانت مدينة الرى من نصيب عبد الله المامون ، بقوله : « من لدن الرى الى اقصى خراسان »(١٦٦) .

وكان أن توقف هارون الرشيد بمدينة الرى فى سنة ١٨٩هـ(٨٠٤م) وهو فى طريقه الى خراسان للتحقيق مع على بن عيسى بن ماهان والى خراسان ، فى قضايا تتعلق بالأمانة والعدل ، وقد أقام الرشيد بمدينة الرى مدة أربعة أشهر(١٦٧) . وفى خلال وجوده اتبع مع أهلها سياسة اللين والملاطفة ، ولا سيما مع العناصر المناوئة للعباسيين ، فكسب ودهم وولاءهم ، أما على الصعيد الخارجى ، فقد اكتسبت مدينة الرى اهمية كبرى أثناء وجود الرشيد بها ، ففى النواحى الادارية والسياسية ، كان يمارس جميع سلطاته وأوامره ، فمنها كانت تصدر أوامر الخليفة الى جميع الأمصار الاسلامية، من ذلك أنه بعث بثلاث رسائل الى : طبرستان والديلم ، فيها امان لثـلاث شخصـــيات ، الأولى كانت « لشروين أبى قارن » ، والثانية « لونداد هرمز » ، والثالثة لمرزبان بن جستان » أمير الديلم ، وقد جاء هؤلاء الأمراء الثلاثة الى مدينة الرى ، وقابلوا الرشيد ، واعتذروا ، وقدموا السمع والطاعة ودفعوا ما عليهم من خراج

عن بلادهم ، وقد وهب الرشيد جملة من الهدايا « لمرزبان بن جستان » أمير الديلم(١٦٨) .

كذلك جاء الى مدينة الرى اربعمائة رجل من فرسان وأبطال مدينة طبرستان ليعلنوا اسلامهم على يد الرشيد ، واغتنم خزيمة بن خازم والى أرمينية فرصة وجود هارون الرشيد بمدينة الرى ، فجاء ليسلم عليه ويقدم الهدايا ، وهكذا أصبحت مدينة الرى خلال هذه الفترة ذات مكانة هامة فى الادارة السياسية ، وقام الرشيد بعدة اصلاحات ، كما انعم على أهلها بالعطاء . وقد عبر عن ذلك الشاعر أبو العتاهية الذى كان برفقة الرشيد بقوله :

ان أمين الله فتى خلقه ... حسن به البر الى مولده
ليصلح الرى واقطارها ... ويمطر الخير بها من يده

وقبل أن يترك الرشيد مدينة الرى ، أقر عليها عبد الله بن مالك، وضم اليه طبرستان وقومس وهمذان وغيرها ، ويبدو ان عبد الله بن مالك لم يتخذ مدينة الرى مقرا لاقامته ، فقد جعل ابنه عباس عاملا عليها(١٦٩) .

وقد تأثرت مدينة الرى ابان الفتنة التى وقعت بين الأخوين ، محمد الأمين وعبد الله المأمون فى سنوات ١٩٥ هـ (٨١٠م) وما بعدها ، فكان لها الدور البارز بل ربما كانت طرفا فى هذا النزاع ، وكان أول عمل استفزازى قام به محمد الأمين ضد عبد الله المامون ، أنه طلب من عامل مدينة الرى عباس بن عبد الله بن مالك أن يبعث اليه من غرائب منتوجات مدينة الرى ، من الفواكه وغير ذلك ، فأصبح موقف عامل مدينة الرى حرجا ، فبعث اليه ما اراد دون علم المأمون ، وكانت مدينة الرى وفق التقسيمات التى احدثها الرشيد بين ابنيه ، من نصيب المأمون وتحت ادارته ، فأمر بعزله ، وأقر مكانه على الرى الحسن بن على المأمونى ، وكانت ولاية عباس بن عبد الله على مدينة الرى من سنة ١٨٩ هـ ، وحتى سنة ١٩٥ هـ ، أى ما يقارب من ست سنوات(١٧٢) .

ولما وقع النزاع بين الأمين والمأمون ، حاول قائد الأمين على بن عيسى بن ماهان الوصول الى مدينة الرى قبل ان يصل اليها قائد المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعى(١٧٣) . وكان غرضه من ذلك التحصن بها أو أن يجعلها خلف ظهره ، فكان يقول لأصحابه : أن نهاية القوم الرى فلو قد صيرناها خلف ظهورنا ، فت(١٧٤) ذلك فى أعضادهم وانتشر نظامهم وتفرقت جماعتهم »(١٧٥) .

هذه العبارة توحى بأهمية الرى كموقع عسكرى دفاعى هام ، فهى المدخل الرئيسى لخراسان ، حيث أنها تقع فى آخر حدودها الغربية ، ولم تقتصر هذه الاهمية على خراسان فقط ، وانما ايضا على المدن المجاورة لها ، فموقعها يتوسط هذه المدن ، لذلك حرص كل من الطرفين المتحاربين الوصول اليها قبل الآخر ، ومما يدل على هذه الأهمية ، أن الأمين أخذ يساوم المأمون بين التنازل عن مدينة الرى وبعض كور خراسان(١٧٦) أو القتال ، فرفض المأمون التنازل عن مدينة الرى واختار القتال(١٧٧) .

وقد وصل جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين مدينة الرى قبل جيش الأمين فتحصنوا بها وسكروا أبوابها ووضعوا الحاميات والعساكر عند مداخلها ، بينما عسكر جيش الامين على بعد عشرة فراسخ من مدينة الرى ، وقد استشار القائد طاهر بن الحسين أصحابه فى موضع القتال أين يكون ، فأشاروا عليه بأن يتحصن بمدينة الرى ولا يخرج منها لأسباب أمنية صحية ، وكان غرضهم من ذلك ، وصول الامدادات العسكرية والغذائية من خراسان وغيرها دون عوائق ، ومما جاء فى أقوالهم للقائد طاهر : « ان مقامك بمدينة الرى ارفق بأصحابك واقدر لهم على الميرة وأكن من البرد وأخرى ان دهمك قتال أن يعتصموا بالبيوت ويقووا على المماطلة والمطاولة الىأن يأتيك مدد أو ترد عليكقوة من خلفك»(١٧٨) .

ولكن القائد طاهر لم يأخذ بهذا الرأى ، وفضل أن يكون القتال خارج المدينة ، لأسباب منها : عدم ارتياحه واطمئنانه من أهل مدينة الرى ، فلا يأمن غدرهم اذا ما وقع القتال ، كما أن أخلاقيات القائد على ابن عيسى بن ماهان وأفعاله السيئة مع أهل خراسان عندما كان واليا

عليها زمن الرشيد ، ولدت فى نفوس أهل مدينة الرى الرعب والخوف منه . وليس من المستبعد أن يدفعهم هذا الخوف اذا ما رأوا كثافة جنده أن يميلوا اليه ويناصروه اتقاء لشره ، وقد عبر القائد عن ذلك بقوله : « أن أهل الرى لعلى هائبون ومن معرته وسطوته متقون ... ولست آمن ان هجم علينا مدينة الرى أن يدعو أهلها الى الوثوب بنا ويعينوه على قتالنا ... »(١٧٩) .

وكان أن خرج القائد الطاهر بجيشه من مدينة الرى لاعتقاده بصواب رأيه ، وعسكر عند قرية يقال لها « كلواص » تبعد عن مدينة الرى بحوالى خمسة فراسخ ، فجعل مدينة الرى خلفه حتى يتمكن من العودة اليها ويتحصن بها اذا ما أحس بالخطر ، ولكن أهلها انتظروا خروج طاهر وجيشه ، فعمدوا الى أبواب المدينة وسكروها ، فكأنهم بذلك قطعوا خط الرجعة على جيش المأمون ، مما يدل على عدم ولاء بعض العناصر بمدينة الرى للمأمون ، وكذلك للأمين ، فكانوا يقولون : لا يهمنا أيهما غلب صاحبه ، وارادوا بذلك أيضا أن يجنبوا أنفسهم ويلات هذه الحروب . وكانت نتيجة هذه المعركة انتصار جيش المأمون على جيش الأمين ، وعاد طاهر بن الحسين الى مدينة الرى(١٨٠) .

وتذكر المصادر أن مدينة الرى تعرضت الى أزمة اقتصادية حادة ، ففى سنة ٢٠٢ هـ (٨١٧م) ، أصابها نقص كبير فى المواد الغذائية بسبب قلة الأمطار ، مما أدى الى حدوث مجاعة تضرر من جرائها كثير من الناس ، ونتج عن ذلك حدوث أمراض وأوبئة ومات كثير من الناس ، ولم يقتصر ذلك على مدينة الرى ، بل شمل مدنا أخرى(١٨١) .

ولما أراد المأمون العودة الى بغداد فى سنة ٢٠٣ هـ (٨١٨م) ، ـ وكان مقيما بخراسان ـ توقف بمدينة الرى لبضعة أيام . وخلال اقامته عرضت عليه هموم ومشاكل مدينة الرى خاصة فيما يتعلق بالنواحى الاقتصادية ، فأسقط عنهم شيئا مما كانوا يدفعونه من الخراج ، والذى كان مقداره ألفى ألف درهم ،أى مايعادل مليونين من الدراهم(١٨٢) ،وقد حدد المأمون ، فى سنة ٢١١هـ (٨٢٦م) مقدار ما تدفعه مدينة الرى من ضريبة الخراج باتفاقه مع أبى العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين ،

فكان فى كل سنة يبعث خراج مدينة الرى ومقـــداره (١٠) آلاف ألف درهم(١٨٣) .

وقد اعتاد خلفاء الدولة العباسية الاستعانة بأهل مدينة الرى أو بغيرها للقضاء على الثورات التى تحدث فى المدن المجاورة ، ففى سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٨م) ، استعان المعتصم بعامل دنباوند ، منصور بن الحسن، للقضاء على ثورة حدثت بمدينة طبرستان أججها مازيار بن قارن بن ونداد هرمز ، ولكنه أمره بالتوجه أولا الى مدينة الرى ، ربما لغرض التزود بالعساكر والمؤن ، وهكذا فقد كانت مساهمات مدينة الرى نشطه على الصعيد السياسى سواء مع الخلافة أو ضـــدها ، منـــذ ان فتحها المسلمون زمن الخلفاء الراشدين(١٨٤) .

ثالثا : الدور الدينى والفكرى والاقتصادى للرى :

١ ـ الدور الدينى :

تحظى مدينة الرى منذ القـــدم بمكانة دينية مرموقة بين المـــدن الفارسية ، فهى المكان المقدس الثانى عشر ، الذى خلفه « أهورمزدا » ، أحد الزعماء الروحيين والسياسيين فى بلاد فارس فى العصر الوثنى ، وقد عرفت فى كتاب اليسنا Yasna باسم : **Caruratus Ragha Zara** أى « راغا الزرادشتيه ذات الطبقات الأربع » . وكانت مدينة الرى فى العصور القديمة المقر الرئيسى لرجال الدين الوثنيين ، فكانوا يشكلون الركيزة الأساسية فى المجتمع الى جانب طبقة المحاربين والمزارعين ، وكانت تسمى « المدينة ذات الاحياء الثلاثة » **drei caue besitzend** أى ذات الطبقات الاجتماعية الثلاث ، وكانت مدينة الرى فى ســـنوات ٤٨٦ ، ٤٩٩ ، ٥٥٣ للبـــلاد ، المقـــر الرئيسى لأساقفة الكنيســـة الشرقية(١٨٥) .

هذه الروحية الدينية العريقة المتجســـدة فى أهل مدينة الرى ، بوصفها واحدة من كبريات مراكز الديانة فى بلاد فارس ، أهلتها لأن تتزعم حركة المقاومة ضد الدين الاسلامى الجديد الذى ظهر بأرضها ، فلم يقبلوا الاسلام الا بعد تردد شديد ، وظلوا يدفعون الجـــزية للدولة

الاسلامية . وقد تخلل ذلك ثورات كانوا يقومون بها ضد عمال الخلفاء منذ الفتح الاسلامى لهذه المدينة ، زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، وأستمر هذا الوضع حتى عهد الخليفة الرابع على بن أبى طالب ، ولكن حالة التمرد والثورات خفت حدتها تقريبا فى العصرين الأموىوالعباسى، بسبب دخول معظم أهلها فى الاسلام ، وقبوله عن قناعه .

وذكرت الروايات أن أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، ممن كانوا يحفظون الحديث والتفسير وقراءة القرآن زاروا مدينة الرى ونزلوا فى ضواحى الرى وقراها ، وهؤلاء الصحابة هم : عبد الله بن عباس(١٨٦) ، وعبد الله بن عمر(١٨٧) ، وعبد الله بن عمرو بن العاص(١٨٨) ، وسعيد بن العاص(١٨٩) ، فكانوا على اتصال دائم فيما بينهم . وكان لهم السبق فى وضع البذرة الأولى لتعليم الاسلام ، وتحفيظ الناس القرآن والحديث والتفسير(١٩٠) .

وكذلك زار مدينة الرى جماعة من التابعين ، ومن أشهرهم العالم الجليل سعيد ابن جبير(١٩١) المفسر والمحدث ، فأخذوا عنه هذه العلوم ، فدرس على يديه بمدينة الرى الكثير من طلاب العلم(١٩٢) فكان هؤلاء العلماء نواة لمدرسة تخرج فيها العديد من العلماء وطلاب العلم فى علم الحديث والتفسير والقرآن ، وأقبل العلماء من أهل مدينة الرى على هذه العلوم واتقنوها ، وتبلورت هذه الحركة العلمية وأخذت ترسخ أقدامها فى العصر العباسى ، عصر الاستقرار ، عندما انصرفت السلطة عن اعمال الفروسية والفتح واتجهت الى البناء الحضارى بشتى ميادينه وألوانه وصوره ، فكان لهذه السياسة تأثيرها على الامصار الاسلامية . فمدينة الرى على سبيل المثال تفاعلت مع هذا المناخ الفكرى، نتيجة لما لديها من استعدادات فكرية تتوائم مع هذه النهضة ، فرصيدها الحضارى مكنها من تقبل ومسايرة هذه الأفكار والروحيات الدينية السامية التى نادى بها الاسلام ، فتحولت الى واحد من أكبر مراكز الثقافة والعلم فى المشرق الاسلامى آنذاك ، وانجبت العديد من العلماء والمفكرين ، ولم يقتصر ذلك على العلوم الدينية فقط ، بل شمل أيضا العلوم العقلية ، فقصدها طلاب العلم من البلاد البعيدة ليلتقوا بعلمائها(١٩٣) .

ومن العلماء الذين ينسبون الى مدينة الرى ، سليمان بن مهران مولى بنى أسد ، تابعى أصله من مدينة الرى الا أنه سكن الكوفة وتوفى بها سنة ١٤٨ هـ ، وكان عالما بعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف ، وعلوم الفرائض ، الى جانب المامه بالعلوم العقلية(١٩٤) ، ومن أعيان العلماء الذين ينسبون الى مدينة الرى أيضا محمد بن ادريس بن منذر ابن داود بن مهران ، من كبار رجال الحديث ، فقد درس هـذا العلم بمدينة الرى على يد عبد الصمد بن عبد العزيز ، وابراهيم بن موسى ، وكان قد درس علوم الحديث بالكوفة على يد عبد الله بن موسى(١٩٥) ، ومن علماء الرى فى علم الحديث عالم يقال له طلحة بن الاعلم ، كان يسكن فى « جيان » من قرى مدينة الرى(١٩٦) . ومن الذين رحلوا الى مدينة الرى لدراسة علم الفقه ، أبو منصور ، محمد بن عمر بن عبد الله ابن زاذان ، درس هذه العلوم على يد على بن عمر(١٩٧) .

وقد رافق كل من محمد المهدى ثم هارون الرشيد فى رحلتيهما الى مدينة الرى ، فريق من العلماء ، يضم بعض رجال الدين والأدب وسائر العلوم ، ومن هؤلاء سفيان بن حسين السلمى ، كان مع المهدى ، ويعد واحدا من علماء الحديث الثقاة ، وقد مات بمدينة الرى زمن محمد المهدى(١٩٨) ، والحجاج بن ارطاة بن ثور بن هبيرة ، توفى بمدينة الرى(١٩٩) ، وكذلك عالم الحديث ، جرير بن عبد الحميد بن قرط الرازى الضبى ، أصله من الكوفة ، رحل الى مدينة الرى ، من كبار المحدثين ، ثقة فيما يرويه من أحاديث ، فرحل اليه المحدثون لسعة علمه فى الحديث ، وكانت وفاته بالرى سنة ١٨٨ هـ (٨٠٣م)(٢٠٠) ، وقصد مدينة الرى علماء من الحجاز ، فرحل اليها محمد بن اسحاق بن يسار من كبار المحدثين ، ومن المؤرخين البارزين ، خرج من الكوفة ثم الى بغداد ومنها الى مدينة الرى(٢٠١) ، ورحل الى مدينة الرى محمد بن الحسن الشيبانى ، الفقيه المشهور صاحب كتاب « المخارج فى الحيل » ، من أهل الكوفة ، وبها مات سنة ١٨٩هـ(٨٠٤م)(٢٠٢) ورحل اليها عالم اللغة ، أبو الحسن على بن حمزة الكسائى ، وقد توفى بمدينة الرى ، فقال هارون الرشيد « دفن الفقه والعربية بالرى » (٢٠٣) ، وقد ازدانت مدينة الرى بهذه النخبة من علماء الحديث والفقه والتفسير ، واستقطبت

اليها كبار رجال العلم ، فكان لذلك آثاره الطيبة على ابناء مدينة الرى، فنقلوا عنهم هذه العلوم ، مما أدى الى ازدهار الحياة العلمية(٢٠٤) .

كان لهؤلاء العلماء الفضل الاكبر فى ازدهار الحياة الفكرية بما قاموا به من دور فى مزج الثقافات ، وقد نتج عن ذلك ظهور المذاهب والفرق الدينية ، وقد بلغت هذه الحركة قمة نشاطها الفكرى فى منتصف القرن الثانى الهجرى وحتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، واطلقوا على هـــذه الفترة طـــور الكمال والنضج ، **أو عصر المذاهب الفقهيه** ، ومن المذاهب الفقهيه التى ظهـــرت ابان هـــذه الفترة المذاهب الفقهية الأربعة ، وهى : المذهب الحنفى والمالكى ، والشـــافعى والحنبلى ، بالاضافة الى المذهب الجعفرى ، وقد ظهرت مذاهب فقهيه عديدة أخرى الا أنها اندثرت لتخلى اتباعها عنها، هذه المذاهب الفقهيه أخذت طريقها الى مدينة الرى وقد تبنى أهلها بعض هذه المذاهب ، فقد انتشرت فيها الشافعية والحنفية والجعفرية ، أى المذهب الشيعى ، وكانت الشافعية أقل هذه المذاهب عددا ثم يليها الاحناف ، أما الشيعة فهم يشكلون العدد الأكبر ، وقد تولدت بين أتباع هـــذه المذاهب الحساسيات ، فلم تكن العلاقات بينهم طيبة ، فالعصبية الطائفية قائمة ، وأحيانا كانت تؤدى الى صدامات وحروب ، وكانت الغلبة فى معظم الأحيان للشافعية مع أن عددهم قليل(٢٠٥) .

٢ ـ ألدور الاقتصـــادى :

ان الاقتصاد فى أى بقعة من العالم قائم على ثلاثة ركائز أساسية ، وهى : الزراعة والصناعة والتجارة ، وكانت الزراعة قديما تشكل الركيزة الأساسية فى الاقتصاد ، فعلى الزراعة تقوم الصناعة وبالتالى التجارة حيث يتم تسويق هذه المنتجات ، وقد اشتهرت مدينة الرى بهذه الموارد الاقتصادية الثلاث ، ففى مجـــال الزراعة ، تنوعت المحاصيل الزراعية بمدينة الرى ، خاصة المحاصيل التى تدخل فى مجال الصناعة ، كصناعة النسيج والأوانى ، وتزرع بها الفواكه ، فهى تقع فى المنطقة الخصبة بين الجبال والصحراء(٢٠٦) .

وقد امتدح الجغرافيون مدينة الرى واثنوا على مكانتها الاقتصادية،

فتحدثوا عن انتاجها الزراعى وأشادوا بأهميته ، خاصة زراعة الفواكه ، فكانت تنتج منه كميات كبيرة ، ويمتاز بجودته العالية ، وعبر الجغرافى ابن خرداذبة عن ذلك بقوله : « وأجود الفواكه بالرى »(٢٠٧) ، وكانت كمياته وفيرة مما أدى الى انخفاض أسعاره ، ولا سيما فى فصل الخريف، وقد اعجب القزوينى بأصنافه العديدة ، مثل التين والخوخ والعنب ، وللعنب أنواع مختلفة وله اسماء ، مثل الملاحى الذى يمتاز بحباته الكبيرة التى تصل بقدر حبة البلح ، وعنقوده بقدر عزق التمر ، ومع كبر حجم الحبة الا أن قشرها رقيق وطعمها طيب ، ويبدأ انتاج هذا النوع من العنب فى فصل الخريف ، ويستمر الى فصل الشتاء ، فكان يصدر الى الخارج كسلعة تجارية ، ومن أنواع العنب الزبيب ، فكان يصدر الى الخارج فى صناديق وقد قامت عليه تجارة واسعة(٢٠٨) . وتنتج مدينة الرى البطيخ ، وله شهرة واسعة لجودته(٢٠٩) ، وقد أثنى المقدسى على الزراعة بالرى خاصة الفواكه(٢١٠) هذه الشهرة التى تتمتع بها مدينة الرى فى مجال الزراعة ، دفعت المعتصم أن يطلب بأن يحمل اليه من مدينة الرى الغروس حتى يزرعها بمدينة سامراء(٢١١).

كذلك اشتهرت مدينة الرى بزراعة المحاصيل التى تقوم عليها صناعة المنسوجات كالقطن مثلا ، ويمتاز قطنها بالجودة حيث يصدر الى الخارج ، فكان يصل منه الى بغداد(٢١٧) ، وتوجد فى اقليم مدينة الرى المعادن ، ولا سيما جبل « طبرك » ، مثل الفضة وهذا المعدن يوجد بكميات كبيرة ، وكان يصدر الى الخارج كسلعة تجارية تدر أرباحا كبيرة على مدينة الرى(٢١٣) .

وقد قامت على هذه المنتوجات الزراعية بعض الصناعات خصوصا صناعة النسيج ، فكانت تصنع بها الثياب الفاخرة ذات الجودة العالية ، والبرود المقلمة والأكسية(٢١٤) ومن المنسوجات الشهيرة صنف يقال له، « المثيرات » ، كان يصدر الى الخارج . وتصنع بها الأقمشة الحريرية(٢١٥) . الى جانب صناعة الأوانى وخصوصا الأوانى الخزفية المطلية ، التى اشتهرت بصناعتها مدينة الرى ، وقد عثرت بعثة الآثار الأمريكية من جامعتى فيلادلفيا وبوسطن ، التى بدأت أعمالها بمدينة

الرى فى حدود سنة ١٣٥٣ هـ ، (١٩٣٤م) ، على العـديد من هـذه الأوانى الخزفية الهـامة ، كما عثر الدكتور اريك شميث Dr. Erich Echmidt فى موضع يقال له « تل القلعة » على كثير من الأوانى الخزافية المتنوعة وبقايا أبنية أهمها مسجد محمد المهدى(٢١٦) ، الى جانب صناعة الأوانى التى تستخدم فى الطبخ والأكل ، كما تصنع « المسال » ، وهى نوع من الابر السميكة ، تستخدم فى خياطة المنسوجات السميكة ، كما أشتهرت مدينة الرى بصناعة « القصاع » ، وهى أوانى مصنوعة من الخشب الصلب ، وكذلك أشتهرت بصناعة الأمشاط من الخشب نفسه ، وكان يجلب من غابات مدينة طبرستان ، وقد امتازت هذه الأمشاط بجمالها ودقة صناعتها ، فكانت من السلع التى تصدر كهدايا للخلفاء والملوك(٢١٧) .

هذه المنتوجات الزراعية والصناعية فد ساهمت فى نشاط الحركة التجارية بمدينة الرى ، فقد قامت على هذه المنتجات تجارة واسعة ، ومما ساعد على ذلك الموقع التجارى الهام لمدينة الرى ، فهى تقع على الطريق التجارى العالمى الذى يربط العاصمة بغداد وحاضرة العالم الاسلامى بأواسط آسيا وبلاد الشرق الأقصى ، الصين والهند ، والذى يعرف بطريق الحرير Silk Road ، فقد أكسبها هذا الموقع أهمية خاصة فى التجارة العالمية ، فكانت مدينة الرى ملتقى تجارات العالم آنذاك ، فعندما زارها هارون الرشيد ، أول ما لفت انتباهه نشاط الحركة التجارية بها فأشاد بمكانتها التجارية ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « الدنيا أربعة منازل « دمشق والرقة وسمرقند والرى »(٢١٨) .

كما أشاد البلدانيون بنشاطها التجارى ، حتى أنهم وصفوها بأنها: « باب من أبواب الأرض واليها متجر الخلق »(٢١٩) ، والعبارة الأخيرة « متجر الخلق » ، تعطينا فكرة عن مدى حجم مدينة الرى فى التجارة العالمية ، فكانت مقصد التجار يؤمونها من جميع الانحاء ، ووصفوها أيضا بأنها : « عروس الدنيا وسكة الأرض ... »(٢٢٠) ، وقال عنها الهمدانى ، بأنها : « باب التجار »(٢٢١) .

وقد أعطت هذه الأهمية التجارية مدينة الرى شهرة عالمية واسعة

فقصدها التجار حاملين ضروب الأمتعة والسلع التجارية ، فتحولت مدينة الرى الى سوق تجارية عالمية ، فقد أنشئت بها العديد من الأسواق حتى توائم هذا الكم الهائل من البضائع ، وقد تحدث الاصطخرى عن أسواقها القديمة فذكر : سوق روذه ، وسوق دهك نو ، وسوق بليسان ، وسوق نصرا باذ ، وسوق سربار بانان ، وسوق باب الجبل ، سوق باب هشام ، سوق باب سين ، وكانت أكثر هذه الأسواق شهرة ، سوق روذه ، فيه خانات التجار ، وهى عبارة عن فنادق يستريح بها التجار ، وقد صمم هذا السوق على شكل شارع مستقيم طويل وعريض تصطف على جانبيه الخانات والمحلات(٢٢٢) ، ومعظم أسواق مدينة الرى واسعة فسيحة مملوءة بالبضائع(٢٢٣) ، قد أمتدح هارون الرشيد بعض هذه الأسواق ، فأشاد بسوق السربان ، وكانت الأشجار تحف به من جانبيه ، وفى وسطه نهر جار يخترقه الى نهايته(٢٢٤) .

وقد ازدادت الأهمية الاقتصاديه لمدينة الرى ، وبلغت هذه اهمية قمتها فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، ولم تقتصر هذه الأهمية على النواحى الاقتصادية فقط ، بل شملت النواحى الدينية والثقافية ، الا أن الحديث عن هذه الفترة خارج عن دائرة البحث . وهى نهاية العصر العباسى الأول ، أى فى حدود منتصف القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى .

والخلاصة ان مدينة الرى لعبت دورا هاما فى التاريخ والحضارة العربية الاسلامية منذ الفتح الاسلامى وحتى نهاية العصر العباسى الأول، وهو دور سوف يؤهلها لدور أكبر فيما بعد فى ظل البويهيين والسلاجقة.

الهـــوامش

(١) ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد الجزرى) : الكامل فى التاريخ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م ، جـ ١ ، ص ٥٧ - ٥٨ ٠

(٢) أبو حنيفة الدينورى (أحمد بن داود) : الاخبار الطوال ، ص ٣٨ ، دار المسيرة (بدون تاريخ) ، وانظر ياقوت الحموى (عبد الله الرومى البغدادى) : معجم البلدان : مجلد ٣ ، ص ١١٦ ، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) ٠

(٣) قدامة (أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادى) : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، مكتبة المثنى - بغداد (بدون تاريخ) ص ٣٦٥ ٠

(٤) الاصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارس المعروف بالكرخى) : المسالك والممالك تحقيق د٠ محمد جابر الحسينى ، دار القـــلم ، مصر ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م ، ص ١٢٢ ٠

(٥) شيخ الربوه (شمس الدين أبو عبد الله الدمشقى) : نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ٠ باعتناء م٠ف٠ مهرن ٠ بطرسبورغ ١٢٨١ هـ -١٨٦٦م ، ص ١٨٤ ٠

(٦) القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) : آثار البلاد وأخبار العباد ، صادر - بيروت ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٩م ، ص ٣٧٥ ٠

(٧) دائرة المعارف الاسلامية ٠ يصدرها أحمد الشنتناوى راجعها د٠ محمد مهدى علام ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٦ ٠

(٨) ياقوت الحموى : معجم مجلد ٣ ، ص ١١٧ ٠

(٩) الدراج : بضم الدال وفتح الراء المهملتين ، نوع من الطيور ، أنظر الدميرى (الشيخ كما الدين) حياة الحيوان الكبرى ، المكتبة الاسلامية (بدون تارخ ولا مكان للطبع) مجلد ١ ، ص ٢٣٤ ٠

(١٠) البلاذرى (أحمد بن يحى بن جابر) : فتوح البلدان ٠ باعتناء صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية (بدون تاريخ) ، ق ٢ ، ص ٢٢٤ ٠

(١١) شيخ الربوه : نخبة الدهر ، ص ١٨٢ ٠

(١٢) دائرة المعارف : مجلد ١٠ ، ص ٢٨٧ ٠

(١٣) طبرستان : مدينة كبيرة تقع بالقرب من مدينة الرى ، بين قومس وبحر قزوين ، أنظر ياقوت : مجلد ٤ ، ص ٣٤٢٠ ٠

(١٤) قزوين : مدينة مشهورة تبعد عن مدينة الرى بحوالى ٢٧ فرسخا واليها ينسب بحر قزوين · ياقوت الحموى ، مجلد ٤ ، ص ٣٤٢ ·

(١٥) زنجان : مدينة تقع ضمن أقليم الجبل، قريبة من قزوين وأذربيجان ، ياقوت الحموى : مجلد ٣ ، ص ١٥٢ ·

(١٦) قم : مدينة فارسية بنيت فى الاسلام ، تقع بالقرب من مدينة الرى ، وقد بناها طلحة بن الاحوض الأشعرى · ياقوت : معجم البلدان مجلد ٤ ، ص ٣٩٧ ·

(١٧) اصبهان : مدينة مشهورة ، حتى أنهم أحيانا يطلقون على اقليم الجبل اسم اصبهان ، وهى من أعلام المدن لجمالها · ياقوت : مجلد ١ ، ص ٢٠٦ ·

(١٨) همذان : كانت أكبر مدينة فى اقليم الجبال ، قريبة من مدينة الرى · ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٤١٠ ·

(١٩) نهاوند : من مدن اقليم الجبال ، جميلة قريبة من همـــذان · ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٣١٣ ·

(٢٠) الدينور : مدينة من أعمال الجبل ، قرب مدينة قرميسين وهمذان ، ياقوت: مجلد ٢ ، ص ١٥١ ·

(٢١) حلوان : من المدن العراقية ، تقع على الحدود العراقية الايرانية ، قريبة من بلاد الجبل · ياقوت : مجلد ٢ ، ص ٢٩١ ·

(٢٢) ماسبذان : من المدن الفارسية ، ضمن بلاد الجبل ، المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : التنبيه والاشراف باعتناء عبد الـــله الصاوى ، ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨م · وياقوت : مجلد ٥ ، ص ٤١ ·

(٢٣) مهرجان قذ : كوره جميلة من اقليم الجبل بالقرب من حلوان · ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٢٣٣ ·

(٢٤) شهرزور : بلدة كبيرة من اقليم الجبال ، بين اربل وهمذان ، ياقوت : مجلد ٣ ، ص ٣٧٥ ·

(٢٥) الصامغان : مدينة من اقليم الجبل ، قريبة جدا من طبرستان · ياقوت : مجلد ٣ ، ص ٣٩٠ ·

(٢٦) أذربيجان : بلدة كبيرة ، يحدها من الشمال اقليم الجبال وبلاد الديلم · ياقوت مجلد ١ ، ص ١٢٨ ·

(٢٧) اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر الكاتب) : تاريخ اليعقوبى ·

بيروت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م · جـ ١ ، ص ١٧٦ ، وانظر المقدسى (أبو عبد الله محمد ابن أحمد) : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقليم ، ليدن ١٩٠٩ ، ص ٣٨٥ ·

(٢٨) خراسان : اقليم واسع يضم العديد من المدن ، يمتد نحو الغرب الى مدينة بيهق القريبة من الحدود العراقية ، وآخر حدودها نحو الشرق الى الهند ، وطخرستان وغزنة وسجستان وكرمان · ياقوت : مجلد ٢ ، ص ٣٥٠ ·

(٢٩)- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد) : العقد الفريد · باعتناء أحمد أمين وآخرين · دار الكتاب العربى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م ، جـ ٦ ، ص ٢٥٣ ·

(٣٠) الحميرى (محمد عبد المنعم) : الروض المعطار فى خير الاقطار تحقيق د· احسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م ، ص ٢٧٨ ·

(٣١) لسترينج (كى) : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوكيس عواد ، مطبعة الرابطة - بغداد ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م · ص ٢٤٩ ·

(٣٢) الفرسخ : مقياس قديم من مقاييس الطول ، يعادل ثلاثة أميال · أنظر انيس (د· ابراهيم وآخرين) : المعجم الوسيط ، مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧٣م ص ٦٨١ ·

(٣٣) ياقوت : معجم ، مجلد ٣ ، ص ١١٦ ·

(٣٤) الديلم : هذه اللفظة لها معانى كثيرة ، فهى تعنى الموت ، والاعداء ، والنمل الأسود ، ومن سياق الحديث ، فان الديلم ، اسم لبلد ، تقع فى الاقليم الرابع، انظر ياقوت جـ ٢ ، ص ٥٤٤ ·

(٣٥) قومس : بلدة كبيرة تضم مجموعة من المدن · ياقوت : مجلد ٤ ،ص٤١٤·

(٣٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٢٢ ·

(٣٧) ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبى) : صورة الأرض ، مكتبة الحياة (بدون تاريخ) ص ٣٠٤ ·

(٣٨) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٠٤ ·

٣٩) الاصطخرى : المسالك ، ص ١٢٢ ، وابن حوقل : صورة الأرض ، ص٣٠٤·

(٤٠) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٠٤ ، وأنظر لسترينج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٢١ ·

(٤١) الأصطخرى : المسالك ، ص ١٢٢ ·

(٤٢) الأصطخرى : المسالك ، ص ١٢٣ ·

(٤٣) لسترينج : بلدان الخلافة ، ص ٢٤٩ ·

(٤٤) الأصطخرى : المسالك ، ص ١٢٣ ٠

(٤٥) أبو حنيفة : الاخبار ، ص ٣٨ هامش رقم (١) ، وقد ورد أن الحـــدود الجغرافية للعراق ، من عند مدينة هيت الى مدينة الســـرى واقليم الديلم والجبال وخراسان الى الصين شرقا ، وفى الجنوب الى اقليم السند ، انظر البكرى (أبو عبيده الله بن عبد العزيز) : معجم ما استعجم ٠ من اسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ٠ القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧م ، جـ ٣ ، ص ٩٢٩ ٠

(٤٦) ياقوت الحموى : مجلد ٤ ، ص٩٤ ـ ٩٥ ، والبكرى: معجم جـ٣ ، ص٩٢٩٠

(٤٧) هيت : مدينة تقع على نهر الفرات ، من نواحى بغداد ، شمال مدينـــة الانبار ٠ ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٤٢١ ٠

(٤٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٦ ، ص ٤٨ ، وانظر ياقوت : مجلد ٤ ص ٩٥ ٠

(٤٩) ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) : المسالك والممالك ، باعتناء دى غويه ، ليدن ١٣٠٧ هـ ـ ١٨٨٩م ، ص ٢٢ ـ ٤١ ـ ٧٥ وأبو الفرج (قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى) : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة مكتبة المثنى ـ بغداد (بدون تاريخ) ص٢٠٠ ، وانظر المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص٣٨٤٠

(٥٠) أبو الفرج : نبذ من كتاب الخراج ، ص ٢٣٦ ٠

(٥١) الموسوعة العربية الميسرة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، باشراف محمد شفيق غربال ٠ (بدون تاريخ) ص ٩٠٤ ، وانظر لسترينج : بلدان الخلافة ، ص ٢٥٢ ٠

(٥٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٢٩٥ ، وانظر النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ٠ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م ٠ جـ ١٩ ، ص ١٧٩ ٠

(٥٣) الواقدى (أبو عبد الله محمد بن عمر) : فتوح الاسلام لبلاد العجم ٠ باعتناء عزيز افندى زند ، مصر ١٣٠٩ هـ (١٨٩١م) ص ٦٠ ، وأنظر البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٤ ـ ٣٢٥ ٠

(٥٤) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١٩ ، ص ٢٢٤ ٠

(٥٥) الواقدى :فتوح ، ص ٢٣ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٧٠٠

(٥٦) الواقدى : فتوح ، ص ٢٣ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٧١، والنويرى : نهاية الأرب ح ١٩ ، ص ٢٥١ ٠

(٥٧) الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك . دار القلم . بيروت (بدون تاريخ) ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٥٨) ابن اعثم (أبو محمد أحمد الكوفى) : كتاب الفتوح . دار النـــدوة الجديدة ـ بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ) ج ٢ ، ص ٣٧ ـ ٣٩ ، والطبرى : ج ٤ ، ص ٢٣٧ ، وابن خياط (أبو عمر وخليفة بن خياط العصفرى) : تاريخ خليفة بن خياط . تحقيق د. اكرم ضياء العمرى . مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧م) ص ١٤٧ ، وأبو حنيفة : الأخبار ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

(٥٩) الواقدى : فتوح ، ص ٢٣ ، والبلاذرى : فتوح ، ق ٢ ، ص ٣٢١ ، والنويرى : نهاية الأرب ، ج ١٩ ، ص ٢٥٣ .

(٦٠) الطبرى : ج ٤ ، ص ٣٥١ .

(٦١) النويرى : ج ١٩ ، ص ٢٦١ .

(٦٢) الطبرى : ج ٤ ، ص ٣٥٢ ، وانظر النويرى : ج ١٩ ، ص ٢٦١ .

(٦٣) واج روذ : موضع بين همذان وقزوين ، جرت فيه معركة بين المسلمين والفرس ، انتصر فيها المسلمون ، وقد ورد فى معجم البلدان لياقوت أن تاريخ المعركة فى سنة ٢٩ هـ (٦٤٩م) ، فأغلب المصادر التاريخية تؤكد أنها جرت فى سنة ٢٢ هـ (٦٤٢م) زمن الخليفة عمر بن الخطاب . انظر ياقوت : معجم ، مجلد ٥ ، ص ٣٤١ .

(٦٤) الطبرى : ج ٤ ، ص ٢٥٢ ، وأنظر النويرى : ص ١٥ ، ص ٢٦١ .

(٦٥) الطبرى : ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

(٦٦) الطبرى ج ٤ ، ص ٢٥٢ .

(٦٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٦ .

(٦٨) قها : بالكسر والقصر ، من القرى الكبرى ، تقع بين مدينة الرى وقزوين، انظر ياقوت : معجم ، مجلد ٤ ، ص ٤١٧ .

(٦٩) الطبرى : ج ٤ ، ص ٢٥٣ ، وابن الأثير : ج ٣ ، ص ١١ ـ ١٢ ، وابن كثير (أبو الفداء الحافظ) : البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ـ بيروت ١٩٦٦ ، الطبعة الأولى ج ٧ ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ ، وابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، المعروف ، بتاريخ ابن خلدون، مكتبة المدينة ـ بيروت ١٩٦٧م / مجلد ٤ ، ص ٤١٧ .

(٧٠) الطبرى : ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

(٧١) الطبرى : ج ٤ ، ص ٢٥٣ ، والنويرى : نهاية الأرب ، ج ١٩ ، ص٢٦١ .

(٧٢) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٣ ، وابن الأثير : جـ ٣ ، ص ٣٢ ، وابن كثير : البداية ، جـ ٧ ، ص ١٢٢ ، والنويرى : جـ ١٩ ، ص ٢٦٤ .

(٧٣) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٠ ، ص ٢٨٧ .

(٧٤) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٣٥٣ ، وانظر الحميرى : الروض ، ص ٢٧٨ ، وانظر خطاب (محمود شيت) : قادة فتح بـــــلاد فارس ، دار الفتـــح - بيروت ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥م) ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٧٥) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٣ ، والحميرى : الروض ، ص ٢٧٨ ، وخطاب : ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٧٦) الاغلال : تعنى الخيانة ، والاسلال : تعنى السرقة ، وقد جاء فى الحديث

الشريف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم املى فى صلح الحديبية : انه لا اغلال ولا اسلال ، وقد تكرر ذكر الغلو فى الحديث الشريف ، وهو الخيانة فى المغنم والسرقة فى الغنيمة .

انظر ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : لسان العرب . دار صادر - بيروت (بدون تاريخ) مجلد ١١ ، ص ٥٠٠ .

(٧٧) يقروا : بمعنى يستقروا بمنازلهم ، وقد جاء فى خطاب الصلح هذا : ان يقروا المسلمين ، أى يسكنوهم ، انظر : لسان العـــرب لابن منظور ، مجـــلد ٥ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٧٨) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٣ .

(٧) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥١ / وابن الأثير : جـ ٣ ، ص ١٢ ، والنويرى : جـ ١ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٨٠) الواقدى : فتوح الاسلام ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٨١) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٨٢) هو كثير بن شهاب بن الحصين ذى القصة ، سيد قبيلة مذحج بالكوفة ، وقد روى عن عمر بن الخطاب بعض الاحاديث ، وقد وصف بالبخل ، ولاه معاوية مدينة الرى ، انظر ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى) : الطبقات الكبرى . دار صادر . بيروت (بدون تاريخ) ، جـ ٦ ، ص ١٤٩ .

(٨٣) دستبى أو دشتبى : يبدو أنها مدينة صغيرة تقع على الحدود بين مدينة الرى ومدينة همذان ، وقسمت هذه المدينة الصغيرة الى قسمين بين الرى وهمذان ،

فالقسم الذى يتبع الرى عرف باسم « دستبى الرازى » والقسم الذى يتبع همذان عرف باسم « دستبى همذان » انظر البلاذرى : فتوح ، ق ٢ ، ص ٣٩٠ ، وابو الفرج (قدامة) : كتاب الخراج ، ص ٢٦١ ·

(٨٤) البلاذرى : فتوح ق ٢ ، ص ٣٨٩ ·

(٨٥) خليفة بن خياط : ص ١٥٧ ، والبلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ·

(٨٦) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ·

(٨٧) خليفة بن خياط : ص ١٥٧ ، والبلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ·

(٨٨) أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن على بن محمود) : المختصر فى أخبار البشر ، دار الكتاب اللبنانى (بدون تاريخ) مجلد ٢ ، جـ ٢ ، ص ٧٣ ، وخطاب : قادة الفتح الاسلامى ، ص ١٧٢ ·

(٨٩) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، ص ٢٣٣ ·

(٩٠) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ·

(٩١) المطهر المقدسى (ابن طاهر) : البدء والتاريخ ، مكتبة المثنى - بغداد - باريس ١٨٩٩ ، جـ ١ ، ص ٦٨ ، وانظر القزوينى (عبد الكريم بن محمد الرافعى) : التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردى · دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٣٠٨ هـ - ١٩٨٧م · حـ ١ ، ص ٤٦ ·

(٩٢) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، ولاه معاوية بن أبى سفيان على المدينة ، انظر ابن سعد : الطبقات ، جـ ٥ ، ص ١٥٥ · وأمه صفية بنت عبد العزيز بن حارث من بنى عدى ،تزوجها بعد ذلك أبو سفيان بن حرب ، انظر البلاذرى : أنساب الاشراف ، مكتبة المثنى بغداد (بدون تاريخ) جـ ٤ القسم الثانى ، ص ١٦٩ ·

(٩٣) النويرى : نهاية الأرب ، حـ ١٩ ، ص ٥٠٩ ·

(٩٤) الطبرى : جـ ٥ ، ص ١٤٩ ·

(٩٥) أبو حنيفة : الأخبار الطوال ، ص ١٦٥ ·

(٩٦) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ، وابن الاثير : جـ ٣ ، ص ١٤٧ ·

(٩٧) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ، وابن الاثير ، جـ ٣ ، ص ١٤٧ ·

(٩٨) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون مجلد ٢ ، ص ١١١٤ ·

(٩٩) ابن الأثير : جـ ٣ ، ص ٢١٠ ·

(١٠٠) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩٠ ، وابن خلدون : مجلد ٢ ، ٣ ، ص١١١٤ ،٨٠·

(١٠١) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٧٨ ، وابن الاثير : حـ ٣ ، ص ٢٠٧ ٠

(١٠٢) ابن الاثير : حـ ٣ ، ص ٢٠٧ ، وابن خلدون : مجلد ٣ ، ص ٨ ٠

(١٠٣) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٧٨ ٠

(١٠٤) الاربلى (أبو الحسن على بن عيسى أبى الفتح) : كشف الغمة بمعرفة الائمة ٠ تحقيق السيد هاشم الرسولى ـ تبريز (بدون تاريخ) حـ ٢ ، ص ٣٢ ، والطبرى : حـ ٦ ، ص ١٩٤ ٠

(١٠٥) أبو حنيفة : الاخبار الطوال ، ص ٢٥٣ ٠

(١٠٦) أبو حنيفة : ص ٥٣ ٠

(١٠٧) أبو حنيفة ، ص ٢٥٣ ، وابن الاثير ، حـ ٣ ، ص ٢٨٣ ٠

(١٠٨) المقدسى : البدء والتاريخ جـ ٦ ، ص ١٥ ، وانظر العمرى (محمد بن على بن محمد) : الانباء فى تاريخ الخلفاء ٠ تحقيق د٠ قاسم السامرائى ٠ المعهد الهولندى للاثار ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ ٠ ص ٥٤ ٠

(١٠٩) هو محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زراره ، سيد بنى تميم بالكوفة ، وليس له عقب ،انظر ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله مسلم) : المعارف ، دار المعارف ٠ تحقيق د٠ ثروت عكاشة (بدون تاريخ ٠ ص٤٢٥ ٠

(١١٠) خليفة بن خياط : ص ٢٦٠ ٠

(١١١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤١٥ ٠

(١١٢) ابن قتيبة : ص ٤١٥ ، وابن الاثير : جـ ٣ ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ٠

(١١٣) ابن خلدون : مجلد ، ، ص ٣١٧ ٠

(١١٤) ابن الأثير : جـ ٣ ، ص ٣٩١ ، وابن خلدون : مجلد ٣ ، ص ٣١٧ ٠

(١١٥) ابن الأثير : حـ ٣ ، ص ٣٩١ ٠

(١١٦) ابن الاثير : حـ ٣ ، ص ٣٩٢ ٠

(١١٧) ابن قتيبة : ص ٣٥٦ ٠

(١١٨) أبو حنيفة الدينورى : الاخبار الطوال ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٩ ٠

(١١٩) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٣٥٦ ، وابن خلدون ، حـ ٣ ، ص ٧٩ ٠

(١٢٠) ابن خلدون : حـ ٣ ، ص ٧٩

(١٢١) ابن الاثير : حـ ٣ ، ص ٣٣ ٠

(١٢٢) ابن الاثير : جـ ٤ ، ص ٦٣ ، وابن خلدون : جـ ٥ ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ ٠

(١٢٣) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤١٥ ٠

(١٢٤) أبو حنيفة : الاخبار الطوال ، ص ٢٨٠ ٠

(١٢٥) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ ٠

(١٢٦) ابن الأثير : جـ ٤ ، ص ٩٢ ٠

(١٢٧) ابن الأثير : جـ ٤ ، ص ٩٢ ٠

(١٢٨) الطبرى : حـ ٤ ، ص ٥٩ ، وابن الاثير : حـ ٤ ، ص ١٠٥ ٠

(١٢٩) الطبرى : جـ ٨ ، ص ١١٨ - ١١٩ ٠

(١٣٠) خليفة بن خياط : ص ٢٣٨ ٠

(١٣١) ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا) : تاريخ الدولة الاسلامية ، دار صادر - بيروت ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠م) ، ص ١٣٢ ٠

(١٣٢) الطبرى : حـ ٩ ، ص ٣٢ ، وابن خلدون ، مجلد ٣ ، ص ٢٣٣ ٠

(١٣٣) الطبرى : حـ ٩ ، ص٤٩ ، وابن الطقطقى : تاريخالدولة الاسلامية ، ١٣٢٠

(١٣٤) الطبرى : جـ ٩ ، ص ٤٧ ٠

(١٣٥) ابن قتيبة : ص ٤١٨ ٠

(١٣٦) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٠٦ ٠

(١٣٧) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١١٢ - ١١٣ ، وابن الاثير : جـ ٤ ، ص ٣١٦ ٠

(١٣٨) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١١٢ ٠

(١٣٩) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٣ ، وابن الأثير : جـ ٤ ، ص ٣١٦ ٠

(١٤٠) ابن الاثير : جـ ٤ ، ص ٣١٨ ، وابن خلدون : جـ ٣ ، ص ٢٦٩ ٠

(١٤١) ابن الأثير : جـ ٤ ، ص ٣١٨ ، وابن خلدون : جـ ٣ ، ص ٢٦٩ ٠

(١٤٢) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٦٣ ، وابن خلدون : جـ ٣ ، ص ٣٨٩ / والعمرانى: الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ٦٥ ٠

(١٤٣) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٦٣ ٠

(١٤٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول - بيروت ١٨٩٠ ، ص ١٠٨ ٠

(١٤٥) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٥٤ ، وابن خلدون : حـ ٣ ، ص ٣٨٣ ٠

(١٤٦) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٤١٦ ، وابن خلدون : حـ ٣ ، ص ٣٩٤ ٠

(١٤٧) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٤١٦ .

(١٤٨) الطبرى : حـ ٩ ، ص ١٦٩ ، والبلاذرى : ق ٢ ، ص ٤١٦ ، وابن خلدون: حـ ٣ ، ص ٣٩٧ .

(١٤٩) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٤١٦ .

(١٥٠) الطبرى : حـ ٩ ، ص ١٧٠ ، وابن خلدون : حـ ٣ ، ص ٣٩٥ .

(١٥١) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، حـ ٣ ، ص ٢٩٦ .

(١٥٢) الطبرى : حـ ٩ ، ص ٢٥٩ .

(١٥٣) الطبرى : حـ ٩ ، ص ١٧٥ .

(١٥٤) السيروان : موضع قريب من مدينة الرى ، نزل به المهدى ، وقد بنى فيه بعض المواضع ، وظلت آثارها باقية حتى العصر الذى عاش فيه ياقوت الحموى، وهو القرن السابع الهجرى ، والثالث عشر الميلادى ، فقد شاهد هذه الآثار ، وذكر ان موسى الهادى ابن محمد المهدى ولد بهـــذه القرية ، انظر ياقـــوت : معجم مجلد ٣ ، ص ٢٩٧ .

(١٥٥) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ _ ٣٩٢ .

(١٥٦) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٨ ، وابن الاثير : حـ ٥ ، ص ٦٥ _ ٨٦ ، وابن خلدون ، حـ ٣ .

(١٥٧) العمرانى : الانباء ، ص ٧٥ ، والخضرى (الشيخ محمد) : تاريخ الامم الاسلامية ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة _ ١٩٧٠م ، ص ١٠٢ .

(١٥٨) الشابشتى (أبو الحسن على بن محمد) : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦م) ص ٢٢٧ ، والعمرانى : ص٧٥ .

(١٥٩) خليفة بن خياط : ص ٤٦٠ ، والطبرى : جـ ١٠ ، ص ٣٨ .

(١٦٠) الشابشتى : ص ٢٢٧ .

(١٦١) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٥٢ .

(١٦٢) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : التبصر بالتجارة ، نشر وتعليق حسن حسنى عبد الوهاب ، القاهرة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م) ص ٣ _ ٤ .

(١٦٣) لسترينج : ص ٤٣ .

(١٦٤) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٥٤ ، وابن الاثيـــر : جـ ٥ ، ص ٩٠ ، وابن خلدون : جـ ٣ ، ص ٤٨٥ .

(١٦٥) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٦٩ .

(١٦٦) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٧٤ .

(١٦٧) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٩٥ _ ٩٦ ، وأبو حنيفة : ص ٣٩١ ، وابن الاثير: جـ ٥ ، ص ١٢٠ _١٢٢ .

(١٦٨) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ٩٦ _ ٩٧ .

(١٦٩) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ٩٦ _ ٩٧ ، وابن الأثير : حـ ٥ ، ص ١٢١ _ ١٢٢ ، وابن خلدون : حـ٣، ص ٤٨٧ .

(١٧٠) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ، ص ٣٤٣ ، وخليفة بن خياط : ص٤٥٨ .

(١٧١) الجاحظ (أبو عثمان بن بحر) : البخلاء ، تحقيق طه الخاجرى ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة ١٩٧٦م ، حـ ٤٣٦ .

(١٧٢) ابن الأثير : حـ ٥ ، ص ١٣٨ .

(١٧٣) خليفة بن خياط : تاريخ خلبفة ،ص٤٦٦ ، وابن قتيبة : المعارف ص٣٨٥ .

(١٧٤) فتت : فت الشىء ، يفته فتا ، أى دقه أو كسره ، ومن سياق الحديث يأتى معناها ، فت فى ساعده أى اضعفه وأوهنه ، ويقال : فت فلان فى عضد فلان ، انظر لسان العرب لابن منظور ، حـ ٢ ، ص ٦٤ _ ٦٥ .

(١٧٥) الكوره : اصطلاح جغرافى يطلق عادة على مواضع تشمل مساحة كبيرة من الأرض ، وفى بعض الاحيان يعنى قرية ، فاذا قيل مثلا كور دجل ، فانهم يعنون بذلك المناطق الممتدة ما بين محافظة ميسان الى البصرة وحتى البحر ، وهى تعادل تقريبا نفس المساحة التى ؞اللبها الأمين ، والتىتضم مدينة الرى وبعض كور خراسا، انظر معجم البلدان مجلد ٤ ، ص ٤٨٩ لياقوت الحموى .

(١٧٦) العمرانى : ص ٨٩ .

(١٧٧) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ١٥١ ، وأبو حنيفة : الاخبار ، ص ٣٩٧ ، وابن الأثير : حـ ٥ ، ص ١٤٤ .

(١٧٨) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ١٥١ _ ١٥٢ .

(١٧٩) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ١٥١ _ ١٥٢ ، وأبو حنيفة : ص ٣٩٧ ، وابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣ ، والبيهقى (أبو الفضل) : تاريخ البيهقى، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥م ، ص ٢٩ .

(١٨٠) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ٢٤٤ ، وابن الأثير : حـ ٥ ، ص ١٨٩ .

(١٨١) الطبرى : حـ ١٠ ، وابن الأثير : حـ ٥ ، ص ٢١٢ ٠

(١٨٢) ابن خرداذبة : ص ٤٣ ٠

(١٨٣) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ٣٥٢ ، وابن الأثير : حـ ٥ ، ص ٢٥٤ ، وابن خلدون : حـ ٣ ، ص ٥٦٤ ٠

(١٨٤) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٠ ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ـ ٢٨٧ ٠

(١٨٥) أبو العباس عبد الله بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، العباس ابن عبد المطلب شيبة بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى الهاشمى المكى ، فقيه ومفسر ومحدث ، ولد قبل عام الهجرة بثلاث سنين ، انظر الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان) : سير النبلاء ، باعتناء شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، حـ٣ ، ص٣٣١٠

(١٨٦) عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرط ابن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب ، محدث ، انظر الذهبى : جـ٣ ،ص٢٠٤٠

(١٨٧) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم ابن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب ، محدث ، انظر الذهبى : جـ٣ ، ص ٧٩ ٠

(١٨٨) سعيد بن عمرو بن سعيد بن أبى أحجة القرشى الأموى سكن الكوفة : محدث ، انظر الذهبى : حـ ٥ ، ص ٢٠٠ ٠

(١٨٩) القزوينى (عبد الكريم بن محمد الرافعى) : التدوين فى أخبار قزوين، حـ ١ ، ص ٦٨ ـ ٦٩ ٠

(١٩٠) سعيد بن جبير بن هشام ، أبو محمد ويقال له أبو عبد الله الأسدى الوالى ، الامام الحافظ المقرىء المفسر الشهيد ، قتله الحجاج بن يوسف الثقفى ٠ انظر الذهبى ، حـ ٤ ، ص ٣٢١ ٠

(١٩١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، حـ ٦ ، ص ٣٠١ ٠

(١٩٢) القزوينى : التدوين ، حـ ٢ ، ص ٤٦٦ ٠

(١٩٣) أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمى) : كتاب المحن ، تحقيق د٠ يحيى وهيب الجبورى دار الغرب الاسلامى ـ بيروت ـ لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) ص ٤٤٩ ، هامش رقم ٥ ٠

(١٩٤) القزوينى : التدوين ، حـ ١ ، ص ٢١٥ ٠

(١٩٥) العسكري (السيد مرتضى) : عبد الله بن سبأ واساطير أخرى ، دار الزهراء بيروت - لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) حـ ١ ، ص ٢٢٥ ٠

(١٩٦) القزويني : التدوين ، حـ ١ ، ص ٤٧٩ ٠

(١٩٧) ابن سعد : الطبقات ، حـ ٧ ، ص ٣١٢ ٠

(١٩٨) ابن سعد : الطبقات ، حـ ٦ ص ٣٥٩ ٠

(١٩٩) أبو العرب : المحن ، ص ٣٦٥ ، هامش رقم (١) ، وانظر ابن سعد : الطبقات ، حـ ٧ ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ ٠

(٢٠٠) ابن سعد : الطبقات ، حـ ٧ ، ص ٣٢٢ ٠

(٢٠١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٥٠٠ ٠

(٢٠٢) الحميري : الروض ، ص ٢٧٩ ٠

(٢٠٣) القزويني : التدوين ، حـ ٢ ، ص ٤٦٦ ٠

(٢٠٤) القزويني : آثار البلاد ، ص ٣٧٦ ، وياقوت : معجم مجلد ٤ ، ص ١١٧٠

(٢٠٥) دائرة المعارف : جـ ١٠ ، ص ٢٨٥ ٠

(٢٠٦) ابن خرداذبة : المسالك ، ص ١٧٢ ٠

(٢٠٧) القزويني : آثار البلاد ، ص ٣٧٦ ٠

(٢٠٨) لسترينج : ص ٢٦٢ ٠

(٢٠٩) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٥ ٠

(٢١٠) الحميري : الروض ، ص ٣٠١ ٠

(٢١١) ليسترينج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٦٢ ٠

(٢١٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ ٠

(٢١٣) الحميري : الروض ، ص ، ولسترينج ، ص ٢٦٢ ، ودائرة المعارف حـ ١٠ ، ص ٢٨٨ ٠

(٢١٤) دائرة المعارف : حـ ١٠ ، ص ٢٩١ ٠

(٢١٥) القزويني : آثار البلاد ، ص ٣٧٦ ، ولسترينج ، ص ٢٦٢ ٠

(٢١٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٤ - ٣٨٦ ٠

(٢١٧) المقدسي : ص ٣٨٥ ، والسهمي : تاريخ جرجان ، باعتناء د٠ محمد عبد المعيد خان ، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م ، ص ٢٤٢ ٠

(٢١٨) المقدسى : ص ٣٨٥ ٠

(٢١٩) ابن الفقيه الهمذانى (أبو بكر أحمد بن محمد) : مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢ هـ ، ص ٢٧٠ ٠

(٢٢٠) الاصطخرى : المسالك ، ص ١٢٢ ٠

(٢٢١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٩٠ ـ ٣٩٥ ٠

(٢٢٢) ابن الفقيه الهمذانى : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٧٣ ٠

قائمة باسماء المصادر والمراجع

ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد الجزرى ، ت ٦٣٠ هـ (١٢٣٢م):

— الكامل فى التاريخ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) .

الاربلى (أبو الحسن على بن عيسى ابن الفتح) :

— كشف الغمة بمعرفة الأئمة . تحقيق السيد هاشم الرسولى . تبريز (بدون تاريخ) .

الأصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى):

— المسالك والممالك . تحقيق محمد جابر الحسينى، دار القلم ـ مصر ١٣٨١ هـ (١٩٦١م) .

ابن اعثم (أبو محمد أحمد الكوفى) :

— كتاب الفتوح ، دار الندوة الجديدة . بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ) .

انيس (د. ابراهيم وآخرون) :

— المعجم الوسيط . مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧٣م .

البكرى (أبو عبيده عبد الله بن عبد العزيز ، ت ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) :

— معجم ما استعجم . تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) .

البلاذرى (أحمد بن يحى بن جابر . ت ٢٧٩ هـ (٨٩٢م) :

— فتوح البلدان . باعتناء صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة (بدون تاريخ) .

— أنساب الاشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد (بدون تاريخ) .

البيهقى (أبو الفضل) :

— تاريخ البيهقى ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥م .

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ، ت ٢٥٥ هـ (٨٦٨م) :

— التبصير بالتجارة · باعتناء حسن حسنى عبد الوهاب ، القاهرة ـ ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م) ·
— البخلاء · تحقيق طه الحاجرى ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م·

الجميرى (محمد عبد المنعم) :

— الروض المعطار فى خبر الاقطار ، معجم جغرافى · تحقيق د· احسان عباس ، مكتبة لبنان ١٩٨٤م ·

أبو حنيفة الدينورى (أحمد بن داود ، ت ٢٨٢ هـ (٨٩٥م) :

— الاخبار الطوال · تحقيق عبد المنعم عامر ، دار المسيرة ـ بيروت (بدون تاريخ) ·

ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبى ، ت ٣٨٠ هـ (٩٩٢م) :

— صورة الأرض ، مكتبة الحياة (بدون تاريخ) ·

ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، ت حوالى ٣٠٠ هـ (٩١٢م) :

— المسالك والممالك · باعتناء دى غويه ، ليدن ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩م) ·

الخضرى (الشيخ محمد) :

— تاريخ الأمم الاسلامية · المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٧٠م ·

خطاب (محمود شيت) :

— قادة فتح بلاد فارس ، دار الفتح ـ بيروت ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥م) ·

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

— كتاب تاريخ ابن خلدون ، مكتبة المدينة ـ بيروت ١٩٦٧م ·

خليفة بن خياط (أبو عمر خليفة بن خياط العصفرى ، ت فى حدود ٢٤٠ هـ (٨٥٤م) :

— تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د٠ أكرم ضـــياء العمرى ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧م) ٠

دائرة المعارف الاسلامية : يصدرها أحمد الشنتناوى ، راجعها د٠ محمد مهدى علام ٠

الدميرى (الشيخ كمال الدين) :

— حياة الحيوان الكبرى ، المكتبة الاســـلامية (بدون تاريخ ولا مكان للطبع) ٠

الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان ، ت ٧٧٤ هـ (١٣٧٢م) :

— سير اعلام النبلاء ، باعتناء شعيب الارنؤوط ، مؤسســة الرسالة بيروت ،١٤٠٢ هـ (١٩٨٢م) :

ابن سعد (محمد بن ســـعد بن منيع البصرى الزهـــرى ، ت ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) :

— الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) ٠

الســـهمى ، ت ٤٢٧ هـ (١٠٣٥م) :

— تاريخ جرجان ، باعتناء د٠ محمد عبد المعيد خان ، عالم الكتب بيروت ١٤٠١ هـ (١٩٨١م) ٠

الشابشتى (أبو الحسن على بن محمد ، ت ٣٨٨ هـ (٩٩٨م) :

— الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مكتبة المثنى ، بغـداد ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦م) ٠

شيخ الربوه (أبو عبد الله محمد أبو طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى، ت ٧٢٧ هـ (١٣٢٦م) :

— نخبة الدهــر فى عجـــائب البر والبحـــر ٠ (بدون تاريخ ولا مكان للطبع) ٠

الطبرى (محمد بن جرير ، ت ٣١٠ هـ (٩٢٢م) :

— تاريخ الأمم والملوك ٠ دار القلم ٠ بيروت (بدون تاريخ)٠

ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا) :

— تاريخ الدولة الاسلامية ، دار صادر ، بيروت ٣٨٠ هـ (١٩٦٠م) ٠

ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد ، ٣٢٧ هـ (٩٣٨م) :

— العقد الفريد ، باعتناء أحمد أمين وآخرين ، دار الكتاب العربى ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) ٠

ابن العبرى (غريغوريوس ابن الفتح بن هارون المالطى ، ت ٦٨٥ هـ (١٢٨٦م) :

— تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠م ٠

أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميس ، ت ٣٣٣ هـ (٩٤٤م):

— كتاب المحن ، تحقيق د٠ يحيى وهيب الجبورى ، دار العرب الاسلامى ٠ بيروت ـ لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) ٠

العسكرى (السيد مرتضى) :

— عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى ، دار الزهراء ـ بيروت ، لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) ٠

العمرى (محمد بن على بن محمد) :

— الانباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق د٠ قاسم السامرائى ، المعهد الهولندى للآثار ، القاهرة ١٩٧٣م ٠

أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن على بن محمود ، ت ٧٣٢ هـ (١٣٣١م) :

— المختصر فى أخبار البشر ، دار الكتاب اللبنانى (بدون تاريخ) ٠

أبو الفرج (قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ، ت ٣٢٠ هـ(٩٣٢م) :

— نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، نشر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، باعتناء جى دى غوى ، مكتبة المثنى ، بغداد (بدون تاريخ) .

ابن الفقيه الهمذانى (أبو بكر أحمد بن محمد) :

— مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢ هـ .

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ، ت ٢٧٦هـ (٨٨٩م) :

— المعارف ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، دار المعارف ، مصر (بدون تاريخ) .

القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) :

— آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر - بيروت ١٣٨٧ هـ (١٩٦٩م) .

القزوينى (عبد الكريم بن محمد الرافعى) :

— التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٨ هـ (١٩٨٧م) .

ابن كثير (اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن درع القرشى ، ت ٧٧٤هـ (١٣٧٢م) :

— البداية والنهاية ، باعتناء دكتور أحمد أبو ملحم وآخرين ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م) .

لسترينج (كى) :

— بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة الرابطة ، بغداد ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤م) .

مطهر المقدسى (أبو زيد أحمد بن سهل البلخى) :

— البدء والتاريخ . باعتناء كلمان هوار ، باريس ١٨٩٩م .

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على ت ٣٤٦هـ(٩٥٧م) :

— مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الاندلس - بيروت ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣م) .

— التنبيه والاشراف ، باعتناء عبدالله اسماعيل الصاوى، مكتبة المثنى بغداد ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨م) .

المقدسى (ابو عبد الله محمد بن أحمد ، ت ٣٩٠ هـ (١٠٠٠م) :

— أحسن التقاسيم فى معرفة الاقليم . ليدن ١٩٠٩م .

ابن منظور (ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، ت ٧١١ هـ (١٣١١م) :

— لسان العرب ، دار صادر - بيروت (بدون تاريخ) .

— الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٥م .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ٦٧٧ هـ - ٧٣٣ هـ (١٢٧٨م - ١٣٣٢م) :

— نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م .

الواقدى (محمد بن عمر بن واقد ، ت ٢٠٧ هـ (٨٢٢م) :

— فتوح الاسلام لبلاد العجم والخراسان ، باعتناء عزيز أفندى زند مصر ١٣٠٩ هـ (١٨٩١م) .

ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى ، ت ٦٢٦ هـ (١٢٢٨م) :

— معجم البلدان ، دار صادر - بيروت ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧م) .

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهيب بن واضح الكاتب ، ت ٢٧٨ هـ (٨٩١م) :

— تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠م) .

مدينة حلب فى عصر بنى حمدان (٣٣٣ ـ ٤٠٦ هـ)

دراســة حضارية (*)

صـورة مدينة حلب :

وصفت مدينة حلب فى معجم البلدان(١) بأنها (مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات ، طيبة الهواء ، صحيحة الاديم والمـاء) ، وهى (بلد مسور بحجر أبيض وفيه ستة أبواب ، وفى جانب السور قلعة فى أعلاها مسجد وكنيستان ، وفى احداهما كان المذبح ، الذى قرب عليـه ابراهيم عليه السلام ، وفى أسفل القلعة مغارة كان يخبىء بها غنمه ... وفيها جامع وست بيع ، وبيمارستان صغير) • وقد ظلت حلب فى العصر الاسلامى على درجة كبيرة من الأهمية مما تطلب تحصينها بأسوار تعـد من أعظم الأسوار التى خلفها الفن العسكرى الاسلامى ، هـذا الى أن وجود كنيستين بها دليل على سياسة التسامح التى اتبعها المسلمون مما كفل لسكان المدينة من النصارى قدرا كبيرا من الحرية الدينية • أما وجود البيمارستان ، فدليل أيضا على الاهتمام بتوفير المنشـآت الاجتماعية لرعاية أهل المدينة •

ولا أدل على اهتمام حكام حلب بتحصينها مما ذكره الرحالة ناصر خسرو(٢) من أنه رأى مدينة حلب ، بها سور عظيم ارتفاعه خمسـة وعشرون ذراعا وقلعة عظيمة مشيدة كلها على الصخرة ، وهى أعظم من قلعة بلخ ، ولها أربعة أبواب ، باب اليهود ـ باب الله ـ باب الجنان ـ

(*) د• راضى عبد الله عبد الحميد : كلية التربية فرع جامعة القاهرة بالفيوم •

(١) ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى ، معجم البـلدان ، تحقيق ، فريد عبد العزيز الجندى ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ •

(٢) ناصر خسرو : أبو معين الدين المروزى ، سفر نامة ، ترجمة احمد خالد البدلى ، ص ٣٩ ، ٤٠ •

باب انطاكية . أما المقدسى فقد ذكر(٣) أن لحلب سبعة أبواب ، باب حمص - باب الرقه ، باب قنسرين ، باب اليهود - باب العراق - باب دار البطيخ - باب انطاكية - باب الأربعين « مسدود » .

أما عن قلعة حلب ، فقد صادف وصفها اهتماما كبيرا من المعاصرين(٤) فذكر ابن بطوطة أنها (شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع، قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها ، وتسمى الشهباء وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء ، يطيف بها سوران ، وسورها متدانى الأبراج) . هذا فى حين كان سكان المدينة ، يعتمدون فى شربهم على نهر قويق ، الذى كان يمد فى الشتاء وينضب فى الصيف، ومخرجه من قرية تدعى سنياب(٥) .

واذا ذكرت حلب فى التاريخ الاسلامى توارد على الخاطر اسم سيف الدولة الحمدانى مع الشاعرين اللامعين المتنبى(٦) وأبى فراس الحمدانى(٧) ، ذلك أن سيف الدولة اكتسب شهرته من الدور المجيد

---

(٣) المقدسى : أبو العباس أحمد بن يوسف ، أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، ص ٢٣٦ .

(٤) ابن بطوطة : شرف الدين أبو عبد الله محمد ، تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار ، ص ٦٨ .

- ابن حوقل : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، ص ١٦٣ .

- ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى : رحلة ابن جبير ، ص٢٢٥ .

(٥) ابن رسته : أبو على أحمد بن عمر ، الأعلاق النفيسة ، جـ ٧ ، ص ٩١ .

- الاصطخرى ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، ص ١٦٣ .

- المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

- يذكر ابن حوقل ، ص ١٦٣ ، أن اسم النهر (أبى الحسن قويق) .

(٦) المتنبى : أبو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفى المتنبى .

(٧) أبو فراس : الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدونى .

الذى لعبه فى مقارعة البيزنطيين(٨) ، وهو الدور الذى أبرزه فى صورة البطل الذى توجت هامته اكاليل المجد ، مما جعله يحتل المقام الأول فى تاريخ حلب السياسى(٩) .

الأسرة الحمدانية :

وسيف الدولة هو : على بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لجمان بن راشد ، وينتمى قومه الى تغلب احدى قبائل ربيعة ومن تغلب كانت بنو حمدان ملوك حلب(١١) ، وحمدان وهو المؤسس الأول لهذه الأسرة ينتمى الى بلدة تسمى « رباح » بجوار الموصل ، وكان أجداده الربعيون التغلبيون(١٢) قد تنقلوا شأن غيرهم من القبائل الأخرى ، من تهامة الى نجد الى الحجاز الى أراضى ربيعة(١٢) الى ضفاف الفرات فى سهل الرقة الفسيح ، ثم نزل حمدان الى جوار الموصل فى رباح(١٤) ، وكان ذا مكانة عالية بين قومه ،

---

(٨) ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم ، الكامل فى التاريخ ، جـ ٧ ، ص ٢٠٣ ، ٢٢٣ .

(٩) الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ، يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، جـ ١ ، ص ٢٧ .

(١٠) تنسب الى وائل بن قاسط بن هنب بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار بن معد بن عدنان .

- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

- الأزدى : أبو بكر محمد بن الحسن ، الاشتقاق ، تحقيق ، عبد السلام هارون ، ص ٢٠٢ .

(١١) القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على ، صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، جـ ١ ، ص ٣٣٨ .

- الثعالبى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧ .

(١٢) القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

(١٣) الدينورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود ، الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، جمال شيال ، ص ١٦ ، ٥١ الأزدى المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

(١٤) القلقشندى ، نهاية الأرب فى معرفة أحوال العرب ، تحقيق على الخاقانى ، ص ١٧٠ .

ينظرون اليه بعين الاجلال والاكبار ، ومن عهده تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ اسرته المتواصل(١٥) .

سيف الدولة يؤسس دولته فى حلب :

أما سيف الدولة فقد ولد حوالى ٣٠٣ هـ - ٩١٥م فى مدينة ميافارقين(١٦) حيث ترعرع فى أحضان عصر زاخر بالفتن والاضطرابات بلغت فيه الدولة العباسية غاية ضعفها . ويبدو ان الأسرة الحمدانية زجت بنفسها فى هذا الصراع حتى أصبح لها فى الموصل وأرض الجزيرة دولة، الا أنها دولة أحاطت بها العواصف . وما كاد سيف الدولة يبلغ منتصف العقد الثانى من عمره ، حتى قتل والده أبو الهيجاء (٣١٧ هـ - ٩٢٩م) فى الدفاع عن الخليفة القاهر(١٧) ، وبعده أصبح سيف الدولة فى كنف أخيه الكبير ناصر الدولة الذى أعتبره أبا له ، وقد ادرك سيف الدولة انه اذا كان لابد أن يكون ملكا فليكن فى مكان آخر ، لا يزاحم فيه أخاه ناصر الدولة ، ولذا اتجه سيف الدولة الى الشام ، فانتزع حلب من الاخشيديين (٣٣٣ هـ - ٩٤٤ م)(١٨) وصارت تلك المدينة عاصمة لدولة شملت جند حمص وجند قنسرين والثغور الشامية وجزرية وديار بكر . ولم يستطع سيف الدولة أن يستبقى دمشق فى حوزته ، فتركها للاخشيد على أن يدفع عنها الى سيف الدولة أتاوة سنوية ، أى انه اعترف ضمنا بأن دمشق يجب أن تضم الى ممتلكات الحمدانيين(١٩) ، وقد تم

---

(١٥) درويش الجندى ، سيف الدولة الحمدانى ، ص ٨٦ .

(١٦) ميافارقين : أشهر مدينة بديار بكر ، قالوا : سميت بميابنت أول من بناها ، وفارقين هو الخلاف بالفارسية ، يقال له بارجين ، لأنها كانت أحسنت خندقها فسميت بذلك .

- ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢٧٣ .

(١٧) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٩٣ .

(١٨) مسكويه : أبو على أحمد بن محمد ، تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تصحيح ونشر ، ف. آمدروز ، جـ ٥ ، ص ١٩٦ ، ١٩٩ .

(١٩) ابن العديم : كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق ، سامى الدهان ، جـ ١ ، ص ١١٥ .

ذلك كله بفضل ما لقيه من معونة أخيه ناصر الدولة الذى أمده بالرجال والمال لفتح حلب ، وظل التعاون بين الاخوين وثيقا ، سياسيا وماليا ، حتى ان بعض المؤرخين(٢٠) عللوا ما أصاب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ، من ضعف قواه العقلية فى أواخر حياته بحزنه على أخيه سيف الدولة عندما توفى عام (٣٥٦ هـ - ٩٦٦م) .

أما سيف الدولة فقد بلغ من حبه واحترامه لأخيه ناصر الدولة أنه عندما لجأ اليه الأخير عام (٣٤٨ هـ - ٩٥٩م) فارا من معز الدولة أحمد ابن بويه ، أحسن سيف الدولة استقباله وبالغ فى اكرامه حتى قيل أنه نزع خفه بيده . ولم تقف جهوده عند هذا الحد بل عمل على المصالحة بينهما(٢١) ، وأعاد أخاه الى امارته مرة أخرى بعد أن خرج منها على أسوأ صورة(٢٢) ، هذا فى حين ذكر آخرون(٢٣) أن سيف الدولة كان بينه وبين أخيه وحشة ، خاصة عندما وجد أن نجم أخيه يرتفع لدى الخليفة العباسى ، فأصابه الحسد وأخذ يؤلب من معه من الجند فى واسط ، ضد أخيه الحسن ، وأطمعهم بنية اقامة مملكة مستقلة عن أخيه فى بلاد الشام ومصر .

ومهما يكن من أمر ، فانه ما كاد سيف الدولة يستقر فى حلب حتى

=

- ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جـ ٣ ، ص ٢٨٥ .

- القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

- سامى الكيالى : سيف الدولة وعصر الحمدانيين ، ص ٦٨ .

(٢٠) ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ ٣ ، ص ٢٧ .

- الذهبى : شمس الدين أحمد بن أحمد ، العبر فى خبر من غبر ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

(٢١) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٨ .

(٢٢ نفس المصدر والصفحة .

(٢٣) مسكويه ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٠ ، ابن الأثير ، المصدر السابق جـ ٧ ، ص ١٧١ .

- سامى الكيالى : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

بدأ الصدام بينه وبين الروم ، ذلك أن العرب لما فتحوا الشـــام وبلغوا السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس وجدوها شديدة المناعة بسبب وعورتها وبردها ، ولذا توقف الفتح الاسلامى فى تلك الناحية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب • وهكذا ظلت الحدود بين الدولة الاسلامية ودولة الروم تميل نحو أرض الروم تارة ، ونحو أرض المســلمين تارة أخرى حتى أقام سيف الدولة الحمدانى دولته على حدود الروم فأنشأ جيشا كبيرا ، ظل يحارب به الروم عشرين عاما ، من ذلك أنه أوغل أعوام (٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ هـ) فى بلادهم وغزا وسبى ، حتى كان على سبعة أيام من القسطنطينية ولكنه منى بهزيمة كبيرة عام (٣٥١ هـ ـ ٩٦٢م)(٢٤) أوقفت تقدمه ، فضلا عما كانت تقوم به القبائل العربية داخل دولته من ثورات وفتن بين الحين والآخر ، وهكذا ظلت حياة سيف الدولة جهادا وكفاحا ، اما مع الـــــروم واما مع المنتفضين عليه من القبائل •

وأخيرا توفى سيف الدولة عام (٣٥٦ هـ ـ ٩٦٦م) ، فتعرضت حلب بعد وفاته ، لتهديد الغزاة من روم وصليبيين طوال عـــدة قرون حتى حاصرها المغول عام (٧٠٠ هـ ـ ١٣٠٠م) لكنهم لم يفلحوا فى أخذها وبعد حوالى مائة عام استطاع تيمورلنك الاستيلاء عليها بعد معركة رهيبة فى منطقة (كليس) شمالى حلب • وكان أن أصبح الأتراك سادة الأناضول لا سيما بعد استيلاء محمد الفاتح ، على القسطنطينية عـــام ٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣م ، مما مهد للسيطرة العثمانية على بلاد الشام •

---

(٢٤) قيل أن الروم استولوا على حلب دون قلعتها ، بجيش كان تعداده حوالى مائتى ألف جندى ، وأستولوا على أربعة ملايين درهم من الفضة وآلاف البغـــال والحمير فضلا على الأفراس الحسان ، وثلاثة آلاف درع ، وثلاثمائة حمل جمل من أقمشة الكتان وغيرها من المنقولات ، عـــلاوة على نهبهم دار سيف الدولة خارج المدينة ، وقيل أيضا أنهم أسروا أبا فراس بن سعيد بن حمدان الذى كان متقلدا منبج فى ذلك الوقت •

ـ ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٢٠٣ ، ٢٢٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣•

ـ ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٣٣ •

ـ عبد الرحمن حميدة ، حلب المدينة التى لم تقهر ، ص ٤٣ ، ٤٤ •

الأوضاع الاقتصـادية :

النشاط الزراعى : شـاء حسـن حظ الحمدانيين أن تكون غالبية الأراضى التى دخلت فى زمام امارتهم بحلب غنية فى انتاجها الزراعى ، ومواردها الطبيعية ، ويرجع الفضل فى ذلك الى نهر فويق الذى كان يجرى من شمالها الى جنوبها وغربيها ، فيروى البساتين الكثيرة التى تقع على ضفتيه(٢٥) والغنية بأشجار السرو والصـنوبر التى عرفت به حلب(١٦) منذ القدم ، وقد خلد الشـعراء هـذا النهر لفرط صغره ، وجفافه صيفا حتى يكاد يكنس ، وفيضانه شتاء حتى يكاد يغرق المدينة ، وبلغ من اعجاب سيف الدولة به ، أن حـول مجراه الى قصره العظيم الذى حاكى به قصور الخلفاء فى بغداد ، والذى بناه فى أرض «الحلبة» فى سفح جبل الجوشن(٢٧) واذا كانت بلاد الشام بوجه عام قد اشتهرت بخصب تربتها ، وجودة مناخها فان تربة حلب بالذات جادت فيها زراعة أصناف عدة من الزروع والمحاصيل(٢٨) والفواكه وخاصة الكروم والبطيخ والتين والتفاح والزيتون والفستق والنارنج علاوة على العديد من أنواع الخضروات(٢٩) .

كذلك وجد فى أطراف الامارة الكثير من الغـابات ذات النباتات

---

(٢٥) المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ - ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٢٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٥ .

(٢٧) نفس المصدر ، ص ١١٩ .

(٢٨) ناصر خسرو ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٢٩) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ ، ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

- محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٤ ، ص ١٦١ .

- آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، جـ ٢ ، ص ٥٠ ، ٥٥ .

- محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الحضـارة الاسـلامية فى الشرق ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

والأشجار الكبيرة ، التى كان يطلق عليها « الزور » : وأكثرها شجر التوت(٣٠) ٠

ونستطيع من خلال ذلك النشاط الزراعى الذى حظيت به امارة حلب أن نقول أن ذلك قد انعكس انعكاسا ايجابيا ، على ارتفاع مستوى معيشة سكانها مما كان له الأثر الأكبر فى اهتمامهم بمظاهر الحياة الاجتماعية من وسائل تسلية واحتفالات فى شتى المناسبات ٠

مظاهر تقدم الصناعة :

من المعروف أن المصنوعات الاسلامية جابت أنحاء العالم منذ القرن الثانى للهجرة فاشتهرت دمشق بصناعة « الدمشقى » وبرعت الموصل فى صناعة « الموصلين » ، وحظيت تلك المنسوجات بتقدير كبير فى دول الغرب ، التى ظلت تعتمد اعتمادا كبيرا فى استهلاكها المحلى على تلك المنسوجات الشرقية ولا شك أن الأمراء الحمدانيين ، لعبوا دورا كبيرا فى ارتقاء الصناعة وازدهارها فى امارتهم ، وشاركهم الأغنياء فى ذلك لاهتمامهم بالرفاهية وما يتعلق بها من الحرص على اقتناء الثياب والزجاج والعطور والصياغات ٠٠٠ الخ وقد اشتهرت حلب بالصناعات الزجاجية ، حيث كان سوق الزجاج بها كما يقول القزوينى(٣١) لا يستطيع الانسان مفارقته لكثرة ما يشاهد فيه من الطرائف والآلات اللطيفة التى تحمل الى سائر البلاد ، وبجانب ذلك اشتهرت حلب منذ القدم ، بصناعة المنسوجات خاصة الثياب البيض ، والحفية التى تنسب الى احدى كورها ، كما برع أهل حلب منذ القدم فى صناعة الشقق الحريرية والقطنية ، وهى قماش طوله تسعة أذرع وعرضه ذراع ، وقد تفنن الصناع فى صبغة وزخرفته ، وكانت تلك الثياب لباسا عاما(٣٢) هذا فضلا عما اشتهرت به من صناعة الشيلان القطنية والحريرية والزنانير

---

(٣٠) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٢١ - محمد كرد على ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٦٣ ٠

(٣١) القزوينى ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ ٠

(٣٢) آدم ميتز ، المرجع السابق ، ص ٢٩٠ ٠

والكوفيات ، والمناديل الحريرية والمزركشة ، علاوة على التطريز(٣٣) . وبلغ من وفرة المنسوجات ، أن البيوت كانت تزين بستور ملونة تعلق على الجدران ، على حين زينت الأرض بسجاجيد وبسط دقيقة الصنع(٣٤) .

النشاط التجارى :

كانت حلب أهم مركز تجارى فى شمال الشام ، وقد اشتهرت بأسواقها وفنادقها العامرة ، وأخذت تصدر ما تصنعه من الخل والصابون الحلبى وماء الورد ، وزهرة القرنفل وغيرها(٣٥) وحازت أسواقها المسقوفة أو « المدينة » كما يسميها الحلبيون ـ مثل سوق الجوخ ، سوق الحرير ، سوق الحبال ، سوق العطارين ـ سوق السراجين ، سوق القطن(٣٦) ... الخ ـ شهرة كبيره ، وغطيت تلك الأسواق بعقود حجرية سميكة تبدو الأسواق تحتها وكأنها أنفاق نحتت فى الصخر ، وعند تلاقى سوقين أو أكثر قبة كبيرة تتوج مفترق الطرق ، وكأنها مسجد كبير ، علاوة على أبواب ضخمة مصفحة بألواح من الحديد تزين مداخلها(٣٧) هذا وقد نشط التبادل التجارى بين حلب وانطاكية فى مجال الذهب والفضة والحرير والجواهر والديباج المزركش والأقمشة المحلية ، وكانت تجارة حلب تلك تصل عن طريق الفرات الى أنطاكية التى عدت ميناء هاما بل أصبحت من أكبر الموانىء لتصدير بضائع الشرق وأداة اتصال بين أوربا وبلاد المشرق(٣٨) .

---

(٣٣) محمد كرد على ، المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٢٣ .
ـ المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٣٤) يذكر ميتز ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ ، أن جميع البيوتات المتفرقة امتازت بثلاثة أنواع من السجاجيد ، أولها الستور ، وثانيها البسط ، وثالثها الانماط تفرش على الأرض لتطأها الأقدام .

(٣٥) القزوينى ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٣٦) عبد الرحمن حميدة ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٣٧) نفس المرجع ، ص ٣٥ .

النظام النقـدى :

أدى ازدهار المعاملات التجارية داخل حلب ، وتنوع الضرائب التى فرضت على التجارة ، الى ثراء أمراء الدولة وارتفاع مستوى معيشـة رعاياهم ، وقد أستغلت تلك الثروة فى مد الطرق البرية لتسهيل نقـل السلع ، وكثر عدد الصيارفة للقيام بمهمة الايداع والتحويل ، وساعد كل ذلك على قيام الحمدانيين بسك عملة خاصة بهم ، لما فى ذلك من مظاهر السيادة والاستقلال ، فضلا عن تنشيط التجارة والتبادل .

الدرهم الحمـدانى :

ضرب الحمدانيون نقودا لهم فى عدد من المدن شرقا وغربا ، وقد بدأوا ذلك عندما أصدر ناصر الدولة نقودا خاصة به فى عام (٣٢٠ هـ ـ ٩٤١م) عندما جعله الخليفة العباسى المتقى لله أميرا للأمراء(٣٩) وذلك بعـد أن تخلص ناصر الدولة من ابن رائق بالقتل(٤٠) وما كاد ناصر الدولة يقوم بمهام منصبه الجديد كامير للأمراء(٤١) حتى نظر فى أمر النقود المتداولة ، فوجد عيارها ناقصا ، ولذا أمر باصلاحها ، وتصفية الذهب والفضة،وأطلق عليها الدنانير الابرزية ، اشارة الى نقاوة معدنها. وبذلك أصبح الدينار يساوى ثلاثة عشر درهما(٤٢) بعد أن كان الدينار القديم يساوى عشرة دراهم فقط(٤٣) ، على أن ذلك لم يؤد الى نتائج ملموسة اذ وجد أن الصيارفة يربون ربا فاحشا فشـدد عليهم وبدأ فى

---

(٣٩) الذهبى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦ ، ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٧٥ .
ـ الصولى ، أبو بكر محمد بن يحى ، أخبار الراضى بالله والمتقى لله ، ص٢٢٨.
(٤٠) ابن مسكويه ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٨ .
(٤١) الصولى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .
(٤٢) ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ بن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١ ،ص٢٠٦.
ـ ابن الجوزى ، جمال الدين عبد الرحمن ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، جـ ٦ ، ص ٣٣٠ .
(٤٣) ابن الأثير ، أبو الحسـن على بن محمـد ، الكامل فى التـاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٨٢ .
ـ الصولى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

ضرب دنانير جديدة ، حملت اسمه واسم أخيه سيف الدولة ، وضربت فى مدينة السلام « زمن الخليفة المتقى لله العباسى » ، وتوجد بالمتحف العراقى تحت رقم ١٠١٨ « مس » ثلاثة دراهم ضربت عام (٣٣٠ هـ - ٩٤١ م) فى نصيبين والنصوص واحدة فيها جميعا على الوجه التالى(٤٤):

الوجـــه	الظهـــر
لا اله الا لله	اللـــــه
اللــــه وحـده	محمـــد
لا شريك له	رسـول اللــه
أبو منصور بن (هو اسحاق ابن الخليفة العباسى المتقى)	المتقى باللــه
أمير المؤمنين	ناصر الدولة
سيف الدولة أبو الحسن	أبو محمـدـ

ويلاحظ ان الدرهم المذكور يحمل اسم الخليفة (أى أمير المؤمنين) واسم ولى عهده (أبى منصور) ثم سيف الدولة أبى الحسن (على) وناصر الدولة أبى محمد (الحسين) فالدرهم جامع للخلافة العباسية التى مقرها بغداد ، وتوابعها فى الموصل وحلب والجزيرة ، بدلالة أسماء الخليفة وولى عهده والأمراء كما جاء فى النص(٤٥) .

وفى عام (٣٣٣ هـ - ٩٤٤م) ، عقـب سمل توزون ، الخليفة المتقى لله وتسليم الأمر للخليفة المستكفى ، صارت الدراهم باسم الخليفة المستكفى الملقب بامام الحق فى بعض الدراهم ، مع ذكر ناصر الدولة وسيف الدولة .

وفى عام (٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م) تحت رقم ٩٩٣ (مس) ضرب حـــوارن :

(٤٤) مهاب درويش البكرى ، الدرهم الحمدانى المحفوظ فى المتحف العراقى ، ص ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ .

(٤٥) مسكويه ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٩١ .

الوجـــه	الظهـــر
لا الـه الا	اللـــه
اللـه وحده	محمد رسـول اللـه
لا شريك لـه	صلى اللـه عليه وسلم
سيف الدولة	المستكفى باللـه
أبو الحسن	ناصر الدولة
	أبو محمـد

ويلاحظ هنا أيضا أن تلك الدنانير قد أضيف على وجهها الآخـر (الظهـر) كلمة صلى الله عليه وسلم بعد كلمة رسول الله(٤٦) فضلا عن اشتراك الأخوين بجانب الخليفة المستكفى بالله ، وبعد أن استقرت الأمور لبنى بويه فى بغداد ، خلع أحمد ابن بويه الخليفة المستكفى بالله ، وبايع أبا القاسم الفضل بن المقتدر ولقبه المطيع للـه(٤٧) ، وضربت النقود فى كل من الرحبة ونصيبين ومصر والموصل والجزيرة وقصر شيرين وحلب ومدينة السلام وسمرقند وميافارقين عام ٣٣٤ هـ على النحو التالى :

رقم ١٠٣٣ (مس) ضرب الرحبة ٣٣٤ هـ

الوجـه	الظهـر
لا الـه الا اللـه	اللــه
وحـده لا شريك له	محمـد رسـول اللـه
سيف الدولة	صلى اللـه عليه وسلم
أبو الحسن	المطيع للـه
	ناصر الدولة
	أبو محمـد

ويظهر فى هـذا الدرهم إشتراك سيف الدولة وأخيـه ناصر الدولة بجانب الخليفة المطيع للـه .

---

(٤٦) ابن طباطبا ، محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، ص ٢١١ .

(٤٧) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، ص ١٢٣ .

- عبد الجليل حسن عبد المهدى ، أبو فراس الحمدانى حياته وشعره ، ص ٥٧ .

وفى عام ٣٥٤ هـ ـ ٩٦٥م ، عندما زوج سيف الدولة ابنته ست الناس لأبى تغلب الحمدانى ، وزوج أبنيه أبا المكارم وأبا المعالى بابنتى ناصر الدولة ، ضرب لهذا الحادث دنانير على الوجه التالى(٥٥):

الظهـــر	الوجــه
أمير المؤمنين	لا الـه الا اللـه
المطيع للـه	محمد رسـول اللـه
الأميران الفاضلان	أمير المؤمنين على بن أبى طالب
ناصر الدولة وسيف الدولة	فاطمة الزهراء ـ الحسن والحسين
الأميران أبو تغلب وأبو المكارم	جبريل عليهم السلام

أما الدرهم الأخير فهو للأمير سعد الدولة أبى المعـالى الحمدانى الذى حكم حلب وتوابعها بعد وفاة والده سيف الدولة عام (٣٥٦ هـ ـ ٩٦٦م) ومع أن الحمدانيين ســنيون وكانوا يذعنون بالولاء الأســمى للخلافة العباسية ، الا أن بعضهم وبعض اتباعهم ، كانوا يهادنون خلفاء مصر الفاطميين ويظهرون الميل اليهم .

وقد حكم الخليفة الفاطمى العزيز بالله واسم سعد الدولة موجودان على الدرهم الذى نشر صورته فانه يكون قد ضرب فيما بين (٣٦٥ هـ ـ ٩٧٥م) وهو عام تولى العزيز بالله ، و (٣٨١هـ ـ ٩٩١م) عام وفاة سعد الدولة ، ومن ذلك يتضح أن سعد الدولة ، كان أحيـــانا يظهر الطاعة للخليفة العزيز الفاطمى . والمؤسف أن تاريخ ضرب هذا الدرهم ومدينة الضرب مطموسان (٤٨) ، وهو على النحو التالى :

---

(٤٨) سمير شما ، درهمان نادران ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

الظهـــر	الوجـــه
(ضمن دائرة)	لا الله الا الله
(محـ) مد رسو(ل)	وحده لا شريك له
الله صلى الله (عليه)	سـعد الدولة
وعلى آله الاما	أبو المعـالى
م نزار أبو المنصو(ر)	المدار الداخلى
العزيز بالله	(لله) الأمرين ... (مطموس)
أمير المؤمنين	المدار الخارجى ..
مدار مطموس ...	بسم الله ضرب .. (مطموس)
القطر : ٢٢ ملم	الوزن : ١ر٧٠ جم

والظاهر البارزة فى نقود الحمدانيين ، أنها كانت كثيرة سريعة التغيير ، ولعلهم كانوا يهدفون من وراء ذلك الى القضاء على تلاعب الصيارفة بعيار النقود(٤٩) هذا الى أن الظروف السياسية دفعتهم الى ضرب العديد من العملات المختلفة ، ذكروا فيهـــا اسم الخليفة العباسى تارة والخليفة الفاطمى تارة اخرى .

الاوضاع الاجتماعية :

عناصر السـكان :

تألف المجتمع فى ذلك العصر من عناصر وقوميات مختلفة ، وكان العرب يمثلون العنصر الأســاسى فى هـــذا التشكيل ، الا أن مكانتهم وأرستقراطيتهم العسكرية قد اضمحلت ، وذلك عنــــدما جلب الخليفة العباسى المعتصم الأتراك من تركستان عام (٢٢٠ هـ ـ٧٣٥ م) واعتمد عليهم اعتمادا كاملا خاصة فى الناحية الحربية ، والى جانت هؤلاء كان الفرس ، الذين لعبوا دورا هاما فى ظهور الدولة العباسية ، وكان لهم الحظوة خاصة فى العصر العباسى الأول ، غير أن هذا العنصر فقدا هميته أيضا ، ولحق بهم مالحق باخوانهم العرب ، عندما أشتد نفوذ الأتراك ،

---

(٤٩) ابن كثير ، المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ٢٠٦ .
– ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٨٢ .

وما أن حل القرن الرابع الهجرى ، حتى فرض الترك ثم الديلم أنفسهم على أحداث ذلك العصر ، وأصبحوا أصحاب الحظية والسلطان ، وقد نتج عن ظاهرة الاكثار من شراء الرقيق أن انضم الى تلك الجموع عناصر أخرى كالصقالبة والأرمن والكرج والزنج والروم ، علاوة على من جلبوا لفلاحة الأرض من النبط والاراميين(٥٠) .

ورغم ما وضح من عدم وجود انسجام ووفاق بين تلك العناصر المتباينة لاختلاف المشارب والعادات ، الا أن ذلك لم يقف عقبة أمام بعض الحالات التى خالفت ذلك وخرجت عن قاعدة هذا النفور ، وهكذا استمر اقبال الخلفاء على الزواج من أعجميات حتى أن الكثير من أمهات الخلفاء فى العصر العباسى الثانى ، كن أمهات ولد « أعجميات » ومنهن من كان له تاثير واضح وكبير فى مجريات الأحداث السياسية أبان تلك الفترة .

اما العناصر السياسية فى بناء المجتمع الحمدانى فكانت على الوجه التالى :

العــرب :

شكل العرب غالبية المجتمع الحمدنى ، وقد زخرت بلاد الشام فى ذلك العصر بالعديد من القبائل أمثال : عامر بن صعصع وعقيل وقشير والعجلان وأولاد كعب بن ربيعة بن عامر ، واستعان سيف الدولة ببعضهم عند مجيئه الى حمص لملاقاة جنود ابن طغج الاخشيد(٥١) بمرج عذراء(٥٢) الا أن تلك القبائل أثارت أحيانا القلاقل واشتبكت مع الحمدانيين فى كثير من الحروب التى تردد ذكرها فى شعر أبى الطيب وأبى فراس(٥٣) .

---

(٥٠) المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١١٣ .

- جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٥ ، ص ٦٠ .

(٥١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٥٢) مرج عذراء : على خمسة وعشرين كم من الشمال الشرقى لدمشق على مقربة من طريق حمص الى الشام .

- ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٢٥ .

(٥٣) ابن خالوية ، أبو عبد الله الحسين بن خالويه ، ديوان أبى فراس، ص١٥.

(مجلة المؤرخ العربى)

ورغم تلك القلاقل والاشتباكات ، فقد وضحت العصبية القبلية العربية ، عند اشتباكهم مع العصبية التركية أو الفارسية ، ذلك أن العرب ، ممثلين فى دولة بنى حمدان دأبوا على طرد النفوذين التركى والفارسى ، واستخلاص السيادة لهم .

الأتراك :

ظهر العنصر التركى على مسرح الدولة الاسلامية منذ وقت مبكر يرجع الى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور حيث وصل بعضهم الى امارة الألوية فى عهد هارون الرشيد بل ولى بعضهم الثغور الشامية ، مثل أبو سليم فرج الخادم صاحب الدار بأنطاكية ، فكان أول قائد تركى قاد الجيوش العباسية لحرب الروم(٥٤) على أن السيطرة الحقيقية لهذا العنصر ظهرت فى عهد المعتصم ، الذى اعتمد عليهم اعتمادا تاما فى الجيش واتخذ منهم حرسا خاصا له ، وأسند اليهم كذلك العديد من مناصب الدولة وآثرهم على الفرس والعرب .

ونظرا لما تميز به هؤلاء الترك من القوة وصحة البدن ، نظرا لطبيعة بلادهم وبداوة معيشتهم ، وحبهم للجندية والفروسية وحسن القتال ، أصبحوا عنصرا هاما فى الدولة الحمدانية ، فاستعان بهم الحمدانيون فى الجيش ، وكونوا منهم الغلمان الذين أعتمدوا عليهم كثيرا فى حروبهم ، واذا تتبعنا أخبار حروب الحمدانيين ، نجد أن خير قوادهم كانوا من الأتراك منهم نجا الكبير (الكاسكى) الذى أرسله سيف الدولة الى حران عام (٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م) لطلب هبة الله ابن أخيه ناصر الدولة الذى وثب على ابن دنجا النصرانى غلام سيف الدولة وقتله، فلما قرب نجا من المدينة ، هرب هبة الله الى والده الحسن فى مدينة الموصل ، فاستولى غلام سيف الدولة على حوران وفرض عليهم الضرائب، وأنزل بهم الظلم والجور(٥٥) ، ثم سار الى ميارفارقين(٥٦) وقصد

---

(٥٤) البلاذرى ، أبو الحسن أحمد بن يحى ، فتوح البلدان ، تحقيق ، صلاح المنجد ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(٥٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٢٧٨ .

(٥٦) ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢٧٣ .

بلاد ارمينية وأخذ البلاد التى كان استولى عليها أبو الورد مثل خلاط وملاذكرد وموش وغيرها(٥٧) وأظهر العصيان على سيف الدولة فشق عليه ذلك ، فخرج اليه ففر هاربا أمامه ، بعد أن ترك ما سبق الاستيلاء عليه الا أن أخا لنجا استأمن له فأعاده الى عمله(٥٨) وظل فى خدمته حتى قتل على يد غلام لسيف الدولة اسمه « قبجاج »(٥٩) .

ومن هؤلاء أيضا (قرغوية) الذى ولاه سيف الدولة على حلب عندما خرج للفداء عام (٣٥٤ هـ - ٩٦٥م) وبعد وفاة سيف الدولة ظل (قرغوية) فى خدمة سعد الدولة وشاركه فى القضاء على « أبى فراس الحارث بن سعيد بن حمدان لأنه أراد الاستقلال بحمص ورفض تسليمها لقرغوية(٦٠) فأمر أحد غلمانه وأوعز اليه بالتركية فقتله وحمل رأسه الى سعد الدولة (٣٥٧ هـ - ٩٦٧م)(٦١) وقيل ان سيف الدولة عز عليه ذلك فقتل قاتله وفى العام التالى ٣٥٨ هـ - ٩٦٨ م) حالف قرغوية أهل حلب على سعد الدولة ، وتقرب اليهم(٦٢) ولما دان له الأمر قطع الدعاء لسعد الدولة ، وشارك بكجور الأمر ، ودعى لهما على المنابر ، الا أن سعد الدولة بمساعدة زهير غلام والده سيف الدولة « بمعرفة النعمان »(٦٣) استطاعا اقتحام حلب فى رمضان من نفس العام ، وحاصروا قرغوية وبكجور الذين استعانوا بالروم بعد انصراف العرب عنهم(٦٤) وفى عام ٣٣٦ هـ - ٩٧٦م) قبض بكجور على قرغوية وحبسه

---

(٥٧) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٢٨١ .

(٥٨) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٥٩) مسكويه ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

- ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

- ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٢٩ .

(٦٠) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٣٠٧ .

(٦١) القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٦٢) محمد كرد ، المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٦٣) بلدة بين حلب وحماه كثيرة التين والزيتون - القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .

(٦٤) الروذاورى ، أبو شجاع محمد بن الحسين ، ذيل كتاب تجارب الأمم ، تصحيح هـ . ف أمدروز ، ص ٢١١ .

فى قلعة حلب وسلم القلعة لأبى المعالى ، الا أن بكجور أساء السيرة فى دمشق وفى النهاية عزل على يد العزيز بالله بوشاية من الوزير يعقوب بن كلس(٦٥) . ولم يستقر الأمر لسعد الدولة فى حلب الا عام ٣٦٧(٦٦) .

أما فى عهد سعيد الدولة (٣٨١ – ٣٩٢ هـ – ٩٩١ – ١٠٠٠م) فقد برز من هؤلاء القواد الاتراك أبو محمد لؤلؤ السيفى ، الذى استطاع أن يزوج سعيد الدولة من ابنته وأصبح له الامر ، حتى قيل انه اذا خرج سعيد الدولة لمحاربة الروم أقام لؤلؤ بحلب ، واذا خرج لؤلؤ أقام سعيد الدولة . وتذكر المصادر(٦٧) أن لؤلؤا حرض احدى الجوارى لدس السم لابنته وزوجها سعيد الدولة فماتا جميعا ، وفى عام (٣٩٣ هـ – ١٠٠٢م) ملك لؤلؤ السيفى ، ولدى سعيد الدولة أبا الحسن عليا وأبا المعالى شريفا الحكم ، الا أن تدبير أمور الدولة كان بيده وبمعاونة ولده مرتضى الدولة أبى نصر منصور بن لؤلؤ ، الذى كانت بينه وبين صالح بن مرداس عام (٤٠٢ هـ – ١٠١١م) وقعة انتهت بهزيمة ابن مرداس وأسره(٦٨) .

ويبدو أن كل أمير اتخذ له حرسا خاصا من هؤلاء الأعاجم ، حسب العادة المتبعة آنذاك ، فنجد الغلمان السيفية والسعدية ، نسبة الى الأمير الذى يقتنيهم ، وكان خير مثال على ذلك ، كما أسلفنا « قرغوية » الذى تلقب بالحاجب وبكجور الذى تلقب بالأمير ، وكتبت أسماؤهم على السكة عام (٣٥٨هـ – ٩٦٨م) .

(٦٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٤٣٢ .

(٦٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٦٧) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .
– ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .
– ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٨٧ .
– الروذراورى ، المصدر السابق ، ص ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ .

٦٨) لما تم لأبى لؤلؤ ، خطب للحاكم صاحب مصر فلقبه مرتضى الدولة ثم فسد ما بينه وبين الحاكم ، فطمع فيه ابن مرداس وبنو كلاب ودخلوا حلب ، فأمر ابن لؤلؤ باغلاق الأبواب والقبض عليهم وقبض على مائة وعشرين منهم ابن كرداس .
– ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .
– محمد كرد على ، المرجع السابق ، ص ٢١١ ، ٢٢٠ .

الأكــــراد :

هم سكان القسم الأعلى من الجزيرة ، حيث شكل هؤلاء عنصرا هاما من عناصر السكان ، واشتهروا بقوة أبدانهم وشدة بأسهم وبداوتهم التى اكتسبوها من طبيعة بلادهم الجبلية الوعرة وقد اشـــترك هؤلاء ، فى جميع الثورات والقلاقل التى نشبت فى كردستان طول العصرين الأموى والعباسى ٠

وقد فطن الحمدانيون الى قوة الأكراد ، فحالفوهم(٦٩) وتزوج حمدان جد الأسرة امرأة كردية ، وحذا حذوه حفيـــده ناصر الدولة ، فتزوج من فاطمة بنت أحمد الكردية ، التى كان لها تأثير كبير عليه ، بل قيل أن سيف الدولة كان من أم كردية ولهذا السبب خطب له أبو سالم ديسم بن ابراهيم الكردى ، صاحب اذربيجان ، خاصة أن سيف الدولة قد أنجده عام (٣٤٤هـ - ٩٥٥م) بعد أن هزمه السلار المرزبان ، فقصد سلماس بمعاونة بعض الأكراد وملكها فى وقت كان السلار غائبا بناحية باب الأبواب ، مشغولا بمن خرجوا عليه(٧٠) ٠

وما أن بدأ الوهن يدب فى جسم الدولة الحمدانية منذ عام (٣٨٠هـ - ٩٩٠م) خلال حكم سعد الدولة ، حتى بدأ هؤلاء الأكراد يسيطرون على ميافارقين وارزن وديار بكر ، وكونوا امارة ذات بلاط زاهر(٧١) ٠

الديـــلم :

وهم من الشعوب التى سكنت الجنـــوب الشرقى لبحـــــر قزوين واشتركت فى الثورات والفتن الداخلية التى كانت قد اندلعت بشدة فى ذلك الوقت ، فانضم هؤلاء بزعامة الحســـن بن الأهوازى(٧٢) ٠ الى

---

(٦٩) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١١٢ ٠

(٧٠) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٦١ ٠

(٧١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ ٠

- ابن خلدون ، العبر ، ج ٣ ، ص ٥٢٧ ٠

(٧٢) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، ويذكر ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٢٨٨ أنه ظهر متمرد آخر فى أنطاكية يسمى دزبر ٠

رشيق النسيمى(٧٣) عام (٣٥٤هـ - ٩٦٥م) عندما حرض الانطاكيين على الثورة وسلم طرسوس الى البيزنطيين ، وسار بهم الى حلب يريد انتزاع حلب من قرغوية غـــلام ســـيف الدولة الذى دافع عنهـــا دفاع الأبطال(٧٤) لم يقف ســـيف الدولة ، مكتـــوف اليدين فانقض عليهم وهزمهم ، ودافع عن حلب دفاع المستميت ، حتى أن الجيوش البيزنطية ظلت تعبث وتفسد مدة خمسين يوما فى الضواحى ، دون أن تستطيع دخول المدينة(٧٥) ، على أن بطولة هذا الأمير توقفت عند ذلك الحد اذ عاجله المرض ، وما زال يدافع ويقاوم حتى وفاته بعد أن قضى نصف عمره فى ابعاد الروم من حدود آسيا الصغرى(٧٦) .

أهل الذمــة :

فاذا تركنا الجانب العنصرى فى بناء المجتمع ، ونظرنا الى ذلك المجتمع من الناحية الطائفية الدينية ، فاننا نجد الى جانب الغالبية من المسلمين جماعة من أهل الذمة تمتعوا بحياة مطمئنة فى ظل الحمدانيين، رغم العداء الصليبى ، الذى تمثل فى هجمات الروم على مدينة حلب ، وما كان يحمل فى ثناياه من روح التعصب ، ولكن المسلمين واجهوا ذلك التيار بسماحة بالغة ، فعاش هؤلاء فى أمن وطمانينة ، داخل مزارعهم ومنازلهم ، محافظين على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ، وقد كون أهل الذمة أقلية كبيرة ، وكان أكثر الأطباء منهم ومن الثابت أن طبيب ســيف الدولة كان نصرانيا ، واشتهر من هؤلاء الأطباء عيسى الرقى ، ظافر ابن جابر السكرى ، جابر بن موهوب ، سكرة الحلبى(٧٧) وكان منهم أيضا المهندسون والرياضيون وعلماء الفلك واشتهر منهم ديونيسيوس بطريق اليعاقبة ، قيس المارونى وغيرهم من العلماء ، وكان ملكون السريانى ،

---

(٧٣) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٢٨٨ .

(٧٤) مسكويه ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢١٤ .

(٧٥) ابن كثير ، المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ٢١١ .

(٧٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٧٧) ابن أبى أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، جـ ٣ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٨ .

سفيرا لسعيد الدولة لدى امبراطور الروم(٧٨) أما اليهود فقد احترفوا التجارة ومارسوا شتى أنواعها ، وخاصة تجارة المجوهرات(٧٩)، والصرافة والصياغة ، ولذلك وصفوا بالملوك • وقد تركز النصارى فى مدينة ميافارقين التى كانت تزخر بالكنائس والاديرة ، فى حين كان معظم اليعاقبة بانطاكية(٨٠) •

ومن مظاهر التسامح مع أهل الذمة أن كثيرا من الخلفاء والأمراء اتخذوا كتابا من النصارى ، وذلك لبراعتهم فى الأمور الادارية ، وكانوا يلقون احتراما من المسلمين(٨١) وترك لهم الاحتفال بأعيادهم بمنتهى الحرية ، بل شاركهم المسلمون ، فى الجانب الاجتماعى لتلك الاعياد ، فكان الجميع يلتقون فى الكنائس وأماكن الاحتفالاتعلى مودة تامة(٨٢)•

طبقات المجتمع :

ساد المجتمع الاسلامى ، خلال القرن الرابع الهجرى ، طبقتان : طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء •

تشمل الطبقة الأولى : الخلفاء والأمراء ، وكبار رجالات الدولة ، والتجار الأغنياء ، وملاك الأراضى الزراعية •

أما الطبقة الثانية ، فكانت خليطا من الصناع والفلاحين ورجال الجيش ، وصغار الباعة ، وصغار الموظفين ، علاوة على البدو وجماعات الرقيق •

وكان الحمدانيون من أغنى أمراء المسلمين فى القرن الرابع الهجرى

---

(٧٨) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٠٠ •
(٧٩) المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ •
(٧٩) ٠٦س ترتون ، أهل الذمن فى الاسلام ، ترجمة ، حسن حبشى ، ص ١٠١ •
(٨٠) المسعودى ، المصدر السابق ، ص ١٥٦ •
(٨١) ترتون ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ •
(٨٢) آدم ميتز ، المرجع السابق ، ج ٢ ز ، ص ٢٣٦ •
– ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ص ٥٠٠ •

لانهم اعتبروا انفسهم ، أصـــحاب الأرض بما تضـــمه من زرع وضرع ومواطنين(٨٣) وهناك العديد من الأدلة التى تثبت هذا الثراء - كان سيف الدولة يستولى على أرث من يموت بمساعدة قاضيه أبو حصن على ابن عبـد الملك ، الذى كان يقـــول « كل من هلك فلســـيف الدولة ما ترك »(٨٤) .

كان الأمير الحمدانى ، هو المشرف على الادارة والماليــة والحرب ويولى الموظفين ويعزلهم(٨٥) .

كان سيف الدولة يجلس فى قصره « الدارين » الذى يضاهى قصور الخلفاء لابسا تاجا مرصعا بالجوهر ، وقيل أن الروم عندما دخلوا حلب عام (٣٥١هـ - ٩٦٢م) طفر الدمستق بهذا القصر ، فوجدوا به ثلاثمائة بدرة من الدراهم ، وثلاثمائة حمل من البز والديباج ، وخمسين حملا من أوانى الذهب والفضة - وألفا وأربعمائة بغلا ومن خزائن الســـلاح مالا يحصى(٨٦) .

بلغ ما جاد به سيف الدولة ، سبعمائة ألف ألف دينـــار ، عدا ما أنفقه فى حروبه وشئون دولته(٨٧) .

وجبى الحمدانيون الخراج بطريقتين ، المحاسبة والمقاسمة ووصلت نسبة الخراج ، فى بعض الحالات الى خمسين فى المائة أى نصف قيمة الغلة(٨٨) التى تنتجها الأرض .

---

(٨٣) آدم ميتز ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

(٨٤) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٨٥) آدم ميتز ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

(٨٦) المسعودى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

- ابن العماد الحنبلى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٧٩ .

- ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٢١٣ .

(٧٨) مسكويه ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٩٢ .

(٨٨) ادم ميتز ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ .

وقد أكثر الأمراء من اقتناء الرقيق والجوارى ، من ذلك أن سيف الدولة ركب مرة من داره ومعه الف غلام مملوك بألف جوشن مذهب على الف فرس عتيق ، وكان فى قصره كثير من الحظايا والجوارى(٨٩) ٠

وكان أفراد طبقة الخاصة الأغنياء فى حلب يعيشـــون فى منازل رفيعة يحاكون الحكام ٠ وكانت تحيط بتلك المســاكن الحـــدائق الغناء الحافلة بالورود والياسمين والبنفسج والأقحــوان وغيرها من الأزهار ، وكان هؤلاء يقطعون أوقات فراغهم ، بمختلف وسائل التسلية ، ومنهــا حفلات الشراب ، وتطارح الشعر وسماع الغناء ولعب الشطرنج والنرد وغير ذلك(٩٠) ، وكانت موائدهم تزخر بالعديد من صنوف الطعام ، وقد ظن هؤلاء أن العامة أحيانا ، يدعمون نفوذهم فكانوا يعملون على استرضائهم بأبسط أساليب السخاء ، حيث يمدون لهم الأسمطة ويدعونهم اليها فيجتمع الآلاف منهم حولها على مدار اليوم فى أماكن متفرقة(٩١)٠

أما العامة على كافة مستوياتهم ، فكانوا اذا تطلعوا الى شىء من الرفاهية والثراء ، التمسوا ذلك : لدى الأمراء والأغنياء فالعلماء التمسوه فى خدمتهم ، والشعراء وجدوه فى مديحهم ، والتجار سارعوا فى عرض ما يقع بحوزتهم من نفيس الجواهر ، والصناع اذا أحسنوا صناعة فهؤلاء مقصدهم(٩٢) ٠ والواقع ان العامة كانوا يعيشون فى ضنك من العيش ، فقل أن يجدوا الكفاف لانخفاض مستوى المعيشة فالمزارعون « الأكره » الذين كان يتألف منهم معظم السكان كان معظمهم من أهل الذمة وهؤلاء غالبا ما كانوا يسكنون القرى ويعملون بحرفة الزراعة ومن أسلم منهم كان ينزل الى المدن ٠ وبجانب هؤلاء عاش الصناع يعملون فى صناعاتهم والاتجار بها(٩٣) ٠

وفى ظل هذه الأوضاع ســـاد الزهد ، وأحس غالبيتهم بأن نعيم

---

(٨٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢ ٠

(٩٠) عبد الجليل حسن ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ٠

(٩١) جورجى زيدان ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٩٠ ٠

(٩٢) أحمد أمين ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٩ ٠

(٩٣) آدم ميتز ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، ٣١٠ ٠

الدنيا زائل وأنه اذا حرم الدنيا فليطلب الآخرة ، كما انتشر الدجل والاعتقاد فى السحر والبحث عن الكنوز المخبوءة .

ومع ذلك ، فقد وجدت جماعة من المقربين من الخاصة مثل كبار التجار والبارزين من العلماء ، وقد اختص كبار التجار ببيع المجوهرات والمصنوعات والثياب الفاخرة ، ومنهم من طافوا العالم برا وبحرا ، ترويجا لتجارتهم التى درت عليهم الملايين من الدنانير . أما المبرزون من العلماء ، فقد اتصل بعضهم بالأمراء ونالوا بعض مناصب الدولة ، كالقضاء وغيره من المناصب(٩٤) .

مجالس الأنس والطرب والولائم :

على الرغم من الحروب الطاحنة على حدود الدولة والفتن الداخلية الا ان الدولة الحمدانية حفلت بمجالس اللهو والمجون ، وقد عمد الأمراء الحمدانيون وغيرهم من علية القوم ، الى اقامة تلك المجالس فى قصورهم .

وكانت تلك المجالس عامرة ، بألوان من الطعام والشراب ، والشهيرات من القيان ، وكبار المطربين ، كما كان كبار الشعراء والأدباء يحضرون تلك المجالس .

وقد أطنب شعراء الحمدانيين فى وصف الخمر ومجالسها وأدوات شربها ، وحاناتها والندمان والغلمان ، مما يدل على انتشار عادة الشرب فى مجالس حلب وحاناتها التى كانت على ما يبدو كثيرة يديرها أهل الذمة ، ويقصدها الأدباء والظرفاء ليلا ، حيث يتمادون فى اللهو ، ولم ينس هؤلاء فى أشعارهم وصف الساقى والساقية بل جمعوا بين الخمر ووصف أماكن الشرب ولا سيما الأديرة فى كثير من الأحيان(٩٥) .

---

(٩٤) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .
- جورجى زيدان ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٤٨ ، ٥٠ .
(٩٥) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

وقد أولع الحمدانيون بالموسيقى والغناء(٩٦) ، وكان سيف الدولة عندما ينتهى من عناء الحروب ، يخلد الى الراحة ، وتطيب نفسه الى السماع الجميل ، وقد ضم بلاطه الفارابى أكبر موسيقى اسلامى وقيل أنه أول مخترع للقانون وضم بلاطه أيضا ساردا العواد الذى كانت له شهرة كبيرة بضرب العود(٩٧) .

ومن مطربيه رجل يسمى الهنكرى ، ومغنية يسحره صوتها عرفت بالجيداء ، ولعب هؤلاء دورا كبيرا فى ذيوع الطرب فى هـذا الوقت بحلب ، وفى ادخال البهجة والسرور على قلب سيف الدولة ، كما كان يطيب له أن يسمع جيداء تلك فى كلمات من نظمه ، حيث تقول(٩٨) :

يا طول شوقى اذا قالوا الرحيل
ويا بلائى منه اذا وقدا
أضنانى الحب اذ تعرض بى
ما قتل الحب هكذا أبدا

وقد ذكر الشعراء فى ثنايا شعرهم اسماء بعض آلات الطرب آنذاك مثل العود والطنبور(٩٩) والمزهر والناى .

وقد وصف الوأواء الناى والعود اذ يقول(١٠٠):

فالناى بيدى أنيناً ... يشجى وللعود ضرب

---

(٩٦) قال الفلاسفة (ان النغم والأغانى فضيلة شريفة قد تعذرت عن المنطق ، ليست فى قدرته ، فلم يقدر على اخراجها ، فاخرجتها النفس الحانا فلما اظهرتها سرت بها وعشقتها وطربت اليها) .
— المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٣٢١ .
(٩٧) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢٠ .
(٩٨) فايد العمروسى ، الجوارى المغنيات ، ص ٢٥٥ .
(٩٩) قيل أن أول من غنى فى الاسلام بالطنبور (أحمد بن أمامه الهمدانى قرين أعشى همدان — الصفدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، الوافى بالوفيات ، جـ ٦ ، ص ٢٥٧ .
(١٠٠) فايد العمروسى ، المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

أما أبو الفتح كشاجم فقد وصف الطنبور بقوله(١٠١) :

ممنطـــق الخصــر أجـــوف   جيـــد ضـــعف ســـائره
لفظـــه لفـــظ عاشـــق   يشـــتكى هجـــر هاجـــره
ذو لســـانين فوقـــه   عـــدلا مـــن مقـــداره

وظهرت خلال ذلك جماعة من الظرفاء والندماء ، عاشت قريبة من الأمراء وذوى النفوذ ، وكانت مهمتهم ادخال السرور والبهجة فى قلوب هؤلاء ، حيث كانوا على درجة كبيرة من سرعة البديهة وحضور الخاطر ، عالمين بكل ما يحب الأمراء من الجوهر النفيس ، والانواع الممتازة من الطيب والفراش ، والخيل والسلاح ، وسائر ما يهدى الى هؤلاء الأمراء فى مجالسهم ، التى يسودها اللهو والطرب ، أو فى أوقات خلودهم الى الراحة والاستجمام ، وهناك صفات وجب أن يتحلى بها هؤلاء ، خاصة عندما يكونون فى حضرة الأمراء وعلية القوم أوردها لنـــا كشاجم « فى كتابه أدب الندماء(١٠٢) .

وكان لكثرة الجوارى والغلمان اثر واضـح فى ازدياد الانحـــلال الخلقى فى مجتمع الحمدانيين ، الأمر الذى ساعد على ، انتشار ظاهرة شرب الخمر بلا رادع ، وما أنتجه الشعراء من شعر لم يبال بالقواعـــد الدينية والأخلاقية المتعارف عليها فى مجتمع اسلامى ، وانما زخر شعر هؤلاء أيضا بالتغزل بالجوارى والغلمان ، ووصفوا مجالسهم فى الحانات والدور والزيارات الليلية الماجنة ، التى قام بها أولئك للغلمان والجوارى ، وقيل أن الأديرة شهدت الكثير من ذلك النشاط الماجن ، وربما يرجع ذلك الى تعدد الأديرة وكثرتها ، وربما لتطرفها فى أماكن نائية بعيدة عن الرقابة الفعلية ، أو ربما نقلت هذه العادة من المجتمع الفارسى والهندى والرومى ، التى كانت فيه منتشرة بدرجـــة كبيرة ، خاصـــة عند بنى بويه(١٠٣) .

---

(١٠١) الثعالبى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٦ .
(١٠٢) كشاجم ، أبو الفتح محمود ، أدب الندماء ولطائف الظرفاء ، ص ١٧ وما بعدها .
(١٠٣) مصطفى الشكعة ، سيف الدولة الحمدانى ، ص ١٧٧ .

أما عن ألوان الطعام فكانت متعددة وكثيرة منها على سبيل المثال ما كان محببا وتحت طائلة علية القوم ، كالحملان المشوية والجداء والفراريج والحمام ، والمقلوات فى الطواجن والسمك ، واعتبر الدجاج دعامة السماط ولذلك كان سعره مرتفعا ، وكان الدجاج يسلق ويقطع ، ثم يعرق بالسيرج « زيت السمسم » ، ويضاف اليه الكثير من أنواع البهارات كالكزبرة والمستكة(١٠٤) .

ولم يفت السرى الرفاء أن يتغنى فى ذلك بقوله(١٠٥) :

دجاجة فى شبه السمند ... تليدة وفخرها بالهند
عظيمة الزور بصدر نهد ... أجريت منها فى مجال العقد
صب عليها اللوز مثل الزبد ... وغليت بعد بماء الورد

ومن الحلوى ، السمبوسة والمهلبية والكشكية (ماء الشعير الذى يعجن باللبن والجوز واللوز) والتمر . ومن أنواع الفاكهة ، السفرجل والبطيخ والتفاح والعنب الرازقى والرمان . ومن المشهيات ، السلطة الحصرمية والعدسية ، علاوة على البيض والجبن والزيتون والباذنجان. وكان أمراء بنى حمدان يستشيرون الأطباء فى الأطعمة التى تحافظ على صحتهم ، وقيل : ان سيف الدولة كان يستدعيهم اليه أثناء تناول الطعام(١٠٦) .

ونتيجة لهذا البذخ والاسراف فى تناول الطعام نوعا وكما ، كثرت الشكوى من أمراض القناة الهضمية، كالقولنج وتلبك المعدة ، والدوسنتاريا

---

(١٠٤) حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٦٣٠ .
(١٠٥) ديوان السرى الرفاء ، ص ٩٥ .
(١٠٦) الثعالبى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .
كان سيف الدولة اذا أكل الطعام حضر على مائدته أربعة وعشرون طبيبا ، وكان فيهم من يأخذ رزقين لاجل تعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم وكان من جملتهم عيسى الرقى المعروف بالتفليسى وكان يأخذ أربعة أرزاق رزقا بسبب الطب ورزقا بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين . ابن ابى أصيبعة . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٣ .

وغيرها من الأمراض التى تسببها كثرة تناول اللحوم ، كالنقرس · وقد راح ضحية هذه الأمراض الكثير من الامراء(١٠٧) أما عن أطعمة العامة فكانت تتألف من أكلات شعبية كاللحم والخبز والسمك ومنه المشوى والمقلى والمطبوخ ، والهريسة من الحلويات والعصيدة ، وكانت تصنع من التمر مضافا اليه بعض السكر أو العسل ، والثريد ، ويصنع ، من المرق واللحم ، وقد يضاف اليه الحمص ، وكان الأرز يخلط باللبن والسمن والسكر ، ومن تلك الأكلات الشعبية أيضا الرؤوس والأكارع وكانت تباع فى الأسواق اما مطبوخة أو نيئة ، أما الفاكهة فلم تختلف كثيرا عما كان يتناوله علية القوم ، ويزيد فى قيمة ما يقدم من الطعام ما يضاف اليه من المسك والعنبر والزعفران والقرنفل وغيرها ·

وسائل التسلية :

تعددت وسائل التسلية فى المجتمع الحمدانى الذى حظى بالثراء وجفل بالشعراء والظرفاء فكان لابد من شغل أوقات الفراغ ، وخاصة أنهم كانوا لا يشغلهم شاغل ، ولا يرهقهم عمل · ومن وسائل التسلية عدد من الألعاب منها : ـ

النرد :

وعرف هذا النوع من اللعب فى عهد الباهبوذ بن البرهمى(١٠٨) وجعل ذلك مثالا للمكاسب ، وأنها لا تنال بالكيس ولا بالحيل ، ويستعمل فى اللعب بها ثلاثون حجرا ، لعدد أيام الشهر ، وفصان ، مثالا للقدر وتتليه بأهل الدنيا ، على رقعة رسم ، اثنا عشرة منزلا أو أربعة وعشرون منزلا ، وأن الانسان يلعب بها فيبلغ بأسعاد القدر اياه ، فى مراده باللعب بها ما يريد ، وأن الحازم الفطن لا يتاتى له ما تأتى لغيره ، الا اذا أسعده القدر(١٠٩) ·

---

(١٠٧) حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٦٣٥ ·
(١٠٨) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٨٠ ·
(١٠٩) نفس المصدر والصفحة ·

وقد ذم الشاعر كشاجم النرد بقوله(١١٠) :

أيهـــا المعجب المفاخـر بالنـرد ليزهى بـــه على الاخـــوان
قد لعمرى حرصـت جهدى على ليت كـذا لو لـم يأتك الغصـان
واذا جـــاءت القضـــاة بحـكم لم يحـد عن قضـائها الخصمان

الشـــطرنج :

صنع الشطرنج فى عهد بلهت بن دبشليم ، فقضى بلعبها على النرد وقد لعب هذا الملك بالشطرنج مع حكمائه وقد أخذها العرب عن هؤلاء، واتخذت أدواته من العاج ، وأشكاله على صور الحيوان ، وكل قطعة منه كالشبر فى عرض ذلك بل أكثر ، ويلعب على رقعة حمراء مربعة من الأدم ، وكان الأغلب على الهنود القمـــار فى لعبهم بالشطرنج ، على الثياب والجواهر ، وربما أنفذ الواحد منهم ما معه ، فيلعب فى قطع عضو من أعضاء جسمه(١١١) .

الســـباق :

ومن أنواع التسلية أيضا ما كان يعقد من سـباقات بين الحمام ، حيث كانت هواية محببة ، بين الخاصة والعامة ، الا أنها حوربت فى بعض الأحيان ، عندما تكون مقلقة لراحة الناس ، لمـــا ينتج عنها من الصياح ورمى الأحجار ، وسقوطها على أسطح المنازل(١١٢) . وكان سباق الخيل ، من أحب ألوان التسلية خاصة عنـــد الأمراء وكبار رجال الدولة ، وقيل أن الفقهاء أباحوا أيضا هذا اللون من الرياضـــة ، على ألا يكون وسيلة للحصول على المال ، وكان أنتشاره دليلا على تهيئة الناس للاستعداد للحرب ، وكان لسيف الدولة ميدان لسباق الخيل فى حلب ، تتوسطه دكة ، يتفرج منها على الخيـــل وهى مسرعة ، وبجانب تلك الوسائل كانت وسائل أخرى ، مثل ســـباق مهارشة الديكة ، والكرة ، والصولجان وغيرهم .

---

(١١٠) الثعالبى ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .
(١١١) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٨٠ ، جـ٢ ، ص ٧ .
(١١٢) حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٦٥٥ .

الصـــيد :

وكان الصيد أحب تسلية لدى الحمدانيين ، فقد أغرم به الأمراء ، وحفلت أشعار شعرائهم بذكره ، وكانت الوحوش والظباء تصاد بواسطة الصقور والكلاب ، وكانت الكباش تصاد بالحبال بالمطاردة بواسطة الخيل والـكلاب أيضا ٠

وفى ذلك يقول السرى الرفاء يصف الصيد بالكلاب(١١٣):

قمنـا بها نهتـك أسـتار الظـلم	وبيننـــا ذات ضجيج نختصم
حتى اذا السرب تراءى من أمـم	حيران ، قـــد ألبسه الذعر لـم
صــد قوافى ، ثم ألقى للســلم	وظـل نهبــا بالأكف مقتســم

ويقول أبو فراس الحمدانى فى ذلك(١١٤) :

دعـــوت بالصـفار ذات يـــوم	عند انتباهى ســحرا من نومى
قلت لـــه اختر سـبعة كبـــارا	كــل نجيـب يـــزد الغبـــارا
يكـون للأرنب منهـــا اثنـــان	وخمســـة تفــــرد للغـــزلان

وكانوا يقومون بالصيد نهارا ويخلدون للراحة والأكل والشراب ليلا، وربما استمر ذلك سبع ليال متوالية ٠

ولم يقتصر الصيد على البر فقط ، بل تعداه الى الصيد فى البحار والأنهار وقال السرى الرفاء يصف صيد السمك(١١٥) :

وأعـــين تأنف من أغضـــائها	صـافية الأجفان من أقذافهـــا
تردى بنـــات الغدر فى أثنائها	لحمهـــا طيبا يجسم دائهـــا

---

(١١٣) محمد راشد أنيس ، الشعر فى رحاب سيف الدولة الحمدانى ، ص ٢١٠٠

(١١٤) ابن خالوية ، المصدر السابق ، ص ٣١٩ ٠

(١١٥) ديوان السرى الرفاء ، ص ١٣ ٠

الحمامات العـامة :

وكانت الحمامات لأهل هذا العصر ، من الخاصة والعـامة على السواء ، خاصة الذين يودون الاحتفاظ بالرشاقة ونظافة الجسم وقد كثرت تلك الحمامات بدرجة كبيرة فى مدينـة حلب ، وكانت متأثرة بالطابع البيزنطى ، حيث غلب عليها التزين بالصور ، ويبدو من أشعار الشعراء ، انها كانت تتخذ أيضا لشرب الخمر والأكل بل انتشرت عـادة القـذف بالملابس ، ويبدو كذلك أن القيان كن يقمن حفلات الغنـاء داخل تلك الحمامات .

وفى ذلك يقول السرى الرفاء(١١٦) :

بيت له داخـل حل النعيم بـه	وخارج فيه للقلب الشـجى مـزج.
ذو قبـة كسماء ، والبدر بهـا	جاماتها فى ذرى فى الجو تسترج.

ارتياد الأديرة :

أما الصورة الحقيقية لهذا العصر فنراها متجلية فى حياة الأديرة ، التى كانت مجالا للأنس ، وميدانا يطلق فيه للشـعراء العنان فيلهون ويشربون ، ولعل أهل الذمة خاصة المستضعفين منهم ، كانوا على استعداد تام لاستقبال زوارهم خاصة اذا كانوا من الأمراء وعلية القوم ، وخاصة أن تلك الفئة تمتعت بالثراء ، فى حين كان عامة الشعب والفقراء منهم ،

وامتازت تلك الأديرة بجمال الموقع وسحر المكان وجودة النبيذ ، ووجود العديد من الراهبات والغلمان الحسان ، مما دفع أهل ذلك العصر الى ارتيادها خاصة فى أعياد النصارى(١١٧) واشتهرت حلب بعدة أديرة منها « دير مارمروتا » ، وهو دير صغير يقع خارج المدينة فى سفح جبل جوشن على نهر العرجان ، وكان سيف الدولة يحسن الى أهله ، وكان

---

(١١٦) نفسه ، ص ٤٥ .

(١١٧) الشابشتى ، أبو الحسن على بن محمد ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، ص ١٣٩ .

كثير الزيارة لهذا الدير وفيه يقول الصنوبرى(١١٨) :

أما ترى البيعتين أفردتا ... بمفرد الأقحوان والمزوج
أبوابه المرن كيف ما اتصلت ... ونــاره البرق كيف ما أججـ

وقال أيضا يصف دير زكى بقرية بطياس(١١٩) :

انى طربت الى زيتون بطياس ... بالصالحية ذات الورد والآس
من ينس عهدهما يوما فلست له ... وان تطاولت الأيام بالناس
ياموطنا كان من خير المواطن لى ... لما خلوت به ما بين جلاسى

وقد أثرت تلك الأديرة فى الحياة الأدبية ، اذ تردد عليها الشعراء وقالوا فيها شعرا جميلا ، وامتدحوا فيها الرهبان ، بما امتازوا به من خفة الروح ، وسعة الاطلاع والمشاركة فى اللقاءات الثقافية والأدبية .

وفى ذلك يقول كشاجم(١٢٠) :

قد عدلوا ثقل أبدان بمعرفة ... منهم لخفة أبدان وأرواح
ورشحوا غرر الآداب فلسفة ... وحكمة بعلوم ذات أوضاح
فى طب بقراط لحن الموصلى ... وفى نحو المبرد أشعار الطرماح

مجالس الشعر فى عهد سيف الدولة :

كان شعراء الحمدانيين على درجة من كثرة العدد ووفرته ، بحيث يتعذر أن ينسبوا الى اقليم واحد ، بل كان أغلبهم من الوافدين الذين ، استهواهم ما فى بلاط سيف الدولة من ترف ، وما لديهم من عطاء .

فمنهم من أنتسب الى حلب نفسها مثل « الصنوبرى ، الخليع الشامى ، السرى الرفاء ، الخالدين من الموصل ، كشاجم ، الوأواء ،

---

(١١٨) الثعالبى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١١ .
(١١٩) الشابشتى ، المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .
(١٢٠) الثعالبى ، جـ ١ ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٢ .

الواسانى من بلاد الشام ، المتنبى ، الزاهى، ابن نباته من العراق(١٢١) . علاوة على أبى فراس الحمـــدانى ، ابن عم ســيف الدولة ، وأحــد قواده وولاته .

سيف الدولة شاعرا :

أنشأ الثعالبى فصلا فى يتيمة الدهر ، أورد فيه الكثير من أشعار سيف الدولة وذكر أنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ، بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، وكان أديبا شاعرا ، محبا لجيد الشعر ،شديد التأثر لما يمدح به(١٢٢) الا أن ابن العديم(١٢٣) ذكر انه ينسب الى سيف الدولة أشعار كثيرة ، لا يصح منها له غير بيتين؛ ذكر أبو القاسم الحسين بن على المغربى كاتبه ، وهو جــد الوزير أبى القاسم المغربى ، انهما لسيف الدولة ولم يعرف له غيرهما ، وكتب بهما الى أخيه ناصر الدولة ، وقد مد يده الى شىء من بلاده المجاورة له من ديار بكر ، وكانت فى يد أخيه .

لست أجفو وان جفيت ولا أترك ... حقـــا على فى كــل حــال
انما أنت والـــد والأب الجافى ... يجــازى بالصــبر والاحتمال

شعراء عاصروا سيف الدولة :

المتنبى : ولد أبو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفى المتنبى عام (٣٠٣هـ - ٩١٥م) لحق بالأمير سيف الدولة الحمدانى بعد اطلاق سراحه، حيث كان معتقلا لمدة عامين على يد لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيد ، ولم يطلق سراحه الا بعد التحقق من أنه عاد الى حظيرة الايمان ، بعد أن كان قد ادعى النبوة فى بادية السماوة من أعمال الكوفة عام (٣٣٧ هـ -

---

(١٢١) مصطفى الشكعة ، فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ، ص ١٢٢ .
(١٢٢) الثعالبى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧ ، ابن خلكان ، المصــدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٨١ .
(١٢٣) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

٩٤٨م)(١٢٤) وقد رأى فيه سيف الدولة عنصرا قويا من عناصر العظمة ، فاحبه وأخلص له الحب ، وظل تسع سنوات كاملة فى حماه ينعم بهباته وعطفه ، ولكن الرجل الموهوب ، لابد أن يكثر حاسدوه ،فمازالوا يكيدون له المكايد ويؤلبون عليه الأمير ، حتى ترك حلب الى مصر واتصل بكافور الاخشيدى ، ومدحه بقصائد قوية ، الا أن كافورا لم يحقق له ما كان يصبو اليه ، فانقلب المدح الى هجاء لاذع ثم انسل فى جوف الليل الى بغداد ومنها الى فارس ، يمدح ابن العميد حينا وعضد الدولة حينا آخر • ثم عاد الى وطنه يحمل الأموال والهـــدايا الثمينة والكتب النفيسة وما أن اقترب من بغداد حتى داهمه فاتك الأسدى ، على رأس شرذمة من رجاله فقتلوه وكان قد أشرف على الخمسين(١٢٥) •

كان المتنبى حين استقرت الأمور بحلب لسيف الدولة فى العقد الثالث من عمره وكان قد مر بألوان مريرة من بؤس الحياة وشظف العيش ذاق الفقر وذاق الهوان ، ودخـــــل الى بلاط ســـيف الدولة وبه بعض الهيبة والذعر ، لأن بلاط سيف الدولة ، كان يعج بأكابر العلماء والأدباء والشعراء مثل الفارابى الفيلسوف وابن خالويه النحوى ، وابن جنى اللغوى ، وأبى ذر الصنوبرى وكشاجم وابن نباته ، وأبى الفرج العجلى وغيرهم كثير من الشعراء والقضاة والفنانين ، ولكن وثوقه من نفسه ، ورغبته فى المجد والشهرة ، جعلته يقتحم هذا الميدان ، وأن لا يعد نفسه غريبا ، لقد رأى فى هذا البلاط أيضا بذخا وثراء ، وأدبا وفنا وفروسية ومجدا ورأى فى سيف الدولة رجلا • يختلف عمن خبرهم من الرجال • وهـــذه الظواهر مجتمعة فتحت أمام عينيه آفاقا جديدة نقلته من حال الى حال ، من حياة القلق والضجر الى الرغـــد والاطمئنان ، استطاع أبو الطيب المتنبى أن يكون فى طليعة من يصحبهم سيف الدولة فى غزواته وحروبه ، وفى صيده ولهوه ، وفى سمره وليالى أنسه ، وبدأت المؤامرات تحاك حوله وبدأوا يدسون عليه ، ويصورون شعره شعرا مبتذلا ، لا يستحق هـــذا الاكبار والاجلال ، وكان فى طليعة هؤلاء النامى الشاعر ، وابن خالويه مؤدب

---

(١٢٤) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ٥ •

(١٢٥) سامى الكيالى ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ •

سيف الدولة ، وأبو فراس ، ابن عمه ، الذى كان أكثرهم حقدا عليه ، الا أن المتنبى لم يكن من الضعف بحيث يهرب من التعريض به ، فصمد وكون حوله جماعة من محبيه ، وظل طيلة مدة اقامته الشاعر الفذ الذى لا يدانيه شاعر فى الحظوة والرعاية .

وقال فى مدح سيف الدولة(١٢٦) .

خليــلى انى لا أرى غيــر شــاعر
فلم منهـم الدعوى ومنى القصـائد ؟
فـلا تعجبــا ان الســيوف كثيـرة
ولــكن سـيف الـدولة اليوم واحــد
له من كريم الطبع فى الحرب منتض
ومن عــادة الاحســان والصفح غامـد

وقال يمدح سيف الدولة ، ويذكر بنــاءه مرعش فى المحـــرم عام (٣٤١هـ - ٩٥٢م)(١٢٧) :

فدينـــاك من ربع وان زدتنا كـــربا
فانك كنت الشـرق للشمس والغـــربا
فرب عــلام عـــلم المجـــد نفســه
كتعـليم سـيف الدولة الطعن والضربا
اذا الدولة اسـتكفت بـــه فى ملمـــة
كفـاها فـكان السيف والكف والقلبـا

وقال فيما كان يجرى بينهما من معاتبة(١٢٨) :

الا ما لســـيف الدولة اليــوم عاتبـا
فـداه الورى أمضى السيوف مضـاربا

---

(١٢٦) الثعالبى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨ .
(١٢٧) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .
(١٢٨) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

ومالى اذا اشـــتقت أبصـــرت دونــه
تنائف لا اشـــتاقها وســـباسبا(١٢٩)
حنـــا نيــك مسؤولا ولبيـــك داعيـــا
وحسـبى موهـوبا وحسـبك واهبــا
وان كـــان ذنبى كـــل ذنـــب فانــه
محا الذنب كل المحو من جـاء تائبـا

وقال يهنىء سيف الدولة بعيد الفطر(١٤٠) :

الصوم والفطر والفطر والأعياء والعصر
منيـــرة بك حتى الشـمس والقمـــر
ما الدهـــر عنـــدك الا روضـــة أنف
يامـــن شـــمائله فى دهـــره زهـــر

وقال يعوده من مرض(١٣١) :

اذا أعتـــل سيف الدولة اعتلت الأرض
ومن فوقها والبـأس والـكرم المحض
شـفاك الذى يشـفى بجـودك خلقـه
فانــك بحــر كـــل وبحـــر له بعض

وكان آخر ما أنشده مدحا فى شوال (٣٤٩هـ - ٩٦٠م)(١٣٢) :

أيا أســـدا فى جســـمه روح ضيغـم
وكـــم أســـد أرواحهـــن كـــلاب
ويا آخـــذ من دهـــره حـــق نفســه
ومثـــلك يعصـــى حقـــه ويهـــاب

---

(١٢٩) سباسبا (تعنى الصحراء) .
(١٣٠) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ .
(١٣١) نفس المرجع ، ص ١٦٣ .
(١٣٢) نفسه ، ص ١٦٠ .

أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدونى : ابن عم سيف الدولة وأحد قواده وولاته ، يعود بعمومته الى تغلب ، وبخؤولته الى تميم قيل أنه ولد فى الموصل فسماه والده الحارث وكناه أبا فراس ، أى الأسد ولم يخيب ظن والده فقد كان فارسا من الفرسان المعدودين ، ولم يبلغ الثالثة من عمره حتى قتل والده ، قتله ابن أخيه حسن الملقب ناصر الدولة ، هكذا ربى أبو فراس يتيما تحتضنه أمه ، ويعطف عليه ابن عمه سيف الدولة ، أخو ناصر الدولة(١٣٣) تمرس بجانب سيف الدولة فى فنون الفروسية والأدب ، فخرج شاعرا فارسا وكان سيف الدولة يحبه لشجاعته فقلده إمارة منبج ، فخاض غمرات القتال وزاد عن حمى الوطن ووهب نفسه للمجد وللمكرمات(١٣٤) وهو القائل(١٣٥) :

فلا تصفن الحرب عندى فانها	طعامى مذ بعت الصبا وشرابه
وقد عرفت وقع المسامير مهجتى	وشقق عن زرق النصول اهابى
ولججت فى حلو الزمان ومره	وأنفقت من عمره بغير حساب

وذات يوم بينما كان عائدا من الصيد فى نفر من أصحابه فاجأه كمين رومى عام (٣٤٨هـ - ٩٥٩م) فأخذ أسيرا وحمل الى خرشنة ، ثم الى القسطنطينية، فبقى فى الأسر عدة سنوات الى أن افتداه سيف الدولة ، وبعدها أقطعه حمص بدلا من منبج(١٣٦) وقد كتب فى الأسر أجمل قصائده وارقها وعرفت هذه القصائد بالروميات ومنها قوله عندما سمع حمامة ، وهو فى أسره ، تنوح على شجرة فقال يخاطبها(١٣٧) .

أقول وقد ناحت بقربى حمامة	أيا جارتا،هل تشعرين بحالى ؟
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى	ولا خطرت منك الهموم ببال
أتحمل محزون الفؤاد قوادم	على غصن نائى المسافة عال ؟

---

(١٣٣) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ٥ .
(١٣٤) سامى الكيالى ، المرجع السابق ، ص ١٤١ .
(١٣٥) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ٣٢ .
(١٣٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣١ ، ١٤٦ .
(١٣٧) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

أيا جارتا ، ما أنصف الدهر بيننا   تعالى أقاسمك الهموم ، تعالى !
أيضحك مأسور ، وتبكى طليقة   ويسكت محزون ، ويندب سال ؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة   ولكن دمعى فى الحوادث غال !

ومات سيف الدولة بعد عودة أبى فراس بسنة واحدة ، وتولى بعده ولده أبو المعالى ، ابن أخت أبى فراس ، وتسلم الحكم بالوصاية عليه غلامه التركى قرغويه ، فأبى أبو فراس أن يطيع هذا الغلام ، وطمع بالسيادة على سوريا ، وكانت نهايته على يد هذا الغلام(١٣٨) • وبمقتله خسر الحمدانيون رجلا من ألمع رجالهم فى الفروسية **والشعر** •

وقال يذكر سيف الدولة مع قبائل العرب(١٣٩) :

بدولة سيف الله طلنا على الورى   وفى عزه صلنا على من تجبرا
حملنا على الأعداء،وسط ديارهم   بضرب يرى من وقعه الجو اغبرا
فسائل كلابا عروة بالس   الم يتركوا النسوان فى القاع حسرا
وسائل تميرا ، يوم سار اليهم   الم يوقنوا بالموت ، لما تنمرا ؟
وسائل عقيلا ، حين لاذت بتدمر   الم نقرها ضربا يقد السنورا ؟
وسائل قشيرا حين جفت حلوقها   الم نسقها كأسا من الموت أحمرا؟

وقال فى مدحه(١٤٠) :

أشدة ما أراه فيك أم كرم   تجود بالنفس والأرواح تصطلم
يا باذل النفس والأموال مبتسما   أما يهولك لا موت ولا عدم
لقد ظننتك بين الجحفلين ترى   أن السلامة من وقع القنا تصم

---

(١٣٨) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٠٧ ، القرمانى المصدر السابق ، ٢٦٥ •
(١٣٩) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ •
(١٤٠) الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٠ •

السـرى الرفاء :

وبرز من شعراء هذا العصر أيضا أبو الحسن السرى بن أحمد بن السرى الكندى الرفاء ، وكان فى صباه يرفو ويطرز فى دكان بالموصل وينظم الشعر حتى برع فيه(١٤١) ، قصد سيف الدولة بحلب ومدحه وأقام عنده مدة ثم انتقل بعد وفاته الى بغداد وقد برع السرى الرفاء فى التغنى بجمال مسقط راسه الموصل ، وترك لنا صورا رائعة ، وصف فيها أصحاب المهن من الحلاقين وصيادى السمك وغيرهم ، علاوة على وصفه مشاهد الطبيعة وأزهارها وأشجارها وغدرانها والسحب والثلج والمطر ، كما افتن فى وصف مجالس الشرب واللهو والخمر بالاضافة الى شعره فى المديح والتهنئة والهجاء والغزل . ومن شـعره اللطيف فى وصف مهنته قوله(١٤٢) :

يكفيـك من جمـلة أخبـارى ... بسـرى من الحـب واعسـارى
فى سـوقة أفضلهم مرتـد ... نقصـا ففضلى بينهـم عـارى
وكـانت الابـرة فيمـا مضـى ... صـائنة وجهـى وأشـعارى
فاصبح الـرزق بهـا ضـيقا ... كـانه من ثقبهـا جـارى

وقال يمدح سيف الدولة(١٤٣) :

تركتهم بين مصـبوغ ترائبـة ... من الدمـاء ومخضوب ذوائبـه
يهـوى اليه بمثل النجم طاعنه ... وينتحيه بمثـل البرق غاليـه
يكسـوه من دمه ثوبا ويسـلبه ... ثيـابه فهـو كاسـيه وسـالبه

---

(١٤١) فيصل السامر ، الدولة الحمدانية ، ج ١ ، ص ٣٦٣ ، المسـعودى ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٢٨ .

(١٤٢) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٦ . الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(١٤٣) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

وقـــوله(١٤٤) :

ولا تبك الا بعد طول صـــبابة   وحسبك من فرط الصبابة ماأبكى
اذا الدمع لم يبرح محـــلا يحـله   سرى الدمع منأجفانه قلقالمسرى

وقـــوله(١٤٥) :

يا موجبا حق الســـماح بنائـل   نتقاصر الأنــواء عـــن أنــوائه
والمبتنى بيــت العـــلا ببأســـه   فغـدا عـــلاء النجم دون علائه

ويقول فى مدح سيف الدولة أيضا(١٤٦) :

أعزمتك الشـــهاب أم النهـــار   أراحتـــك السحاب أم البحار ؟
خلفت منيــة ومنى فأضـــحت   تمــور بك بســـيطة أو تمـــار
تحلى الــدين أو تحمى حمــاه   فأنت عليــه ســـور أو ســـوار

الصنوبرى : أبو بكر مرار :

من الشعراء الذين اســتهوتهم الطبيعة فعشـــقوها وهاموا بها ، وطربوا لأغاريد أطيارها ، رأى النور فى أنطاكية ، وما كاد يترعرع ويذوق حلاوة الأدب حتى انتقل الى حلب ، يعيش مع عشرات الشعراء فى ظلال الأمير الحمدانى سيف الدولة ، وقد ذكر نسبته الى الصنوبرى بقطعة من شعره حيث قال :

اذا عـــزينا الى الصنوبر لـــم   نعـــز الى خامل من الخشـــب
لا بل الى باسـق الفـــروع على   مناسـبا فى أرومـــة الحســـب
باق على الصيف ، والشتاء اذا   شابت رؤوس البنات لم يشـــب

عاش الصنوبرى فى ظلال سيف الدولة وعلى كثرة ما ضم بلاطه من

---

(١٤٤) ديوان السرى الرفاء ، المرجع السابق ، ص ٣ .
(١٤٥) المرجع السابق ، ص ٥ .
(١٤٦) الثعالبى ، المصدر السابق ، جـ ١٠ ، ص ٢٩ .

أساطين رجال الفكر والأدب ، كان من أصفى المقربين اليه فاتخذه نديما من أخلص ندمائه ، وأمينا لمكتبة قصره ، وكان الوحيد بين مئات الشعراء الذى الذى ترفع عن المدح فى سبيل المال، على كثرة ما مدحه الشعراء من مختلف الأقطار العربية استدرارا لعطفه ، وطمعا بهباته وأعطياته ، وان دل هذا على شيء فعلى أنفة هذا الشاعر وكبريائه ، وعلى ما امتاز به من نبل النفس وصفاء الطبع ، وازدرائه للمادة،ولعل هذه الصفات هى التى أدنته من قلب سيف الدولة ، وجعلته من أخلص أصدقائه دون أن يطالبه بثمن(١٤٧) .

الصنوبرى الذى عاش فى كنف الطبيعة ، لم يكن يجد نشوته الا فى فصل الربيع فصل الحب والأزاهير ، فالدنيا عنـــده ربيع ولا شيء غير الربيع .

وفى ذلك يقول(١٤٨) :

ان كان فى الصيف ريحان وفاكهة ... فالأرض مستوقد والجو تنور
وان يكن فى الخريف النخل محترقا ... فالأرض عريانة والجو مقرور
ما الدهر الا الربيع المستنير اذا ... جاء الربيع أتاك النور والتنور

أما بقية من عاصروا سيف الدولة من الشعراء والأدباء وتفننوا فى مدحه فقد أوردهم الثعالبى(١٤٩) ومنهم .

أبو العباس بن محمد النامى وقال يمدح سيف الدولة :

خلقـــت كمـــا أرادتك المعـــالى ... فانــت لمــن رجاك كمــا يريــد
عجيب أن ســـيفك ليس يبروى ... وســيفك فى الوريد لــــه ورود
وأعجب منــه رمحك حين يسقى ... فيصـــحو وهـــو نشـــوان يميـــد

---

(١٤٧) سامى الكيالى ، المرجع السابق ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .
(١٤٨) القزوينى ، المصدر السابق ، ١٨٤ .
(١٤٩) انظر الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٣٢ ، ٨٥ .

وكقول أبى الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومى الببغاء :

نداك اذا ضـــن الغمام غمـــام	وعزمك ان قل الحســام حســام
فهذا ينيــل الرزق وهو ممنــع	وذاك يرد الجيش وهو لهـــام
ومن طلب الأعداء بالمال والظبا	وبالســعد لم يبعـد عليه مــرام

وكقول أبى الفرج محمد بن أحمد الغسانى الدمشقى الوأواء :

جــــدواك بالســـحاب فمــا	أنصـف بالحـكم بين شــكلين
أنــت اذا جــدت ضــاحك أبــدا	وهــو اذا جــاد دامع العـين

وكقول أبى نصر بن نباته :

حاشاك أن تدعيك العرب واجدها	يامن ثرى قـدميه طينة العـرب
فان يكون لك وجه مثل أوجههم	عند العيان فليس الصفقر كالذهب

ولم يقتصر هذا المديح على الشـعراء فقط بل أن أبا ذر أســتاذ سيف الدولة فى مدحه قال :

نفسى الفداء لمن عصيت عواذلى	فى حبـــه لم أخش من رقبائه
الشمس تطلع فى أسرة وجهــه	والبــدر يطلع من خلال قبــائه

الفـــارابى :

ممن ضمهم بلاط سيف الدولة ، الى ما ضمه من العلماء والأدباء والشعراء الحكيم أبو النصر الفارابى ، الذى يتفق المؤرخون على اعتباره من أكابر فلاسفة المسلمين ، ولد عام (٢٥٩هـ - ٨٧٢م) .

ترك بغداد الى حلب ، حين شاهد ملك العباسيين يتقلص فى وقت ازدهرت فيه دولة الحمدانيين فى حلب خاصة فى الحركة العقلية أيام سيف الدولة ، مما حفزه على أن يحط رحاله فى ربوعها ، لا يعتز الا بما فى صدره من علم ومعرفة ، وما فى قلبه من آراء وخيالات وما فى ضميره من هواجس واحلام ، ورغم أنه دخل الى العاصمة غريبا لا يعرفه

أحد ، أو لم يشأ أن يعلن عن نفسه ، الا أنه قصـــد توا بلاط الأمير ، فأخذ الأدباء والشعراء يتهامسون ، وكأنهم شعروا بوطأة هذا الدخيل على مجلسهم ، خاصة انه بدأ يتكلم معهم فى كل فن ، فلم يزل كلامه يخلو ، وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقى يتـكلم وحـــده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخـلا به ، وسرعان ما أنزله من مجلسه أرفع مكان ، ومن نفسه أسمى منزلة(١٥٠) وكان حبه للفارابى يفوق حبه جميع من ضمهم مجلسه من الشعراء والأدباء والعلماء والفنانين ، والفارابى لم يمدح سيف الدولة كما فعل الصنوبرى، ورغم أن الأذن كانت تميل الى سماع المدائح من أفواه الشعراء الا أن سيف الدولة كان ميله الى سماع آيات الحكمة أقوى ورغم محاولة سيف الدولة الاغداق عليه كثيرا ، الا أن الفارابى فضل أن يعيش عيشة زاهرة ، بعيدا عن زخارف الدنيا ، واقتصر فى معيشته على أربعة دراهم فضـــة فى اليـــوم(١٥١) .

ومن شعره عن فلسفته للحياة(١٥٢) :

لـمـــا رأيت الزمان نكســا ... وليـس فى الصحبة انتفـاع
كــل رئيـس بــه مـــلال ... وكــل رأس بـــه صـداع
لزمـت بيـتى وصنت عرضا ... بـه مـن العـزة اقتنـاع
أشـرب ممـا اقتنـيت راحـا ... لهــا على راحتى شـعاع
لى مــن قواقيـرها ندامى ... ومــن قراقيـرها سـماع

لقد مجد سيف الدولة فى الفـــارابى شخصيته الفلسفية وشخصيته العلمية معا ، كما مجد الفارابى فى سيف الدولة صـفاته الفذة كأمير شجاع ، جمع الى صفات البطولة صفات السلطان الذى عمل على اسعاد قومه والزود عن وطنه .

---

(١٥٠) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٥ .

(١٥١) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٦ ، ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ .

(١٥٢) ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ .

وخلاصة القول أن الفـــارابى أنس بلقيا سيف الدولة ، كما أنس الأمير بلقيا الفيلسوف .

ولم تمنع شيخوخة الفارابى وهو فى الثمانين من عمره من مرافقة سيف الدولة فى احدى غزواته الى دمشق ، فلم يكد يصلها حتى وافته منيته (٣٣٩هـ ـ ٩٥٠م)(١٥٣) ومن قوله قبل الوفاة(١٥٤) :

فمـــا الـــدار دار مقـــام لنـــا *** وما المرء فى الأرض بالمعجز
محيط الســـماء أولى بنـــا *** فمـــاذا التنـــافس فى مركـز

ابن نباته الخطيب :

كما كان المتنبى شاعر سيف الدولة ، كان ابن نباته خطيبه الذى أثار والهب حماسة الناس فى سبيل الجهاد ، خاصة ضد البيزنطيين ، كان ابن نباته ، اماما فى علوم الأدب ، وكان خطيب حلب وبها أجتمع بأبى الطيب المتنبى ، فى خدمة سيف الدولة ، ولما كان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا أكثر ابن نباته من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة الأمير ، ولا شك أن وقعها كان ذا تأثير مباشر فى نفوس مستمعيها ، فقد كان البيزنطيون على أبواب حلب وسيف الدولة لا تغمض له عين ، وهو مهيأ كل يوم لجهاد جديد ، ولهذا تأثر ابن نباته بهذا الموقف الحاسم الذى وقفه الأمير وانعكس ذلك فى خطبه التى لا تقل حماسة عن حماسة المتنبى ، حين كان يصـــور لنا معارك سيف الدولة وفى ذلك يقول :

والله ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا
ولا قعدوا عن صـون ذمارهم الا اضمحلوا

وهو بهذا يثير الناس ويحثهم على الجهاد ، وأن يغالبوا الأهواء

---

(١٥٣) إبن العبرى ، أبو الفرج بن أهرون الملطى ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٢٩٤ .
ـ ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٢٣ .
(١٥٤) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٦ .

قبل محاربة الأعطاء ، ثم يحرضهم على القتال بشجاعة ، لأن الخوف لا يدفع عن الانسان الموت ، فلماذا الهلع والجزع . وعـــلام التراجع والاضطراب فيصرخ فيهم(١٥٥) :

الجهـــاد الجهـــاد	أيهـــا الموقنـــون
والظفـــر الظفـــر	أيهـــا الصـــابرون
والجنـــة الجنـــة	أيهـــا الراغبـــون
والنـــار النـــار	أيهـــا الهـــاربون

وعند هجوم الروم عام (٣٥١هـ - ٩٦٢م) على حلب ومحاولتهم الاستيلاء عليها القى خطبة صب فيها كل بلاغته ووصف هول القتال ابلغ وصف فقال « عباد الله :

« ... وقد اقامكم العز من أوطانكم على شفا ، لا ترقبون الا يد غاشم تخطفكم ، أو ريح عدو هاجم تنسفكم ، كالغنم بغير راع فهى شريدة طريدة بكل قاع ، والعدو يتملك بلادكم قاطنا ، ويفك عرى أمصاركم عروة عروة ، ويدك ذرى دياركم ذروة ذروة ، وأنتم من روح الله آيسون كأنكم النساء وهم الرجال ... »(١٥٦) توفى خطيبا فى مقتبل العمر فكانت ولادته عام (٣٣٥هـ - ووفاته عام (٣٧٤هـ) بميافارقين هكذا كان للخطابة كما كان للشعر ولسائر صنوف الأدب ، هذا المركز السامى فى بلاط سيف الدولة .

---

(١٥٥) ابن خلكان ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٩٠ .
(١٥٦) سامى الكيالى ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

المصادر العربية القديمة

— ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم (ت ٦٣٠هـ) .
الكامل فى التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٧٨م .
دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

— الأزدى : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ).
الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون .
مكتبة المثنى بغداد ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .

— الاصطخرى ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد (ت - النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) .
المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال .
القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م .

— ابن أبى أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد .
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . القاهرة ١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م .
دار الفكر - بيروت ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م .

— ابن بطوطة : شرف الدين أبو عبد الله (ت ٧٧٩هـ) .
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
دار صادر - بيروت - ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .

— البلاذرى : أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) .
فتوح البلدان ، تحقيق ، صلاح المنجد ، القاهرة ، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م .

— ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن (٨٧٤هـ) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م .

— الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابورى (ت٤٢٩هـ)٠
يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، تحقيق ، محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار السعادة ـ القاهرة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٦٥م ٠

— ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ) ٠
رحلة ابن جبير ، دار صادر ـ بيروت ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م ٠

— ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (ت٥٩٧هـ) ٠
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد ـ ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م)٠

— ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على (ت ٣٦٧هـ) ٠
صورة الأرض ، ليدن ، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م ٠ القاهرة ، د٠ت ٠

— ابن خالويه : أبو عبد الله الحسين بن محمد (ت ٣٧٠هـ) ٠
ديوان أبى فراس الحمدانى ، دار بيروت ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م ٠

— ابن خرداذبة ، أبو القاسم محمد بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ) ٠
المسالك والممالك ، ليدن ١٣١٧هـ ـ ١٨٩٩م ٠

— ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن جابر (ت ٨٠٨هـ) ٠
المقدمة ـ دار الفكر ، بيروت ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م ٠
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م ٠

— ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد (ت ٦٨١هـ) ٠
وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ، ١٩٧٨م ـ ١٣٩٩هـ ٠

— الدينورى : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) ٠
الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الشيال ، دار المسيرة ـ لبنان ١٩٧٩م ٠

— الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) .
العبر فى خبر من غير ، تحقيق ، أبو هاجر محمد السعيد ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

— ابن رسته : أبو على أحمد بن عمر .
الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٣٠٩هـ - ١٨٩١م .

— السرى الرفاء ، أبو الحسن كسرى بن أحمد الكندى الموصلى .
ديوانه ، مكتبة القدس ، القاهرة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م .

— الشابشتى : أبو الحسن على بن محمد (ت ٣٨٨هـ) .
الديارات، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف بغداد ١٩٥١م.

— أبو شجاع :
ذيل كتاب تجارب الامم ، نشر ، هـ.ف أمدروز ، مكتبة المثنى ، القاهرة ١٣٣٤هـ ١٩١٦ .

— الصولى : أبو بكر بن يحيى (ت ٣٣٥هـ) .
أخبار الراضى بالله والمتقى لله ، نشره ، ح. رهيورث ، د.ت ، دار المسيرة - بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م .

— الصفدى : صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ) .
الوافى بالوفيات ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م .

— ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى (ت ٧٠٥هـ) .
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار بيروت للنشر - بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .

— الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) .
تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

— ابن العبرى : غريغوريوس ، أبو الفرج بن أهرون الطيب الملطى (ت ٦٥٨م) .
مختصر تاريخ الدول ، بيروت ١٣٠٨هـ – ١٨٩٠م .

— ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد (ت ١٠٨٩هـ) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . المكتب التجارى – بيروت ١٤٠٠ هـ – ١٩٧٩م .

— ابن العديم : كمال الدين أبى القاسم عمر (ت ٦٦٠هـ) .
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق ، سامى الدهان ، دمشق ١٩٥١م .

— القرمانى ، أبو العباس أحمد بن يوسف .
أخبار الدول وآثار الأول . عالم الكتب – بيروت د.ت .

— القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (ت ٦٨٢هـ) .
آثار البلاد وأخبار العباد ، دار الصياد – بيروت – ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠م .

— القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١هـ) .
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ١٣٨٣هـ – ١٩٦٣م .
نهاية الأرب فى معرفة أحوال العرب ، تحقيق على الخاقانى ومصطفى النجاح ، بغداد ١٣٧٨هـ – ١٩٥٨م .

— ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا (ت ٧٧٤ هـ) .
البداية والنهاية . بيروت ١٣٩٩هـ – ١٩٧٨م .

— اجم : أبو الفتح محمود بن كشاجم .
أدب الندماء ولطائف الظرفاء – القاهرة ١٣٢٩هـ – ١٩١١م .

— المسعودى : أبو الحسن على بن الحسنى (ت ٣٤٦هـ) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، مكتبة السعادة ، القاهرة ١٨٣٤هـ – ١٩٦٤م .
التنبيه والاشراف ، دار صعب ، بيروت ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م .

— مسكويه : ابو على احمد بن محمد (ت ٤٢١هـ) ٠
تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تصحيح ونشر هـ٠ف٠ آمدروز ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ـ القاهرة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م ٠

— المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٣٨٧هـ) ٠
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، القاهرة ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م ٠

— المقريزى : تقى الدين احمد بن على (٨٤٥ هـ) ٠
شذور العقود فى أخبار النقود ٠ القاهرة د٠ت ٠

— ناصر خسرو ٠ أبو معين الدين المروزى (ت ٤٨١ هـ) ٠
سفر نامه ٠ ترجمة خالد احمد خالد ـ الرياض ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م٠

— ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ)٠
معجم البلدان ٠ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ٠

المراجع العربية الحديثة

— أحمد أمين : ظهر الاسلام ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

— جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

— حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى : مكتبة النهضة - القاهرة ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م .

— سامى الكيالى : سيف الدولة الحمدانى وعصر الحمدانيين ، دار المعارف : القاهرة د.ت .

— شرح ديوان المتنبى : مراجعة نخبة من الأدباء ، مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٨ .

— شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الاسلامية . المجلس الوطنى ، الكويت ١٩٩٠م .

— عبد الجليل حسن عبد المهدى : أبو فراس الحمدانى ، حياته وشعره ، مكتبة الأقصى ، الأردن ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

— عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

— فايد العمروسى : الجوارى المغنيات ، القاهرة ، ١٩٤٥م .

— فيصل السامر : الدولة الحمدانية فى الموصل وحلب ، مطبعة الايمان . بغداد ، ١٩٧٠م .

— محمد كرد على : خطط الشام ، دار العلم ، دمشق ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢ م .

— مصطفى الشكعة : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م .

المراجع الأجنبية المعربة

— ترتون أ.س. أهل الذمة فى الاسلام : ترجمة حسن حبشى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧م .

— متز : آدم : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة القاهرة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م .

— هونكه : سجريد ، فضل العرب على أوربا ، ترجمة ، فؤاد حسنين على ، القاهرة ١٩٦٤ .

الدوريـــــات :

— درويش حسن الجندى : سيف الدولة الحمدانى ، المجلة العربية ، الرياض ، أغسطس ١٩٧٧م .

— سمير شتا : درهمان نادران عن عــلاقات دينية ، المسكوكات ، الرياض ، ابرين ١٩٧٣م .

— عبد الرحمن حميدة : حلب المدينة التى لا تقهر ، مجلة الفيصل . العدد التاسع ، فبراير ، مارس ، الرياض ١٩٧٨م .

— محمد راشد أنيس : الشعر فى رحاب سيف الدولة الحمــدانى : المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد ٢٥ ، بيروت ، ١٩٨٧م .

— مهاب درويش البكرى : الدرهم الحمدانى المحفوظ فى المتحف العراقى . المورد ، العدد ١ ، ٢ ، الرياض ١٩٧١م .

الصراع الدولى حول شبه الجزيرة العربية
فى
القرن السادس الميلادى

بقلم
أ٠د٠ رافت عبد الحميد(*)

على مشارف النهاية ، للربع الأول من القرن السادس الميلادى ، حملت صفحة الماء ، عند الطرف الجنوبى للبحر الأحمر ، أسطولا ضخما من السفن الحربية ، كان يقل جيشا من الأحباش ، وجهته بلاد العرب السعيدة ·· اليمن ·· Arabia Felix ·· ما لبث أن ألقى عند ميناء « مخا » Mokha مراسيه ، ليندفع جنوده الى اليابسة يصطدمون بقوات الملك الحميرى ، « ذى نواس » ، الذى سرعان ما حلت به وبجيشه الهزيمة ، عندها آثر أن يبتلعه اليم على أن يساق أسيرا فى موكب نصر الأحباش ، اذ ساق جواده وألقى بنفسه فى البحر ، ليخط بذلك الصفحة الأخيرة فى ملك الحميريين ، وليقول فى رثائه « علقمة بن ذى جدن » :

أو ما سمعت بقيل حمير يوسف
أكل الثعالف(١) لحمه لم يقبر
ورأى بأن الموت خير عنده
من أن يدين لأسود أو أحمر

ولتمسى اليمن بذلك تابعة لمملكة اكسوم Auxuma ، وان كان ذلك الى حين ، حين يستقل بها ـ ذاتيا ـ أبرهة Abramos « الأشرم » ، ويقيم على أرضها ممكلة حبشية ، حاملا لقب « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها وتهامة » ·

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ·

وتتفق المصادر التاريخية العربية(٢) وتظاهرها كتب التفاسير(٣) على أن هذا الغزو الحبشى لليمن ، انما كان نتيجة طبيعية للاضطهاد الدينى الذى أنزله « ذو نواس » ، وكان قد تهود ، بالمسيحيين فى مملكته ، خاصة منطقة نجران ، محاولا قهرهم على هجران دينهم والتحول عنه الى اليهودية · وتقرن هذه المصادر كلها تلك الأحداث بما ورد فى القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود· ولا تبتعد بعض المصادر البيزنطية والسريانية المعاصرة(٤) كثيرا عما أورده المؤرخون والمفسرون المسلمون ·

ورغم ما يقدمه المفسرون من روايات كثيرة وآراء متعددة حول قصة أصحاب الأخدود ، الا انهم يتفقون على أن « أخدود » ذى نواس كان واحدا بين هذه الأخاديد ، وأنه المعنى بقصص القرآن الكريم عن تلك الواقعة ، التى أثارت نوعا من الخلاف فى الرأى بين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، حول « يهودية » ذى نواس أو « وثنيته » · ويرى نفر من هؤلاء وأولئك فيه وثنيا ، مستندين فى ذلك الى النص القرآنى فى قوله تعالى : « ··· وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شىء شهيد »(٥) · وعليه يبدى ياقوت الحموى دهشته من نسب حادث الأخدود الى ذى نواس « اليهودى » ، لأن ذلك يقضى – فى رأيه – أن يكون القاتل والمقتول من أهل التوحد ، والله قد ذم المحرق والقاتل لأصحاب الأخدود(٦) · وعلى نهجه ينسج محدثون قولهم ان ذا نواس دعا أهل نجران المسيحيين للرجوع الى الوثنية لا الى اليهودية ، لأن المسيحية واليهودية المعاصرتين لنزول القرآن ، كانتا – حسب تعبيره – ديانتين سماويتين لا مجال لتفضيل احداهما على الأخرى !(٧) ، أو لأن ذا نواس – عند ثان – خشى عاقبة الاتصالات التى كانت قائمة بين المسيحيين فى مملكته ومملكة أكسوم على الجانب الآخر للبحر الأحمر(٨) ·

غير أن هذا النص القرآنى الذى اتخذه هؤلاء دليلا للحكم بوثنية الملك الحميرى ، لو أخذ فى ضوء النصوص القرآنية الأخرى ، وليس منفصلا عنها ، عد دليلا أوضح بيانا على « يهودية » ذى نواس ، نعنى

بذلك قول الله سبحانه وتعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين أشركوا »(٩) والاتيان باليهود قبل المشركين فى الآية ، له دلالته ومغزاه ، وقوله تعالى أيضا : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ، وهم يتلون الكتاب »(١٠) ، ثم ما جاء على لسان اليهود ، « ... قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل »(١١) ، ولما كان المسيحيون من غير اليهود خارجين عن نطاق اليهودية عقيدة ، فهم يندرجون ضمن الأميين أو الأمميين حسب تعبير التوراة ، وذلك فى عرف اليهود . وقد لمس القرطبى ذلك فى « الجامع » بتأكيد القول على يهودية ذى نواس ، عند تفسيره لسورة البروج ، فى قوله .. : « فخد لهم أخدودا وعرضهم على الكفر (يعنى الكفر بديانتهم واعتناق اليهودية) فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار »(١٢) . وكان هذا بعينه الاعتراف الذى ورد فى الرسالة ، التى تذكرها المصادر التاريخية منسوبة الى ذى نواس ، والتى بعث بها الى المنذر الثالث ملك الحيرة ، حيث قال : « كان أول عمل أقدمت عليه بعد أن غدوت ملكا على حمير ، هو ذبح المسيحيين جميعهم ، الا من رأى أن يتحول الى اليهودية مثلنا ... لقد طلبت منهم أن يكفروا بالمسيح والصليب ويصبحوا يهودا ، لكنهم أصروا على عقيدتهم »(١٣) .

ولم يكن ذو نواس(١٤) أول من تهود من ملوك حمير ، وان كان آخرهم ؛ ذلك أن المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية ، كانت قد أضحت أحد المراكز الهامة لليهودية خلال القرون الاولى للميلاد(١٥) ، اذ وجد اليهود فيها ملجأ لهم وملاذا ، بعيدا عن أيدى الرومان ، عقب الأحداث التى وقعت على عهد كل من الامبراطورين فسباسيان **Vispasianus** ابان القرن الأول للميلاد ، وهادريان **Hadrianus** فى القرن التالى ، فى أعقاب ثورتهم التى أشعلوها ضد الحكومة الرومانية ، وامتدت من برقة الى فلسطين . ومن ثم وجد اليهود فى جنوب الجزيرة العربية وغربها مهربا بعد تدمير الهيكل . وراح نفوذهم يزداد تدريجيا خاصة خلال الربع الأخير من القرن الرابع ومطلع القرن الخامس ، عندما تحول بعض من ملوك حمير آنذاك الى اليهودية(١٦) .

ويحاول بعض المؤرخين(١٧) أن يضفى على « يهودية » ذى نواس طابعا سياسيا ، بمعنى أنه فى مواجهة القوى الدولية الكبرى آنئذ ، الامبراطورية البيزنطية ومملكة أكسوم بعقيدتها المسيحية ، وامبراطورية الساسانيين الفرس بوثنيتها ، أقدم ملك حمير على التحول الى اليهودية ، ليقف بها قوة ثالثة بين هؤلاء وأولئك . غير أن هذا المنحى يحمل كثيرا من المبالغة ، واذا كان قد صدق من بعد على امبراطورية الخزر Khazar فى القرن الثامن الميلادى ، عندما تحول ملكها وشعبه الى اليهودية ، ليتخلص من الصراع السياسى العنيف الدائر حول مملكته بين الخلافة الاسلامية فى بغداد ، والامبراطورية المسيحية فى القسطنطينية(١٨) ، فانه من الصعب قبول ذلك فى حالة ذى نواس ؛ فالخزر كانوا يومئذ قوة سياسية كبرى يحسب فى لعبة الأمم حسابها ، أما اليهود فى اليمن فلم تكن أعدادهم ولا قوتهم ولا مكانتهم تسمح لهم بالقيام بمثل هذا الدور ، أو انشاء « دولة يهودية » ، على حد تعبير بعض المؤرخين المحدثين(١٩) ، اذ كان الى جوارهم المسيحيون ، خاصة فى ظفار ، عاصمة الحميريين ، ونجران ، المركز التجارى الهام فى طريق القوافل الى الشمال ، بالاضافة طبعا الى الأغلبية الوثنية التى كانت لها السيادة طيلة القرن الأخير على الأقل ، وذو نواس نفسه كان وثنيا قبل أن يتحول الى دين يهود ، ومن غير المعقول ، أن يتمكن خلال سنى حكمه القصيرة ، حوالى عشر سنوات (٥١٥ ـ ٥٢٥) من اقامة « دولة يهودية » من حطام مملكة حمير التى كانت تعانى أوجاع الفوضى السياسية والاضطراب الاقتصادى والصراع العقائدى خلال أيامها الأخيرة ، وان كان اليهود بالطبع قد وجدوا فى « تهود » ذى نواس فرصة يقفزون عبرها الى دست السلطة ، منتهزين فرصة هذه الحال المتردية التى تعيشها حمير فى مرضها الأخير .

ولا شك أن ذا نواس نفسه كان يدرك أنه بحاجة الى التأييد الخارجى لسياسته ، خاصة بعد أن راح يمارس سياسة الاضطهاد ضد المسيحيين فى مملكته ، يدلنا على ذلك رسالته التى أشرنا اليها من قبل ، والتى بعث بها الى المنذر الثالث ، يقص فيها على مسامعه أنباء ما حل بالمسيحيين على يديه ، ويطلب اليه فى الوقت نفسه أن يحذو حذوه ،

وأن يترفق فى معاملة يهود الحيرة ، ثم يعلن فى النهاية استعداده لتلبية كل ما يطلب اليه لصالح المنذر(٢٠) .

ورغم أن الرسالة تحمل فى كلماتها مظاهر الاعتــداد بالنفس ، والتباهى بما أوقعه الملك الحميرى برعيته المسيحية ، ورغم ما يكون قد داخلها من عبارات تحمل طابع المبالغة ، مما قد يوحى بأنها مضافة الى نصها الأصلى ، ولم تصدر عن ذى نواس ، الا أنها فى الوقت ذاته تنبىء فى سطورها الأخيرة عن رغبته فى أن يقف المنذر الى جانبه ، مخافة مالابد أن يترتب على هذه الاحداث ، وخاصة وأنه يذكر فى رسالته هذه، أن عددا من الأحباش المقيمين على أرضه قد نالتهم يد العذاب(٢١) . ويؤكد ذلك ما أورده عن هذا الأمر أيضـــا ، المؤرخ البيزنطى المعاصر بروكوبيوس Procopius القيسارى(٢٢) . فاذا اضفنا الى هــذا كله ما تذكره بعض المصادر البيزنطية والسريانية(٢٣) عن تعرض جماعات من التجار الرومان ، العابرين ، للقتل ضمن جملة المسيحيين فى ظفار ونجران ، أدركنا خطورة موقف ذى نواس ، والمغزى الحقيقى من وراء رسالته الى ملك الحيرة .

واذا كان المنذر الثالث قد أبدى شيئا من التعاطف ازاء رغبات الملك الحميرى ، والذى ربما يعزى الى ما يذكــره ابن العبرى من انتمــاء ذى نواس فى نســبه لأمه ، التى كانت على اليهــودية ، الى أهــل الحيرة(٢٤) ، الا انه كان تعاطفا سلبيا وقف فقط عند حــد الأمنيات الطيبة ، دون التعاون الفعلى الذى كان يؤمله ذو نواس من خلال هذه المراسلات ، خاصة وهو يعلم علم اليقين ، مدى العلاقة التى تربط مملكة الحيرة بالامبراطورية الفارسية . ولعله كان يقصد بذلك أن يضمن وقوف احدى القوى الكبرى فى عصره الى جواره ، ولمــا كان الفرس بطبيعة الحال غير متحمسين ، عقيديا وسياسيا ، لنصرة المسيحية ، فقد أمل أن يتحقق له هذا العون فى اطار استغلال ظروف الصراع السياسى الدائر يومذاك بين فارس وبيزنطة .

ومع أننا لا نميل الى الأخذ بما يذهب اليه بعض الباحثين ، من أن اضطهاد ذى نواس للمسيحيين فى دولته ، بما فيهم الأحباش والتجار

الرومان ، كان متفقا عليه من قبل مع اللخميين فى الحيرة ومن ورائهم الفرس(٢٥) ، معتمدين فى ذلك على الرسالة السابق ذكرها ، لأنه لو صح هذا الافتراض ، لامتد هذا الاضطهاد ليشمل مسيحيى الحيرة أيضا ، ولوجدت فعال ذى نواس ترحيبا من المنذر الثالث ، لكن شيئا من هذا لم يحدث ، نقول مع كل ذلك ، الا أن الذى لا شك فيه ، أن ذا نواس كان على علم كامل بمسألة الصراع الدولى الدائر آنذاك بين القوتين الكبيرتين والتى كانت شبه الجزيرة العربية احدى محطاته ، بما تمثله من أهمية اقتصادية ، وبالتالى سياسية ، تتجسد فى كونها تضم أهم طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب فى العصور القديمة وطوال العصور الوسطى .

وهذه النقطة الأخيرة تضيف بعدا جديدا لمسألة الاضطهاد الذى مارسه ذو نواس ضد المسيحيين فى مملكته ، مشركا معهم فى وطأته التجار الرومان والأحباش ؛ فمما لا ريب فيه أن يكون ازدياد نفوذ هؤلاء التجار ، العابرين والمقيمين ، قد أثار حفيظته ، اذ رأى ما يجنيه أولئك من ثروات طائلة من جراء ممارستهم أو سيطرتهم على طريق التجارة الرئيسى عبر جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر الى شمالها وحتى البحر المتوسط ، انتهاء ببلاد الشام أو مصر فى طريقه الى الأراضى البيزنطية ، ولابد أن يكون قد رأى أيضا فى المسيحيين فى ظفار ونجران أعوانا لهؤلاء الرومان والأحباش فى هذا السبيل . ولذا راح يمارس سياسته والأمل يحدوه فى أن يتحول هذا الثراء لبنى عقيدته من اليهود ، اذا ما حل تجارهم محل أولئك الأجانب « المسيحيين » ولعبوا دورهم فى حركة التجارة النشطة بين مناطق المواد الخام والتوابل والبخور والحرير ، فى شرق آسيا وجنوبها الشرقى وشرق افريقيا ، وأسواق الاستهلاك فى الامبراطورية البيزنطية وما وراءها . ومن ثم فان سياسة الملك الحميرى تجاه المسيحيين ، اذا كانت لا تخلو من نغمة التعصب الدينى ، الا أنها فى الوقت نفسه تنطوى على أهداف اقتصادية بعيدة . وان كان أحد الباحثين أيضا يفسر هذه السياسة بأنها مجرد اجراء انتقامى للمعاملة السيئة التى يلقاها اليهود من الادارة الرومانية(٢٦) .

وكان طبيعيا وقد اتجه ذو نواس ببصره الى خارج دولته ، ليضمن الى جواره ملك الحيرة ، ومن ورائه قوة الفرس اذا حزب الأمر ، أن يولى المسيحيون هم الآخرون وجوههم شطر قوة دولية أخرى يدينون بدينها ، هى الامبراطورية البيزنطية . وهنا تختلف الروايات فى المصادر الاسلامية مرة أخرى حول الوجهة التى اتخذ « دوس ذو ثعلبان» ـ الذى نجا من الاضطهاد ـ اليها سبيلا ؛ فبعضها يقرب به المسافة وصولا الى كالب Kaleb نجاشى الحبشة(٢٧) ، وبعض ثان يوجهه الى جوستين Justinus امبراطور الرومان فى القسطنطينية(٢٨) ، وثالث يورد الروايتين معا(٢٩) ، ورابع يحاول التوفيق ؛ فالأزرقى يذكر أن دوس ذا ثعلبان هذا اتجه الى « القيصر » مباشرة ، وقص عليه القصص ، فقال له : « بعدت بلادك عنا .. لكن سأكتب الى ملك الحبشة فانه على ديننا فينصرك »(٣٠) . بينما تأخذ رواية البلخى الجانب الآخر ، اذ يقول : « وصل صريخ أهل نجران الى النجاشى ملك الحبشة، فقال : « عندى رجال وليس عندى سفن ، فكتب الى قيصر الروم وبعث اليه بالأوراق المحرقة من الانجيل يغريه بذلك »(٣١) وقد لا تعدو هذه الرواية الحقيقة ، فالسفن التى تمتلكها مملكة أكسوم ، كانت سفنا تجارية فى معظمها ، ولم تكن أعدادها تسمح بنقل جيش كبير الى الشاطىء الآسيوى المقابل . ومن ثم تم نقل القوات الحبشية على سفن الأسطول البيزنطى التى كانت راسية فى موانى القلزم (السويس) وعيتاب (تيران) والتى تجمعت كلها فى ميناء عدول Adulis التابع للأحباش(٣٢) .

ومهما يكن من أمر ، فالذى يصح لدينا أن كلا من الامبراطور البيزنطى والملك الحبشى ، قد أحاطا خبرا بما حدث لأبناء دينهما وجلدتيهما ، من اضطهاد على يد ملك حمير . ولم يكن أى منهما بأقل من صاحبه حرصا على أن يمد يديه لنصرة من استنصروه ، ليس فقط بدافع الوازع الدينى ، بل لأن كلا منهما له مصالحه الخاصة فى هذه المنطقة ، والتى تتفق مع بعضها فى غالب الأحيان ، ولم تكن أحداث ظفار ونجران الا الضوء الأخضر الذى أنار لهما الطريق للعمل سويا من أجل تحقيق هذه المصالح ؛ فقد كانت الجهود العسكرية الحبشية البيزنطية

تمثل حجر الزاوية فى العلاقات بين القوتين فى القرن السادس الميلادى، وخلال هذه السنوات ظلت اكسوم الحليف الوفى لبيزنطة فى المنطقة الأفرو - عربية ، على حد تعبير أحد الباحثين(٣٣) ، وظل الحال على هذا النحو الى أن تم الغزو الفارسى لليمن فى سبعينيات ذلك القرن .

كانت مملكة اكسوم قد بلغت درجة كبيرة من القوة السياسية والازدهار الاقتصادى ، خلال القرن الرابع الميلادى ، على عهد ملكها عيزان Aezanes وظلت على هذا القدر من القوة حتى القرن السابع الميلادى . وامتدت سيطرتها شمالا حتى بلاد النوبة(٣٤) . بل ان منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية وأجزاء من غربها ، خضعت لمملكة اكسوم خلال فترة قصيرة من القرن الرابع ، كما أن الأحباش كانوا قد اشتركوا من قبل فى الحروب الأهلية التى دارت بين سبأ وذى ريدان (حمير) ، وحمل ملوكهم آنذاك الألقاب التى أشرنا فى صدر هذا البحث الى أن ابرهة حملها من بعد ، « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها فى تهامة »(٣٥) . هذا بالاضافة الى نشاط اكسوم التجارى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى عن طريق ميناءى عدول وزيلع ، حيث كانت سفنها تنقل العاج الى الهند وفارس وحمير وبيزنطة(٣٦) واذا كانت سيلان تمثل مركز التجارة بين الصين والشرق الأدنى فى تلك الأوقات ، واذا كانت سفن الصينيين تسير غربا حتى سيلان ، فان التجارة فيما بين سيلان والمناطق الواقعة غربها ، كان يتولى أمرها الفرس والأحباش(٣٧) .

هكذا اذن ، كانت اكسوم ، بسيطرتها على ميناءى عدول وزيلع ، تتحكم في المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، الذى كانت الامبراطورية البيزنطية تمتلك القسم الشمالى منه ، وكان هذا البحر وما يحاذيه على ساحله الشرقى ، يمثل واحدا من أهم الطرق التجارية الرئيسية آنذاك ، ان لم يكن أهمها على الاطلاق ، حيث كانت التجارة القادمة من الصين وجنوب شرقى آسيا وشرق افريقيا تتجمع فى عدن ، « المخزن الرومانى» - كما عرفت(٣٨) ، ومن هناك تنقلها السفن الحبشية أو البيزنطية الى ميناء القلزم ، ومنه الى النيل عبر قناة تم حفرها لتصل بين النيل وخليج القلزم ، وهى التى كانت تعرف بقناة تراجان(٣٩) ، ثم الى البحر

المتوسط بعد ذلك عن طريق النيل ؛ أو الى ميناء أيلة على رأس خليج العقبة، الى دمشق مارا بالبتراء وبصرى، ومن دمشق الى الساحل(٤٠).

أضف الى هذا الطريق البحرى طريقا آخر للقوافل يحاذيه ، وهو الذى يمتد من عدن الى مأرب ثم فى جوف اليمن الى معين ونجران ، ومنها الى الطائف ومكة فيثرب ، ثم الى واحة تيماء مـــرورا بمدائن صالح (الحجر) ثم البتراء أو معان من بعد ، حيث تتجه بعض القوافل الى غزة ومصر ، بينما يستمر الجزء الأعظم منها الى بصرى فدمشق الى صور على البحر المتوسط ، أو يمتد شمالا الى حمص فانطاكية(٤١) . وفى دمشق وحمص كان هذا الطريق يلتقى بطريق آخر قادم من الشرق، يبدأ من الخليج العربى ويصعد فى الفرات حيث يتجه غربا الى المدن السورية مارا بواحة تدمر . وتربط بين هذين الطريقين سلسلة من طرق القوافل الفرعية ، أهمها الطريق الذى يبدأ من نجران ثم يسير فى وادى الدواسر الى الجرعا (جره) Gerrha على ساحل الاحساء(٤٢) .

على هذا النحو ، ندرك أن البحر الأحمـــر والخليج الفارسى ، يكملهما النيل والفرات ، كانا ممرين طبيعيين للملاحة بين حوض البحر المتوسط ودول شرقى آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، بالاضافة الى طريق القوافل الرئيسى الموازى للبحر الأحمر وروافده وتفريعاته . وهذا يعنى أن عرب شبه الجزيرة العربية كانوا يطلون من جانبى جزيرتهم هذه ، على أهم الطرق التجارية الكبرى فى عالم القرن السادس(٤٣) .

وقد شكلت اليمن بصفة خاصة أكبر سوق تجارية فى شبه الجزيرة العربية ، فكانت تتاجر فى حاصلاتها الاقليمية كاللبان والعطور والطيب والبخور ، الذى كانت له أهميته الخاصة فى ذلك العصر(٤٤)، كما كانت تتاجر أيضا فيما يرد اليها من بضائع الخليج والهند والصين مثل اللؤلؤ والمنسوجات والعـــاج والذهب وريش النعام والحـــرير ، بالاضافة الى ما يأتيها من السواحل الشرقية لأفريقيا(٤٥) . وهذا يعنى أنها كانت حلقة الاتصال بين الهنـــد والحبشـــة وشرق أفريقيا من ناحية ، وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا من ناحية أخرى ، حتى خيل لبعض القدماء أن هناك قارة تمتد من أفريقيا الى الهند ، وأن بلاد العرب بمثابة بيت وسط

هذه القارة يقع على الساحل الشمالى من المياه الواقعة جنوب باب المندب(٤٦) .

واذا كان الفرس يسيطرون على تجارة الهند وطريق الشرق كما يسميه الدكتور « هيكل »(٤٧) ، أعنى طريق الخليج والفرات ، فان مملكة اكسوم والامبراطورية البيزنطية كان يعنيهما فى المقام الأول أن يدعما سيادتهما ونفوذهما على « طريق الغرب » . ولا شك أن البيزنطيين كانوا بطبيعة الحال ، يفضلون أن يتسلموا بضائع الشرق من أيدى أصدقائهم الأحباش المسيحيين ، على أن يتلقوها من أيدى أعدائهم الفرس المجوس(٤٨) . لهذا لم يكن غريبا أن نجد عددا ليس بالقليل من التجار البيزنطيين يذهبون الى أكسوم عن طريق أيلة وخليج العقبة ، أو من الاسكندرية ، بل ان بعضهم كان يركب سفنا حبشية تبحر بهم الى الهند(٤٩) .

منطقة اذن لها هذه الأهمية الاقتصادية ، فى عالم لعب فيه النشاط التجارى دورا بارزا فى دولاب العمل الاقتصادى ، وترك بصماته على الحياة السياسية ، كان لابد ان يتنافس فيها المتنافسون . من هنا ندرك الأهداف الحقيقية للغزو الحبشى لليمن ، فقد كانت مملكة أكسوم ترى فى هذه المنطقة امتدادا طبيعيا لمملكتها المزدهرة آنذاك ، وما دامت حمير غير قادرة فى أخريات أيامها ، بضعفها وتفككها ، على ادارة هذا الاقليم الحيوى ، اذن فلتقم أكسوم بهذا الدور ، حتى وان كانت الأسباب المعلنة، الانتقام لضحايا نجران ، يعضد أكسوم ، بل ويدفعها الى ذلك دفعا ، الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية ، حيث تخبرنا المصادر أن الامبراطور جوستين أرسل الى أسقف الاسكندرية ، يطلب اليه أن يستخدم نفوذه لدى ملك أكسوم ، لسرعة انجاز هذه الحملة العسكرية ، بما لكنيسة الاسكندرية من حق الرعاية على الكنيسة الحبشية . لقد كانت القسطنطينية ترى سيادة حلفائها الأحباش على « بلاد العرب السعيدة»، تدعيما لسيادتها هى فى البحر الأحمر وعلى جانبيه ، كجزء أساسى من صراعها المستمر مع الامبراطورية الفارسية ، اقتصاديا وسياسيا وعقيديا. ومن هنا لم تتوان عن تقديم سفنها أسطولا يحمل الأحباش الى اليمن .

كان البيزنطيون يعلمون جيدا أن سـفن الفـرس لا تقف فقط عند سيلان والخليج الفارسى والشواطىء الجنـوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية ؛ فقد كان للفرس سفنهم فى عدول ، وليس من المستبعد أبدا أن تكون قد زارت حمير ، كما كانوا يرسلون قوافلهم التجارية الى اليمن ، ويوكلون حراستها لجماعات من العـرب يختارونهم من زعماء القبائل المعروفين الذين يتمتعون بالمهابة فى قومهم(٥٠) ، وكان هذا يثير الريبة فى نفوس البيزنطيين فى نيات الفـرس ، اذ لو تم التقارب بين ملوك حمير والساسانيين ، لوقعت الطرق التجارية الرئيسية المؤدية الى بيزنطة عبر الخليج والبحر الأحمر فى قبضة الفرس ، ولخسر البيزنطيون بذلك خسارة اقتصادية كبيرة ، ولضيق عليهم فى أهم ما يستوردونه من أقصى الشرق ، أعنى الحرير ، خاصـة وأن الفـرس كانوا يسيطرون بالفعل لفترات طويلة ، وان كانت متقطعة أحيانا ، على طريق برى ، لا يقل أهمية عن سابقيه ، يبدأ من وسط آسيا ويمضى محاذيا الساحل الجنوبى لبحر قزوين ، أو الشمالى فى فترة لاحقة ، وينتهى اما الى بحر آزوف أو الى القرم ، فى المواقع التى شيدها البيزنطيون ، أعنى مدينتى بسفور **Bosporous** وخرسـون **Cherson** باعتبارهما مخفرين أماميين ، وهو الذى يعرف بطريق الحرير(٥١) .

ولم يكن الاهتمام البيزنطى بشبه الجزيرة العربية ، وما يحيط بها ويمر فيها من الطـريق التجارية ، شـيئا حـديث عهد على الادارة الامبراطورية ، بل ان ذلك يعود الى فترة مبكرة منـذ بدايات العصر الامبراطورى الرومانى ؛ عندما أقدم أول الأباطرة أوكتافيانوس أوغسطس **Octavianus Augustus** على تكليف والى مصر آيليـوس جالـلـوس **Aelius Gallus** بتجريد حملة على اليمن ، متخليا بذلك عن سياسة عدم التوسع ، وذلك من أجل تحقيق هـدف اقتصـادى هام(٥٢) . ولتحقيق ذلك حشد هذا الوالى حملة قوامها عشرة آلاف جندى ، وبعض وحدات مساعدة من الحامية المرابطة فى مصر ، وحصل على عون من الأنباط مقداره ألف رجل ، بعث بهم الملك عبادة الثالث مع وزيره صالح **Syllaeus** ليكون دليلا للحملة ، وأمده هيرودس ملك اليهود بخمسمائة يهودى ، حملتهم جميعا من ميناء أرسينوى **Arsinoe** (قرب السويس

الحالية) مائة وثلاثون حاملة للجنود ، يدعمها أسطول حربى من ثمانين سفينة ، اتخذت سبيلها فى البحر عجبا الى ميناء الحوراء (ليوكى كومى Leuke Kome) ، وكان ذلك حوالى العام الرابع والعشرين قبل الميلاد(٥٣) • وهذه الاستعدادات تدل بوضوح على مدى الاهتمام الذى كان يوليه الرومان لهذه الحملة وما يؤملون عليها من نجاح •

غير أن هذه الحملة بكل ما توافر لديها على هذا النحو ، حققت فشلا ذريعا فى جانبها العسكرى وبالتالى السياسى ، الا أن ذلك لم يهن من عزم أوغسطس ، بل راح هو وخلفاؤه من بعد يبدون اهتمامهم المتزايد بهذه المنطقة وطرقها التجارية ، وأدى ذلك الى تحول جانب من تجارة الشرق من ميناء « ليوكى كومى » الى ميناء «ميوس هرموس» المصرى (أبو شعر القبلى حاليا)(٥٤) • ومع ادراك أباطرة الرومان لصعوبة الغزو العسكرى المباشر لجزيرة العرب وجنوبها ، لطبيعة المنطقة وبعد الشقة ، ازداد الاهتمام بتقوية أسطولهم التجارى فى البحر الأحمر، وتحسين علاقاتهم السياسية مع زعماء القبائل العربية ، وتعزيز تحالفهم مع مملكة أكسوم ، للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية ، وتحقيق أهدافهم السياسية(٥٥) •

ومع تحول الامبراطورية الرومانية الى المسيحية « كديانة شرعية» riligio licita فى أول الأمر على يد الامبراطور قسطنطين الأول Constantinus I (٣٠٦ - ٣٣٧) ثم ديانة رسمية مع نهاية القرن الرابع الميلادى زمن الامبراطور ثيودوسيوس الأول(٥٦) Theodosius I (٣٧٨ - ٣٩٥) ظهر على مسرح الأحداث عامل جديد كان له دوره الفعال فى تسيير سياسة الادارة الحكومية فى القسطنطينية ؛ فالامبراطور الرومانى باعتباره أولا « مبعوث الرب »(٥٧) الى الناس ، ثم « نائب المسيح » Vicarius Christi على الأرض من بعد ، أصبح « مصباح الأرثوذكسية » وحامى ذمار « الايمان القويم » وأسقف المسيحيين خارج دولته ، والمسئول عن التبشير بالمسيحية بين « الأمميين »(٥٨) • وهذه كانت تمثل حجر الزاوية فى الالتزامات المنوطة بالامبراطور باعتباره كما ذكرنا « نائب المسيح » على الأرض •

وفى هذا السبيل أرسل الامبراطور قسطنطيوس Constantius (٣٣٧ - ٣٦١) بعثة قام بها ثيوفيلوس Theophilus حوالى مطلع النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى ، الى اليمن للتبشير بالمسيحية بين الحميريين(٥٩)، حتى اذا نجحت هذه البعثة التبشيرية فى مهمتها، كان ذلك يعنى تلقائيا امتداد النفوذ البيزنطى الى تلك المنطقة ، فقد كانت الدبلوماسية البيزنطية الذكية ، تضع بين قواعدها الرئيسية التى ترتكز عليها ، أن يتبع النفوذ السياسى البيزنطى الأسقف الأرثوذكسى أينما حط رحاله ووصلت دعواه ، والأمثلة على ذلك عديدة طوال امتداد التاريخ البيزنطى(٦٠) .

ولا يغيب عن أذهاننا أن قسطنطيوس كان يدين بالمذهب الآريوسى(٦١) ويسعى جهده لفرضه على كل الكنائس فى شطرى الامبراطورية ، شرقا وغربا ، ولما كان يعلم أن كنيسة أكسوم تدين بالمذهب النيقى ، منذ قام الأسقف السكندرى أثناسيوس Athanasius (٣٢٨ - ٣٧٢) برسم فرومنتيوس Fromentius أسقفا عليها فى أربعينيات القرن الرابع ، فقد حاول أن يجعل من ثيوفيلوس هذا الآريوسى فى اليمن ، منافسا لهذا الأخير ، النيقى ، فى أكسوم ، خاصة بعد أن فشلت مهمته لدى ملك اكسوم ، عندما حاول أن يحمله على العداء لأثناسيوس السكندرى(٦٢) .

ولا يبعد مطلقا أن يكون ثيوفيلوس قد حمل الى جانب مهمته التبشيرية ، مهمة أخرى تتعلق بالتفاوض مع ملكى أكسوم وحمير لضمان حسن معاملتهم للتجار الرومان الذين كانوا يعبرون ببضائعهم عن طريق اليمن ، والعمل معا لمجابهة السيادة البحرية التجارية للفرس فيما وراء هذه المنطقة باتجاه الشرق(٦٣) ، يزيد من حرصه على ذلك الهزائم التى كانت تتلقاها الامبراطورية على يد الفرس فى أعالى الفرات فى تلك الفترة .

ولم يفتر الاهتمام الرومانى بهذا الشريان الحيوى الهام ، رغم الاضطرابات السياسية الداخلية التى عانت منها القسطنطينية خلال القرن

الخامس الميلادى ، متمثلة فى الصراع السياسى بين الأحزاب الرومانية والجرمانية والايزورية فى العاصمة(٦٤) ، بالاضافة الى الخلافات العقيدية الحادة التى دهمت الكنيسة المسيحية فى الولايات الشرقية بشكل خاص ، وأسفرت عن انقسام خطير بين كنيستى القسطنطينية وروما من ناحية ، وكنيستى الاسكندرية وأنطاكية من ناحية أخرى ، بحيث أصبحت العاصمة الامبراطورية تدين بالأرثوذكسية الخلقيدونية ذى الطبيعتين فى المسيح ، بينما تؤمن كنائس الشرق البيزنطى بالأرثوذكسية ذى الطبيعة الواحدة(٦٥) . ورغم كل ذلك فقد كانت الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية تدرك مدى الخطورة الكامنة التى يمكن أن تترتب على هذا الخلاف العقيدى ، خاصة بينها وبين اكسوم ، التى كانت تتبع الاسكندرية رعويا ، وبالتالى المسيحيين فى حمير ، والذين يتبعون الكنيسة الحبشية ، وبالتالى الكنيسة السكندرية ؛ ذلك أن النساطرة القائلين ببشرية العذراء أم المسيح ، المغلبين ناسوت المسيح على لاهوته، على عكس أصحاب الطبيعة الواحدة(٦٦) والذين كانوا ينتشرون فى المناطق الشرقية ويحظون بحماية الدولة الفارسية ، سارعوا الى انتهاز هذه الفرصة للتبشير بعقيدتهم فى بلاد اليمن ، حيث كان لهم وجودهم فى جزيرة سوقطرة Sukhatara وفى بعض الموانىء اليمنية(٦٧) .

ومع أن هذا النشاط التبشيرى لم يلق استجابة من جانب مسيحيى تلك المناطق ، الا أن بيزنطة كانت تدرك جيدا أن أصابع فارس وراء هذه الجهود النسطورية . ورغم أن الفرس لم يكن يعنيهم فى شىء أمر المسيحية ، بل كان بالتاكيد يغضبهم أن تنتشر هنا أو هناك ، الا أنهم رأوا فى هؤلاء النساطرة ورقة ، ربما تصبح رابحة ، اذا أجادوا اللعب بها فى صراعهم مع الامبراطورية البيزنطية . ولعل أدق وصف لهذه الحال ، ما جرى به قلم « جواد على »(٦٨) بما نصه « ... كان العالم آنذاك ـ كما هو الآن ـ جبهتين ، غربية وشرقية ، الروم والفرس، ولكل طبالون ومزمرون من الممالك الصغيرة وسادات القبائل (ونضيف نحن ، وزعماء الفرق الدينية) ، يطبلون ويزمرون ، يرضون أو يغضبون ، يثيبون أو يعاقبون ارضاء للجبهة التى هم فيها . لقد سخر الروم كل قواهم السياسية للهيمنة على جزيرة العرب ، أو ابعادها عن

الفرس وعن الميالين اليهم على الاقل ، وعمل الفـــرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميـــل الى الروم وتؤيد وجهة نظرهم ، وعلى منـع سفنهم من الدخول الى المحيط الهندى ، والاتجار مع بلاد العرب • وعمل المعسكران على نشر وسائل الدعاية وكسب معركتها والفكر ، فسعى الروم لنشر النصرانية فى الجزيرة ، وحرضوا الحبشة على نصرها ونشرها ، وسعى الفرس لنشر المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب الروم والحبشة ، ولتأييد اليهودية أيضا ، ولم يكن دين الفرس يهوديا ولا نصرانيا ، ولم يكن غرض الروم من بث النصرانية أيضا خالصا من الغرض أو بريئا »•

لهذا •• مـا أن اعتـــلى الامبراطور أنسطاسيوس Anastasius (٤٩١ ـ ٥١٨) العـــرش ، وأعلن تخليه تدريجيا عن الأرثوذكســية الحكومية ـ الخلقيدونية ـ وممالاته للأرثوذكسية المونوفيزيتية ، حتى سعى جهده لدرء هذا الخطر الفارسى المستتر برداء النسطورية ، حيث سارع الى ارسال عدد من الاكليروس ورجال البلاط الى أكســوم واليمن لاقامة عدد من الكنائس بهدف اعـــادة الثقة بين المسيحيين هناك فى السياسة العقيدية البيزنطية ، وجـــذب ملك حمير ثانيـــة الى جانب القسطنطينية بعيدا عن الطموحات الفارسية(٦٩) • ومع أن الامبراطور الجديد جوستين الأول (٥١٨ ـ ٥٢٧) الذى خلف أنسطاسيوس ، قد تراجع عن سياسة سلفه العقيـــدية ، وعاد الى الأخـــذ بالأرثوذكسية الخلقيدونية ، حتى يحظى بتأييد كنيسة القسطنطينية ، ليضـــفى على اعتلائه العرش الامبراطورى شرعية كان يفتقر اليهـــا فى أول عهده ، الا أن الأحداث التى وقعت فى اليمن فى ذلك الوقت ، جـــذبت انتباه القائمين بالأمر فى العاصمة البيزنطية ، وأضاف بعـــدا جديدا للصراع البيزنطى الفارسى حول هذه المنطقة بأكملها •

لقد كانت الدولتان الفارسية والبيزنطية ، مع بدايات القرن السادس الميلادى ، تتربص كل منهما بالأخرى ، ولم يكن ذلك شيئا جديدا ، بل كان امتدادا لتاريخ طويل من الصراع بينهما عبر قرون عـــدة خلت ، يدعمه اختلاف وبالتالى تباعد حضارى كبير بينهما ، وتقارب فى الحدود أو تماس فى بعض المواضع ، يزيد من هـــذا التباعـــد ويؤجج نيران

العداء • وزاد النار ضراما ، انتقال العاصمة الرومانية من على ضفاف التيبر فى الغرب ، الى شطآن البسفور فى الشرق ، لتصبح أنظار الساسة فى القسطنطينية على مقربة جـــدا من مطامح الساسانيين فى طيسفون Ctesiphon (المدائن) ومطامعهم •

وكان أكاسرة الفرس قد وصلوا بدولتهم آنذاك الى درجة كبيرة من القوة السياسية والعســـكرية والاقتصادية ، وراحـــوا يهـــددون التخوم البيزنطيـــة والولايات الشرقيـــة للامبراطورية ، وكانت منـــاطق الحدود ، خاصة عند أرمينيا وابيريا ولازيقا ، تعد بصفة دائمة نقاط نزاع مستمر بينهما ، واجتاحت الجيوش الفارسية هذه المناطق أكثر من مرة خلال القرون من الثـــالث الى الخامس ، واذا كانت القسطنطينية قـــد أفلحت فى التصدى فى بعض الأحيـــان لهجمات الفـــرس ، واستعادة سيطرتها هناك ، الا أن ذلك كان يســـبب قلقا دائما وصـــداعا مستمرا لصانعى السياسة البيزنطية •

وزاد من رجحان كفة الفـــرس ، أن الجيش الرومانى لقى الهزيمة على أيديهم عام ٣٦٣ ، وقتل الامبراطور جوليان Julianus واضـــطر خليفته جوفيان Juvianus (٣٦٣ - ٣٦٤) أن يوقع معاهدة مهينة ، تنازل فيها عن عدد من مناطق الحدود الرومانية (٧٠) وزاد الأمر سوءا أنه لم تكد تمضى على ذلك أكثر من خمســـة عشر عـــاما ، حتى منيت الامبراطورية بهزيمة مـــروعة على يد القـــوط الغربيين Visigoths الجرمان سنة ٣٧٨ فى معركة أدريانوبل Adrianopolis حيث قتـــل الامبراطور فالنز Valens وخسرت الامبراطورية على أقل تقدير خمسة وأربعين الف جندى ، واكتسحت العناصر الجرمانية الأخرى ، النصف الغربى من الامبراطورية ، واقامت على امتداد القرن التالى (الخامس) عددا من الممالك(٧١) ، بحيث فقدت الامبراطورية شطرها ذاك ، ولم يبق لها الا ولاياتها الشرقية المواجهة للدولة الساسانية •

ورغم الجهـــود الكبيرة التى بذلها الامبراطور ثيودوسيوس الأول لاقالةالامبراطورية من عثرتها عقيب هـــذه المذبحة فى أدريا نوبل ،

الا انه لم يستطع أن يوقف هطول الجرمان على الامبراطورية ، أو يتصدى لأطماع الفرس على جبهته الشرقية ، فاضطر الى عقد اتفاقية معهم قضت بتقسيم أرمينية بينهما ، رغم أنها كانت قد تحولت مؤخرا الى المسيحية . وبموت ثيودوسيوس جاء الطوفان ولا عاصم ، حيث ضاع النصف الغربى تحت وطأة ضربات القبائل الجرمانية المتصاعدة ، وخضع الشطر الشرقى لسلسلة من الاباطرة الضعاف الذين عجزوا الى حد كبير عن مواجهة هذه التحديات المتلاحقة ، وانغمسوا حتى آذانهم فى الخلافات الكريستولوجية التى دارت حول طبيعة المسيح ، وشغلت القرن الخامس كله ، وتركت بصماتها واضحة على علاقة القسطنطينية بولاياتها الشرقية ، التى اتخذت فى جملتها ـ كما أسلفنا ـ مذهبا يخالف ما آمنت به العاصمة الامبراطورية .

ولا شك أن فارس وجدت فى هذه الظروف السيئة التى تحيط بعدوها التقليدى ، فرصة سانحة لتحقيق أهدافها ؛ فقد كان يعنيها فى المقام الاول أن تقفز الى الولايات الشرقية للامبراطورية ، ليصلها ذلك مباشرة بالبحر المتوسط الذى كان يعد المركز الحضارى آنذاك ولفترات تاريخية طويلة ، سابقة على هذا التاريخ أو لاحقة . وكان هذا شيئا واضحا تماما فى اتجاهات السياسة الفارسية منذ زمن بعيد ، يعود الى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، وراحت هذه الاتجاهات تزداد وضوحا ، بعد أن اعتلت الأسرة الساسانية عرش الأكاسرة فى القرن الثالث الميلادى(٧٢) . وبعد أن انتقلت حاضرة الامبراطورية الرومانية الى القسطنطينية منذ القرن الرابع ، وحتى سقوطها فى يد الاتراك العثمانيين فى القرن الخامس عشر الميلادى(٧٣) .

وكانت هناك أمور أخرى لا تقل عن ذلك اهمية ، فالاطماع الفارسية تجاه المناطق الواقعة على الحدود الشرقية ، والتى كان الفرس يعتبرونها امتدادا طبيعيا لدولتهم ، اصطدمت فى القرنين الرابع والخامس بزحف الهون **Hunni** ، القبائل الآسيوية التى اكتسحت وسط آسيا وامتد طوفانها الى قلب الامبراطورية الرومانية ، مرورا بشمالى فارس عند بحر قزوين . ولم تكد فارس تفيق من ذلك ، بعد أن

لقى الهون هزيمة قاسية على يد روما عند شالون سنة ٤٥١ ، وتصدع « امبراطورية الخيام »(٧٤) هذه بعد مـوت زعيمها أتيلا Atilla عام ٤٥٣ ، حتى وجدت الى جوارها قوة أخرى تتمثل فى بعض القبائل التركية التى انضمت الى بعضها البعض فيما يشبه اتحادا كونفيدراليا فى منطقة آسيا الوسطى(٧٥) . هذا بالاضافة الى ظهور قوة جماعات الهون مرة أخرى فيما عرف بقبيلة « الهطل » أو الهون البيض ، الذين أوقعوا بفارس هزيمة قاسية عام ٤٨٤ ، واضطروها أن تدفع لهم الجزية حتى منتصف القرن السادس الميلادى(٧٦) .

واستشعرت فارس الخطر داهما ، عنـدما تحولت كل من ابيريا Iberia ولازيقـا Lazica الواقعتين على حدودها مع بيزنطة ، والمتنازع عليهما دائما ، منضما اليهما أرمينية ، الى المسـيحية ، بعد اعتناق ملكيهما لهذه العقيدة ، وقصدهما الى القسطنطينية ، وما صحب ذلك من مظاهر الحفاوة البالغة التى لقياها فى العاصمة الامبراطورية ، وما أفاض به عليهما الامبراطور من الخلع الثمينـة والحلى وألقـاب التشريف(٧٧) ، وتلك كانت احـدى الدعائم الأساسـية للدبلوماسية البيزنطية(٧٨) . وقد تزامنت هذه الأحـداث تقريبا (حوالى ٥٢٢ - ٥٢٥) مع ما جرى فى اليمن ، وقيام الأحباش بدفع جيوشهم الى هناك .

ومع ادراك الفرس أن الرومان ، عن طريق حلفائهم الأحباش ، قد كسبوا أرضا جديدة فى أقصى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، مع كل ما تمثله المنطقة من أهمية استراتيجية واقتصادية ، وما أيقنوا أنه يمثل خطرا فادحا ، بتحول مناطق الحدود الشمالية الى المسيحية ، بعد أن سبقتهما أرمينية الى ذلك منذ القرن الرابع الميلادى ، فقد أقدم الفرس دون توان على احتـلال ابيـريا ثم لازيقا سنة ٥٢٧/٥٢٦(٧٩) . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذا التاريخ ليس ببعيد عن السنة التى شهدت الغزو الحبشى لليمن (حوالى سنة ٥٢٥) . واذا كانت كل من أكسوم ومن ورائها القسطنطينية قد تذرعتا بحماية المسيحيين فى حمير ، فقد أعلن ملك فارس أن احتلاله لهاتين المنطقتين هو من قبيل حماية معتنقى الزرادشتية فيهما(٨٠) . وتلك مسألة لا تحتاج الى تعليق حول مناطق

النفوذ ، سواء كان ذلك فى أقصى الشمال عند البحر الأسود وبحر قزوين ، أو عند الجنوب القصى فى بلاد العرب السعيدة ، والتى كان كل من القوتين العظميتين آنذاك يسعى للسيطرة عليها فى اطار سياسة التوازن الدولى .

وكان طبيعيا أن ترد القسطنطينية على ذلك ، وهى تدرك خطورة اقتراب الفرس من البحر الأسود ، مما يعد تهديدا مباشرا لها ، لذا فقد هاجمت الجزء الفارسى من أرمينيا ، وعادت هذه القوات محملة بالأسرى والغنائم ؛ اذ لم يكن يعنيها آنئذ أن تحتل أرمينيا الفارسية ردا على احتلال الفرس لابريا ولازيقا ، بل كان كل ما تريده اظهار قوتها لخصمها ، بأنها قادرة على التصدى له بالمثل ، يدفعها الى ذلك شغلها الشاغل المتمثل فى محاولة استرداد ولايات النصف الغربى من الامبراطورية ، والتى كانت قد ضاعت على يد الجحافل الجرمانية .

وكانت هذه النقطة الأخيرة مما يزيد الامبراطورية الفارسية ، على عهد ملكها الجديد كسرى أنوشروان Chosroes Anushirvan حنقا وغيظا ، وهى ترى جارتها تستعيد قوتها وحيويتها على عهد امبراطورها جوستنيان الأول Justinianus I الرومانى القلب والقالب ، والذى كان يؤمن باليقين كله أن امبراطورية رومانية لا يستقيم أمرها ولا حتى اسمها ، دون روما القديمة على ضفاف التيبر ، والتى أخضعت جبينها كارهة لقبيلة القوط الشرقيين Ostrogoths الجرمانية ، وأن روما الجديدة عند البسفور لا تغنى عن سميتها القديمة شيئا ، ومن ثم وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش ، خلفا لخاله جوستين ، أن يسترد من أيدى الجرمان ، ولايات الغرب الرومانى الضائعة ، مهما كلفه ذلك من جهد ومال ، وليس أدل على ذلك من أن الرجل أمضى نيفا وخمسا وعشرين سنة ، من فترة حكمه البالغة ثمانية وثلاثين عاما ، يدفع بجيوشه وخزائنه لحرب الممالك الجرمانية التى قامت فوق الأرض الرومانية فى الغرب ، كان من بينها ثلاثة وعشرون عاما كاملة (٥٣٣ ـ ٥٥٥) انفقها فى استرداد ايطاليا وحدها .

ولما كانت الدبلوماسية البيزنطية تعتمد أساسا فى جوهرها على

عدم خوض حرب فى جبهتين فى وقت واحد(٨١) ، فان جوستنيان لم يعمد - كما رأينا - الى احتـــلال أرمينية الفارسية ، اذ لم يكن على استعداد للدخول فى حرب سافرة مع فارس ، قـد تؤدى الى معـــركة حاسمة يعرف مقدما أن فرصته فيها قليلة ، مادامت جيوشـــه تعمل فى الغرب ، من هنا ظل حريصا طيلة عهده (٥٢٧ - ٥٦٥) على أن تبقى حروبه مع فارس ، مجرد مناوشات على الحـــدود ، تعقبها المفاوضات لعقد هدنة أو اقرار معاهدة للسلام ، يسكت من خلالها جوستنيان خصومه الى حين ، بما يقدمه اليهم من الأموال جزية كل عام . وقـــد نجحت الدبلوماسية البيزنطية على عهد جوستنيان فى هذا المجال نجاحا منقطع النظير ، وان كان على حساب الخزانة الامبراطورية . وهذا واضح تماما من المراسلات التى دارت بين كل من عاهلى فارس وبيزنطه(٨٢) .

كان الفـــرس يدركون ذلك كله جيـــدا ، ويستشعرون خطورة الانتصارات التى قد يحققها خصمهم فى الغرب ، مخافة أن تنتهى الحرب الاستردادية سريعا ، فتســـتدير القسطنطينية - كعـــادتها - لمجابهتهم والتفرغ لهم ، وزاد من مخاوفهم أن جوستنيان تمكن من القضـــاء على الثورة الشعبية العارمة التى استهدفت قلب نظام الحـــكم فى أول عام ٥٣٢ ، وخرج منها أقوى بأســـا وأشـد قوة(٨٣) ، ليتربع على عـــرش الامبراطورية من بعد أربعا وثلاثين سنة .

ولم يكن يخاف على جوستنيان ، القلق الذى يستبد بالفرس تجاه مشروعاته الاستردادية ، ولا كان غافـــلا عن أطماحهم وأطماعهم فى ولاياته الشرقية ، ولا كان على استعداد لخسارة هذه المناطق التى يرتكز عليها اقتصاد الامبراطورية لحساب ولايات الغرب الفقيرة ، وكان يدرك أن الفرس يعانون من ثقل وطأة الجزية التى يدفعونها ســـنويا للهون البيض على حدودهم الشرقية ، ومن ثم كان على استعداد لتعويضهم عن هذا الذى يدفعونه لقاء سكوتهم عن حـــروبه الاستردادية فى الغرب ، وتركه يتفرغ لانجاز هذا المشروع الضـــخم الذى يعتبر حجر الزاوية فى سياسته الخارجية .

واذا أضفنا الى هذا كله أن العملة الساسانية كانت تضرب بشـــكل

عام من الفضة ، وأنها نادرا ما كانت تسـك من الذهب(٨٤) ، أدركنا لماذا كان يسيل لعاب الفرس للحصول على النقود البيزنطية الذهبية . وتدلنا رسالة بعث بها الملك الفـارسى قباذ ـ سـلف كسرى ـ الى جوستنيان ، على صدق ذلك ، فقد ورد فيها : « ... لقد تأكد لدينا أننا اخوة يعين أحدنا الآخر فى حاجته ، وعليه اذ دخلنا فى معارك مع أعدائنا المجاورين ، ودفعنا لبعضهم الأمـوال استرضاء ، فقد أفلست خزائننا ، ولما لم تفلح محاولتنا مع سلفيكم أنسطاسيوس وجوستين ، لتقديم الأموال الينا ، اضطررنا لمهاجمة حدودكم حتى نحـذركم ، أما الحرب واما المال »(٨٥) .

وكانت الامبراطورية البيزنطية على عهد أنسطاسيوس قد تعهدت فى عام ٥٠٥ ، بمقتضى معاهدة السلام التى وقعتها مع فارس ، بعـد الهجمات التى تعرضت لها من جانب قباذ ، بدفع مبلغ خمسمائة رطل من الذهب سنويا(٨٦) ، غير أن هذا الرقم ارتفع فى معاهدة السلام التالية التى وقعت سنة ٥٣٢ والتى عرفت بمعاهدة السلام الدائم ، ليصل الى أحد عشر ألف رطل من الذهب سنويا . ولما كان من المستحيل أن يدوم السلام ، فقد قبل جوستنيان فى عام ٥٤٥ مكرها أن يقدم لفارس ألفى رطل من الذهب مقابل عقد هدنة مدتها خمس سنوات(٨٧) . وما أن انقضى أجل الهدنة حتى كان على القسطنطينية عنـد تجديدها سنة ٥٥١ لمدة خمس سـنوات أخـرى أن تدفع ألفين وستمائة رطـل من الذهب(٨٨) . حتى اذا جاء عام ٥٦٢ وتم توقيع معاهدة سلام جديدة مدتها خمسون عاما ، كان على الامبراطورية أن تدفع ثلاثين ألف رطل من الذهب دفعة واحدة مقدما عن السنوات السبع القادمة ابتداء من عام ٥٦٢ ، وأن تدفع فى بداية السنة الثامنة ، ما يعادل جزية ثلاث سنوات تالية ابتداء من عام ٥٦٩ ، ثم تدفع الأقساط بعد ذلك بانتظام الى نهاية السنوات الخمسين التى حددتها المعاهدة(٨٩) .

واضح اذن أن الفرس كانوا يصرون على استنزاف الذهب البيزنطى التى امتلأت به خزائن الامبراطورية ، والذى حدث عنه المؤرخ المعاصر يوحنا الليدى(٩٠) Ioannes Lydus بقـوله انه كان آلافا من أرطال

الذهب يصعب حصرها ، وذلك عند وفاة الامبراطور أنسطاسيوس عام ٥١٨ ، بينما قدره بروكوبيوس بما يقرب من ثلاثمائة وعشرين ألف رطل من الذهب ، زاد على مدار السنوات التسع التى أمضاها جوستين على العرش ، حسب رواية بروكوبيوس ، على ما ادخره أنسطاسيوس على امتداد عهده البالغ سبعا وعشرين سنة(٩١) ، بالاضافة الى ما جمعه جوستنيان نفسه طيلة أيامه ، وهو كثير ، حتى أمست الخزانة البيزنطية فعلا فى نهاية عهد جوستنيان ، تعانى الافلاس من جراء هذا النزيف المتدفق باتجاه فارس ، وتيار الانفاق الهادر بلا حساب على آتون الحرب الاستردادية فى الغرب ، بعد أن فشلت خطته القائمة على أن الحرب تأتى بنفقات الحرب ، ثم المنشآت المعمارية الضخمة ، العسكرية منها والمدنية على حد سواء .

ولعله مما يؤكد حرص الفرس على الذهب البيزنطى ، أنهم راحوا منذ عام ٥٢٩ يثيرون فى مفاوضاتهم مع البيزنطيين ، مسألة استعادة منجمين للذهب كانا يقعان على الحدود بين أرمينيا الفارسية وأرمينيا الرومانية ، مرددين دائما أن الامبراطور أنسطاسيوس كان قد استولى عليهما ، وظلوا يلحفون فى طلبهم رغم توقف المفاوضات أكثر من مرة ، الى أن تحقق لهم ما أرادوا بمقتضى معاهدة السلام الدائم التى وقعت عام ٥٣٢ ، والتى نصت على عودة المنجمين الى السيادة الفارسية(٩٢) .

وكانت لهفة الفرس على العملة الذهبية البيزنطية ، وفى الوقت نفسه ، مخاوفهم وطموحاتهم ، كلها فى وقت واحد ، تزداد كلما صكت مسامعهم أنباء انتصارات يحققها جوستنيان فى حروبه الاستردادية ، فقد أذهلتهم مفاجأة استعادة الامبراطورية لولاية أفريقيا الرومانية من يد الوندال Vandal اثر حملة خاطفة قام بها قائده الأشهر بليزاريوس Blisarius عام ٥٣٣ وعاد منها الى القسطنطينية وفى ركابه الملك الوندالى جليمار Glimer أسيرا ، وبين يديه الكنوز الضخمة التى كان الوندال قد سلبوها من كنيسة القديس بطرس فى روما ، عند مهاجمتهم لايطاليا عام ٤٥٥ ، عندها لم يتمالك الملك الفارسى نفسه من الغيظ ، فكتب الى الامبراطور البيزنطى يطلب اليه اقتسام هذه الأسلاب

باعتباره شريكا فى صنع هذا النصر ، بالتزامه الحياد بمقتضى معاهدة سنة ٥٣٢ !! والطريف أن جوستنيان رغم اشمئزازه من هـذا المطلب الفارسى ، الا أنه حقق رغبة العاهل الفارسى وأرسل اليه بعض الأموال فى شكل الهدية على سبيل الترضية !!(٩٣) .

ولم يكد يمضى على ذلك سبعة أعوام ، حتى كان بليزاريوس قـد نجح عن طريق الخديعة ، فى القبض على ملك القـوط الشرقيين فى ايطاليا ، ودخول العاصمة رافنـا Ravenna ، وهىء للجميع ساعتها أن مملكة الأوستروقوط قد دالت(٩٤) ، فغلت فى عـروق الساسانيين دماء الغيظ والخوف فى وقت واحـد ، فاندفعت جيوشهم لا تلوى على شىء ، لتخرب أجزاء متفرقة من الولايات الرومانية الشرقية ، ولتستولى على لازيقا ثانية والجزء البيزنطى من أرمينية ، ولتقفز الى ساحل البحر المتوسط ، المركز الحضارى ، باحتلال أنطاكية فى العام نفسه (٥٤٠) ، لتحقق بذلك حلما طالما راودها ، وان كان ذلك الى حين ، اذ سرعان ما انسحبوا بعد أن قدم لهم جوستنيان عام ٥٤٥ نقوده الذهبية !!

لم يكن أمام الامبراطورية البيزنطية ، رضيت أم كرهت ، الا أن تدفع بسخاء كل ما يطلبه الفرس من الذهب ، وهذا واضح من نصوص الاتفاقيات التى أشرنا اليها من قبل ، فلم تكن بيزنطه تستطيع أن تفعل غير ذلك ، وهى تضع نصـب عينيها مشروعها الاسـتردادى الضخم ، ودبلوماسيتها كما علمنا ، ترتكز على عدم الحرب فى جبهتين فى وقت واحد ، ولم يكن الفرس وحدهم فى الميدان يرتجى سكوتهم ، بل كانت هناك شعوب قبلية عديدة تنزل عند حـدود الامبراطورية فى الشـمال والشمال الشرقى والغرب ، مثل الهون والعناصر التركية على اختـلاف مسمياتها ، والآفار والجبيد واللومبارد وغيرهم .. وكان على بيزنطة أن تستخدم أسلوب الترغيب أو الترهيب هنا وهناك حسب الظروف ، ومن هنا كان الفرس يحتلون المرتبة الأولى فى الأهمية ، حتى لا تعطيهم بيزنطة الفرصة للوصول الى هذه القبائل ، يؤلبونها ضد القسطنطينية .

وكان مما يؤلم القسطنطينية الى جانب هـذا كله ، أن الفـرس

يسيطرون على الطريق الرئيسى الذى تسلكه تجارة الحرير القادم من الصين ، عبر وسط آسـيا الى الامبراطورية البيزنطية ، والتى كانت تستورد منه كميات هائلة تستخدمها فى الحياة الاجتماعية والسياسية على السواء . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعـداه الى تحكم التجار الفرس فى كميات الحرير الصينى المتجهة غربا الى بيزنطة عن طريق البحر ، أعنى المحيط الهندى وما وراءه سواء الخليج الفارسى أو البحر الأحمر ؛ فقد كانت سفن هؤلاء التجار تصـل الى بعض موانىء البحر الأحمر كما أشرنا من قبل ، ومن ثم كانت سيادة فارس على طرق تجارة الحرير القادم الى القسطنطينية برا أو بحرا تمثل غصة فى حلق العاصمة البيزنطية ، التى كانت تعتبر الحرير الصينى ضرورة حياة !!

لقد كانت القسطنطينية فى القرن السادس الميلادى ، وعلى عهد جوستنيان ، تمثل بتعبيرنا الحديث ، باريس عصرها ، مدينة الأضـواء والشهرة الذائعة ، يقصدها القاصى والدانى ، ويؤمها حجيج المعـرفة وطلاب الحاجات ، والباحثون عن المتعة ، والمولعـون بالثـراء ، والساعون للرزق ، تختلط فيها الأجناس ، وتختلف الألسنة ، وتتباين الأفكار . والمترفون من النبلاء ورجال السـناتو ووجوه البلاط والأسرة الحاكمة ، يتبخترون فى ثيابهم الحـريرية الرقيقة ، المزدانة بخيوط الذهب والمرصعة بالحلى والأحجار الكريمة !! ويدلون بذلك فى خيلاء على الوفود الأجنبية الآتية من كل صقع ، خاصة القبائل النازلة عنـد حدود الامبراطورية ، والذين قدموا للبحث عن معاهدة للسلام ، أو هدنة توقف حـربا ، أو طمعـا فى القاب التشريف ، أو تطلعا الى الخلع الثمينة والهدايا من الحلى والثياب الحريرية ، التى تعتبرها شعوب تلك القبائل ، نوعا من التكريم الرومانى يتنافس فيه المتنافسون !!

وقد أمدنا الامبراطور البيزنطى قسطنطين السـابع « الأرجوانى المولـد » Constantinus VII Porphyrogenitus (٩٤٤ - ٩٥٩) فى كتابيه الرائعين « عـن الادارة الامبراطورية De Administrando Imperio » و « عن المراسم » De Cerimoniis بمادة علمية وافرة عن مظاهر الترف التى كان يحيـا فيها البـلاط البيزنطى ، وعن حاجة

القسطنطينية الماسة دائما لهذا الحرير لاهدائه الى زعماء الشعوب القبلية ، دليلا على المودة البيزنطية تجاههم . ويعلق هايد (٥) Heyd على ذلك بقوله « لقد كان البلاط حريصا على أن يعرض على أنظار برابرة الشمال صلاته التجارية مع البلدين ، الهند والصين . وكلما ضعفت امكانية الايهام باستعراض مظاهر القوة والجبروت ، زادت الحاجة الى استخدام مثل هذه الوسائل لتاكيد تفوق الامبراطورية الرومانية . ومهما كانت روابط الصداقة بين أمير بربرى وبين بيزنطة ضعيفة ، فان هذه كانت تهدى اليه أو الى مبعوثيه اقمشة حريرية وأحجارا كريمة وتوابل ، كذلك كانت كميات كبيرة من الحرير تذهب الى الغرب ، يهديها الامبراطور الى الكنائس أو الى رؤساء الأساقفة فيها أو الى بعض الأمراء ليصنعوا منها ثيابهم ، اعلاء لهيبة البلاط » . ويضيف مؤرخنا « من هنا كان الفرس يحرصون كل الحرص على أن لا يصل الحرير الى بيزنطة بطريق آخر غير الطريق الذى يجتاز بلادهم ، أو بأيد أخرى غير أيديهم »(٩٦) . وكيف لا وقد أثروا من هذه التجارة ثراء حسنا(٩٧) . ولذا .. فان الطريق الوحيد للحصول على هذه المادة الخام الثمينة هو الاتفاق مع فارس . وفى هذا السبيل توصل الامبراطور دقلديانوس Diocletianus منذ أواخر القرن الثالث الميلادى ، الى اتفاق مع الملك الفارسى نارسيس Narses بحيث أصبحت مدينة نصيبين Nisibe الفارسية ، السوق الرئيسى للحرير المستورد من الصين ، ومنها يصدر الى مدن الامبراطورية الرومانية(٩٨) .

ولم تأل الدبلوماسية البيزنطية جهدا فى محاولات لاختراق هذا الحصار الفارسى لتجارة الحرير ، وفى سبيل ذلك كان جوستنيان حريصا على أن يمد نفوذه الى شبه جزيرة القرم كلها بعد أن كان قاصرا فقط على مدينتى خرسون وبسفور(٩٩) وذلك بالاضافة الى لازيقا واقليم القوقاز ، هادفا بذلك الى الالتفاف حول مناطق السيادة الفارسية من أجل الوصول الى الحرير الصينى ، خاصة وأنه قد جرت محاولات بيزنطية للاتصال مع الأتراك فى اقليم ما وراء النهر ، بعد أن تمكن خانات الترك من توحيد آسيا الوسطى تحت سلطانهم ، على النحو الذى أسلفنا(١٠٠) . ولعل هذا هو الذى يفسر بوضوح ذلك النقد اللاذع الذى وجهه بروكوبيوس

القيسارى فى كتاباته الى الامبراطور جوستنيان ، عند فقدان لازيقا على يد الفرس عام ٥٤٠ ، متهما اياه بالتقصير فى الحصول على المعلومات الضرورية من عيونه حول تحركات الجيش الفارسى مما أدى الى ضياع لازيقا(١٠١) .

وكانت ادارة الخارجية البيزنطية تعلم يقينا ، أن جهودها لحرمان الفرس من الحصول على الأرباح الهائلة التى يجنـــونها بقيامهم بدور الوسطاء فى تجارة الحرير عبر الطريق البرى ، لن تحقق النجاح الذى ترتجيه ، ولذا كانت تتحين الفرص للبحث عن طريق آخر يصلها مباشرة مع مراكز بيع هذه « المادة الثمينة » ، وسرعان ما جاءتها هذه الفرصة على غير توقع ، عندما وضع الأحباش أقدامهم فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العـــربية ، ولم تتوان القسطنطينية عن تأييد الغـــزو الحبشى عسكريا ومعنويا ؛ فقد كانت سيادة حلفائها الأحباش على طرفى البحر الأحمر عند مدخله ، تضمن لهم طريقا بحريا آمنا ، كما أملوا ، للحصول على الحرير الصينى بعيدا عن السيادة الفارسية(١٠٢) .

وليس بخاف على أحد ، أن سيادة اليهود على اليمن قبل الغـــزو الحبشى ، كانت تثير الى حد كبير جـــدا مخاوف الساسة البيزنطيين ، ليس فقط بدافع العداء بين اليهود والادارة البيزنطية ، وما نتج عنه من اعتداء على التجار الرومان فى اليمن ، ولكن لما قد تمثله هذه السيادة اليهودية من امتداد للنفوذ الفارسى أيضا الى هذه المنطقة الحيوية والهامة بالنسبة لبيزنطة . وتأكدت هذه المخاوف بعد المراسلات التى دارت بين ذى نواس وملك الحيـــرة اللخمى ، الذى كان يدور فى فلك السيـــاسة الفارسية . هذا بالاضافة الى أن أعدادا من يهود الفرس كانوا قد انخرطوا منذ زمن ليس بالقصير فى سلك الخدمة العسكرية فى الجيش الفارسى ، وحظوا بالاحترام ، على حد تعبير المؤرخ الكنسى يوساب Eusebius القيسارى ، من جانب قادتهم(١٠٣) ، وأن جماعات أخرى منهم قـــد عملت بالتجارة وجنت على عهـــد الساسانيين ثروات كبيرة ، باقدامهم على ارسال سفن تجارية تعمل لحسابهم الى منطقة القرن الافريقى(١٠٤) ، ولهذا رحبت بيزنطة ، بل ولعبت دورا أساسيا فى أن تمد مملكة أكسوم

نفوذها الى الشاطىء الآسيوى للبحر الأحمر ، بدلا من أن يقفز اليهـا ـ عبر اليهود ـ النفوذ الفارسى .

ولم يكن من السـهل أن يغفر اليهـود لبيزنطة دورها فى تدمير مملكتهم الناشئة فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ولهذا فانه بعد مضى أربع سنوات فقط على ذلك ، شرعوا فى تحـدى الحكومة البيزنطية والخروج عن طاعتها ، عندما أعلنت جماعات السامريين اختيار جوليان Julianus ملكا عليهم سنة ٥٢٩ ، وأوقعـوا بالمسيحيين فى نابلس Neapolis وبيسـان Scythopolis وقتلوا منهم أعدادا كبيرة(١٠٥)، منتهزين فرصة الحرب الدائرة يومئذ بين فارس وبيزنطة ، مؤملين أن يمد لهم الفرس يد المساعدة ، غير أن جوستنيان سرعان ما فوت عليهم هذه الفرصة بالدخول فى مفاوضات مع الفرس ، وأوعز فى الوقت نفسه الى الحارث بن جبلة ملك الغساسنة الذى كان يدين بالولاء لبيزنطة ، أن يتصدى لهذا التمرد اليهودى ، ونجح الحارث ومعه القوات البيزنطية فى اخماد هذه الفتنة واعادة الهدوء الى فلسطين(١٠٦) .

على هذا النحو كان جوستنيان يدرك ضرورة الأخذ على يد اليهود بشدة ، حتى لا يشكلوا له طابورا خامسا داخل دولته ، وعونا للفرس عليه ، ومن ثم جاءت خطوته الهامه التالية ، وهى ضرب تجمع تجار اليهود فى جزيرة تيران عند مدخل خليج العقبة ، حيث كانت الجزيرة موضعا لتحصيل الجمارك فى الامبراطورية ، وكان العـائد سـواء من التجارة أو حصيلة الخدمات التى تقوم عليها ، تشكل دخـلا وفيرا . وكانت أعداد اليهود فى هذه الجزيرة قد ازدادت بصورة تلفت الانتباه، خاصة بعد تدمير مملكة ذى نواس وفرار عدد من اليهود اليمنيين اليها واحتمائهم بها ، الى الحد الذى دفع التجار المسيحيين فيها الى الاحتجاج على هـذه المضايقات التى يلقونها من جانب اليهود ، ولقيت هـذه الاحتجاجات آذانا صاغية لدى الامبراطور جوستنيان ، فاقدم فى عام ٥٣٥ على تدمير هذه المستوطنة اليهودية ، وقضى على نفوذ اليهود فيها، حتى يصبح الطريق التجارى البحرى من رأس البحر عند تيران والقلزم آمنا حتى مدخله فى الجنوب . وقد مثلت هذه الخطوة أهمية سياسية

واقتصادية كبيرة لدى بيزنطة ، حتى أن مؤرخا مثل Sharf (١٠٧) اعتبرها تتمة طبيعية لتدمير مملكة ذى نواس فى اليمن ·

وكان جوستنيان قبل ذلك ، وفى سبيل تامين هذا الطريق التجارى ، وتخليص تجارة الحرير من التبعية للفرس ، قد أرسل فى عام ٥٣٢/٥٣١ وفدا الى مملكة أكسوم ، ليطلب الى الاحباش أن يقوموا هم بشراء الحرير من الهنود ، ثم يقومون هم ببيعه للبيزنطيين ، فيصبحون على هذا النحو وسطاء حلفاء ، بدلا من الفرس ، وتذهب اليهم الأرباح التى تجنيها منها فارس(١٠٨) · وقد أبدى الأحباش استعدادهم للقيام بهذا الدور ، غير أنهم كانوا فى الوقت نفسه عاجزين عن الوفاء بذلك ، حيث أن التجار الفرس ، الذين كانوا قريبين من مركز تجمع الحرير فى سيلان ، درجوا على شراء كل شحنات الحرير القادمة من الصين ، فلم يجد تجار الأحباش شيئا يبتاعونه ، هذا بالاضافة الى أن أهل سيلان الذين اعتادوا التعامل مع التجار الفرس منذ عهد بعيد ، لم يشاءوا الاساءة الى هؤلاء عن طريق التعامل مع منافسيهم الجدد(١٠٩) · وهكذا ظل الفرس دون منازع ، يحتكرون هذه التجارة الى ما بعد منتصف القرن السادس الميلادى ، حتى تمكن الامبراطور جوستنيان ، الذى لم يفتأ يبذل المحاولات للخلاص من هذه التبعية الاحتكارية لفارس ، من الحصول على بيض دود القز وبذور شجر التوت ، عن طريق بعض الرهبان المسيحيين ، الذين كانوا قد توغلوا الى وسط آسيا حتى مملكة خوتان Khotan وذلك حوالى عام ٥٥٢ للميلاد(١١٠) ·

غير أنه كان على بيزنطة أن تتحمل لسنوات طويلة قادمة ، تحكم الفرس فى هذه التجارة ، لأن الطلب البيزنطى على الحرير الصينى ، كان يزداد بصفة مستمرة ، ولم يكن بمقدور هذه الصناعة البيزنطية الناشئة أن تفى باحتياجات الامبراطورية للحرير ، لاستخدامها المتزايد له ـ كما أسلفنا ـ فى الأغراض السياسية والاجتماعية على السواء · لهذا لم يكن أمام القسطنطينية والحالة هذه ، الا أن تكثف نشاطها الدبلوماسى فى الجنوب عن طريق حلفائها الأحباش ، الذين يسيطرون الآن على ساحلى البحر الأحمر عند مدخله ·

وفى سبيل ذلك جدد جوستنيان سـفارته برئاسة مبعوثه جوليان حوالى سنة ٥٣١ الى ملك أكسـوم والى « السميفع » Esimiphaeus الذى يذكر المؤرخ المعاصر بروكوبيوس ، أن الأحباش قد اختاروه ليكون ملكا على حمير ، تحت نفوذهم ، خلفا لذى نواس(١١١) . وقد أمل الامبراطور البيزنطى من وراء بعثته هذه أن يجد تجاوبا لدى الأحباش بهدف لفت أنظار الفرس الى تلك المناطق عن طريق جرهم الى الدخول فى مناوشات عند منطقة الخليج ، ليخفف الضغط على قواته عند الجبهة الشمالية الشرقية . وبلغت به الآمال مبلغا كبيرا عنـدما سعى جاهدا ليحقق تقاربا بين قوات الأحباش فى اليمن والقبائل العربية فى نجد ، مثـل « المعـديين » Maddeni وذلك للتعاون من أجل الوصول بقواتهم معا الى شرقى شبه الجزيرة العربية ، تهديدا للأراضى الفارسية والنفوذ الفارسى(١١٢) . ورغم الوعود الطيبة التى عاد بها جوليان الى سيده ، الا أن شيئا من ذلك لم يتحقق ، فالأحباش - بغض النظر عن كونهم لا يستطيعون مواجهة الجيـوش الفارسية المتفوقة عليهم عـددا وعدة ، لم يكونوا راغبين أصلا فى الدخول فى حرب مع الفرس على الجانب الشرقى لشبه الجزيرة العربية دون فائدة حقيقية ملموسة تعود عليهم ، واعتبروا ذلك - على حد تعبير بروكوبيوس - صفقة المغبون ، فى أن يقطعوا هذه الصحراء من أجل شن حرب ضد أناس أشـداء فى الحرب(١١٣) ولم تكن القبائل العربية فى نجد بأقل من الأحباش تبصرا بنتائج هذه المغامرة غير المأمونة(١١٤) .

غير أن هذه الجهود الدبلوماسية البيزنطية المكثفة مع مملكة أكسوم وشيوخ القبائل العربيه فى شبه الجـزيرة ، لم تكن لتغيب عن أعين الساسانيين فى فارس ، وهم يقدرون تماما مدى خطورة امتداد النفوذ البيزنطى الى قرب حدودهم الجنوبية الغـربية . واذا كانوا قد ضمنوا سيطرتهم الاحتكارية على طريق الحرير عبر وسط آسيا ، وحققوا نجاحا كبيرا فى استنزاف الخزانة البيزنطية عن طريق المكوس الجمركية على هذه التجارة وغيرها ، والجزية السـنوية التى يحصلون عليها ، فانه لا ضير أيضا أن يمدوا أصابعهم وأنفهم الى هذه المنطقة ، حتى تكتمل

حلقات الحصار الاقتصادى لأهم سلعة بالنسبة لبيزنطة فى زمانها ، حول عدوهم التقليدى ، الامبراطورية البيزنطية .

من هنا كان الاحتفال باتمام ترميم سـد مأرب حوالى عام ٥٤٢/ ٥٤٣ فرصة سانحة كى يسارع الفرس بارسال وفود التهنئة الى أبرهة ، الذى غدا الآن حاكما فعليا مستقلا بحكم اليمن ، ضمن سيادة واهنة لملك أكسوم(١١٥) . وحث الفرس حليفهم ملك الحيرة ، المنذر الثالث ، أن يحذو حذوهم ، ففعل . ولم تكن بيزنطة لتترك الساحة للفرس على هذا النحو ، فى منطقة تعتبرها ضمن مناطق نفوذها عن طريق حلفائها ؛ فقدم وفد الامبراطور البيزنطى الى اليمن تحف به وفود الحلفاء ، أعنى الحارث الغسانى وأبا كارب شيخ عرب فلسطين الثالثة(١١٦) . هكذا وجد أبرهة نفسه محاطا برسل أقوى دولتين فى زمانه ، ومن يدور فى فلكيهما ، والكل جاء يخطب وده ويرجو مودته !! مما ترك أثرا بعيدا على شخصيته ، ظهر واضحا بعد ذلك فى سياسته . لكن الذى لاشك فيه أن كلا من فارس وبيزنطة ، كان يطمح فى أن يفسح لنفسه نفوذا عنـد المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . ولم يكن أبرهة نفسه بغافل عما يدور فى أذهان هؤلاء وأولئك ، وما تبديه أحاديثهم اليه ، ومن ثم أحسـن استقبال الجميع ، لكن أيا من الوعود التى قطعها على نفسه ، خاصة لمن هم على عقيدته ، لم يشأ أن يحقق منها شيئا .

لقد كان أبرهة يدرك من اجتماع هذه الوفود لديه كلها فى آن واحد ، رغم العداء الذى يضمره كل منهم تجاه الآخر ، أن الدخول فى لعبة صراع القوى العظمى هذه ، سوف تفقـده مكانته المستقلة ومركزه الذى يتمتع به ، فى هذه المنطقة الحيـوية لكل من القوتين ، وهو لم يتحرر من نفوذ سيده المباشر ، ملك أكسوم ، وان كان قد أبقى على حبل ضعيف يتمثل فى الجـزية ، ليقع فى أيدى الفـرس أو البيزنطيين ، وليدخل فى دوامة التبعية التى قد لا يفيق منها أبدا مادام الصراع قائما بين المعسكرين . ورغم أن هـواه كان مع البيزنطيين بحكم العقيدة ، الا أنه لم يغامر باظهار العداء السافر تجاه الفرس تحسبا لقوتهم العسكرية التى يعلم أبرهة قدرها .

والغريب فى الأمر ، والذى يدعو للدهشة فى الوقت نفسه ، أن السياسة البيزنطية ساهمت ، دون قصد ، على أن يسلك أبرهة هذا المسلك المتحفظ تجاهها ، بل والمستقل . فمن المعروف - كما قدمنا - أن السياسة البيزنطية كانت تعتبر الأسقف المسيحى رأس جسر طبيعى وضرورى للنفوذ السياسى للامبراطورية فى أى منطقة من العالم المحيط بها ، قرب أم بعد هذا العالم ، وطبقت ذلك الأسلوب باقتدار ونجاح فى مناطق كثيرة ، الا أنها هنا سلكت - على غير عادتها - سلوكا مغايرا سبب لها بعض العراقيل فى طريق تدعيم النفوذ الذى تؤمله . وقد يبدو للوهلة الأولى من الرؤية المتعجلة للأحداث ، أن الدبلوماسية البيزنطية قد أصيبت هنا بقصر النظر ، لكن شيئا من ذلك ليس ورادا فى عصر وصف فيه جوستنيان بانه يعد بحق أستاذ الدبلوماسية البيزنطية(١١٧) . لكن الظروف التى كانت تعيشها بيزنطة عندئذ ، هى التى ساهمت بنصيب كبير فى الاخفاق الذى اعتراها فى هذه المنطقة .

لقد كان الخلاف العقيدى - كما أسلفنا - قائما بين كنيسة القسطنطينية من ناحية ، وكنائس ولايات الامبراطورية الشرقية فى سوريا ومصر من ناحية ثانية ، وكانت كنيسة أكسوم تدين بما تؤمن به الاسكندرية ، وأصبح للاسكندرية منذ القرن الرابع الاشراف الرعوى على الكنيسة الحبشية ، ومن هنا توجه ملك أكسوم الى تيموثى Timotheus الأسقف السكندرى (٥٢٠ - ٥٣٦) يطلب اليه أن يرسل من لدنه أسقفا ، له من المهابة ما لراعيه ، ليصحب الحملة المتجهة الى اليمن(١١٨) ، ولم يتوان تيموثى ، فأرسل على الفور أسقفا يصحبه عدد من القسيسين ، بهدف اعادة تنظيم الكنيسة فى اليمن بعد الأحداث التى تعرضت لها على يد ذى نواس(١١٩) . ولا شك أن هذا الاسقف كان من أصحاب الطبيعة الواحدة ، الا أن فترة مكثه هناك لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما مات ، ودارت المراسلات من جديد فى سبيل الحصول على من يرعى كنيسة اليمن بدلا منه .

غير أن هذه المراسلات توقفت فجأة ، وأعلن أبرهة رفضه استقبال أسقف جديد(١٢٠) ، وكان ملك أكسوم قد سلك فى الوقت نفسه ذلك السبيل(١٢١) . بل ان الأمر وصل الى حد قتل الأسقف الذى أرسله

الامبراطور البيزنطى الى أكسوم بعد وصوله اليها بوقت قصير(١٢٢) ولا شك أن هذا التصرف من جانب ملكى أكسوم واليمن ، يعود الى تغيير جذرى فى السياسة العقيدية أقدمت عليه القسطنطينية ·

لقد كان الامبراطور جوستنيان يضع نصب عينيه مبدأ لا يبغى عنه حولا ، يتلخص فى القول بدولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة ، وفى النقطة الأخيرة ، فانه بايمانه المطلق بالقيصرية البابوية Caesaropapism كان يعتقد يقينا بأنه وحده له الحق فى اختيار المذهب الذى تدين به رعيته · غير أن السياسات الدولية فى زمانه اضطرته فى كثير من الأحيان الى عدم الثبات على اتجاه واحد فى المسألة الدينية · كان الامبراطور كما يصفه المؤرخون ، آخر الأباطرة الرومان(١٢٣) ، رومانى القلب والقالب · كان قلبه يهوى الغرب ، لكن بصره كان معلقا بالشرق ، وبين قلب الامبراطور وبصره ، تأرجحت فى العقيدة سياسته·

فقد أقدم جوستنيان فى أول عهده على ممالأة أصحاب الطبيعة الواحدة ، أو بتعبير أدق ، أهالى الولايات الشرقية ؛ ذلك أنه كان مقدما على الدخول فى حرب « المناوشات » مع فارس ، ومن ثم حرص على استرضاء أهالى هذه الولايات ، حتى لا يسمح للنفوذ الفارسى أن يمتد اليها ، فيشكلون شوكة فى ظهره أثناء مواجهته للفرس ، حتى اذا انتهى الأمر بعقد معاهدة السلام الدائم عام ٥٣٢ ، وأمن جوستنيان - ولو الى حين - جانب الفرس ، وبدأ مشروعه الضخم لاسترداد ولايات الغرب ، أصبح فى حاجة ماسة للحصول على تأييد البابا فى روما ، حتى يضمن وقوف شعب الكنيسة الرومانية فى ولايات الغرب الى جانبه · ولما كانت كنيسة روما تدين بالخلقيدونية ، فقد أدار ظهره الآن لكنائس الشرق ورعاياها وراح يعزل الأساقفة المنافزة فى القسطنطينية وأنطاكية والاسكندرية ، ويحل محلهم أساقفة خلقيدونيين(١٢٤) ·

وكان الأسقف السكندرى ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٥٣٦ - ٥٣٨) الذى خلف تيموثى ، ممن شملهم قرار العزل ، ليحل محله أسقف جديد يدعى بولس (٥٣٨ - ٥٤٢) يدين بالمذهب الخلقيدونى(١٢٥) · ولعل هذا هو الذى يفسر لنا الآن ، اقدام كل من

ملك أكسوم وملك اليمن على رفض استقبال الأساقفة الخلقيدونين الذين أرسلهم جوستنيان أو حاول ارسالهم ، وظلت كنيستا أكسوم واليمن شاغرتين قرابة خمسة وعشرين عاما(١٢٦) .

ورغم أن أبرهة كتب الى الامبراطور جوستنيان،يطلب اليه ارسال أسقف يكون المسيحيون هناك على استعداد للتعامل معه ، أى يدين بمذهبهم ، الا أن جوستنيان رفض ذلك ، أو لعله راح يماطل فى تحقيق هذا المطلب(١٢٧) ، رغم أنه كان مهتما جدا - كما نعلم - باستمالة مملكتى أكسوم واليمن الى صفه للوقوف معه فى صراعه مع فارس . غير أن حلم الامبراطور البيزنطى وطموحه لاسترداد ولايات النصف الغربى من الامبراطورية ، أملى عليه سياسته العقيدية على هذا النحو ، مما أعطى الفرصة لأبرهة نفسه ، أن ينهج نهجا مستقلا الى حد بعيد فى سياسته الخارجية ، وان كان هذا لم يؤد بالضرورة الى تقطع حبائل العلاقات الودية بين القسطنطينية وصنعاء .

لقد كان مما يعنى القسطنطينية فى المقام الأول ، أن يظل نفوذها السياسى ممتدا الى هذه المنطقة ، وأن يبقى أبرهة حليفا ضد المدائن ، بل ان أبرهة نفسه كان حريصا الحرص كله على أن تظل علاقاته السياسية والاقتصادية طيبة مع بيزنطة ، حتى يضمن وقوفها دائما الى جانبه ، خاصة وهو يعلم أن ملك أكسوم لم يكن ليغفر له استقلاله بالأمر دونه فى اليمن(١٢٨) ، وان كانت ظروفه العسكرية لم تسمح له بالتخلص منه . ولذا لم يترك أبرهة الفرصة لهذه الخلافات المذهبية بين صنعاء والقسطنطينية أن تؤثر فى طبيعة العلاقات بين الحليفين . بل ان بعض الباحثين يذهب الى القول بأن أبرهة ربما يكون قد قبل فى نهاية الأمر، أمام اصرار جوستنيان ، وحتى لا يفقد صداقته ، وجود أسقف خلقيدونى فى مملكته(١٢٩) .

كان أبرهة يدرك تماما الأهمية الاستراتيجية التى تحتلها المنطقة التى يسيطر عليها فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ويعى بصورة واضحة المكانة التجارية التى تمثلها اليمن فى عالم الاقتصاد الدولى آنذاك ، وبالتالى الصراع السياسى بين أكبر قوتين فى زمانه ،

ورأى - كى يفلت من الدوران فى فلك أى منهما ، أن يحاول وضع قدم له بين العملاقين ، واذا كانت بيزنطة تسيطر بأسطولها فى القلزم وتيران على البحر الأحمر ، وتتحكم فارس بسفنها فى تجارة الخليج والمحيط الهندى حتى سيلان ، وبموقعها ، على الطريق البرى عبر وسط آسيا ، فلم لا يقدم هو الآخر على البحث عن طريق يخضعه لسلطانه ، وهو الطريق الذى كان قائما منذ زمن بعيد ، والذى يبدأ من صنعاء ويتجه شمالا ليمر بالمدن الرئيسية كالطائف ومكة ويثرب الى دمشق ، وهو الذى يربط اليمن بعالم البحر المتوسط ، والسيطرة على هذا الطريق تحقق دون شك فائدة اقتصادية هامة للجنوب العربى .

ولا شك أن اقدام أبرهة على نقل عاصمة اليمن من ظفار (حاضرة الحميريين) الى صنعاء التى تقع الى الشمال ، كان خطوة على هذا الطريق ، وامتد اهتمامه الى مأرب ليعيد ترميم سدها الشهير ، ويقيم فيها قصرا وكنيسة(١٣٠) . وكانت الخطوة التالية بلوغا الى الشام ، تعنى القفز على مكة ، المركز التجارى الهام لمنطقة شبه الجزيرة العربية كلها ، وقبلة الحجيج الى الكعبة بأوثانها قبل الاسلام ، ومنتدى الشعراء والفصحاء والبلغاء بأسواقها الثقافية . ولم يكن الوثوب الى مكة آنئذ بالأمر الهين أو اليسير ، فهذا يعنى أن تتوحد القبائل العربية الوثنية كلها ضد ذلك الملك المسيحى الذى يريد بهم وببلدهم وآلهتهم شرا مستطيرا ، حتى وان لم يؤد هذا التوحد الى احتجاج عملى حاسم ، فانه سوف يحمل فى جوهره مشاعر عدائية بالغة تجاه أبرهة ، فى وقت كان هو وحلفاؤه البيزنطيون حريصين على استمالة هذه القبائل ضد عدوهم المشترك ، الفرس . وكان جوستنيان من جانبه قد سار فى ذلك خطوات واضحة واسعة ، فالغساسنة يمثلون بالنسبة له ، خط دفاعه الأول ضد فارس ، أو بتعبير آخر ، « دولة حاجزة » فى مقابل المناذرة اللخميين فى الحيرة ، الذين كانوا يلعبون الدور نفسه بالنسبة للفرس . ونادرا ما كان العداء بين القبيلتين العربيتين يتوقف حتى فى أوقات الهدنة بين فارس وبيزنطة !!

ولم يتردد جوستنيان فى أن يخلع على الحارث بن جبلة لقب الملك عام ٥٣٠ ، جزاء الحسنى على ما أظهره من ولاء للامبراطورية

أثناء حروبها مع فارس(١٣١) ، واشتراكه مع القـوات الرومانية فى اخماد فتنة اليهود عام ٥٢٩ • وفعل الامبراطور نفس الشىء أيضا مع أبى كارب بن جبلة الذى كان يسيطر على عرب فلسطين الثالثة ، الغنية جدا بنخيلها مثل تيماء ، مثلها مثل مناطق بنى كلب فى الشمال من صحراء النفود • وقـد اعتـرف به جوستنيان حاكما معاهدا Foederatus على هذه المنطقة(١٣٢) التى تعود أهميتها أيضـا الى سيطرتها على المراكز التجارية الهامة للتجارة البيزنطية فى البحر الأحمر ، مثل ميناء الحوراء وتيران ، شأنها فى ذلك شأن تبوك وتيماء ومدائن صالح(١٣٣) • هذا كله بالاضافة الى سعى جوستنيان لاستمالة قبائل المعديين فى نجد عن طريق استقطاب شيخهم قيس ، الذى ذكرنا أمره آنفا •

وليس بخاف أن تجار مكة كانوا يقومون برحلتى الشتاء والصيف الى اليمن والشام(١٣٤) ، وأن هذا الأمر ، بالاضافة الى وجـود البيت الحرام ، قد رفع من قـدر مكة وزعمائها القرشيين فى أعين القبـائل العربية كلها ، وأصبح لهم من المكانة والمهابة قدرا كريما • ومن المعروف أيضا أنهم فى رحلتهم الى الشـام كانوا يصـلون الى بصرى ، حاضرة العربية الشمالية ، بعد أن يدفعوا مكوسا معينة تسـمح لهم بالمرور الى الأراضى البيزنطية ، أو الواقعة فى فلكهم • وعلى طبيعة هـذه العلاقة التجارية كانت تتوقف العلاقات السياسية ؛ اذ قـد يقع الضرر أحيـانا بالتجار العرب من جـراء زيادة المكوس الجمركية ، لكن بيزنطة كانت تحرص دائما على استرضاء عرب الحجاز هؤلاء ، لفتح المجال للتجار البيزنطيين للمرور عبر بلادهم الى الجنـوب ، أو لاستخدام نفـوذهم ومكانتهم فى نفوس القبائل لمنعهم من الاغارة على الحـدود البيزنطية الجنوبية(١٣٥) • ويذكر بعض الباحثين انه كان يوجد فى مكة بيوت تجارية بيزنطية تزاول الشـئون التجارية الخاصة بالامبراطورية ، كما كان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية ، حتى عرفت مكة بأنها « بندقية العرب »(١٣٦) ، هذا بينما كان الفـرس يستعينون بعرب الحيرة لحماية قوافلهمالتجارية المتجهة الىقلب الجزيرة العربية(١٣٧) •

وقد ساعد هـذا كله زعماء مكة على عقـد معاهدات تجارية مع

الشعوب المجاورة ، فعقد بنو عبد مناف معاهدات لقريش ، منها مثلا ما عقده هاشم مع ملوك الشام ، وما عقده عبد شمس مع ملك الحبشة ، ونوفل مع فارس ، والمطلب مع حمير ، ليفد العرب على هذه البلاد كلها(١٣٨) ، لهذا كله كانت مكة تشكل بموقعها الجغرافى ومركزها الاقتصادى ومكانتها السياسية ، أهمية خاصة لدى البيزنطيين والأحباش فى اليمن على السواء ؛ فالقسطنطينية تعتبرها واسطة العقد فى سلسلة مناطق النفوذ بلوغا الى الجنوب ، بينما أبرهة ينظر اليها ضمن منطقة تهامة كلها والمنطقة الساحلية ، على أنها بصورة تقليدية واقعة ضمن مناطق سيادة حكام اليمن ، من ناحية كونها ضرورية لتأمين الطريق التجارى الذى يصلهم بالشام .

لم يكن أمام أبرهة اذن والحالة هذه ، اذا أراد تجنب سخط القبائل العربية ، لما قد يحدثه وثوبه على مكة ، الا أن يسلك سلوكا آخر يفضى الى تقليص دور مكة التجارى تدريجيا ، ونقله الى صنعاء ، وصرف أنظار العرب عنها عتيديا ببناء كنيسة فى عاصمة ملكه ، يطوف العرب بها كما يفعلون عند الكعبة فى مكة ، فيضمن بذلك أيضا تحويلهم الى المسيحية . وشمر ملك اليمن عن ساعد الجد ، فابتنى كنيسة ضخمة فى صنعاء(١٣٩) عرفت باسم « القليس » Al-Qullais (١٤٠) ونقل اليها بعض آثار شهداء نجران ليضفى عليها ـ كما للكعبة ـ نوعا من القداسة(١٤١) ، وأصدر عددا من المراسيم يوجب بمقتضاها على العرب الخاضعين لسلطانه ، الحج الى هذه الكنيسة ، بينما أرسل بهذا المعنى وفودا الى المناطق العربية الخارجة عن نفوذه ، مؤملا بذلك أن يحول الحجيج من مكة الى صنعاء(١٤٢) .

وداعبت الأحلام والآمال أبرهة فى أن ترث صنعاء مكة ، وأن تحل المسيحية محل الوثنية ، متناسيا أن الصحراء العربية الواسعة وقفت حائلا منيعا أمام امتداد المسيحية الى داخل شبه الجزيرة العربية بعد أن وقفت عند أطرافها فقط(١٤٣) . وبالتالى نجت من الوقوع تحت السيادة البيزنطية . بالاضافة الى أن طبيعة المسيحية نفسها لم تكن تتفق فى كثير من جوانبها مع واقع الحياة القبلية عند العرب . ورغم احتكاك التجار العرب فى رحلتى الشتاء والصيف ، بالمسيحيين فى اليمن والشام ،

الا أن سادات مكة حافظوا على وثنيتهم ، لارتباطها بمركزهم السيادى بين القبائل العربية ، باعتبارهم سدنة الكعبة وحماة الأرباب . ومن ثم كان أمرا دونه خرط القتاد أن تولى القبائل العربية مكة دبرها متحرفة الى صنعاء ، حتى وأن فاقت كنيستها الكعبة بهاء وفخامة .

وأدرك أبرهة بمضى الوقت أن مشروعه الضخم هذا لن يكتب له النجاح ، وأنه اذا بقيت مكة وكعبتها ، فلن تقوم لصنعاء و « قليسها » قائمة . ومن ثم فقد عزم على أن ينفذ ما كان من قبل يراوده ، من القفز مباشرة على مكة للقضاء على مكانتها سياسيا واقتصاديا وعقيديا فى نفوس القبائل العربية ، وليخلو الجو لمنافستها ، صنعاء . هذا بالاضافة الى أنه سوف يحقق بذلك لنفوذه امتدادا سياسيا يصله مباشرة بالممتلكات البيزنطية فى جنوب الشام وشمال شبه الجزيرة . ومما لا ريب فيه أن الامبراطورية البيزنطية نفسها كانت تجد فى هذه الحملة التى يشنها أبرهة على مكة لاخضاعها لسلطانه ، خطوة فى سبيل تحقيق أهدافها بالوصول الى الجنوب العربى عن طريق ربط هذه المناطق ببعضها ابتداء من فلسطين الثالثة ووصولا الى أقصى الجنوب فى اليمن ، مرورا بمكة . ويعلق جواد على على ذلك بقوله : « وهكذا يحقق البيزنطيون والأحباش نصرا سياسيا واقتصاديا كبيرا ، فيتخلص البيزنطيون بذلك من الخضوع للأسعار العالية التى يفرضها الساسانيون على السلع التجارية النادرة المطلوبة ، والتى احتكروا بيعها لمرورها ببلادهم ، اذ سترد اليهم من سيلان والهند رأسا عن طريق بلاد العرب(١٤٤) .

ورغم ما توردة المصادر العربية ، من أن قيام أبرهة بمهجامة مكة ومحاولة هدم الكعبة ، انما جاء انتقاما لما أوقعه أحد رجال كنانة بالقليس(١٤٥) ، الا أن هذا لا يمكن مطلقا أن يكون سببا كافيا لهذه الحملة ، حتى وان صحت الرواية . لكن علينا أن نبحث عن هذه الأسباب فى محاولة بسط نفوذه السياسى على هذه المنطقة الهامة ، استكمالا لسيادته على اليمن واستقلاله بها عن ملك أكسوم ، ولتحقيق الرخاء الاقتصادى لدولته فى الجنوب العربى ، واسهاما فى الوقت نفسه فى تحقيق آمال حلفائه البيزنطيين بالتخلص من الاحتكار التجارى الفارسى للسلع الثمينة والهامة للامبراطورية البيزنطية .

ولا شك أن نجاح أبرهة فى مد نفوذه الى مكة ، ووصل ما بينه وبين ممتلكات البيزنطيين فى الشام ونفوذهم فى أقصى شمال شبه الجزيرة العربية ، كان يشكل للدولة الفارسية تحديا خطيرا من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، اذ تصبح هذه القوة الجديدة خصما مخيفا لفارس(١٤٦) خاصة اذا دانت القبائل العربية فى نجد والمناطق المجاورة لها على ساحل الخليج بالسيادة للبيزنطيين والأحباش(١٤٧) ، ولهذا كانت فارس تنظر بعين الحذر الدائم ، والقلق والترقب ، لكل ما يجرى حولها فى منطقة شبه الجزيرة العربية .

غير أن الحملة الضخمة التى قادها أبرهة بنفسه الى مكة ، ووفر لها الاستعدادات العسكرية الضخمة ، وجلب لها الادلاء تيسيرا للمسيرة فى دروب لا يعرفها ، أصيبت بالفشل ، وحققت اخفاقا كاملا(١٤٨) ولم ينج من جيش أبرهة الضخم الا النذر اليسير ، حتى أبرهة نفسه مالبث أن مات ، وقد تقطعت اكباده فرقا وحزنا على هذه الخسارة الفادحة التى منى بها ، وعلى ضياع آماله وطموحاته ! ولم يكن لدى البيزنطيين آنذاك القدرة على مد يد العون له ، كما حدث عند الغزو الحبشى لليمن؛ فقد كانت بيزنطة غارقة حتى آذانها فى مشاكل حدودها مع جيرانها التى لا تنتهى أبدا(١٤٩) بالاضافة الى الاستنزاف المادى الذى كانت تتعرض له من جراء الجزية الذهبية السنوية التى تقدمها لفارس . وقبل هذا كله فقد كانت الدوائر العسكرية البيزنطية تضع نصب عينيها الاخفاق الذى حاق بالحملة الرومانية التى قادها والى مصر آيليوس جاللوس فى نهايات القرن الأول قبل الميلاد ، بسبب الطبيعة الجغرافية القاسية لهذه المناطق . ورغم ما اعترى بيزنطة من خيبة الأمل لفشل هذه الحملة . الحبشية ، الا أن آمالها هناك لم تخب أبدا .

على أن أهم ما فى الأمر ، أن هذا الفشل ، انعكس بصورة واضحة على الوجود الحبشى نفسه فى الجنوب العربى ، وبالتالى المصالح البيزنطية ؛ فقد خلف أبرهة ولداه يكسوم ومسروق على التوالى ، ولم يكن لأيهما شخصية أبيه ، فوقعت اليمن فى الفوضى وشهدت الكثير من الاضطرابات ، وبدأت القبائل العربية فى الجنوب ، والتى لم تكن راضية

أصلا عن هذا الغزو الحبشى المسيحى لليمن ، ترفع رأسها مثيرة العقبات فى وجه ولدى أبرهة . ولم تكن الحبشة فى وضع يسمح لها باستعادة نفوذ لها كان قد حرمها منه أبرهة .

وهكذا سمحت وقائع الأحداث لواحد من أذواء اليمن ، ينتمى لأسرة عريقة ، هو سيف بن ذى يزن ، أن يعمل فكره فى كيفية استغلال هذه الفوضى السياسية والضعف العسكرى للوجود الحبشى فى اليمن ، للتخلص من هذا الاحتلال . ولم يكن الرجل بغافل عن لعبة الصراع الدولى بين فارس وبيزنطة حول المنطقة ، ولذا رأى هو الآخر ، كما رأى ذو نواس الحميرى اليهودى ، وكما فعل المسيحيون فى نجران من قبل، ضرورة الاستعانة باحدى هاتين القوتين العظميين لتحقيق أهدافه .

والذى يلفت الانتباه ، تبعا لما ورد فى المصادر التاريخية ، أن سيف بن ذى يزن ، قد التجأ فى أول الأمر الى الامبراطور البيزنطى ليساعده فى طرد الأحباش من اليمن ، غير أن الامبراطور رفض ، وكان طبيعيا أن يرفض هذا المطلب ، متعللا بأنه يتفق والأحباش فى العقيدة، ومن ثم فلا يمكنه تحقيق ما جاء من أجله الزعيم اليمنى(١٥٠) . وقد يبدو هذا الأمر غريبا لأن سيف بن ذى يزن كان يعلم بالعلاقات التى تربط بين الامبراطورية البيزنطية والأحباش . ويقدم أحد الباحثين اليمنيين رأيا طريفا لتفسير هذا الذى اقدم عليه سيف ، فيقول : « انه عندما ذهب وجهاء القوم الى قيصر الروم ، لم يكونوا ينوون حقيقة الاستعانة بهم ، لعلمهم مسبقا أنه مسيحى يناصر الأحباش ، وانما كان الهدف تخفيف الضغط ومساومته بالخداع وتقليل مساعدته للأحباش على أقل الأحوال » ، ويضيف : « واليمنى ذكى بالطبع ، عالم بمجارى السياسة ونتائجها ، فلا يغامر مغامرة كهذه غير عارف بمصائر الأمور»(١٥١) .

لكن المسألة لا تبدو بهذه البساطة التى يفترضها الباحث اليمنى ، فليس من المنطقى أن يضيع الزعيم اليمنى وقته وينفق جهده عبثا ، من أجل أن يخفف من تأييد البيزنطيين للأحباش ، فى وقت كان فيه البيزنطيون لا يملكون الرغبة وليس عندهم الاستعداد ، أن يقذفوا بجزء من جيوشهم العاملة على الحدود الطويلة ، الساخنة أبدا ، الى هذه

الأراضى البعيدة بجغرافيتها الصعبة ، وحملة آيليوس جاللوس ماثلة أمام ناظريهم كما أشرنا ، بالاضافة الى أن ادارة الخارجية البيزنطية باتت مقتنعة تماما أن الأحباش فى اليمن أمسوا فى موقف لا يحسدون عليه بعد هزيمة أبرهة عند مكة وموته ، وأن دورهم فى هذه المنطقة قد تقلص ولم تعد له قيمة تذكر .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات هى التى تجعلنا نختلف فى الرأى تماما مع الباحث اليمنى صاحب هذا الرأى ، ونذهب مباشرة الى القول بأن التجاء سيف بن ذى يزن الى الامبراطور البيزنطى ، جاء بوعى كامل لما يفعله ، وادراك حقيقى لطبائع الأمور . فما دام التخلص من النفوذ الحبشى الأجنبى لن يتم - على الأقل فى تلك الظروف - الا بالاستعانة باحدى المعسكرين ، ضمن لعبة الصراع بين القوى العظمى على مناطق النفوذ ، والتى لا بد أن سيفا كان يدرك أبعادها تماما ، اذن فمن الاجدى ، بل ومن الطبيعى ، أن يستعين بصاحب المصلحة الحقيقية والمباشرة فى المنطقة ، اعنى البيزنطيين . واذا كان للفرس اهتماماتهم الكبيرة بما يجرى ليس بعيدا عن حدودهم الجنوبية الغربية ، وما يمثله من أهمية اقتصادية ندعم سيادتهم الاحتكارية على طرق التجارة الذاهبة الى بيزنطة ، الا أن الامبراطورية البيزنطية كانت تعتبر هذه المنطقة جزءا حيويا وهاما جدا فى صراعها مع فارس ، سياسيا واقتصاديا ، لا يقل أهمية عندها عن لازيقا أو ابيريا أو أرمينيا .

فاليمن - بغض النظر عن أهميتها فى حد ذاتها لبيزنطة ، الا أنها فى الوقت نفسه مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب ، وصولا الى مصر ، أهم ولايات الامبراطورية آنذاك من الناحيتين السياسية والعسكرية ، ناهيك طبعا عن الناحية الاقتصادية ، اذ كانت « قبو الحنطة » أو « صومعة الغلال » بالنسبة للقسطنطينية(١٥٢) ، وهى ليست عن طموحات الفرس ببعيد ، ولن تفتأ فارس تسعى لضرب بيزنطة فيها ، حتى تحقق لها ذلك فى بدايات القرن السابع الميلادى ، خلال السنوات الأولى من عهد الامبراطور البيزنطى هرقل Heraclius (٦١٠ - ٦٤١) . ومن ثم كانت المصالح البيزنطية فى اليمن ، لا نقف

عند حد الأهمية الاقتصادية ، التجارية بصفة خاصة ، أو امتداد النفوذ السياسى فى الصراع مع فارس ، بل لكونها كما ذكرنا توا ، مفتاح البحر الأحمر من الجنوب وصولا الى « مخزن الغلال » فى شماله .

لهذا لم يكن غريبا أن يذهب سيف بن ذى يزن الى الامبراطور البيزنطى يرجو عونه فى طرد الأحباش ، فى مقابل أن يتعهد هو نفسه بحماية المصالح البيزنطية فى المنطقة . وهذا هو ما يقوله ابن هشام بالحرف الواحد ، حيث يذكر « أن سيف بن ذى يزن قدم الى قيصر الروم يشكو اليه ظلم الأحباش ويمنيه بالسيادة على اليمن »(١٥٣) والعبارة الأخيرة لا تدع مجالا للشك فى أن سيفا فعل ذلك وهو يعلم تماما حقيقة المصالح البيزنطية فى المنطقة . ولعل هذا هو الذى يفسر طول مكثه فى القسطنطينية ، والذى امتد قرابة سبع سنوات ، اذا صحت رواية المسعودى(١٥٤) مؤملا أن يستجيب الامبراطور لمطلبه ، وليس من المستبعد أيضا أن تكون القسطنطينية نفسها هى التى تعمدت استبقاء الزعيم اليمنى مقيما فيها طيلة هذه السنوات ، وذلك أسلوب شاع استخدامه كجزء أساسى من قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، مع زعماء الشعوب والدول والقبائل الذين يفدون الى العاصمة البيزنطية يخطبون ودها . الا أن الامبراطور البيزنطى ، رغم اقتناعه - كما نفترض - بوجهة نظر سيف بن ذى يزن ، الا أنه لم يشأ أن يمد له يد عونه ، ليس كما يذهب البعض(١٥٥) بسبب العلاقات بين فارس وبيزنطة نتيجة توقيع معاهدة السلام الأخيرة ، لأن فارس نفسها لم تحترم هذه المعاهدات عندما تحول اليها سيف مستنجدا ، ولكن لما فصلناه سابقا من ظروف بيزنطة وسياستها .

وجد سيف بن ذى يزن نفسه مضطرا اذن أن يولى وجهه شطر القوة الكبرى الأخرى ، فارس(١٥٦) ، وتمكن مؤخرا من الحصول على عون كسرى أنوشروان الذى أمده بقوة عسكرية قادها وهرز Wahriz تمكنت من هزيمة « مسروق » وقضت على قوة الأحباش باليمن . وكتب القائد الفارسى الى سيده يخبره بذلك ، فبعث اليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها ، وفرض كسرى على سيف جزية سنوية وخرجا يؤديه اليه فى كل عام ، وكتب الى وهرز أن ينصرف

اليه(١٥٧) . ولا شك أن هذه السياسة التى اتبعها الفرس فى اليمن ، وعودة قائدهم بقواته الى فارس ، تضيف دليلا قويا على صدق ماذهبنا اليه الآن عن ذهاب سيف بن ذى يزن الى امبراطور بيزنطة أولا . فهو الآن أمسى تابعا لفارس يؤدى اليها جزية سنوية ، وكان على استعداد أن يلعب نفس الدور مع بيزنطة ، صاحبة المصلحة الحقيقية فى المنطقة ، من أجل التخلص من الاحتلال الحبشى . ولو لم تكن فارس على يقين بأن بيزنطة ، غير راغبة وغير مستعدة للتصدى لها عسكريا ، لفكرت كثيرا قبل أن تقدم على هذا العمل العسكرى ضد الأحباش حلفاء بيزنطة .

بل لقد ذهبت فارس الى أبعد من ذلك عندما أقدمت على الاحتلال الفعلى لليمنوتوابعها وضمها الى دائرةنفوذها وسلطانها تماما،بعد مقتل سيف بن ذى يزن ومحاولة الأحباش استرداد نفوذهم ثانية(١٥٨) . ولم يأت الفرس هذه المرة بدعوة من أحد ، انما جاءوا بدوافع مصالحهم السياسية والاقتصادية ، وليحققوا بذلك كسبا هاما فى هذه المنطقة الحيوية ، دون أن تلقى مقاومة من جانب الامبراطورية البيزنطية ، ولتظل لفارس السيادة هناك حتى ظهور الاسلام ، وقيام الدولة الاسلامية قوة جديدة من القوى العظمى فى عالم العصور الوسطى ، ودخول اليمن ضمن شبه الجزيرة العربية كلها تحت السيادة الاسلامية .

هكذا قدر لفارس أن تكسب الجولة قبل الأخيرة ، من جولات الصراع بينها وبين بيزنطة حول شبه الجزيرة العربية ، بعد استباق طويل بينهما للسيادة عليها اقتصاديا وسياسيا ، أخذ من القرن السادس الميلادى ما نيف على نصفه ، حتى اذا أدرك بيزنطة الضعف ، وبلغ منها الجهد مبلغا كبيرا بعد وفاة جوستنيان عام ٥٦٥ ، وبفعل سياسته ، اغتنمت فارس الفرصة المواتية ، واستولت عسكريا على كل ساحل الجنوب العربى ، وبلاد العرب السعيدة ، ولتمسى هذه المنطقة الهامة واقعة تحت السيادة الفارسية . الا أن ذلك لم يقدر له أن يستمر طويلا بفضل الفتح الاسلامى لليمن . ولن تلبث القوة الاسلامية الناشئة أن تصطدم بالقوتين العظميتين فارس وبيزنطة ، وأن تقوض دعائم الامبراطورية الفارسية ، وأن ترث بذلك العداء التقليدى - كقوة عظمى - تجاه الامبراطورية البيزنطية .

حواشى البحث

(١) الثعالف : الحيتان ، راجع محمد الاكوع الحـــوالى ، اليمن الخضراء ، ص ٤٠٣ ٠

(٢) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٢٨ ـ ٣٠ ، التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٢ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٣٧ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ١٩٩ ؛ المســعودى ، مروج الذهـــب ، جـ ٢ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ ؛ ابن الأثيــر ، الــكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ ؛ البلخى ، البدء والتاريخ ، جـ ٣ ، ص ١٨٤؛ ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ٢٦٢ ٠

(٣) جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : « ٠٠٠ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شىء شهيد ٠ ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » ٠ (البروج ٤ ـ ١٠) ٠

وانظر : الطبرى : جامع البيان ، جـ ٣٠ ، ص ١٣٢ ـ ١٣٥ ؛ الفخر الرازى : التفسير الكبير ، جـ ٣١ ، ص ١١٨ ـ ١٢٢ ؛ القرطبى : الجامع لأحكام القـــرآن : جـ ٢٠ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٣ ؛ النسفى : مدارك التنزيل ، جـ ٣ ، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٤ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٨ ، ص ٣٨٧ ـ ٣٩٢ ؛ الخازن : لباب التأويل : جـ ٤ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ؛ الألوسى : روح المعانى ، جـ ٣٠ ، ص ٨٨ ـ ٩٠ ٠

(٤) ZACH. MET. Chron., pp. 190-200 ; PROCOP. Bell. Pers. I, 189 ;
The Book of Himyarites, p. CV

(٥) سورة البروج : الآيات ٨ ـ ١٠ ٠

(٦) معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ٢٦٢ ٠

(٧) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، ص ٧٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ١٢٧ ٠

(٨) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ ٠

(٩) سورة المائدة : آية ٨٢ ٠

(١٠) سورة آل عمران : آية ٧٥ ٠

(١٢) القرطبى : الجامع ، جـ ٢٠ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٣ ٠

(١٣) ZACH. Chron., p. 193

(١٤) تذكره النصـــــوص البيزنطيــة باســــم « دميانوس » Dimianus و « ديمنوس » Dimnus ، بينما يرد ذكره عند الأحباش باســم « فنحاص » Phinhas وفى المصادر السريانية باسم « مسروق » Masruk وأن كان هو نفسه قد تسمى بيوسف عند تهوده .

(١٥) Shahid, Byzantium in south Arabia, p. 31

(١٦) فيليب حتى : تاريخ العرب ، ص ٩٥ ــ ٩٦ ؛ موسكاتى : الحضـــارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، ص ١٩٣ ، وراجع أيضا : Sharf, Byzantine Jewry, p. 31

(١٧) Trimingham, Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, p. 289.

وراجع أيضا Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, pp. 126-127.

وكذلك : نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، ص ١٠٤ .

(١٨) هناك أحداث شبيهة بذلك الى حد كبير وقعت فى القرن الثامن الميلادى ، عندما تحولت دولة الخزر ، الواقعة بين بحر قزوين (الخزر) والبحر الأسود شرقا وغربا ، والفولجا والقوقاز شمالا وجنوبا ، الى اليهودية ، لتتصدى لمحاولات القوتين السياسيتين الكبيرتين آنذاك ، الدولة الاســـلامية ممثلة فى الخـــلافة العباسية ، والامبراطورية البيزنطية المسيحية ، ويقول « كوستلر » فى كتابه The Khazar Empire and its heritage : « كانت امبراطورية الخزر تمثل قوة ثالثة اثبتت أنها ند لكل منهما ، ســـــواء باعتبارها خصـــما أو حليفا ، ولكنهـــا كانت تستطيع الاحتفاظ باستقلالها فقط عندما ترفض اعتناق المسيحية أو الاسلام ، لأن كلا من الخيارين كان سيؤدى بها تلقائيا الى الانضـــواء تحت سلطة الامبراطور الرومانى أو خليفة بغداد » ، راجع ، ص ٧٢ من الترجمة العربية لكتاب « كوستلر » التى قام بها حمدى متولى صالح ، دمشق ١٩٥ . ويقـــول « بيورى » Bury فى كتـــابه Eastern Roman Empire, p. 406 : « ليس ثمة شك فى أن الحاكم الخزرى كان متأثرا بدوافع سياسية حينما اعتنق اليهودية ، ذلك أن اعتناق الاسلام كان سيجعل منه تابعا روحيا للخلفاء الذين حاولوا أن ينشروا عقيدتهم بين الخزر ، كما أن اعتناق المسيحية كان يكتنفه خطر الخضوع للكنيسة الأرثوذكسية » .

(١٩) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 289.

وأيضا : Sharf, Byzantine Jewry, p. 32

(٢٠) ZACH. Chron., p. 197.

(٢١) راجع نص الرسالة فى ZACH. Chron., pp. 193-197 والمعروف أن هذه الرسالة التى يوردها المؤرخ الكنسى زكريا المتلينى ، نقــلا عما كتبه الأسقف سمعان ، راعى المسيحيين فى فارس الى سميه كاهن كنيسة كابولا Cabbula قد تضمنت مواقف المسيحيين فى ظفار ونجـــران من يهودية ذى نواس ومحاولته صرف هؤلاء عن عقيدتهم ، وذكرت الكثير عن « البطولات » التى قدمها النساء تضامنا مع أزواجهن مما يضع أمام الباحث كثيرا من علامات الاستفهام فى صحة نســب هذا الجزء من الرسالة الى ذى نواس ، الذى لا يعقل أن يذكر بـ « الاعجاب » موقف المسيحيين من فعاله .

(٢٢) Bell. Pers. I, p. 189

(٢٣) MALALAS, Chron., p. 432

وأيضا : MICH. SYR. Chron., p. 183

(٢٤) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، نقلا عن منذر عبد الكريم البكر ، دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، تاريخ الدول الجنوبية ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢٥) منذر عبد الكريم البكر ، العرب قبل الاسلام ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢٦) Sharf, Byzantine Jewry, p. 32 وراجع أيضــا ، نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم ، ص ١٠٤ .

(٢٧) ابن هشام : التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٢ ؛ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٦٣٧ ؛ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ، ص ١٩٩ . ومن المعروف أن كالب هذا هو الاسم الذى ورد فى الكتابات الحبشية ، أما المصــادر البيزنطية فتســميه ال أصبحة Elisbahaz

(٢) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ .

(٢٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ .

(٣٠) الأزرقى : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ١٣٥ .

(٣١) البلخى : البدء والتاريخ ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ .

(٣٢) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 25
Vasiliev, Justin, p. 367

(٣٣) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 25

(٣٤) ممتاز العارف : الأحباش بين مأرب واكسوم ، ص ٤٣ - ٤٤ ·

(٣٥) جواد على : تاريخ العرب ، جـ ٣ ، ص ٤٤٩ - ٤٥٦ وقارن ، بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، ص ١٣٤ - ١٣٦ ، ١٥٦ ، ١٧٧ - ١٧٨ وحاشية رقم ١٩٥ ص ٢٣٩ ·

(٣٦) PROCOP. Bell. Pers., I, XIX

وأيضا : MALALAS, Chron., pp. 456-459

(٣٧) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٩٦ ·

(٣٨) محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخية الاسلامية ، ص ١٣ وأيضا : حورانى : العرب والملاحة ، ص ٩٤ ·

(٣٩) ربما يعود حفر هذه القناة فى أول أمرها الى الفرعون المصرى القديم نكاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين · وقد أعاد ملك فارس دارا الأول حفرها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم قام الامبراطور الرومانى تراجان بتطهيرها وحفر قسما جديدا من طرفها الغربى ليصلها بالنيل عند بابليون ، حتى يحسن الاتصال بالفرع الكانوبى من دلتا النيل ، كى تسهل حركة الملاحة الى الاسكندرية · وقد أعيد حفر هذه القناة مرة أخرى على عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيث عرفت بخليج أمير المؤمنين ·

(٤٠) حورانى : العرب والملاحة ، ص ٨٦ ·

(٤١) موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ص ٢٥٤ حاشية ١٢ ·

(٤٢) المرجع نفسه ؛ وللوقوف على تفاصيل هذه الطرق التجارية كلها ، راجع محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخية الاسلامية ، ص ١٢ - ٢٠ ·

(٤٣) حورانى : العرب والملاحة ، ص ٢٤ ·

(٤٤) كان البخور على رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة فى ذلك العصر ، كان سعره - على حد تعبير جواد على - يساوى سعر الذهب والبترول فى أيامنا هذه ، ولم يكن يشتريه لغلائه الا رجال الدين لاستعماله فى الطقوس الدينية التى تستنزف القسم الأكبر منه ، وكذا الملوك والأثرياء ، وذلك لاحراقه فى المناسبات الدينية والاجتماعات · وكان حرق هذه المادة يكلف خزانة الدولة ثمنا باهظا لارتفاع أسعارها · راجع جواد على : تاريخ العرب ، جـ ٢ ، ص ٦٦ ·

(٤٥) البكر : دراسات فى تاريخ العرب القديم ، ص ٣٨٢ ·

(٤٦) أوليرى ، علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجم كامل وهيب ، ص ١٣٥ ٠

(٤٧) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٨٩ ، ويطلق على طريق البحر الأحمر (البرى والبحرى) طريق الغرب ٠

(٤٨) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ترجمة أحمد محمد رضا ، ص ٢٢ ٠

(٤٩) MALALAS, Chron., p. 433

(٥٠) جواد على : تاريخ العرب ، جـ ٢ ، ص ٦٣٢ ؛ حورانى : العرب والملاحة ، ص ٩٨ ٠

(٥١) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، ص ٢٤ ٠

(٥٢) عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، ص ٦٣ ٠

(٥٣) راجع تفاصيل هذه الحملة عند عبد اللطيف احمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ٦٣ ـ ٦٧ ، ١٣٤ ، وأيضا جواد على : تاريخ العرب، جـ ٢ ، ص ٤٤ ـ ٥٩ ، وكذلك بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ٠

(٥٤) عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ١٣٥ ٠

(٥٥) للوقوف على تفاصيل مشروعات الأباطرة الرومان فى سبيل الحفاظ على نفوذهم ومصالحهم فى هذه المنطقة على عهود تراجان فى القرن الثانى ، وسبتميوس سفروس وفيليب العربى فى القرن الثالث الميلادى ؛ راجع جواد على ، جـ ٢ ، ص ٦٠ ، ٦٥ ـ ٦٨ ٠

(٥٦) راجع تفصيلات هذه الأحداث والأدوار التى مرت بها المسيحية من خلال موقف الأباطرة الرومان منها فى مؤلفات الباحث ، الدولة والكنيسة ، الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ ، القاهرة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤ ٠

(٥٧) هكذا كان يحلو لقسطنطين أن يسمى نفسه ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، جـ ٢ ، ص ١١٢ ـ ١١٩ ٠

(٥٨) كتب قسطنطين الأول رسالة الى ملك فارس ، يحثه فيها على معاملة رعيته المسيحية معاملة طيبة ، وان ينزلهم منزلا كريما ، والا فانه سوف يجلب على نفسه عداء « مبعوث الرب » (يعنى نفسه) ، الذى لابد أن ينتقم لما قد يحل بهؤلاء الرعايا المسيحيين فى فارس ، راجع للباحث : الدولةوالكنيسة ، جـ٢ ، ص١١٢ـ١١٤٠

(٥٩) ATHANAS. Apologia ad Constantium, 31

(٦٠) راجع للباحث : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٢٣ ، ص ٧٤ - ٧٨ .

وراجع أيضا : Bury, history of the Later Roman Empire, II, p. 292.

وكذلك : Diehl, Byzantium : Greatness and Decline, p. 59

(٦١) عن الآريوسية : نشـــأتها وفكرها ورجالها ، وكـــذا النيقية ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، جـ ٢ ، ص ١٥٥ - ٢٥١ .

(٦٢) للوقوف على تفصيلات الأحداث التى امتلأت بها هـــذه الفقرة ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، جـ ٣ ، ص ١٨٥ - ١٨٧ ، ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٦٣) Dvornik, origins of the intelligence Services, p. 169.

وأيضا : عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٦٤) راجع تفصيلات ذلك فى : Jones, Later Roman Empire, I, pp. 225-230

(٦٥) يمكن التعرف على كل هذه الخلافات العقيـــدية التى حدثت فى القرن الخامس فى : Hefele, history of the councils, Vols. II, III.

وأيضا : Percival, The Seven ecumenical councils, (in Nicene and post Nicence Fathers, Vol. XIV, pp. 191-267.

(٦٦) النساطرة هم اتباع نسطور Nestorius بطريرك كنيسة القسطنطينية فى عشرينيات القرن الخامس الميلادى ، نادى بأن العذراء هى أم المسيح البشر وليست أم المسيح الاله ، مغلبا بذلك الطبيعة البشرية فى المسيح على الطبيعة الالهية ، جهر بآرائه عام ٤٢٨ وتصدت له كنيسة الاسكندرية فى عهد أسقفها كيرلس Cyrillus ومن ورائها روما ، ومن ثم دعا الامبراطور ثيودوسيوس الثانى الى عقد مجمع فى مدينة افسوس Ephesus فى آسيا الصغرى ، عرف بالمجمع المسكونى الثالث عام ٤٣١ ، تقرر فيه ادانة نسطور ونفيه ولعن النسطورية ومطاردة أتباعها ، مما اضطر هؤلاء الى اللجوء الى الأراضى الفارسية . راجع :

Hefele, history of the Councils, III, pp. 9-96

وأيضا : Chadwick, The Early Church, pp. 194-200

(٦٧) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 303.

(٦٨) جواد على : تاريخ العرب القديم ، جـ ٣ ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٦٩) Dvornik, origins of the intelligence services, pp. 168-169

وايضا : Jones, Later Roman Empire, I, pp. 232-235.

وكذلك : Milne, A history of Egypt under Roman rule, p. 103.

(٧٠) رافت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، جـ ٣ ، ص ٣٥٧ ·

(٧١) كانت هذه الممالك هى : مملكة الوندال فى افريقيا ، ومملكة القوط الغربيين فى اسبانيا ، مملكة الانجلو سكسون فى بريطانيا ، مملكة الفرنجة فى غالة (فرنسا)، ومملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا ·

(٧٢) كانت أول تجربة عملية فى هذا السبيل آنذاك ، الحرب التى دارت بين الفرس والرومان فى عام ٢٦٠ ، وتمكنت فارس من انزال هزيمة ساحقة بروما واخذ الابماطور الرومانى فاليريان Valerianus أسيرا مما عد اذلالا للامبراطورية·

(٧٣) يستثنى من ذلك طبعا الفترة التى خضعت فيها القسطنطينية لسيادة العناصر اللاتينية ، نتيجة الحملة الصليبية الرابعة والتى امتدت الى سبع وخمسين سنة بين عامى ١٢٠٤ ـ ١٢٦١ ·

(٧٤) هذا التعبير استخدمه ب· كاسل أحد مستشرقى القرن التاسع عشر ، للدلالة على حقيقة الامبراطورية التى كونها الهون خلال القرن الخامس الميلادى ، وامتدت من وسط آسيا حتى وسط أوروبا · نقلا عن : كوستلر : امبراطورية الخزر وميراثها ، ص ٢٣ ·

(٧٥) كوستلر : امبراطورية الخزر ، ص ٣١ ؛ بارتولد : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ص ٣٠٥ ·

(٧٦) توينبى : تاريخ البشرية ، جـ ٢ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ، ٤٣ ·

(٧٧) MALALAS, Chron., pp. 413-429

وايضا : CHRON. PASCH., pp. 613-614

وكذلك : Holmes, The Age of Justinian and Theodora, I, p. 311.

(٧٨) رافت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٢٩ ـ ٨٣ ·

(٧٩) PROCOP. Bell. Pers. I, p. 93

وراجع : Stein, histoire du Bas-Empire II, p. 270

(٨٠) Bury, Later Roman Empire II, p. 80

وايضا : Benjamin, story of Persia, pp. 231-232.

(٨١) رأفت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٧٠ - ٧٤ ·

(٨٢) يبدو من هذه المراسلات مدى حرص جوستنيان على احلال السلام بين الدولتين ، ليتمكن من تحقيق مشروعه الاستردادى فى الغرب ، فقد جاء فى احدى رسائله الى قباذ قوله : « علمنا من رسلنا بعد عودتهم من ضيافتكم ، صدق نياتكم ، ··· وانه لمن حق الله علينا أن نحمده شاكرين فضله حتى يتحقق السلام بيننا · ان هذا السلام لأمر عظيم ، يحمل لبلدينا الأمن والرخاء ، ويزيح من أمامنا أعداءنا ، ولتكن على يقين من أننى سوف أعهد الى ممثلينا دائما بأن يبذلوا كل ما فى وسعهم كى تنجح مفاوضات السلام هذه ، ودمتم لنا محبا ودودا » · راجع MALALAS, Chron., pp. 449-450

(٨٣) رأفت عبد الحميد : الثورة الشعبية فى القسطنطينية ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ ، ص ٢٥ - ٨٨ ·

(٨٤) Ghirshman, Iran from the Earliest times to the Islamic Conquest, p. 341.

(٨٥) MALALAS, Chron., pp. 454-455

(٨٦) ZACH. MET. Chron., 163; PROCOP. Bell. Pers. I, p. 77.

(٨٧) PROCOP. Bell. Goth. II, p. 517

وأيضا : Ure, Justinian and his Age, p. 77.

(٨٨) PROCOP. Bell. Goth. II, pp. 536-537

(٨٩) MENAN. except. de Leg. Roman, pp. 359-363 وراجع : Ure, Justinian, pp. 97-99

(٩٠) IOAN. LYD. de magist., p. 244

وقارن : PROCOP. hist. arc., p. 137

(٩١) Id.

(٩٢) PROCOP. Build.,pp. 133-135

(٩٣) PROCOP. Bell. Pers. I, p. 253

(٩٤) من المعروف أن الحرب استؤنفت من جديد بين البيزنطيين والقوط الشرقيين ، بعد أن أدرك هؤلاء حقيقة الخديعة التى أوقعهم فيها القائد البيزنطى · واستمرت هذه الحرب من بعد خمسة عشر عاما تالية حتى انتهت بهزيمة القوط عام ٥٥٥ فى موقعة عرفت باسم مقبرة الغال ·

(٩٥) التجارة فى الشرق الأدنى ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ·

(٩٦) المرجع نفسه ، ص ١٧ ·

(٩٧) Bury, Later Roman Empire, II, p. 320.

وأيضا حورانى : العرب والملاحة ، ص ٩٧ ·

(٩٨) Dvornik, Origins of the intelligence services, p. 168

ومن المعروف أن نصيبين لم تكن وحدها فقط هى الموضع الوحيد لتسويق هذه التجارة ، اذ كانت هناك أيضا « الرقة » على الفرات ، وسهل دوبيوس Doubius فى أرمينيا الفارسية بالقرب من أرضروم Theodosiopolis ، راجع :
ZACH. MET. Chron., p. 5 ; PROCOP. Bell. Pers. I, 25, 30.

(٩٩) خرسون هى حاليا سباستبول ، وبوسبور هى كرش ·

(١٠٠) انظر قبله ، وأيضا ، بارتولد : تركستان ، ص ٣٠٥ ·

(١٠١) PROCOP. hist. arc. 30.

(١٠٢) أشرنا من قبل الى محاولات بيزنطية جرت فى هذا السبيل ، وهى جهود كل من الامبراطور قسطنطيوس فى القرن الرابع · والامبراطور أنسطاسيوس فى أواخر القرن الخامس الميلادى وبدايات القرن السادس ·

(١٠٣) **EUSEB.** hist. eccl. V. 16

(١٠٤) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، ص ٢١ حاشية ٢ ·

(١٠٥) لم تكن هذه هى المرة الأولى فى العصر البيزنطى ، التى يقدم اليهود فيها على اعلان مملكة لهم ، بل فعلوا ذلك من قبل على عهد الامبراطور زينون (٤٧٤ ـ ٤٩١) واختاروا شخصا يدعى جوستوس Justus ملكا عليهم ، واعتدوا على المسيحيين فى نابلس وقيسارية · غير أن هذه الفتنة قضى عليها بعد أن تخلص زينون من المشكلات التى واجهته فى أول عهده ، وجىء برأس جستوس ، وتاجه الى الامبراطور · أنظر :

PROCOP. Build., pp. 349-353; **MALALAS**, **Chron.**, pp. 382-383; **MICH. SYR.** Chron. II, pp. **148-149.**
Dubnov, history of the Jews, II, pp. 208-209

(١٠٦) كانت الحكومة البيزنطية قد أصدرت على عهد الامبرطور ثيودوسيوس الثانى عدة تشريعات سنة ٤٣٨ لصالح العقيدة المسيحية ، تقضى بحرمان اليهود السامريين من الوظائف العامة ، وعدم السماح لهم ببناء معابد جديدة ، أو الدعوة

لديانتهم . وفى سنة ٥٢٧ وهى السنة التى اعتلى فيها جوستنيان العرش ، كان أول شىء أقدم عليه الامبراطور الجديد ، هو تجـــديد تشريعات الامبراطور ثيودوسيوس الثانى ، وأضاف اليها جواز مصادرة ممتلكات الوارثين من السامريين لصالح خزانة الدولة ، الا أن يتحول هؤلاء الى المسيحية . واذ تزامنت هذه القرارات مع ضياع أمل اليهود فى اقامة مملكة لهم فى اليمن ، بعيدا عن سلطان بيزنطة ، أقدموا على احداث هذه الاضطرابات . أنظر :

PROCOP. hist. arc., p. 97; ZACH. MET. Chron., p. 232; MALALAS, Chron., p. 455; CHRON. PASCH., p. 872 ; Parkes, A history of Palestine, pp. 79-81 ; Milman, history of the Jews, pp. 224-225.

(١٠٧) Byzantine Jewry, p. 33

(١٠٨) PROCOP. Bell. Pers. I, pp. 193-195

(١٠٩) Id.

(١١٠) PROCOP. Bell. Goth. II, 17 وكان قد تم نقـــل هـــذه الصناعة الى خوتان عن طريق زواج ملكها بأميرة صينية ، نقلت خلسة معها الى مملكة زوجها دود القز وبذر التوت .

(١١١) PROCOP. Bell. Pers. I, p. 193

(١١٢) يذكر بروكوبيوس أن جوستنيان كان يظهر صداقته تجاه أحـــد سادات العرب يسميه « قيس » ، وقد منحه لقب Phylarchus وأراد أن ييسر له السيادة على قبائل نجد العربية ، ليمد بالتالى نفوذه الى هذه المنطقة ، غير أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح . أنظر :

PROCOP. Bell. Pers. I, p. 193.

(١١٣) Id.

(١١٤) Kawar, Byzantium and Kinda, p. 61; Bury, Later Roman Empire, II, p. 325 ؛ جواد على : تاريخ العرب القديم ، جـ ٣ ، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ .

(١١٥) لم يستمر السميفع فى حكم اليمن تحت نفوذ الأحباش طويلا ، اذ سرعان ما ثار عليه الاحباش أنفســـهم ، وأعقب ذلك الصراع بين ارياط وأبرهة ، قائدى الحملة ، وتمكن ابرهة من هزيمة منافسه ، والانفراد بالسلطن . أنظر :

PROCOP. Bell. Pers. I, pp. 191-193 وتذكر المصادر العربية روايات طريفة حول هذه الناحية ، وهى أن ملك الحبشة عندما علم بأمر ابرهة ، اقسم أن يطأ أرض اليمن بقدمه ، وأن يجز ناصية أبرهة ويريق دمه ، فلما سمع ابرهة بذلك ، وضع حفنة من تراب اليمن فى وعاء ، وقص طرفا من شعر رأسه ، وسكب بعضا من دمه فى قارورة ، وارسل بهذا كله مع رسالة الى ملك اكسوم يحله من قسمه ، فهذه أرض اليمن ممثلة فى هذه الحفنة من التراب ، ما عليه الا أن يطأها ، وهذا دمه وشعره . وتضيف الروايات أن ملك اكسوم أعجب بذكاء أبرهة ودهائه وحسن تصرفه ، ورضى عنه لقاء جزية سنوية يدفعها له ، وبعد أن غمره بالهدايا الثمينة . انظر ، ابن هشام: السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٦ وما بعدها ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، حـ ٢ ، ص١٠٩ ؛ المسعودى مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ .

(١١٦) Philiby, The Background of Islam, p. 122.

(١١٧) رأفت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٦٢ .

(١١٨) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 59

ويحاول عرفان شهيد أن يؤكد دائما على الدور السورى فى جنوب الجزيرة العربية ، ويجعله متفوقا على التأثير الحبشى ، ويعلل ذلك بعاملين : أولهما التوافق المذهبى يعنى الطبيعة الواحدة !! وثانيهما رابطة الدم التى تربط - على حد قوله - بين البيت الغسانى فى سوريا ، وبيت الحارث فى نجران ، وهو الذى كانت له الزعامة بين المسيحيين هناك حتى عهد ذى نواس .

(١١٩) IOAN. EPH. hist. eccl. III, pp. 323 ff.

(١٢٠) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302

(١٢١) Neale, A history of the holy Eastern Church, II, p. 36.

(١٢٢) Sellassiè, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 142.

(١٢٣) هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص ١١٨ .

(١٢٤) راجع تفاصيل السياسة العقيدية للامبراطور جوستنيان فى :
Jones, Later Roman Empire, I, pp. 285-287, 296-298.

(١٢٥) تعاقب على كرسى الاسكندرية الأسقفى طيلة عهد جوستنيان ، عدد من الأساقفة الخلقيدونيين ، وهـــم على التـــوالى : بولس (٥٣٨ - ٥٤٢) زويلوس

Appollinarius ، أبو للينـــــاريوس (٥٤٢ – ٥٥١) Zoilus
(٥٥١ – ٥٧٠) ونلاحظ أن جوستنيان ظل يحارب فى ايطاليا من أجل استعادتها حتى عام ٥٥٥ ، ثم انتقل بعد ذلك الى اسبانيا · ومن ثم كان حريصا على أن يظل فى جانب الخلقيدونية كسبا لعطف البابوية · ومن الجدير بالذكر أن المصريين كان لهم أسقفهم المونوفيزيتى خلال هذه الفترة أيضا يقيم فى حمى رهبان وادى النطرون ·
أنظر: Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302 n. 39.

(١٢٦) Neale, holy Eastern Church, II, p. 36

(١٢٧) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302.

(١٢٨) تخبرنا المصادر أن ملك أكسوم حاول القضاء على أبرهة والتخلص منه واعادة اليمن الى التبعية الحبشية المباشرة ، الا أن حملاته التى أرسلها لتحقيق هذا الهدف باءت بالفشل ، فاضطر للسكوت على مضض ورضى وان كــــان دون اقتناع بالهدايا القيمة والجزية السنوية التى يرسلها اليه أبرهة · أنظر :
PROCOP. Bell. Pers., p. 197 وقارن حاشية رقم ١١٥ ·

(١٢٩) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 27.

(١٣٠) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 147.

(١٣١) بلغ من عظم شأن الحارث بن جبلة عند جوستنيان ، أنه نجح فى اقناع الامبراطور بتعيين أسقفين من أصحاب الطبيعة الواحدة ، هما ثيودور ويعقوب على كنيستى بصرى والرها ، وهو شىء لم يفلح ملكا اكسوم واليمن فى الحصول عليه ، لتأييد الامبراطور لمذهب الطبيعتين · أنظر :
IOAN. EPH. Lives of the Eastern Saints, P.O. XIX, pp. 237-238.

(١٣٢) PROCOP. Bell. Bers., I, XIX; hist. Arc. XI; MALALAS, Chron., XVIII.

(١٣٣) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 276
وأيضا : Kawar, The Arab in the peace treaty of A.D. 561, p. 182.

(١٣٤) اكد القرآن الكريم هذه الصلات التجارية بين مكة من ناحية واليمن والشام من ناحية أخرى فى سورة قريش « لايلاف قـــريش ايلافهم رحلة الشـــتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وامنهم من خوف » ·

(١٣٥) جواد على : تاريخ العرب القديم ، جـ ٢ ، ص ٦٣٢ .

(١٣٦) احمد أمين : فجر الاسلام ، ص ١٣ ؛ الحوفى : الحيـــاة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ١٠١ . ومن الطريف ما يذكره بروكوبيوس من أن أبرهة كان عبدا وان كان مواطنا رومانيا ، وكان يعمل فى التجارة فى ميناء عدول .PROCOP Bell. Pers. I, p. 191 ويرجـــح Sellassie أن يكون أبرهة هذا هو الممثل التجارى للملك الحبشى كالب فى هذا الميناء . راجع .

Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 135

(١٣٧) الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ١٠٠ .

(١٣٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ ويضيف قوله : « فجبر الله بهم قريشا ، وأصلح أحوالها ، وأفاء عليها كثيرا من الخيرات ، فسمى هؤلاء الأربعة المجبرين » .

(١٣٩) يناقش عرفان شهيد مسألة بناء هذه الكنيسة فى صنعاء ، ويقدم آراء أخرى ترى بناءها فى ظفار أو نجران ـ لمعرفة ذلك راجع :

Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 81.

وقارن : الأزرقى : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ١٣٩ ؛ الدينورى : الأخبار الطوال، ص ٦٢ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٥٧٧ .

(١٤٠) هذه الكلمة تصحيف للكلمة اليونانية Ecclesia

(١٤١) Shahid, Byzantium in South Arabia, pp. 81-82.

(١٤٢) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 151 ويذكـــر الطبـــرى أن رجـــلا يدعى محمد بن خـــزاعة الذكوانى ، قدم على أبرهة فى نفر من قومه ،يلتمسون فضله ، فأمره أبرهة على مكة ، وأمره أن يسير فى الناس فيدعوهم فى جملة ما يدعوهم اليه الى حج القليس ، فسار هذا حتى اذا نزل ببعض أرض بنى كنانة ، وقد بلغ أهل تهامة أمره ، وما جاء له ، بعثوا اليه رجلا من هزيل يقال له عروة بن حياض الملاصى ، فرماه بسهم فقتله وتفرق أصحابه. راجع : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٠ وأيضا تفسير الطبرى ، جـ ٣ ، ص١٩٤.

(١٤٣) كانت بعض القبائل العربية مثل جذام وتغلب وعاملة على المسيحية ، لكنها مسيحية سطحية ، ولا شك أن المرعة التى اعتنقت بها هذه القبائل الاسلام ، تعد دليلا على رقة ايمانهم بالمسيحية . انظر : عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ، جـ ١ ، ص ٦٣ .

(١٤٤) جواد على : تاريخ العرب القديم ، جـ ٣ ، ص ٥١٧ ـ ٥١٨ ٠

(١٤٥) تذكر المصادر العربية أن رجلا من بنى مالك بن كنانة ، أغاظه ما أغاظ العرب من بناء هذه الكنيسة ، فخرج حتى قدم اليمن ، فدخل الهيكل فأحدث فيه ٠ فغضب أبرهة وأجمع على غزو مكة وهدم البيت !! راجع : ابن هشام : السيرة ، جـ١، ص ٤٣ ـ ٤٦ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٠ ؛ الأزرقى : أخبار مكة ، ص ١٣٨ ـ ١٤٠ ٠

(١٤٦) Benjamin, Story of Persia, p. 233.

(١٤٧) كانت هناك بعض الصلات بين المنذر الثالث ملك الحيرة ، وجوستنيان، فقد حصل المنذر فى بعض الأحيان على الجزية من الامبراطور البيزنطى ، وكان قادرا على التعامل معه دون تدخل الملك الفارسى ، بل ان هناك مراسلات دارت بين المنذر وجوستنيان كان واضحا منها أن جوستنيان يحـــاول استخدام دهاءه الدبلوماسى لاستمالة المنذر الى صفه أو على الأقل زعزعة الثقة بينه وبين الملك الفارسى ، وقد وقعت بعض هذه المراسلات فى يد كسرى أنوشروان مما أفقده لبعض زمن ، الثقة فى ملك الحيرة ٠ أنظر PROCOP. Build., p. 163, hist. arc., p. 50
وأيضا : Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 198

(١٤٨) يربط المفسرون المسلمون هذه الحملة وفشلها بمولد الرســـول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويطلقون على هذا العام عام الفيل ، ويستدلون على ذلك بخبر أصحاب الفيل الذى ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ٠ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ٠ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ٠ فجعلهم كعصف مأكول » ٠ وتختلف الروايات فيما بينها ، وبين القدامى والمحدثين حول السنة التى وقعت فيها هذه الحملة ٠ وليس هنا مجال الخوض فى مثل هذه الآراء ٠

(١٤٩) هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص ٢٤٩ ٠

(١٥٠) ابن هشام : التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٥ ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٦٥ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٤ وما بعدها ؛ المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٨٠ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ ٠

(١٥١) محمد الأكوع الحوالى : اليمن الخضراء ، ص ٤١٩ ٠

(١٥٢) للوقوف على خطورة هذا الأمر فى السياسة البيزنطية عندئذ ، راجع : رأفت عبد الحميد ، مصر والعرش البيزنطى ، بحث منشور ضمن كتاب مصر والبحر المتوسط ، القاهرة ١٩٨٥ ٠

(١٥٣) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٦٥ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ، ص ١١٥ .

(١٥٤) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٨٠ .

(١٥٥) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 157.

(١٥٦) وقد جاء فى الحوار الذى دار بين سيف بن ذى يزن وكسرى أنوشروان ، قول سيف : « ... أيها الملك : غلبتنا الأغربة على بلادنا ، فجئتك لتنصرنى عليهم ، وتخرجهم عنى ، ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب الينا منهم » ، انظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٦ .

(١٥٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٧ .

(١٥٨) أقدم بقايا الأحباش على الانتقام من سيف بن ذى يزن ، باعتباره السبب فى القضاء على ملكهم هناك ، ومن ثم دبروا أمر اغتياله ، ونجحوا فى ذلك ، مما أدى الى عودة القائد الفارسى وهرز ثانية الى اليمن ومعه أربعة آلاف جندى ، وكانت الأوامر الصادرة اليه تقضى بقتل كل الأحباش هناك حتى المولدين منهم . وقد أدى ذلك الى هروب أعداد منهم الى مكة حيث لعبوا دورا بارزا فى الحيـــاة العسكرية والاجتماعية من بعد .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

(أ) المصادر العربية

— ابن الاثير ، عز الدين أبو الحسن على ، ت ٦٣٠ هـ :
الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٨

— ابن العبرى ، جريجوريوس الملطى ت ٦٨٥ هـ :
تاريخ مختصر الدول ، بيروت بدون تاريخ ٠

— ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ت ٢٧٦ هـ :
المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ ٠

— ابن كثير ، الحافظ أبو الفدا ت ٧٧٤ هـ :
تفسير القرآن العظيم ، القاهرة بدون تاريخ ٠

— ابن هشام : أبو محمد عبد الملك ت ٢١٨ هـ :
- السيرة النبوية ، بيروت ١٩٧٥ ٠
- التيجان فى ملوك حمير ، صنعاء ١٩٧٩ ٠

— الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت ٢٢٤ هـ :
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، بيروت بدون تاريخ ٠

— الألوسى ، أبو الفضل شهاب الدين محمود ت ١٢٧٠ هـ :
روح المعانى ، القاهرة بدون تاريخ ٠

— البلخى ، أبو زيد أحمد بن سهل :
البدء والتاريخ ، القاهرة ١٩٠٣ ٠

— الخازن ، علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم :
لباب التأويل فى معانى التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، القاهرة ١٩٧٢ ٠

— الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ :
- تاريخ الأمم والملوك ، بيروت بدون تاريخ .
- جامع البيان من تأويل آى القرآن ، القاهرة ١٩٦٨ ، وبهامشه تفسير النيسابورى .

— القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى ت ٦٧١ هـ :
الجامع لأحكام القرآن ، القاهرة ١٩٧٦ .

— الفخر الرازى ، محمد الرازى فخر الدين ت ٦٠٤ هـ :
التفسير الكبير ومفاتح الغيب ، بيروت ١٩٨١ .

— المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦ هـ :
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٢ .

— النسفى ، أبو البركات عبد الله أحمد بن محمود ت ٧٠١ هـ :
تفسير القرآن الجليل ، بيروت بدون تاريخ .

— اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب ت ٢٨٤ هـ :
تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٩٦٠ .

— ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله الرومى ت ٦٢٦ هـ :
معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ .

(ب) المصــادر غير العربية

— ATHANASIUS, Apologia ad Imperatorem Constantium, in Nicene and post Nicence Fathers of the Christian Church, Vol. IV, 2 ed. ser., ed. by Philip Schaff, Henry Wace, Michigan 1891 et sqq.

— BOOK of HIMYARITES, fragments of a hitherto unknown Syriac work, ed. with introduction and translation by Axel Moberg, London 1924.

— CHRONICON PASCHALE, in CSHB*, 2 vols. ed. by L. Dindorf, Bonn 1832.

— CONSTANTINUS VII PORPHYROGENITUS, De Administrando Imperio, trans. by R.J.H. Jenkins, Budapest, 1949.

— EUSEBIUS, Historia Ecclesiastica, Nicene and Post Nicene fathers, vol. I, 2 ed. ser. Michigan 1891.

— IOANNES EPHESUS, Lives of the Eastern Saints, the Syriac text with an English translation, ed. and trans. by E.W. Brooks, in P.O.** (XVII, XVIII, XIX, Paris 1923-1925).

— IOANNES LYDUS, De Magistratibus, ed. by B.G. Neibuhr, in CSHB*, Bonn 1873.

— MALALAS, Chronographia, ed. by L. Dindorf, in CSHB, Bonn 1831.

— MENANDERUS, Excerpta de Legationibus Romanorum, ed. by B.G. Neibuhr, in CSHB*, Bonn 1840.

— MICHAEL LE SYRIEN, Chronographia, ed. et trad. par J.B. Chabot, Tome II, Paris 1904.

— PROCOPIUS, — De Bello Gothico, ed. and trans. by H.B. Dewing, London 1940.
— De Bello Persico, ed. and trans. by H.B. Dewing, 2 vols., London 1914.
— Historia Arcana, trans. by G.A. Williamson, London 1966.

— THEOPHANES, Chronographia, ed. by I. Classen, in CSHB*, 2 vols Bonn 1839.

— ZACHARIAH of MITYLENE, Chronographia, trans. by F.J. Hamilton and E.W. Brooks, London 1899.

ثانيـا : المراجع

(١) المراجع الأوروبيــة

— Baüsani (A.), The Persians, from the earliest days to the twentieth century, London 1975.

— Benjamin (S.G.W.), The story of Persia, London 1986.

— Bury (J.), History of the Later Roman Empire, 2 vols. London, 1931.

— Chadwick (H.), The early church, London, 1974.

— Diehl (Ch.), Byzantium : Greatness and Decline, trans. from the French by Nooami Walford, New Brunswick, 1957.

— Duchesne (L.), L'Eglise au VIème siècle, Paris, 1925.

— Dubnov (S.), History of the Jews, vol. 2, London, 1968.

— Dvornik (F.), Origins of intelligence services, New Jersey, 1974.

— Ghirshman (R.), Iran from the earliest times to the Islamic conquest, London, 1954.

— Hefele (C.S.), History of the Councils of the Church, trans. in 5 vols. and ed. by W.R. Clark, Edinburgh, 1972.

— Holms (W.G.), The age of Justinian and Theodora, 2 vols. London, 1912.

— Huart (C.), Ancient Persia and Iranian Civilization, London, 1972.

— Jones (A.H.M.), The Later Roman Empire, 3 vols. Oxford, 1964.

— Kawar (I.), Byzantium and Kinda, in Byzantinische zeitschrift, vol. LIII, Muchen, 1960.

— The Arabs in the Peace treaty of A.D. 561, in Arabica III, Leiden, 1956.

— Lebeau, Histoire du Bas Empire, Paris, 1827 sqq.

— Milman (H.), The history of the Jews, vol. 2, London, 1939.

— Milne (J.), A history of Egypt under Roman ruel, London, 1913.

— Neal (J.M.), A history of the holy Eastern church, 2 vols. London, 1947.

— Parkes (J.), A history of Palestine from 135 A.D. to Modern times, London,(1949.

— Percival (H.R.), The Seven Ecumenical Councils, in Nicene and post Nicene fathers, Vol. XIV, Michigan, 1899.

— Philby (H. St. J.B.), The background of Islam, Alexandria, 1947.

— Reinaud (M.), Relation politiques et commerciale de l'Empire Roman avec l'Asie Orientale, Paris, 1893.

— Sellassie (S.H.), Ancient and Medieval Ethiopian history to 1270, Addis Ababa, 1972.

— Shahid (I.), Byzantium in South Arabia, in Dumbarton Oaks papers, XXXIII, 1979.

— Sharf (A.), Byzantine Jewry, London, 1971.

— Stein (E.), Histoire du Bas-Empire, Tome II, Paris, 1950.

— Trimingham (J.S.), Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, London, 1979.

— Vasiliev (A.A.), History of the Byzantine Empire 324-1453, 2 vols. Madison and Milwaukee, 1964.

— Justin the first, Cambridge 1950.

— URE (P.N.), Justinian and his age, Penguin Book, 1951.

(ب) المراجع العـــربية والمترجمة

— ابراهيم بيضون : الحجاز والدولة الاسلامية ، بيروت ١٩٨٣ ٠

— أحمد أمين : فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٧٥ ٠

— أحمد محمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، بيروت بدون تاريخ ٠

— السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب قبل الاســلام ، الاسكندرية بدون تاريخ ٠

— أوليرى : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة كامل وهيب ، القاهرة ١٩٦٢ ٠

— بارتولد (ڤاسيلى ڤلاديمروفتش) : تركستان من الفتح العـــربى الى الغزو المغولى ، ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت ١٩٨١ ٠

— توينبى (أرنولد) : تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة فى جزءين، بيروت ١٩٨٨ ٠

— جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت / بغداد ١٩٧٧ ٠

— جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة بدون تاريخ ٠

— رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيســة ، أربعة أجـــزاء ، القاهرة ١٩٨٢ — ١٩٨٤ ٠

- الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ ، المجـــلة التاريخيـــة المصرية ، ٣٢/القاهرة ١٩٨٥ ٠

- قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، المجلة التاريخية المصرية ، ٣٣/ القاهرة ١٩٨٦ ٠

— عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦١ .

— عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، القاهرة بدون تاريخ .

— عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ، الجزء الأول ، العصر الجاهلى، بيروت ١٩٨١ .

- تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٨٦ .

— فيليب حتى : تاريخ العرب ، بيروت ١٩٨٦ .

— كوستلر (آرثر) : امبراطورية الخزر وميراثها ، ترجمة حمدى متولى صالح ، دمشق ١٩٨٥ .

— لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة بدون تاريخ .

— محمد أحمد حسونة ، الجغرافية التاريخية الاسلامية ، القاهرة بدون تاريخ .

— محمد الأكوع الحوالى : اليمن الخضراء مهد الحضارة ، ١٩٨٢ .

— محمد حسين هيكل : حياة محمد ، القاهرة - الطبعة الرابعة عشرة بدون تاريخ .

— محمد عبد القادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، بيروت ١٩٧٣ .

— محمد محمد الشيخ : الممالك الجرمانية ، الاسكندرية ١٩٧٥ .

— ممتاز العارف : الأحباش بين مأرب وأكسوم،صيدا ،بيروت١٩٧٥.

— منذر عبد الكريم البكر : دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسلام : تاريخ الدول الجنوبية فى اليمن ، البصرة ١٩٨٤ .

— موسكاتى (سبتينو) : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، بيروت ١٩٨٦ .

— نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دمشق ١٩٧٥ .

— هايد (ف) : تاريخ التجارة فى الشرق الادنى فى العصور الوسطى، الجزء الأول ، ترجمة أحمد محمد رضا ، القاهرة ١٩٨٥ .

دور المتطـــوعة

فى حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول

بقـلم
دكتور عبد الله بن سعيد بن محمد سافر الغامدى(*)

مقـــــدمة :

الحمد لله القائل فى محكم كتـابه (من المؤمنين رجال صـــدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) والصـلاة والسـلام على أشرف خلقه نبينا محمـد وآله وصحبه وأتباعه ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ... وبعد

فقد حظيت عناصر الجيش الاسلامى زمن الحروب الصليبية والغزو المغولى ، باهتمام وعناية الدارسين والباحثين ، حيث تناولوا هـــذه العناصر وبالذات النظامية منها ـ كالجيش السلطانى وجيوش الأمراء وغيرها ـ بدراسات وأبحاث عديدة ، الا أن عنصراً هاماً وهم الجنـــد المتطوعة لم ينل نصيبه من ذلك الاهتمام باستثناء ما اشـــار اليه بعض الباحثين ابان حديثهم عن العناصر النظامية . وقد حاولت من خـــلال هذا البحث المتواضع أن أسهم بالقاء بعض الأضواء على هـــذا الموضوع بهدف ابراز الدور الهام الذى اضطلع به المتطوعة خــلال هذه الفترة الحاسمة والحرجة من تاريخ الأمة الاسلامية . وأوضحت فى هذه الدراسة أنه كان يوجد خلال تلك الفترة فرق عديدة من الجنـــد المتطوعة لعبت دوراًبارزاً الى جانب الجيوش النظامية الأخـــرى ، فى مواجهة خطر الصليبيين والمغول ، حتى تم للمسلمين الخلاص منهما ، باعتناق المغول الاسلام ، واقتلاع الوجود الصليبى فى الشرق الاســـلامى من جذوره ،

(*) أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى ـ قسم التاريخ ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة .

وذلك خلال النصف الثانى من القـــرن السابع الهجـرى ، الثالث عشر الميـــلادى •

وختاماً التمس من القارىء الكريم العذر فيما يظنه موضعا لنقص أو تقصير أو زلة ، اذ الكمال لله تعالى وحده ، وهو المستعان والهادى الى سواء السبيل •

بســم الله الرحمن الرحيم

المتطوعة ، أو المطوعة هم الجند الذين « يتطوعون بالجهاد »(١) الى جانب الجيش النظامى ، ايماناً بفرضية الدفاع عن حوزة الاســـلام والمسلمين • ولم يكن هؤلاء المتطوعة من أهل الديوان ، وانما يفدون الى ساحات القتال ، من البدو وسكان القرى والامصار متى داهم العدو بلاد المسلمين(٢) ، أو أمر امام المسلمين بالنفير العام للجهاد فى سبيل الله امتثالا لقول الحق تبارك وتعالى (انفـــروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)(٣) •

والمعروف أن الجيوش الاســلامية ، عرفت طائفة الجند المتطوعة طاول عصورها التاريخية ، فمن المتواتر عليه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يكره أحداً من أصحابه على المشاركة فى الغزوات أو السرايا التى حدثت فى عهده ، ومن الثابت أنه صلى الله عليه وسلم أمر عبد الله بن جحش عندما أرسله فى سرية الى نخلة فى السنة الثالثة للهجرة أن لا يكره أحداً على الخروج معه • وعندما عزم عليه الصلاة والسلام على الخروج الى خيبر فى السنة السابعة للهجرة قال لأصحابه « لا يخرجن معنا الا راغب فى الجهاد » وعندما أراد الخروج الى تبوك فى السنة

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ٨ ، ص ٢٤٣ •

(٢) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٧ ، عبد العزيز السلومى ، ديوان الجند ، ص ٣٤٠ ، جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، جـ ١ ، ص ١٧١، ١٧٢ ، ابراهيم الساكت ، الجيش فى التراث العربى الاسلامى ، ص ١٦٧ •

(٣) التوبة ، آية ٤١ •

التاسعة للهجرة بعث الى « القبائل والى مكة يستنفرهم ، وحض المسلمين على القتال ورغبهم فيه »(٤) .

ومن هذا يتضح لنا أن أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم هـذه وأقواله لا تنطوى على أى الزام بالخروج ، وانما كان الأمر لا يتعدى الحث على الجهاد والاستنفار اليه .

وبعد أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى سنة ١١هـ/٦٣٢م . وآل أمر المسلمين الى الخليفة الراشد أبى بكر الصديق رضى الله عنه استمر أمر الخروج للجهاد على ذلك الوضع ، فكان الجيش الاسلامى يتألف من الجند المتطوعة الذين توافدوا من القرى والأمصار وعلى رأسها مكة والمدينة والطائف وغيرها ، وكانت رسل الخليفة تتردد على زعماء القبائل المجاورة كسليم وغفار ومزينة وجهينة يدعونهم ويستنفرونهم للجهاد فى سبيل الله تطوعا(٥) . ولم يكره رضى الله عنه أحداً من المجاهدين على البقاء فى ساحات القتال ، فقد كتب الى خالد ابن الوليد رضى الله عنه بعد فراغه من اليمامة سنة ١٢ هـ يقول له « ان فتح الله عليك فعارق حتى تلقى عياضاً » وكتب الى عياض « ان سر حتى تأتى المصيخ فابدأ بها ، ثم ادخل العراق من اعلاها ، وعارق حتى تلقى خالداً ، وأذنا لمن شاء بالرجوع ، ولا تستفتحا بمتكاره »(٦) . ومما يؤكد أن الخروج للجهاد زمن الصديق رضى الله عنه كان طواعية لا اكراه فيه أنه درج على دعوة الناس للجهاد بالحسنى بعد أن يرغبهم فيه ويبين لهم منازل الشهداء عند الله تعالى . فيأتى من يستجيب الى المدينة « فمنهم من يسير الى أبى ، ومنهم من يسير الى يزيد ، يسير

---

(٤) لمزيد من التفصيل انظر ، محمد أحمد عواد ، الجيش والقتال فى صدر الاسلام ، ص ٧٣ - ٧٦ .

(٥) محمد أحمد عواد ، المرجع نفسه ، ص ٧٦ ، وفيق الدقدوقى ، الجندية فى عهد الدولة الأموية ، ص ١٢٧ .

(٦) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٣٤٦ ، والمصيخ ، بضم الميم وفتح الصاد المهملة وياء مشددة وخاء معجمة ، يقال له بنى البرشاء ، وهو بين حوران والقلت . (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١٤٤) .

كل الى من أحب »(٧) . واستمر التطوع للجهاد فى خـلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ففى عهده ازدادت الحاجة لارسال المجاهدين لقتال الفرس والروم ، وأخذ يدعو الناس للجهاد ويحثهم عليه ، فهبت قبائل اليمن ملبية النداء وخرجت للجهاد تطوعا . ونظرا للحرية التامة التى تمتع بها هؤلاء المتطوعة فى اختيار الوجهة التى يفضلونها ، فانه ربما كان لوجود كثير من القبائل اليمنية فى الشام أثره فى دفع هـذه القبائل على المسير الى هناك(٨) ، ولعل هذا الأمر هو الذى دعا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الى القـول « بل العـراق فان الشام فيه كفـاية »(٩) .

ورغم أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنشأ بعد ذلك ديوان الجيش وذلك فى سنة ٢٠هـ/٦٤٠م لتنظيم عملية الجهاد بعد أن اتسعت حركة الفتوحات الاسلامية ، الا أن الجيوش الاسلامية شهدت فئات متعددة من الجند المتطوعة بعد ذلك الوقت ، ففى العهد الأموى توافدت أعداد كثيرة من المتطوعة للجهاد ضد الأتراك المسيحيين والهنود الزرادشتيين وغيرهم ، وكان خروج هـؤلاء المتطوعة يتم على نفقتهم الخاصة ، بل أسهموا أحياناً فى تكاليف العمليات الحربية بتقديم الأموال وتامين العدد والمؤن اللازمة للجهاد والمجاهدين ، وكانوا يعاملون معاملة خاصة مغايرة لمعاملة العسكر النظامى ، اذ كان باستطاعتهم العودة الى ديارهم متى أرادوا(١٠) .

وروى الطبرى أن الخليفة العباسى هارون الرشيد رحمه الله ، لما فتح هرقلة سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م بث الجيوش والسرايا بأرض الروم « وكان دخلها فيما قيل فى مائة وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ، سـوى الاتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له »(١١) كذلك شهد القرن الثالث

---

(٧) انظر الطبرى ، جـ ٤ ، ص ٢٣٠ ؛ محمد أحمد عواد ، المرجع نفسه ، ص٧٨ .
(٨) محمود عواد ، المرجع نفسه ، ص ٧٨ .
(٩) الطبرى ، المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٧١ ، ٧٢ .
(١٠) وفيق الدقدوقى ، الجندية فى عهد الدولة الأموية ، ص ١٢٨ .
(١١) انظر تاريخ الطبرى ، جـ ٨ ، ص ٣٢٠ ، انظر أيضا ، القلقشندى ، مآثر =

الهجرى التاسع الميلادى فرقاً من المتطوعة للجهـــاد فى أرض خراسان وبلاد ما وراء النهر ، فقد تحـــدث المؤرخون عن بعض الثورات التى حركتها هذه الفرق ، وعن الدور الذى لعبته فـــرق المتطوعة فى قيام الدولة الصفارية التى أنشأها أحد قواد هذه الطائفة ، وهو يعقوب بن الليث الصفار ، وذلك فى سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م · وذكر ابن الأثير أنه ظهر فى خراسان فى هذه السنة شـــخص يدعى درهم بن الحســـين « من المتطوعة » فتغلب عليها بواسطة يعقوب بن الليث الصفار - الذى كان قائد عسكره - ولما رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب وملكوه أمرهم(١٢) كما يذكر الكندى · أن ثغور مصر المسماه بالمواجيز « يعمرها أهل الديوان والمطوعة » وكانت أحباس السبيل التى يتولاها القضاة تجمع فى كل سنة ، فاذا كان شهر أبيب بعث القاضى ما اجتمع من أموال السبيل ففرقت على مواجيز مصر من العـــريش الى لوبية ، وأعطيت « للمطوعة » ومن كان فقيراً من أهل الديوان »(١٣) ويذكر بارتولد أن السلطان محمود الغزنوى ، استخدم عشرين الف غـــاز من

=

الاناقة ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ، وهرقلة : بالكسر ، ثم الفتح ، مدينة ببلاد الروم ، سميت بهرقلة بنت الروم بن اليقز بن سام بن نوح عليه السلام (انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٣٩٨ ·

(١٢) انظر الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٩١ ، انظر أيضا حامد غنيم ، عصر الدول الأقليمية ، جـ ١ ، ص ١٩٠ ، جيرارد زلثغر ، الفتوة ، ص ٢٨١ · ويذكر النويرى فى نهاية الأرب أن يعقوب الصفار كان أول أمره أحد قادة صالح بن النضـــير الكنانى ، الذى اشتهر « بالتطوع » فى قتال الخوارج ، وقد تغلب على سجستان سنة ٢٣٧هـ وكان يعقوب مخلصا له فجعله صالح فى مقام النائب عنه ، ولما مات صالح تولى مكانه درهم بن الحسين ، فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح ، ولم يكن درهم فى كفاءة صالح ورأى الجيش عجزه عن النهوض بأعباء الزعامة ، فاجتمعوا على يعقوب ، والتفوا حوله لما رأوه من حسن تدبيره وسياسته وقيامه بأمرهم ، ولم يقاوم درهم رغبة الجيش ، وسلم الأمور الى يعقوب واعتزل الجيش فاشتدت شوكة يعقوب « انظر ، جـ ٢٣ ، ص ، انظر أيضا ، محمد حيدر ، الدويلات الاسلامية فى المشرق ، ٥٧ ، ٥٨ ·

(١٣) نظر ، آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٩٥ ؛ نقلا عن الكندى القضاه والولاه ، ص ٤٨١ ، ٤١٩ ·

المتطوعة جاء بهم من أماكن متفرقة فى بلاد ما وراء النهر(١٤) . ويذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٣٩٢هـ/١٠٠١م أن يمين الدولة محمود بن سبكتكين عزم فى هذه السنة على غزو بلاد الهند ، واختار من عساكره « والمتطوعة » خمسة عشر ألفاً ونزل بهم على مدينة برشور ، فلقيه ملك الهند جيبال فى عساكر كثيرة فى المحرم من هـذه السنة ودارت بين الطرفين معـركة عنيفة انتهت بهزيمة الهند وأسر ملكهم ومعه جماعة كثيرة من عشـيرته ، وغنم المسـلمون منهم أمـوالا كثيرة وجواهر نفيسة(١٥) . كذلك يذكر ابن الاثير أيضاً فى حوادث سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م أن يمين الدولة سمع أن أهل تانيشر لديهم فيـلة من جنس الصيلمان الموصوفة فى الحرب وأن صاحب هـذه المدينة بالغ فى الكفر والطغيان والعناد للمسلمين ، فعزم على غزوه وتاديبه « فسار فى الجنود والعسكر المتطوعة » فقاتل الهنـود حتى هـزمهم وعـاد الى غزنة محمـلا بالغنائم(١٦) .

وقد اشارت المصادر المعاصرة لفترة الحـروب الصليبية الى أن الجيوش الاسلامية فى عهـود الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، اشتملت على فرق من الجند المتطوعة ، ومن ذلك أنه عندما توجه السلطان عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م لحصار الرها توافد عليه جمع غفير من « المتطوعة » فطوق بهم المـدينة من جهاتها الأربع وحالوا بينها وبين

---

(١٤) جيرارد زلينفر ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٠ ، نقلا عن : Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion

(١٥) الكامل ، جـ ٧ ، ص ٢١٣ ويمين الدولة هو : أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبى منصور سبكتكين ، لقبه القادر بالله بعد أن سلطنه بعد وفاة أبيه بـ « يمين الدولة ، وأمين الملة ، ولد ليلة عاشوراء سنة ٣٦١ هـ ، وتوفى بغزنه فى ربيع الآخر ، وقيل حادى عشر صفر سنة ٤٢١هـ وقيل سنة ٤٢٢هـ (انظر ابن خلـكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ١٧٥ - ١٨١) .

(١٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٢٧٢ ؛ وتانيشر أو تانيمر ، بتاء مثناه فوقية ، ثم الف ونون مكسوره ، ثم ياء ساكنة ثم سين أو شين مفتوحة ، ثم راء مهملة ، مدينة من بلاد الهند (راجع المصدر نفسه الحاشية) .

ما يصل اليها من المير والأقوات(١٧) .

كما استدعى فى السنة نفسها وللغرض نفســـه « طوائف التركمان المتطوعة »(١٨) . وذكر سبط ابن الجوزى أن عدد من شارك صلاح الدين فتح بيت المقدس من المتطوعة بلغ زهـــاء عشرة آلاف رجـــل من كـــل الأجناس(١٩) . وعبر لين بول عن ذهوله الشديد من كثرة عدد المتطوعة فى جيش صلاح الدين يوم حطين(٢٠) . وعندما قصد السلطان المملوكى الأشرف خليل بن المنصـــور قلاوون عكا ســـنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م لطـــرد الصليبيين منها اجتمع عنده العسكر الاسلامى بأعداد لا تحصى « وكان المتطوعة أكثر من الجند ومن فى الخدمة »(٢١) .

عناصر الجند المتطوعة ضد الصليبيين والمغول :

أولا : العلماء والفقهاء

تطالعنا المصادر الاسلامية المعاصرة لفترة الحروب الصليبية والغزو المغولى للشرق الاسلامى ، بعبارات واضحة تنم عن المشاركة الفعلية لفئات من العلماء والفقهاء الذين كانت لهم الكلمة النافذة والحظوة لدى الحكام والمحكومين فى الحروب التى خاضها المسلمون ضد الصليبيين والمغول ، من ذلك ما ورد فى معظم المصادر المعاصرة من أن الشيخ أبا عبد الله بن على ابن مهران الفقيه الشافعى ذكر عنه تلاميذه أنه غاب عنهم يوم فتح الرها ، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور ، عنده من الارتياح ما لم يروه أبدا ، فلما قعد معهم تظاهر أمامهم بانه لم يحضر مع عماد الدين زنكى استرداد الرها . ولكن نفراً من الاجناد كانوا قد حضروا مجلسه ،

---

(١٧) انظر ابن الأثير ، الباهر ، ص ٦٩ ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ .

(١٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص٢٧٨ .

(١٩) انظر ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق٢ ، ص٣٩٨ .

(٢٠) انظر حسان سعداوى ، المرجع نفسه نقلا عن
Laenepoole, Saladin, p. 204

(٢١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٣٢٠ .

قالوا له « منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح ، وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا »(٢٢) ٠

كذلك ذكر ابن القلانسى أن نور الدين محمود عندما عزم فى سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م على مهجامة الصليبيين فى بانياس أمر بالنداء « فى البلد المحروس فى الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلد والغرباء ٠٠٠ وتبعه من الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير »(٢٣) ويذكر أسامة بن منقذ أنه عندما قصد رجال الحملة الصليبية الثانية دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م بزعامة الامبراطور الالمانى كونراد الثالث ، خرج عسكر دمشق لصدهم ، وفى جملتهم « الفقيه الفندلاوى ، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولى ، رحمهما الله ، وكانا من خيار المسلمين ، فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن ، ما هؤلاء الروم ؟ قال بلى ، قال ، فالى متى نحن وقوف ، قال ، سر على اسم الله تعالى ، فتقدما وقاتلا حتى قتلا فى مكان واحد »(٢٤) وظهر دور العلماء والفقهاء أيضا خلال الدور البارز الذى قام به صلاح الدين فى حركة الجهاد ضد الصليبيين فى بلاد الشام من ذلك ما ذكره ابن كثير أن صلاح الدين عندما عزم على استرداد بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م « قصده العلماء والصالحون تطوعا »(٢٥)كما شارك العلماء والفقهاء قوات صلاح الدين التى خرجت من مصر تحت قيادة متولى الأسطول المصرى حسام الدين لؤلؤ ، الذى جهز المراكب وسيرها فى البحر بعد أن شحنها برجال « البحرية ذوى التجربة والتحرية من أهل النخوة للدين والحمية »(٢٦) لتعقب القوات الصليبية التى أرسلها البرنس ارناط « رينودى شاتيون » حاكم الكرك والشوبك فى عرض

---

(٢٢) ابن الأثير ، الباهر ، ص ٧٠ ٠

(٢٣) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٠

(٢٤) كتاب الاعتبار ، ص ١٢٢ ؛ والفندلاوى هو الفقيه أبو الحجاج يوسف بن درناس ، شيخ المالكية بدمشق ، كان اماما عالما دينا زاهدا (انظر ابن القلانسى المصدر نفسه ، ص ٢٩٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٢٥ ٠

(٢٥) ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ ٠

(٢٦) العماد ، البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ٧٠ ٠

البحر الأحمر ، ونزلت فى ميناء عيذاب ثم عبرت البحر الى السواحل الشرقية عند رابغ والحوراء بهدف المساس بحرمة المقدسات الاسلامية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولكن القوات الاسلامية تعقبتها حتى ادركتها ولم يبق بينها وبين المدينة سوى مسيرة يوم واحد ٠ وقبض عليهم المسلمون وأرسلوا الى مصر مكبلين فى الاصفاد ، حيث أمر صلاح الدين بقتلهم جميعا بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والاسكندرية « وتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة »(٢٧) ٠

ويبدو أن مشاركة العلماء والفقهاء صلاح الدين فى حركة الجهاد لم تقتصر على من كان منهم قريباً من ساحات القتال ، بل تعدى ذلك الى أنهم كانوا يفدون للمشاركة من مناطق نائية ، من ذلك ما ذكره ابن الأثر فى حوادث سنة ٥٨٤هـ أنه فى هذه السنة حضر عند صلاح الدين فى بلاد الشام فقيه مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وأميرها الشيخ عز الدين أبو الفليتة قاسم بن المهنا العلوى الحسينى « وشهد معه مشاهده وفتوحة »(٢٨) ، كما تردد فى المصادر المعاصرة أن رسل الحكام المسلمين كانت تخرج الى الأمصار الاسلامية « للاستنفار والاستنصار »(٢٩) ٠ و « لاستدعاء العساكر والجموع »(٣٠) وأنه كان يهل « للاستدعاء أهل الاستعداد »(٣١) اذ المقصود بالاستنفار استدعاء العساكر النظامية ، أما الاستنصار فلعل المقصود بها حث عامة الناس على الخروج للجهاد تطوعا من غير الزام ٠ كما يبدو أن كلمة الجموع قصد بها هنا الغزاة المتطوعة ٠ أما أهل الاستعداد فيشمل كلا الفئتين ٠

---

(٢٧) انظر الحنبلى ، الأنس الجليل ، ص ٣١٧ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٣ ــ ٤٤ ؛ ورابغ واد على عشر أميال من الجحفه بينها وبين الأبواء ، وساحل الحوراء موضع على الساحل الشرقى للبحر الأحمر (انظر ياقوت ، معجم البلدان) ٠

(٢٨) انظر الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٩٥ ٠

(٢٩) انظر العماد ، الفتح ، ص ٣٣١ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ٢ ، ص١٤٩٠

(٣٠) العماد ، المصدر نفسه ، ص ١٩١ ٠

(٣١) العماد ، المصدر نفسه ، ص ٥٨ ٠

ويظهر أن طائفة العلماء والفقهاء كانت حريصة على الخروج للجهاد تطوعاً فى أحلك الظروف وأقساها. ويستدل على ذلك مما ذكرته المصادر العربية من أن صلاح الدين عندما خرج الى ثغر عكا بعد أن حاصرها الصليبيون سنة ٥٨٥هـ رافقه عدد من العلماء الاجلاء منهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى الذى ظل ملازماً للسلطان صلاح الدين حتى مات فى ركابه بمنزلة الخروبة قريباً من عكا(٣٢) ، وكذلك العالمان الجليلان حسام الدين سنقر الاخلاطى الذى توفى وهو مرابط مع صلاح الدين على مشارف عكا فى رجب من السنة نفسها « وأسف المسلمون أسفاً شديداً فانه كان شجاعاً ديناً »(٣٣) والشيخ الجليل حسام الدين طمان الذى رافق صلاح الدين حتى تل العياضية المقابل لتل المصلبين الذى يشرف على عكا ثم توفى من الاجهاد ودفن فى سفح هذا التل وصلى عليه ابن شداد مع « جماعة من الفقهاء » الذين رافقوه وذلك ليلة نصف شعبان(٣٤) ، كما وفد على صلاح رجل « كبير مذكور » من أهل مازندران « يريد الغزاة » فوصل والحرب قائمة ، ولقى السلطان وتكلم معه واستأذنه فى الجهاد ، وحمل حملة شديدة حتى استشهد رحمه الله(٣٥) . كذلك أبرز ابن الأثير الدور الذى لعبه الغزاة المتطوعة ، ابان الحصار الصليبى لعكا ، فافرد له عنوانا وسمه بوقعة « للغزاة المتطوعة» ذكر ان صلاح الدين ركب سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م فى عدد يسير من جيشه ، لينظر الى مخيم الصليبيين من الجبل ، كى يعمل بمقتضى ما يشاهده « وظن من هناك من غزاة العجم والعرب والمتطوعة » أنه على قصد المصاف والحرب ، فساروا مجدين وأوغلوا فى أرض العدو ، تاركين السلطان وراءهم فأرسل صلاح الدين عدداً من رجاله يردونهم ويحمونهم، فلم يسمعوا ولم يقبلوا ، وكان الصليبيون قد اعتقدوا أن وراءهم كميناً ،

---

(٣٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٤ .

(٣٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٨ .

(٣٤) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ٩١ ، عفاف صبرة ، المرجع نفسه ص

(٣٥) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ١٥١ ، ومازندران ، هى التى كانت تعرف بطبرستان ، حيث يذكر لسترنج أنه منذ المئة السابعة للهجرة بطل استعمال هذا الاسم وحل محله اسم مازندران ، وهو ما يعرف اليوم بجبال البرز الممتدة بحذاء الساحل الجنوبى لبحر قزوين (انظر بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٠٩) .

فترددوا بادىء الأمر فى مهاجمتهم ، فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر ، فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين ، فحمل عليهم الصليبيون واستشهد منهم جمع كثير(٣٦) .

كذلك أسهمت هذه الطائفة فى حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن السلطان العادل الأيوبى وابنائه واحفاده من بعده . حيث ظهر دورها واضحاً فى الدفاع عن الأراضى المصرية التى استهدفتها الحملتان الصليبيتان الخامسة والسابعة ، فقد شارك عدد من الفقهاء والعلماء الجنود النظاميين فى مقاومة الحصار الصليبى الذى فرضه رجال الحملة الصليبية الخامسة على ثغر دمياط سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ونال كثير منهم الشهادة عليه ، كالفقيه محمد بن اسماعيل بن القاضى ، الشهير بابن أبى صادق . والفقيه العالم جلال الدين بن شاش امام المالكية ومرجعهم، الذى حج فى آخر أيامه ، ولما عاد امتنع من الفتيا تورعاً ، وفضل المشاركة فى الجهاد ضد الصليبيين بنفسه فمضى الى دمياط والعدو محاصر له وقاتل حتى استشهد . وكذلك الشيخ محمد بن أبى القاسم ابن عبد الله الهكارى الذى اشتهر برجاحة عقله ووفير علمه وسداد رأيه ، فوثق به الملك المعظم واتخذه مستشاراً له ، وظل كذلك حتى استشهد على قلعة الطور التى أمر العادل بهدمها « ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط »(٣٧) ومنهم أيضا الشيخ أبو الحسن بن قفل الذى وقع فى أسر الصليبيين عند دخولهم دمياط ، فسألوا عنه فقيل لهم « هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يأوى اليه الفقراء ، فما تعرضوا له بعد »(٣٨) وممن أسهم أيضاً فى محاولة صد الصليبيين عن هذا الثغر المؤرخ المعاصر أبى المظفر سبط ابن الجوزى حيث كتب اليه الملك المعظم وهو بدمشق يخبره بما جرى على دمياط ، وطلب منه أن يحرض الناس على الجهاد ، فقال له « انى كشفت ضياع الشام فوجدتها ألف قرية منها

---

(٣٦) انظر الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢٠٠ ، انظر أيضا ، العماد ، الفتح ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٣٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٢١ .

(٣٨) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ١١٧ .

الف وستمائة من أملاك لأهلها ، وأربع مائة سلطانية ، وكم مقدار ما تقوم به هذه الأربعمائة من العساكر وأريد أن يخــرج الدماشقة ليذبوا عن أملاكهم » فجلس سبط ابن الجوزى فى جامع دمشق ، وقرأ كتابه عليهم، فتقاعدوا وكان تقاعدهم ثمناً لأخذه الثمن والخمس من أموالهم . ولما علم المعظم بذلك كتب الى سبط أنهم اذا لم يخرجوا فسر انت الينـــا ، فخرج سبط الى الساحل فوافى المعظم وهو نازل على قيسارية ، فأقام معه حتى فتحها عنوة ثم توجه معه الى الثغر « ففتحه وهدمه وعاد الى دمشق »(٣٩) .

وعندما تعرضت الأراضى المصرية لخطر الحملة الصليبية السابعة سنة ٦٤٧هـ – ٦٤٨ هـ / ١٢٤٩م أبلى الفقهاء والعلماء بلاء حســناً فى الدفاع عنها وقد تجلى دورهم بوضوح فيما أبدوه من بسالة وتضحية فى معركتى المنصورة وفارسكور ، فممن استشهد فى هـــذه المحنة العالم الجليل ضياء الدين أبو الحسين ، الذى كان شيخاً عنى بدراسة الحديث والفقه ، تعرض لطعنات الفرنج فى المنصورة حتى استشهد ودفن جثمانه الطاهر فى القاهرة(٤٠) .

وممن أسهم أيضاً فى صد الصليبيين عن الأراضى المصرية فى هـــذه السنة العز ابن عبد السلام ، الذى شارك بنفسه فى هزيمة الصليبيين فى المنصورة ، وكانت له كرامة أثناء القتال أوردها السبكى فى طبقاته حيث قال عنه « وكان الشيخ مع العسكر ، وقويت الريح ، فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيراً بيده الى الريح ، يا ريح خذيهم، عدة مرات ، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها ، وكان الفتح ، وغرق أكثر الفرنج ، وصرخ من بين يدى المسلمين صارخ : الحمـــد لله الذى أرانا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجلا سخر له الريح»(٤١) .

(٣٩) أبو شامة ، المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

(٤٠) لمزيد من التفصيل نظر عفاف صبرة ، دراسات فى الحروب الصليبية ،ص

(٤١) السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ ٨ ، ص ٢١٦ ، انظر أيضا محمد الزحيلى، العز بن عبد السلام ، ص ١٢٤ ؛ والعز : هو شيخ الاسلام عبد العزيز بن عبد السلام =

وعندما فوجىء الشرق الاسلامى فى أوائل القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى - بحملات المغول المدمرة الذين حطموا دوله فى ايران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام ، ولم يوقف زحفهم سوى دولة المماليك الفتية فى مصر التى الحقت بهم هزيمة منكره فى معركة عين جالوت الشهيرة سنة ٥٥٨هـ/١٢٦٠م وانقذت من تبقى من العالم الاسلامى من خطرهم المدمر · أسهم العز بن عبد السلام بجهد وافر فى هذه المعركة اذ كان له دور بارز فى تحريض الجيش المملوكى المسلم على الخروج لمواجهة المغول فى فلسطين قبل وصولهم الى الأراضى المصرية ، وافتى بأنه « اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على العالم قتالهم » وجاز للحاكم أن يأخذ من الرعية ما يستعين به على الجهاد ، شريطة أن لايبقى فى بيت المال شىء ، وأن يحضر ما عنده وعند امرائه وحريمهم من الحلى ، وتسك نقوداً ثم تفرق على العسكر(٤٢) ·

وعندما خرج المسلمون لمواجهة المغول رافقهم العز رغم كبر سنه ، ويذكر أنه قال لمن تخاذل من الجنود فى الخروج خوفاً من بطش المغول « أخرجوا وأنا اضمن لكم على الله النصر »(٤٣) ·

وممن برزوا فى تلك الآونه العالم الفقيه الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد الذى استطاع بخطبه البارعة أن يؤثر على جموع المسلمين بمصر

=

ابن أبى القاسم بن حسن بن محمد السلمى المعروف بسلطان العلماء وبائع الملوك ، كان عالما فقيها عابدا صالحا مجتهد أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر لا يخشى فى الله لومة لائم ، ولد بدمشق سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م صنف الكثير من المؤلفات فى الشريعة واللغة ، وله العديد من الفتاوى قادته الى السجن فى الشام ومن ثم الهجرة الى مصر حيث عين قاضيا ومارس التدريس والافتاء ، توفى بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م (انظر ترجمته مفصلة فى السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ ٨ ، ص ٢٠٩ ، ٢٥٥ ، وانظر أيضا الزحيلى ، المرجع نفسه ، ص ٣٩ ، على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، ص ٢٧٨) ·

(٤٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٧٢ - ٧٣ ·

(٤٣) سليم الهلالى ، صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، ص ٦٢ - ٦٣ · ومما يجدر ذكره هنا أن العز شارك فى معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ وتوفى سنة ٦٦٠هـ وعمره ٨٣ سنة ·

بدعوتهم للخروج لملاقاة المغول فى عين جالوت وشاركهم القتال بنفسه فى هذه المعركة التى ادى انتصار المسلمين فيها الى تغيير موازين القوى فى الشرق لصالح الاسلام والمسلمين(٤٤) ٠

وقد برزت لنا شخصية أخرى من الفقهاء الذين أسهموا فى حركة الجهاد ضد المغول ذلك هو شيخ الاسلام محى الدين أبو زكريا النووى ، الذى ذكر عنه ، أنه كرر فتوى العز بن عبد السلام ، فيما يتعلق بمسألة جواز أخذ مال من الرعية يستنصر به على قتال العدو ٠ اذ أنه عندما كتب فقهاء الشام الى السلطان المملوكى الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) بجواز ذلك ، امتنع عن موافقتهم مشترطاً نفس الشروط التى شرطها العز على السلطان المملوكى السابق المظفر قطز (٦٥٧ ـ ٦٥٨هـ/١٢٥٩ ـ ١٢٦٠م) فغضب عليه بيبرس ، وقال له أخرج من بلدى « يعنى دمشق » فخرج الشيخ الى نوى ، فشفع فيه الفقهاء والعلماء ، وقالوا لبيبرس هذا من علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به ، وطالبوا باعادته الى دمشق ، فرسم بيبرس برجوعه ، لكن الشيخ أبى ورد قائلا « لا أدخلها والظاهر فيها » ومات بعد شهر من ذلك(٤٥)٠

---

(٤٤) انظر عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص ٠٠ ، نقلا عن الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٥٦٧ ٠ وابن دقيق العيد هو : الامام العلامة الفقيه محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة ، المنفلوطى الأصل ، المصرى القوصى المنشأ ، المعروف بتقى الدين بن دقيق العيد ، تولى القضاء بالديار المصرية سنة ٦٩٥ هـ ، واستمر فيه الى ان توفى سنة ٧٠٢ هـ ٠ (انظر ترجمته مفصلة فى ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٩١ ـ ٩٦) ٠

(٤٥) انظر البدرى ، الاسلام بين العلماء والحكام ، ص ١٠١ ؛ محمد نعيم ياسين ، الجهاد ميادينه وأساليبه ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ٠ والامام النووى هو : الامام الحافظ الفقيه المحدث محى الدين أبو زكريا شرف بن مرى بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعه بن حزام النووى الدمشقى ، ولد فى نوى من أرض حوران سنة ٦٣١هـ ، كان رحمه الله على جانب كبير من العلم والعمل والورع والزهد ، والصبر على خشونة العيش ، والمصابرة على أنواع الخير ، لا يعرف ساعة فى غير طاعة الله ٠ عاد فى آخر عمره الى بلده نوى ، فمرض عند أبويه وتوفى ليلة الأربعاء لست بقين من شهر رجب سنة ٦٧٦هـ ، ودفن بها (انظر الامام النووى ، التبيان فى آداب حملة القرآن ، مقدمة المحقق ، ص د ـ ط) ٠

ورغم أننا لا نعرف ان كان السلطان المملوكى بيبرس قد وافق على شروط الامام النووى أم لا ، عندما رسم بارجاعه ، فان الذى يهمنا هو أن مشاركة النووى فى الجهاد ضد المغول ضمن الجيش المملوكى كان من قبيل التطوع ، بدليل أن السلطان بيبرس لم يطالبه بشىء عندما أمره بالخروج من دمشق .

وممن أسهم فى حركة الجهاد ضد المغول من أئمة المسلمين وفقهائهم شيخ الاسلام وحجته الامام تقى الدين أحمد بن تيمية رحمه الله . ذكر ابن كثير أنه فى يوم العشرين من شوال سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م ركب نائب السلطنة المملوكية بالشام جمال الدين أقوش الأفرم فى جيش من دمشق متوجهاً الى جبال الجرد وكسروان ، وخرج معه الشيخ تقى الدين بن تيمية ومعه « خلق كثير من المتطوعة والحورانة » لقتال أهل تلك الناحية بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم(٤٦) .

وختاماً فان ما أوردته نماذج فى هذه العجالة المتواضعة عن دور العلماء والفقهاء فى المشاركة فى حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول تطوعاً ابان هجومهم على الشرق الاسلامى كان على سبيل المثال لا الحصر . فالمقام لا يتسع لحصر من أسهم من هذه الفئة فى هذا المجال.

ثانيا : فرق الأحداث

الأحداث أو الحدثان ، جمع حدث وهو « الفتى السن » ويقال رجل حدث ، أى شاب ، وهؤلاء غلمان حدثان ، أى أحداث(٤٧) . ويذكر بعض المؤرخين أن طائفة الاحداث هذه ، تكونت فى بعض مدن الشام منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى -

---

(٤٦) انظر البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، ص ١٢ ؛ والحورانة : نسبة الى حوارين من قرى حمص من جهتها الجنوبية ، قال الشاعر ظللنا بحوارين فى مشمخرة : تمر سحاب تحتنا وتلوح (انظر لسان العرب ، جـ ٤ ، ص ٢٢٢ مادة (حور) ، أبو الفداء، تقويم البلدان ، ص ٨٣ ، وتبعد الآن عن حمص حوالى ٧٥ كم ، وتتبع اداريا ناحية القريتين (ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٥٣ تحقيق سهيل زكار .

(٤٧) ابن منظور ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٢ - ٣٣ ، مادة (حدث) .

بهدف مقاومة الحكم الفاطمى . وهم عبارة عن جماعات من القوات المدنية كان يوكل اليهم الى جانب ذلك عدد من المهام داخل المدن ، كحفظ النظام ، ومكافحة الحرائق ، واغاثة المنكوبين ، اضافة الى أنهم كانوا يلحقون بالقوات النظامية عندما يعلن داع الجهاد النفير العام للخروج لقتال الأعداء . متى دعت الحاجة اليهم(٤٨) .

والملاحظ أن كلمة أحداث عندما تذكر فى المصادر ، فانها غالباً ما ترد مقرونة بلفظ المتطوعة . من ذلك ما ذكره المؤرخ أبو شامة فى حوادث سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ابان حديثه عن الحصار الذى فرضه رجال الحملة الصليبية الثانية على دمشق بزعامة الامبراطور الألمانى كونراد الثالث والملك الفرنسى لويس السابع حيث وقف المسلمون بازائهم فى السبت سادس ربيع الأول ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع لقتال الصليبيين « من الأعمال والاجناد والقتال والأتراك ، وأحداث البلد والمتطوعة والغزاة الجم الغفير »(٤٩) وذكر ابن القلانسى فى حوادث سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م أن نور الدين محمود بن زنكى تأهب لمجاهدة الفرنج فى هذه السنة وأمر بالنداء فى دمشق لحث « الغزاة والمجاهدين والأحداث والمتطوعة من فتيان البلد والغرباء ، فتبعه من الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير »(٥٠) وعليه فانه يبدو لنا أن هؤلاء الأحداث لم تكن اسماؤهم مدرجة ضمن قوائم العسكر النظامى ، وانما كانوا يخرجون للجهاد بمحض اختيارهم تطوعاً ،

---

(٤٨) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٧ حاشية المحقق ؛ سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٠ - ٣١ ، مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الاسلامى قبل قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، ص ٤٩ ، ويمكن أن نشبه فرق الاحداث هذه بما يعرف فى وقتنا الحاضر ، بفرق الدفاع المدنى، أو المقاومة الشعبية ، التى تحرص الحكومات الحالية على اعدادها وتطويرها لمواجهة الأزمات والكوارث الناجمة عن اشتعال الحروب ، أو حدوث الزلازل والفياضانات والحرائق وما شابهها .

(٤٩) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٥٢ .

(٥٠) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٠ ، انظر أيضا ، أبو شامة ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .

ولعل مما يؤيد هذا ، أن المصدر نفسه يورد كلمة أحداث هذه تارة مقرونة بلفظة الأجناد ، وأخرى بالعسكر وذلك تمييزا للأحداث عن الجند النظاميين ، من ذلك ما ورد فى حوادث سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م ، أن نور الدين محمود بن زنكى نزل فى هذه السنة بأرض داريا الى جسر الخشب « ونودى فى البلد بخروج الأجناد والأحداث »(٥١) وأنه عندما دخل مشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م « زحف اليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثير »(٥٢) .

ويطلق على زعيم هذه الطائفة لقب مقدم أو رئيس الاحداث(٥٣) . وكان يتمتع على ما يبدو - بحماس دينى كبير ، وصل الى حد الخروج على الزعيم المحلى متى بدر منه تقاعس عن أداء مهامه الدفاعية ضد الاعداء ، وتمهيد السبيل للبديل الأصلح . من ذلك ما حدث سنة ٥٤٩هـ عندما قصد نور الدين محمود مهاجمة دمشق حيث راسل « أحداثها وزناطرتها » ، واستمالهم اليه ، فأجابوه الى تسليم البلد ، ذلك أنه ما ان بدأ نور الدين حصاره لدمشق ، حتى اعلنوا ثورتهم على حاكمها مجير الدين أبق البورى وسلموا البلد لنور الدين بأن فتحوا له بابها الشرقى ، فدخله بالأمان عاشر صفر ، وحصر مجير الدين فى القلعة وراسله ووعده بمنحه الأقطاع الكثير ، ومن جملته مدينة حمص ، فأجاب الى تسليم القلعة ، حيث سلمها ورحل الى حمص(٥٤) .

ولم يقتصر ظهور طائفة الأحداث هذه على مدينة دمشق ، بل يبدو أنه كان لكل مدينة شامية أحداثها . من ذلك ما ذكر من أن الأحداث الحلبيين ساعدوا الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابى على انتزاع حلب من يد الفاطميين سنة ٤٥١هـ/١٠٢٤م) وعين أبا المرضى سالم بن مستفاد الحمدانى غلام سيف الدولة بن حمدان مقدمهم ، وعندما استعاد

---

(٥١) أبو شامه ، الروضتين ، جـ ١ ، ص ٨٠ .
(٥٢) أبو شامه ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٩٦ .
(٥٣) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٤ .
(٥٤) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٧ . والزناطره : طبقة معينة من سكان المدن كانت مولعة بتحريك الفتن والقلاقل (انظر المصدر نفسه حاشية ٤) .

الفاطميون حلب من بنى مرداس ، استدعى الحلبيون وفيهم الأحداث سنة (٤٣٤هـ/١٠٤٢م) معز الدولة علوان ثمال بن صالح وابن عمه مقلد بن كامل بن مرداس ، فوصل ثمال فبل المقلد ودخل حلب واجتمع اليه الأحداث(٥٥) . وكذلك ما ذكره ابن العديم ، عند حديثه عن الصراع الذى دارت رحاه بين رضوان بن تتش صاحب حلب ، وبين أخيه دقاق صاحب دمشق سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧م . حيث ذكر أن رضوان عندما علم بأن ياغى سيان صاحب انطاكية وصل نجدة لدقاق ، استنجد رضوان بسليمان بن ايلغازى صاحب سميساط(٥٦) . فوصل بعسكر كثير الى حلب وجمع رضوان للدفاع عنها من قدر عليه من الترك والعرب « وأحداث حلب » كما ذكر ابن العديم فى موضع آخر أن رضوان عندما سمع بهجوم الصليبيين على أرتاح توجه نحوهم فى عساكره وجموعه « وجمع ما أمكنه من عمل حلب من الأحداث »(٥٧) اذ يفهم أن المقصود بعمل حلب ، هو المدن والقرى والحصون والضياع التابعة لها . كما يتضح من هذا أن مهام هؤلاء الأحداث لم تكن مقصورة على حفظ الأمن داخل المدن ، بل كانوا يخرجون للجهاد ضد الصليبيين متى دعت الحاجة الى ذلك .

كما ذكر سبط بن الجوزى أنه خرج سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) من دمشق الى نابلس « الى الغزاة » ... وكان معه من قرية واحدة يقال لها زملكا من قرى دمشق ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح ، ومن غيرها خلق كثير «والكل خرجوا احتسابا »(٥٨) .

أما بالنسبة لحجم قوة هذه الطائفة ومدى تاثيرها على مجريات الحوادث ، واتخاذ القرارات فى بعض مدن الشام ، فانه يمكن أن نلحظ ذلك من خلال وصف دقيق وصف به المؤرخ سوفاجيه Sauvaget

---

(٥٥) عمر رضا كحالة ، دراسات اجتماعية فى العصور الوسطى ، ص ٢٦ .

(٥٦) سميساط بضم أوله وفتح ثانيه ، مدينة على شاطىء الفرات (انظر ياقوت معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٥٨) .

(٥٧) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، وأرتاح : حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٤٠) .

(٥٨) انظر مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٤٤ _ ٥٤٥ .

أحداث مدينة حلب ابان القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ـ الخامس والسادس الجهريين ـ حيث قال « هذه المنظمة كانت تمثل قوة تحسب لها الدولة حسابها فقد كان رئيسها فى الواقع سيد المدينة ، وكان له النفوذ التام فى أزمنة الفوضى ، بحيث لم يكن باستطاعة أى كان أن يفرض سلطته دون التعاون معه ، وبسبب ذلك أصبح تأييده مما يتنافس عليه المعنيون بالأمر عن طريق بذل المال ، ومن ثم كانت الدولة تعترف به رسميا ، الأمر الذى ثبت مركزه رئيساً للمدينة . ولم يكن يأتى من بين الرعاع ، بل على العكس كان من الأسر ذات المقام المرموق بحيث يمكنه أن يفرض احترامه على الجميع ، بما فى ذلك السلطان »(٥٩) .

ثالثا : التركمان المتطوعة

شهد اقليم الجزيرة منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر الميلادى ـ هجرة جماعات من القبائل التركية البدوية (التركمان) التى اعتنقت الاسلام منذ بداية هذا القرن . وقد عرف هؤلاء المسلمون الجدد بحماسهم الشديد للاسلام وبراعتهم فى استخدام السهام التى قلما يخطئون الرمى بها .

وأدى مجيئهم الى دفع حركة الجهاد . حيث عمد السلاطين فى الشرق الاسلامى الى الاستعانة بهم بالسماح لهم بالتطوع فى صفوف جيوشهم ، فيذكر ابن العديم أن عماد الدين زنكى عندما عزم على مهاجمة الصليبيين فى الرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م استدعى « طوائف التركمان المتطوعة »(٦٠) كما يذكر ابن القلانسى عند تناوله الحدث نفسه أن زنكى « كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها ـ أى الرها ـ والاستنجاد وأداء فريضة الجهاد ، فوصل اليه منهم «الخلق الكثير والجم الغفير »(٦١) وذكر فى موضع آخر أن زنكى لما بلغه أن الصليبيين قد تجمعوا بانطاكية لانجاد أهل الرها ، انهض اليهم جيشاً

---

(٥٩) نقلا عن جيرارد زالنغرد ، الفتوه هل هى الفروسية الشرقية ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ، حاشية رقم ٤٨ .

(٦٠) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٦١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ .

وافراً من طوائف « التركمان والأجناد »(٦٢) ويبدو من هذين النصين ان مشاركة التركمان كانت تطوعاً بدليـــل استخدام ابن القلانسى كلمة « كاتب » بدلا من كتب اذلو لم يكن استدعاءهم بهدف التطوع ، لاستخدم اللفظ « كتب » الذى ينم غالباً عن الأمر .

ومن البراهين الدالة على أن جموعاً من طوائف التركمان ، كانت تفد على معسكرات عماد الدين زنكى للجهاد معه تطوعاً ، ما ذكره اسامة بن منقذ من عبارات على لسان زنكى نفسه تدل على ذلك . فقد ذكر أن زنكى كان يقول لأصحابه عندما يكون بحلب نريد أن « نمضى الى الفرات نجمع التركمان » واذا نزل على الفرات قال لهم « ان لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التركمان »(٦٣) .

ومن ذلك أيضاً أن نور الدين محمود عندما أرســل أســد الدين شيركوه على رأس الحملة الثالثة الى مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م اعطاه مائتى الف دينار عدا الثياب والأسلحة وسمح له أن يختار من العسكر من يشاء ، وزاد على ذلك بأن « جند ستة آلاف فارس من التركمان » وعندما توفى شـــيركوه أدى تعيين صـــلاح الدين خلفــاً له « الى انسحاب التركمان »(٦٤) وعليه فان تجنيد هؤلاء التركمان على يد أسد الدين شيركوه ، ثم انسحابهم من مصر بعد وفاته يدل دلالة واضحة على أنهم لم يكونوا من أهل الديوان ، بل كان خروجهم تطوعاً .

ويبدو أن هؤلاء التركمان اســتمر تطوعهم للجهاد فى صــفوف الجيوش الاسلامية حتى بعد أن تعرض الشرق الاسلامى لخطر الحملات المغولية المدمرة ، يدلنا على ذلك ما ذكره المؤرخ المعاصر ابن واصل ، أنه عندما تمكن المغـــول من هزيمة السلطان غياث الدين زعيم سلاجقة الروم سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣م بالرغم من قدوم عسكر حلب لنجدته « ثارت

---

(٦٢) ابن اللاقنسى ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ .

(٦٣) انظر كتاب الاعتبار ، ص ٣٩ .

(٦٤) انظر هاملتون جب ، دراسات فى حضارة الاسلام ، ص ٩٧ .

التركمان فى البـــلاد ينهبون ويعيثون »(٦٥) اذ لا يستبعد أن ثورتهم لكونهم ليسوا من الجند النظامى ، كانت بسبب ضعف غيـــاث الدين وتهاونه فى صد خطر المغول عن بلاده ، يعضد هذا ما ذكره أبو المحاسن ابن تغرى بردى ، أن السلطان غياث الدين صالح التتار على أن يدفع لهم كل يوم ألف دينار وفرسا ومملوكا وكلب صيد ٠ وأنه كان شابا لعابا ظالما قليل العقل « يلعب بالكلاب والسباع ويسلطها على الناس ، فعضه بعد ذلك سبع فمات ، فأقام التتار شحنة على الروم »(٦٦) ٠

رابعا : الخراسانيون المتطوعة

كانت رغبة الخراسانيين فى الجهاد وحميتهم الدينية ســـببا فى تدفقهم على أقاليم الشرق الاسلامى ، ففى سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م خرج من خراسان نحو من عشرين ألفا من الغزاة ، بعد أن نما اليهم توالى نجاح الروم البيزنطيين فى مهاجمة بلاد الاسلام شمال الجزيرة والشام ، وسار الخراسانيون حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بنى بويه ، فاستراب بهم صاحب الحد ٠ وخالف ركن الدولة وزيره ابن العميد فى أمرهم ، وكاتب صاحب الحد بأن يأذن لهم فى الدخول ، فدخلوا ومعهم فيل عظيم ، واجتمع رؤساؤهم الى الوزير ابن العميد ، وخاطبوه فى أن يطلب لهم من الأمير ركن الدولة مالا يستعينون به على أمر الغزو ، ولكنه لم يجزل لهم العطاء ، فاشتطوا فى الطلب قائلين « نحتاج الى مال هـذه البلاد كلها التى بأيديكم ، فانكم انما جبيتموها لبيت مال المسلمين لنائبة أن تأتيهم ، ولا نائبة أعظم من طمع الروم والأرمن فينا ، واستيلاءهم على

---

(٦٥) انظر مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٢٧ ، والســـلطان غياث الدين هو : كيخسرو الثانى بن كيقباذ الأول حكم سلطنة سلاجقة الروم من (٦٣٤ ـ ٦٤٤ هـ / ١٢٣٧ ـ ١٢٤٦) انظر ، ابن العديم بغية الطلب ، جـ ٨ ، ص ٣٥٤٧ حاشية المحقق ٠

(٦٦) انظر النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٤٧ ؛ أما سبط ابن الجوزى ، فقد وصفه بأنه كان « صبيا لعابا » انظر مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق٢ ، ص ٧٥٩ ؛ والشحنه أو الشحنكيه : وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنه ، وهو رئيس الشرطة الموكل بحفظ الأمن فى البلد ، (انظر محمد قنديل البقلى ، التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، ص ١٩٣) ٠

ثغورنا ، وضعف المسلمين عن مقاومتهم »(٦٧) ٠ ويبدو أن هذا الحماس للجهاد والغيرة على ثغور المسلمين من قبل هؤلاء الخراسانيين ، كان من باب التطوع ايمانا منهم بفرضية الدفاع عن حوزة الاسلام والمسلمين ، يؤيد هذا ما ذكر من أن الخراسانيين زادوا على ذلك بأن طلبوا من ركن الدولة ووزيره أن يرسلا معهم ثلة من جيشهما النظامى لتأدية هذا الواجب ٠

وتشير المصادر المعاصرة الى أن هؤلاء الخراسانيين استمر تطوعهم بالجهاد فى صفوف الجيوش الاسلامية فى الشرق الاسلامى ابان تعرضه لخطر الحملات الصليبية التى شنها الغرب الأوربى المسيحى عليه منذ أواخر القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، فقد تحدثت هذه المصادر عن الدور الفاعل والجهد البارز الذى بذله الخراسانيون أثناء حصار جيوش عماد الدين زنكى للرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م فقد استغل زنكى معرفة هؤلاء الخراسانيين « بمواضع النقوب » وأسند اليهم مهمة نقب أسوار المدينة ، فنقبوا فى عدة مواضع « عرفوا أمرها وتيقنوا نفعها وضرها » واستمروا فى أداء مهمتهم هذه حتى وصلوا تحت أساس أبراج السور « فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة » ثم استأذنوا عماد الدين فى اطلاق النيران عليها فاذن لهم بعد أن تفقد بنفسه أحد الثقوب « وشاهد حاله واستعظم كونه وهاله » ولما تمكنت النيران من العوارض الخشبية وقع السور فى الحال(٦٨) ٠

---

(٧) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ص ٩٦ ٠ وركن الدولة هو : أبو على الحسن بن بويه بن مناخسرو الديلمى صاحب اصبهان والرى وهمذان وجميع عراق العجم توفى ليلة السبت لاثنتى عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ٣٦٦ هـ (انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ١١٨ ـ ١١٩) وابن العميد هو : أبو الفضل محمد بن العميد أبى عبد الله الحسين بن محمد الكاتب ، توفى فى صفر ، وقيل المحرم بالرى وقيل ببغداد سنة ٣٦٠هـ (انظر ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٩) ٠

(٦٨) ابن القلانسى ، ذيل مرآة الزمان ، ص ٢٧٩ ؛ انظر أيضا ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٩٤ ٠

خامسا : المســـتأمنون

ومن الممكن أن نلحق بالمتطـوعة من المسلمين جماعات المستأمنين الذين كانوا يفدون على معسكرات المسلمين من بين صفوف أعدائهم . ومن الواضح أن هؤلاء ليسوا مجاهدين بمعنى الجهاد الذى نقصده فى هذا البحث ، وانما كانوا أقرب الى المرتزقة الذين يستهدفون الكسب . وربما من ذلك ما ورد فى بعض المصادر أن جماعة من الصليبيين وصفهم ابن واصل بأنهم « خلق عظيم » وصلوا الى معسكر صلاح الدين مستأمنين سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م بسبب ما أصابهم من الجـــوع والفاقة فى معسكرهم الصليبى واستأذنوه فى مهاجمة مراكب الصليبيين فى البحر وقالوا له « نحن نخوض فى البحر فى براكيس ، ونكسب العدو ، ويكون المكسب بيننا وبين المسلمين » فأذن لهم صلاح الدين ، واعطاهم بركوسا ، ركبوا فيه ، وظفروا بعدد من مراكب تجار الصليبيين ، ونهبوا ما بها من بضائع معظمها « فضة مصوغة وغير مصوغة » وأسروا بحارتها ، واحضروهم وممتلكاتهم بين يدى صلاح الدين ، فكافأهم بأن منحهم جميع ما غنموه، وكان لهـذه المـــكرمة أثرها البـــالغ على هـــؤلاء المستأمنين فاسلم شطرهم(٦٩) .

---

(٦٩) ابن واصل ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص٣٤٧ ؛ انظر أيضا ، أبو شامه ، الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ والبركوس ، جمعه براكيس وهو : نوع من السفن التى كانت تستعمل فى الحرب فى مياه البحر المتوسط فى العصور الوسطى وهو أصغر حجما من البطسة ، تقدر حمولة البركوس الواحد بخمسة وعشرين رجلا (انظـــر درويش النخيلى ، السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ١٢ ـ ١٣) .

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر :

— ابن الأثير الجزرى (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد ان عبد الكريم الشيبانى الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ/١٢٧) .

١ - الكامل فى التاريخ، ط بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ط ليدن١٨٨٦م.

٢ - التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، ط القاهرة ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .

— ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكى ، ت ٨٢١هـ/ ط القاهرة . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.

— ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على ، ت ٨٥٢هـ) الدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة ، ط بيروت .

— ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر، ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق أحسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٢م .

— ابن شداد (أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم ، ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) . النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ، ١٩٦٤م .

— ابن عبد الظاهر (محى الدين عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدى المصرى ، ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) .

١ - الروض الزاهر فى سيرة السلطان الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، ط الرياض ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

٢ - تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط القاهرة ١٩٦١م .

ـــ ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبو القاسم أحمد بن هبة الله بن أبى جراده ، ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م) .

١ ـ بغية الطلب فى تاريخ حلب ، تحقيق ، سهيل زكار ، ط دمشق .

٢ ـ زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، ط بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .

ـــ ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة ، ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) . ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨م .

ـــ ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشى ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) . البداية والنهاية ، ط بيروت ١٩٦٦م .

ـــ ابن منظور (أبو الفضـــائل جمال الدين محمـــد بن مكرم ، ت ٧١١هـ/١٣١١م) . لسان العرب ، ط بيروت .

ـــ ابن منقذ (اسامة بن مرشد بن على بن نصر الكنانى ، ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) كتاب الاعتبـــار ، تحقيق فيليب حتى ، ط برنســتون ١٩٣٠م .

ـــ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) مفرج الكروب فى أخبـــار بنى أيوب جـ١ ـ ٣ تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٠ ، ج ٤ ، ٥ ، تحقيق حسنين ربيع ، ط القاهرة ، ١٩٧٢م ـ ١٩٧٧م .

ـــ أبو شامة (الحافظ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسـماعيل ، ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م) .

١ ـ كتاب الروضتين فى أخبـــار الدولتين ، ط القاهرة ، ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م .

٢ ـ الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) نشر ومراجعة السيد عزت العطار الحسينى ، ط بيروت ١٩٧٤م .

— أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م • تقويم البلدان ، ط باريس ١٨٤٠م •

— الحنبلى (أبو اليمن القاضى مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمى ، ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م • الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط النجف ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م •

— سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى ، ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م • مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان ، ج٨ ، ط حيدر آباد ١٣٧٠هـ/١٩٥١م •

— السبكى (تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى، ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م) •

— طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطناحى ط القاهرة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م •
تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط

— تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م •

— العماد الأصفهانى (أبو عبد الله محمد ، ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) •

١ - البرق الشامى ، ج٥ ، تحقيق فالح صالح حسين ، ط عمان١٩٨٧م•

٢ - الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، ط القاهرة ١٩٦٥م •

— القلقشندى (أحمد بن على ، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) مآثر الانافة فى معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط بيروت •

— النووى (أبو زكريا يحى بن شرف الدين النووى الشافعى ، ت ٦٧٦هـ) • التبيان فى آداب حملة القرآن ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط دمشق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م •

— النويرى (شهاب الدين محمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) • نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ط القاهرة •

ثانيا : المراجع :

— ابراهيم الساكت
الجيش فى التراث العربى الاسلامى ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الثالث والعشرون ، ط بغداد ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

— آدم متز
الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، أو عصر النهضة فى الاسلام ، جـ٢ ، ط بيروت .

— جرجى زيدان
تاريخ التمدن الاسلامى ، جـ١ ، ط ١٩٦٨م .

— جيرارد زالنغر
الفتوه هل هى الفروسية الشرقية ، ترجمة انيس فريحة ، مقال مطبوع ضمن كتاب دراسات اسلامية بأقلام عـدد من المستشرقين باشراف نقولا زياده ، ط بيروت ١٩٦٠م .

— حامد غنيم أبو سعيد
عصر الدول الاقليمية ، جـ١ ، ط القاهرة ١٩٧٠م .

— درويش النخيلى
السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ط القاهرة ، ١٩٧٩م .

— سعيد عبد الفتاح عاشور
بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ١٩٧٧م .

— سليم بن عيد الهلالى
صفحات مطويه من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، ط الدمام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

— عبد العزيز البدرى
الاسلام بين العلماء والحكماء ، ط المدينة المنورة .
(مجلة المؤرخ العربى)

— عبد العزيز عبد الله السلومى
ديوان الجند ، نشأته وتطوره فى الدولة الاسلامية حتى عصر المأمون ، ط مكة المكرمة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

— عفاف سيد صبره
دراسات فى الحروب الصليبية ، ط القاهرة ١٤٠٥هـ .

— على عودة الغامدى
بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، ط مكة المكرمة ١٤٠٨/١٩٨٨م .

— عمر رضا كحالة
دراسات اجتماعية فى العصور الوسطى ، ط دمشق ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م .

— كى لسترنج
بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكركيس عواد ، ط بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

— محمد على حيدر
الدويلات الاسلامية ، فى المشرق ، ط القاهرة ، ١٩٧٤م .

— محمد الزحيلى
العز بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع الملوك ، ط دمشق ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

— محمد قنديل البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ط القاهرة ١٩٨٣م .

— محمد نعيم ياسين
الجهاد ميادينه وأساليبه ، ط . عمان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

— مسفر سالم الغامدى
الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الاسلامى قبل قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، ط جدة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

— محمد أحمد عواد
الجيش والقتال فى صدر الاسلام ، ط الزرقاء ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

— وفيق الدقدوقى
الجندية فى عهد الدولة الأموية ، ط بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

— نظير حسان سعداوى
جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ط القاهرة ١٩٥٩م .

— هاملتون جب
دراسات فى حضارة الاسلام ، ط بيروت ١٩٧٤م .

تجارة السلاح فى عهد الشيخ مبارك الصباح
١٨٩٦ ـ ١٩١٥م

بقلم الدكتورة / فتوح الخترش(*)

تمهيـــد :

ان تأسيس الدول واستمرارها رهين باستمرار القوة ، وأن الكتابات الغربية تستبيح لدول الغـــرب المزيد من التسـلح فى الوقت الذى تنكره على غيرها .

ويهمنا هنا ـ حتى لا يتشعب بنا البحث عن الاطار المحدد لهـــذه الدراسة ـ أن نبرز حقيقة لا جدال فيها ، وهى أن الدول الأوربية وخاصة بريطانيا ـ فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ـ وقفت بالمرصاد لامارات الخليج بالذات لمحاربتها وتدمير قوتها الوطنية الفتية ، اذ ادعت أن مركز تجارة السـلاح هو منطقـــة الخليج وأن حكامها يشجعون تلك التجارة المحرمة ، ونست بل تناست أن رعاياها ورعايا الدول الأوربية الأخرى هم أصلا تجار السلاح الذين يبيعونه بدورهم الى تجار السلاح المنتشرين فى المنطقة . ولقد شعر أرباب تجارة السلاح أن حكام المنطقة بحاجة اليه للحفاظ على حكمهم والدفاع عن أراضيهم ، واقـــرار الأمن والسلام فى مناطقهم ، خاصة اذا تعلق الأمر بامارة مثل امارة الكويت ، حيث تجمع المصادر على أن الشـيخ مبـــارك هو مؤسســـها الحقيقى (١٨٩٦ ـ ١٩١٥م) ، الذى عاش منذ توليه الامارة وحتى غادر الساحة فى توتر وصراع على العـديد من الجبهات الداخلية والخارجية ، على النحو الذى سنتناوله بالتفصيل فى هذه الدراسة .

وعندما ندقق النظر فى قضية تجارة السلاح فى منطقة الخليج على وجه العموم وفى الكويت ابان حكم الشيخ مبارك على وجه الخصوص ،

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة الكويت .

لا يمكن لمؤرخ منصف أن ينكر أو يتجاهل استحالة الفصل بين هذه التجارة وبين الوجود البريطاني فى الهند وأفغانستان . منذ أن أحكمت بريطانيا سيطرتها على هذه المناطق ، كما سنرى فيما بعد .

وعندما تتبدى أمامنا الصورة الكاملة لشخصية الشيخ مبارك كمؤسس دولة من الطراز الأول ، وكداهية سياسى من نوع فريد ، حتى لقد وصف بأنه كان حاد المزاج شديد البأس ، كثير التقلب ، فيه شىء من الأسد وأشياء من الحرباء ، بدوى الطبع ، حضرى الذوق ، تارة يحبه الخصم وطورا يجامله ، كان كريما جوادا ، بل ومسرفا يسترسل الى البذخ والترف ، ويقدم بعد حبه للمجد نواعم العيش ونوافله على كل شىء سواها . أما سيفه فكان مثل سياسته ذا حدين - وكان يلقب بالحواقة « من حاق ومرادفاتها مثل دار ولف ، أى ما يراد به السير على عكس الخط المستقيم ، نصف عمله سر لا يدركه سواه ، والنصف الآخر خدعة ماهرة أو خدع كثيفة مدلهمة »(١) ، عندما تتضح لنا هذه الصورة المثيرة لهذا القائد الفذ ، فهل من المبالغة فى شىء أن نميل الى القول أنه كان يسعى من وراء تجارة السلاح وتصديره الى دعم القوى المناضلة ضد بريطانيا فى آسيا عسى أن يكون فى ذلك ما يجبرها على التساهل معه ومحاولة كسب وده تامينا لطريق مواصلاتها الى « درة » أمبراطوريتها فى الهند ، وفى مواجهتها لنضال الأفغان والهنود من أجل الحرية ؟

وحتى اذا جردنا قضية تجارة السلاح من هذه الجوانب جميعا واقتصرنا على تناولها كمجرد عملية للشراء والبيع وتحقيق الربح ، فما هى الغضاضة فى أن يمارس الشيخ مبارك هذا النوع من النشاط ، وهو يتصدى لبناء دولة تكاد أن تكون بلا موارد حقيقية ، وفى الوقت الذى يمارس فيه غيره من الحكام نفس النشاط سرا أو علانية ، الى جانب العديد من الشركات الأجنبية المتخصصة فى تجارة السلاح ، والتى لا تتورع عن شىء تحقيقا للأرباح على حساب سكان المنطقة .

بهذا التمهيد ، نكون قد حددنا - فى نفس الوقت - العناصر الأساسية لهذه الدراسة والتى نركزها فى عنصرين أساسيين :

أولا : تجارة السلاح فى منطقة الخليج ٠

ثانيا : أسباب اهتمام الشيخ مبارك بتجارة السلاح ٠

أولا : تجارة السلاح فى منطقة الخليج

لفتت تجارة السلاح فى منطقة الخليج أنظار الحكومة البريطانية فى لندن وفى الهند ، لأول مرة أثناء الحرب الأفغانية الثالثة ١٨٧٩ - ١٨٨٠م وفى عام ١٨٨٠م ثبت بما لايدع مجالا للشك أن كميات كبيرة من الخوذات المصدرة من الهند الى فارس وقعت فى أيدى الأفغانيين فى هيرات وغيرها من المواقع(٢) ٠ وهنا ادركت حكومة الهند الأهمية السياسية والعسكرية للقضية ، فأصدرت تعليماتها الى حكومة بومباى بالتوقف عن اصدار تراخيص تصدير الأسلحة والذخائر الى موانىء الخليج ٠ وفى شهر أكتوبر من نفس العام أعلنت حكومة الهند انذارا جاء فيه أنها قررت مصادرة الأسلحة والذخائر المتجهة الى الخليج فى الموانىء الهندية ، وسرعان ما اقتنعت السلطات الفارسية وعلى رأسها الشاه بأهمية القضية وخطورتها(٣) من وجهة النظر الفارسية البحتة « تحت ضغط القلاقل الداخلية » أعلنت قانون عدم مشروعية عمليات الاستيراد فى عام ١٨٨١ وسرى هذا القانون ابتداءا من أول يوليو ١٨٨١م ٠

ومن أول رواد تجارة السلاح فى بوشهر شركة أ٠ب٠ج مالكولم ، وهى فارسية أرمنية بدأت عملياتها فى عام ١٨٨٤م ، تحت حماية الحكومة البريطانية ، ثم تبعتها الشركة الفرنسية الانجليزية « فرانسيس وتايمز وشركاهم » ، وهى أول مؤسسة ظهرت فى بوشهر عام ١٨٨٧م لبيع السلاح ونتيجة لظهور تلك الشركات فى بوشهر بدأت تتعامل بالأسلحة على نطاق محدود فى البداية ، وحصلت منها على فوائد كبيرة مما جعلت بقية الشركات فى الخليج تتبع خطواتها ، وخاصة أن منع تجارة السلاح فى فارس ، برهن على عدم فعاليته وتأثيره ، فنمت التجارة فى بوشهر نموا واسعا بتشجيع سلطات الجمارك الفارسية التى رغم خطورتها على الضرائب المفروضة ، اعتبرت التجارة غير مخالفة

للقانون . وترتب على هذا أن أصبح رجال القبائل فى فارس وعربستان مسلحين ببنادق أفضل من الجنود الفرس(٤) .

وحين تفاقم خطر تلك التجارة ، اضطرت الى أن تثير مشكلتها فى مؤتمر عقد من أجل مناقشة موضوع الأسلحة فى شـــهر يوليو ١٨٩٠م ، حيث أعلنت كل من الولايات المتحدة وهولندا استعدادهما للتنازل عن حقوقهما بالنسبة لتجارة الأسلحة اذا ما نهجت بريطانيا وفرنسا نفس السبيل(٥) .

وكذلك وجه المؤتمر بقراره العام ضربة قاصمة لتجارة السلاح على الساحل الشرقى للقارة الافريقية ، وبالأحص زنجبار ، وفى الوقت نفسه تبنت بريطانيا قراراته بصفة رسمية فى الثانى من أبريل ١٨٩٢م .

ولقد ازدهرت تجارة السلاح فى المنطقة منذ عام ١٨٩٠م حين وردت الى الخليج كميات كبيرة من الذخيرة والعتاد بعد أن منع مؤتمر ١٨٩٠م السلاح عن افريقيا . وقامت سفن الحرب الاوربية تحاصر الساحل الشرقى الأفريقى حتى لا تصله الأسلحة ، فاتجهت التجارة بعد ذلك الى مسقط ، حيث وجدت طريقها الى الخليج .

وأصبحت مسقط من أكبر أسواق السلاح ، وقدر عدد الأسلحة النارية التى وصلت الى ميناء مسقط بمالا يقل عن ١١٫٥٠٠ قطعة ، وصل جزء كبير منها على ســـفن تابعة لســـلطان زنجبار(*) . ثم ما لبث أن بدأ الشحن المباشر من أوربا الى موانىء الخليج . وأصبحت منطقة الخليج سوقا لقبائل افغانستان والمناطق الشمالية الغربية من الحدود الهنـــدية يستعملونها فى حروبهم القبلية ، وفى مقاومة السلطات الموالية للانجليز فى المنطقة ، وقد ظهر هـــذا جليا منـــذ عام١٨٩١م(٦) . ولقد حاولت بريطانيا فى أواخر ١٨٩٠م منع مرور شحنات الأسلحة الى كراتشى ، تلك التى كانت فى طـــريقها الى جوادر التى كانت تتبع آنذاك سلطان مسقط ، ثم أعيد تصدير أكثر من نصفها الى الكويت والبحرين وبعض موانىء الخليج الأخرى ، أو هربت الى الأراضى التركية والفارسية حيث غمرت المنطقة كلها تدريجيا بأحدث الأسلحة ، مما جعل حكومة الهند

تعقد اتفاقية مع سلطان مسقط لمنع تجارة السلاح فى جوادر منـــذ عام ١٨٩١م ٠

وبالرغم من ذلك واصلت تجارة السلاح فى مسقط ازدهارها بعـد عام ، وكانت محل اهتمام زائد من جانب سلطان مسقط ، نظرا لما يحصل عليه منها من أرباح نتيجة للرسوم المفروضة عليها ٠ وبلغت هذه التجارة ذروتها فى حوالى عام ١٨٩٥م ، حتى قدر حجم واردات مسقط فى عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦م بنحو ٤٣٥٠ بنـــدقية ، ٦٠٤٠٠٠ خرطوشة ، ثم قفز حجمها فى عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧م الى حوالى ٢٠٠٠٠ بندقية ومعها العدد المناسب من الخراطيش ٠

أما فى فارس فقد جددت حكومة الهند مع شـــاه فارس فى عام ١٨٩١م اتفاق ١٨٨١م الذى ينظم الاتجار بالسلاح ٠ ورغم ذلك فان تجار السلاح فى فارس لم يلتزموا بتطبيق الاتفاق بشكل مطلق ، بل انهم واصلوا التوسع فى تجارة السلاح ، حتى بلغ حجم ما استورده تجار السلاح فيما بين عام ١٨٩٢م وعام ١٨٩٣م حوالى ١٠٠٠ بندقية ، وكان مصـــدرها الكويت ٠ وفى عام ١٨٩٣م ، كانت الأسلحة تصل مهربة من لنـدن الى فارس بعد استخدام ميناء مسقط كستار ، وقد ضبطت فى بوشهر بناء على أمر الحكومة الفارسية ، واستمرت هذه العمليات فى عام ١٨٩٥م ، حيث وصلت الى بوشهر شحنة ضـخمة من الأسلحة بطـــريق البحر ، فتمت مصادرتها على أيدى السلطات الفارسية ٠

والواقع أنه رغم كافة المحاذير ، كانت الأسلحة تشق طريقها بسهولة الى فارس بعد تقديم الرشاوى للموظفين الفـــرس ، وبعض العاملين فى الشركات الأجنبية ، ومنهم العديد من رعايا بريطانيا(٧) ٠

وفى عامى ١٨٩٦ و ١٨٩٧م ، تقدمت تجارة السلاح فى ميناء بوشهر تقدما ملحوظا حتى قدر عدد البنادق الواردة اليها بما لا يقل عن ٢٠٠٠٠ فى عام ١٨٩٧م ، وقد حصل عليها الحاكم المحلى رسوما بنسبة تتراوح من ٨٪ الى ١٠٪ من قيمتها ٠ كما تحولت شيراز الى مركز للتوزيع تعتمـد عليه بوشهر ٠ وشهدت هذه الفترة أيضا تحول البحرين الى سوق هامة

للسلاح بعد أن كانت سوقا ثانوية(٨) . وتركزت تجارة السلاح فى مسقط آنذاك فى النوع الذى يعمر من قاعدته(٩) . أما النـــوع الذى يعمر من فوهته فكسدت تجارته ، واتجهت الى نجد وفارس ، بينما أعيد شحن الجانب الأكبر منه الى عمان والبحرين وقطر والكويت .

وفى أواخر عام ١٨٩٦م ، أدركت السلطات الانجليزية فى الهنــد أن ٦٠٪ من الأسلحة الواردة الى منطقة الخليج تشق طريقها الى فارس ، وأن حوالى ٢٥٪ منها يتجه الى الأقاليم الخاضعة للحــكومة التركية فى الخليج ، بينما تمتص البــلدان العـــربية غير الخاضعة لتركيا ١٥٪ منها(١٠) .

وعندما نشبت الحركات الثـــورية القبلية فى عام ١٨٩٧م ، على الحدود الهندية الأفغانية ، ترددت الأقاويل بأن القبائل تحصل على جزء من الأسلحة من الخليج وتحركت الحكومة الفارسية لمواجهة الموقف وأيدت المقترحات التى تقدم بها البرياطنيون فى هـــذا الصــدد بتنفيذ قانون ١٨٨١م ، الخاص بمصادرة مخازن الأسلحة المستوردة الى بوشهر بطريقة غير شرعية .

وفى ١١ ديسمبر ١٨٩٧م ، أعلنت الحكومة الفارســية أنها أعطت أوامرها الخاصة بمصادرة وتفتيش السفن البخارية التى تشتغل بالتجارة وترفع العلم الفارسى ، من قبل الســـفن الحربية الانجليزية ، بحثا عن الأسلحة والذخائر(١١) . وبناءا على التفاهم البريطانى ــ الفارسى ، جرى الاتصال بسلطان مسقط بواسطة المقيــم الســياسى بالخليج ، كى يحذر رعاياه من التصدير المحظور للأسلحة الى فارس ، وكذلك تخويل السفن الحربية البريطانية سلطة البحث عن السفن البريطانية والفارسية والعمانية فى المياه الاقليمية ، وأن تفوض فى مصادرة الأسلحة والذخائر المملوكة للرعايا الانجليز والفرس والعمانيين التى توجد على ظهر السفن المتوجهة الى فارس(١٣) . الا أن سلطان مسقط حاول أن يجارى بريطانيا فى تنفيذ بنود الاتفاقية التى وقعها بطـــريقة فاترة ، فاصدر أمرا بمنع التصدير من مسقط الى سواحل شرق أفريقيــا ، ولكنه لم يقل بتفتيش

السفن العمانية وهو أكثر اجراءات المنع نفعا ، وفى الوقت نفســـه أثار سلطان مسقط مسألة نقص حصته من دخل الجمارك اذا حدث تدخل فى تجارة السلاح . ونتيجة لذلك ظل الوضع كما هو وأصبحت القضية قضية ميتـــة(١٣) .

وفى عام ١٨٩٥م ، تعرضت البحرين لتهديدات من جهة البر من قبل تجار السلاح فى البحرين ، ولم يكن بالامارة الا ١٠٠ بندقية ، مع العـــلم أن الشيخ عيسى بن على آل خليفة لم يكن مقتنعا بضعف مركـز البحرين ، وفى شهر يناير ١٨٩٦م ، أصدر اعـــلانا غير واضح بمنع استيراد الأسلحة النارية فى البحرين ، ومعاقبة من يخالف ذلك . الا أنه استثنى وزيره عبد الرحمن بن عبد الوهاب من قرار المنع ، بشرط عـدم جواز بيع الأسلحة فى البحرين وقطر والساحل العربى فيما عدا ساحل عمـــان(١٤) .

وقد نقل الوزير امتيازه الى الآغا محمد رحيم - الذى يعتبر من أكبر تجار السلاح فى البحرين ، وفى الوقت نفسه كان يمثل الوكيـــل المحلى للوكالة الانجليزية فى البحرين ، والذى نقل بدوره الامتياز كلية فى الحال الى الشركة التجارية التى يملكها فرانسيس وتايمز وشركاهم، والتى فتحت لها فرعا فى البحرين عام ١٨٩٥م ، بمقتضى هذا الامتياز تعهد الوزير عبد الرحمن بتقديم كمية من الأسلحة والذخائر للشيخ عيسى الى جانب دفع ضريبة جمركية عينية بنسبة ثلاث بنـــادق من كل ١٠٠ بندقية ، و ٢٠٠ طلقة لكل بندقية ، وقد قدرت أرباح الشركة فى منتصف عام ١٨٩٧م ، بما لا يقال عن ٤٠٠٠٠ جنيها .

وزادت حركة تجارة الســـلاح فى البحـــــرين حتى قفزت قيمة الصادرات من ١٤٨٥٠ روبية فى عام ١٨٩٤م ، الى ٩٥٠٠٠ روبية فى عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦م(١٥) ، ثم الى ١٤٢٨٨٠ روبية فى عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧م ، ٤٦٧٧٩٠ روبية فى عام ١٨٩٧ - ١٨٩٨م . وواصلت شحنات الأسلحة طريقها من البحرين الى بوشهر ومسقط أكثر من مرة ، الا أن أغلبها كان يباع للوافدين من بندر عباس ، ولنجة ، وبوشهر ، والمحمرة

على الساحل الفارسى للخيج ، وكذلك للمشترين من الكويت ونجـــد وعمان على الساحل العربى .

وفى أبريل من عام ١٨٩٧م ، انزعج شيخ البحـــرين من تعاظم السلاح وذلك لعدم الالتزام بشرط الامتياز ، وبعد شد وجذب وصراع مع الشركة الفارسية الانجليـــزية ، احتجـــز الشيخ جميع ممتلكات الشركة « فرانسيس وتايمز » من الأسلحة نتيجة للمنافسة الضارية التى نشبت ، ونتيجة لعدم الالتزام بتنفيذ شروط الامتيار التى تنص على حظر بيع الأسلحة فى البحرين ، ولكن الحكومة البريطانية فى الهند لم تشجع هذا المسلك الذى أقدم عليـــه الشيخ عيسى بن على ، وانتهى الأمر فى أبريل ١٩٠٦م ، باعادة الأسلحة الى الشركة ، ولكن بعد أن أصاب التلف معظمها(١٦) .

وأمام تعاظم حركة تجارة السلاح فى الخليج ، رأت حكومة الهند أن تعقد اتفاقيات ومواثيق مع حكام وشيوخ الخليج ، تستطيع من خلالها أن تمنع أو تتغاضى عن هذه التجارة حسب الأوضاع السياسية فى المنطقة وقد عقدت اتفاقية ١٨٩٨م ، مع شيخ البحرين ، ومع شيخ الكويت عام ١٩٠٠م ، وشيوخ الساحل المهادن عام ١٩٠٢م ، ولم تستثن الا امارة قطر لوقوعها تحت السيطرة التركية(١٧) .

أما بالنسبة للبحرين فقد أصـــدر الشيخ عيسى فى مايو ١٩٠٠م ، قرارا يحظر فيه استيراد الأسلحة على أراضيه للســـيطرة على تجارة السلاح ، الا أن دوافع الشيخ عيسى كانت أبعد ما تكون عن الـــكرم ، فوفقا لما يصدره هو من مراسيم وقرارات كان يستطيع أن يحصل ما قيمته ١٢٠٠٠ جنيها من الأسلحة من وكلاء « فرانسيس تايمز وشركاهم » ، ويمكننا أن نلاحظ أن اتفاقية منع السلاح التى عقدتها حكومة الهند مع شيوخ الساحل المهادن تختلف عن مثيلاتها التى عقدت مع مسقط وفارس، حيث نصت حكومة الهند فى اتفاقها مع مسقط وفارس على أن تصادر السفن التى تحمل السلاح والتى ترفع العـــلم أو الهوية الفارســـية أو العمـــانية(١٨) .

أما اتفاق حكومة الهند مع شيخ الساحل المهادن الذى يقضى بحظر استيراد الأسلحة والذخائر الى اماراتهم وكذلك بالنسبة لتصديرها ، فقد خول شيوخ الساحل السفن الحربية التابعة لحكومة الهنــد البحث عن السفن وتفتيشها فى المياه الاقليمية لسواحلهم ، ومصادرة ما يوجد على ظهرها من أسلحة وذخائر .

وأثارت عمليات مصادرة الأسلحة فى مسقط والبحرين والساحل العمانى سخط التجار والشركات البريطانية ، وانهال سيل من الشكاوى والاحتجاجات على وزارة الخارجية البريطانية فى لنــدن ، وتحملت شركات التأمين البريطانية جزء من الخسائر(١٩) .

وبذلك استطاعت حكومة الهند أن تحمى نفسها ونفوذها فى الهند بوضع هذه الخطة المحكمة لتمنع تلك التجارة ، وزيادة فى المنع قامت حكومة الهند باتخاذ سياسة حرق السفن الحاملة للسلاح حتى تتحول هذه التجارة الى عمل مكلف بســبب خسائر النقل ، لهذا نجـد أن التجار العرب فى الخليج أوقفوا هذه التجارة خوفا على قواربهم ، وهى مصدر رزقهم الرئيسى .

ثانيا : أسباب اهتمام الشيخ مبارك بتجارة السلاح

لم يشهد لهذه التجارة أى نشاط يذكر فى الكويت الا بعد أن تولى الشيخ مبارك الصباح الحكم عام ١٨٩٦م ، ويعتقد أن خوف شيخ الكويت السابق من تدخل الأتراك جعله لا يتساهل فى عمليات فتح بلاده كسوق رئيسى فى منطقة أعالى الخليج . ولكن بعــد أن تولى الشيخ مبارك اهتم بتلك التجارة بل وشجعها حيث انه تولى فى وقت حرج ، ليس فى تاريخ العرب فحسب ، بل فى تاريخ العالم بأسره . فعصر الشيخ مبارك يواكب نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وقد شهدت هذه الفترة ذروة النجاح الاستعمارى لدول أوربا ، ثم تفكير تلك الدول فى اقتسام تركة رجل أوربا المريض ، الدولة العثمانية ، كما شهدت بداية الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من صراعاتعلى تركة الدولة العثمانية، ولما كانت أغلب البلدان العربية تخضع آنذاك للدولة العثمانية ، ومهما كان هذا الخضوع اسميا فى بعض الأحيان ، كان لابد للكويت وهى جزء

لا يتجزأ من شبه الجزيرة العربية ، أن تتأثر بكل ما يحاك من مؤمرات على حياة الرجل المريض ، وبكل ما يخطط له من مشروعات عن النفوذ الأوربى الى هذه البقاع . الا أن تتبع الصراعات الأوربية فى الكويت ، والتى تمثلت أطرافها فى بريطانيا وفرنسا ، وألمانيا ، حيث كانت ألمانيا تدرس بكل جدية اتخاذ الكويت موقعا لنقطة نهاية خط سكة حديد برلين - بغداد . وكذلك روسيا التى كانت تتطلع لمد نفوذها على الكويت . كل ذلك يلقى الضوء أيضا على بعض جوانب قضية تجارة السلاح ، وموقف الشيخ مبارك منها . وان كان الدخول فى تفاصيل هذه الصراعات يبتعد بنا عن مجال هذه الدراسة الا أننا نكتفى بالتوقف قليلا عند تلك الأحداث المحلية التى هزت الشيخ مبارك داخل وخارج الكويت والتى أجبرته على الاهتمام بتجارة السلاح للكسب المادى والعسكرى ، فمن الناحية المادية أتاحت مكاسب مالية مغرية وصلت فى ذلك الوقت الى أربعة جنيهات استرلينية على كل قطعة من السلاح ، بالاضافة الى جنيهين للضريبة العامة (٢٠) . أما الجانب العسكرى ، فقد اهتم الشيخ مبارك بتجارة السلاح وذلك ليتفادى الضغط التركى الذى تعرض له فى بداية حكمه ، بمساعدة أبناء شقيقه محمد وجراح وقريبهم يوسف الابراهيم(*) .

ولقد استعان يوسف الابراهيم بالسلطات العثمانية فى البصرة متمثلة بواليها حمدى باشا الذى أيد وحالف يوسف الابراهيم للتخلص من الشيخ مبارك . والواقع أن السنوات الثلاث الأولى من حكم الشيخ مبارك كانت أحرج سنين حكمه الذى يقارب العشرين عاما ، فقد واجهته أحداث كثيرة ومهمة من قبل أعدائه وعلى رأسهم يوسف الابراهيم وعدوه الثانى اللدود الأمير عبد العزيز بن الرشيد أمير حائل .

فأول محاولة قام بها خصمه العنيد يوسف الابراهيم تتمثل فى تجهيزه حملة بحرية خرجت من هندبان فى عربستان على الساحل الفارسى فى أواخر يونيو من عام ١٨٩٧م متجهة الى الكويت ، الا أن هذه المحاولة باءت بالفشل . واستمر خطر التهديد بغزو الكويت قائما من قبل السلطات العثمانية متمثلة بيوسف الابراهيم بقية عام ١٨٩٧م ،

ثم طوال عام ١٨٩٨م ، ولكن معظمها باء بالفشل . شعر يوسف الابراهيم بفشله الذريع فى البصرة ، فتوجه الى حائل للاقامة فى ضيافة الأمير عبد العزيز بن الرشيد ولحقه أبناء القتيلين محمد وجراح ، ويبدو أن ابن الرشيد تبنى قضيتهم بالعودة الى حكم الكويت ، كما كان يسعى للتخلص من الشيخ مبارك الذى كان يستضيف الأمير عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وأبناءه منذ عام ١٨٩٢م ، وكان الأمير عبد الرحمن خصما لدودا لابن الرشيد الذى انتزع منه ملك أجداده وآبائه آل سعود فى نجد . وفى صيف عام ١٩٠٠م ، بدأت المناوشات بين الشيخ مبارك وحلفائه ، وبين الأمير ابن الرشيد ، كما أغار سعدون باشا - أمير قبائل المنتفق - فى الوقت نفسه على نواحى شمر ، ربما بايعاز من الشيخ مبارك الذى كان يساند غارة قام بها الأمير عبد العزيز بن الأمير عبد الرحمن الفيصل على نجد ، وذلك فى شهر أغسطس سنة ١٩٠٠م، وفى شهر سبتمبر أمد الشيخ مبارك الأمير عبد العزيز بن سعود ، بنجدة طلبها أثناء تلك الغارة ، ثم انضم الشيخ مبارك بنفسه فى شهر أكتوبر الى صفوف قوات الأمير عبد العزيز بن سعود ، ولكن والى البصرة محسن باشا تمكن من حقن الدماء ، والفصل بين القوات المتحاربة ، عن طريق وساطة السيدين حامد وطالب النقيب(٢١) .

ولكن هذا الصلح لم يكن يروق للشيخ مبارك لأنه كان على يقين بأن الأمير عبد العزيز بن الرشيد سيواصل مؤامراته من أجل اعادة أبناء القتيلين جراح ومحمد الى حكم الكويت ، خاصة وقد نزلوا ، هم ويوسف الابراهيم فى حائل تحت حماية الأمير ابن الرشيد ، وهنا قرر الشيخ مبارك أن يمسك بزمام المبادرة ، وأن يغزو ابن الرشيد فى عقر داره . ففى شهر سبتمبر ١٩٠٠م ، توجه الشيخ مبارك والأمير عبد العزيز بن سعود على رأس جيش قوامه عربان العوازم ، والرشايدة ، ومطير ، والعجمان ، وبنو هاجر ، وبنو خالد ، ونحو ألف من أبناء مدينة الكويت لغزو ابن الرشيد فى نجد وشمر ، واستولت القوات الغازية على نجد دون مقاومة تذكر ، ونصب الشيخ مبارك الأمير عبد العزيز بن سعود حاكما على الرياض ، وعندما تقدم الجيش الغازى صوب حائل من أجل فتح منطقة شمر ، تمكن الأمير ابن الرشيد من الحاق الهزيمة بالشيخ

مبارك فى الصريف ، فاضطر للانسحاب من المعركة مع فلول قواته فى ١٧ مارس ١٩٠١م ، بعد أن خسر أغلب قواته من أبناء مدينة الكويت الذى قدر قتلاهم بحوالى ٧٠٠ رجل(٢٢) ٠

ان هزيمة الشيخ مبارك فى معـــركة الصريف أنهت أحـلامه فى السيطرة على نجد والتخلص من خصمه اللدود ابن الرشيد ، وان كان من السهل الربط بين ما تعرض له الشيخ مبارك وحكمه فى الداخل من مخاطر ، والتى وصلت الى ذروتها فى هزيمة الصريف ، وبين موقفه من تجارة السلاح ، وبذله كل جهد للحصول عليه علانية أو خفاء ، أى بمطالبة حكومة الهند بتزويده بالمزيد من السلاح ، وفى الوقت نفسـه يقوم باستيراده سرا من مناطق بيع السلاح مع العلم أنه وقع اتفاقية فى شهر مايو ١٩٠٠م ، تحظر استيراد وتصدير السلاح ، تمشيا مع أهداف حكومة الهند العامة لمنع انتشار هـــذه التجارة فى الخليج ٠ وان كانت الحكومة البريطانية فى لندن لم تحط علما بهذه الخطوة للحصول على موافقتها ، الا أنها أقرت ما تم التوصل اليه لأنه يمثل اعلانا من طرف واحد فحسب ، وان كانت اشترطت عدم تقديم أى مساعدة لتطبيق الحظر الا بموافقة لندن ولم يكن لهذا الحظر وزنا كبيرا على المدى القصير ، فالسفن الكويتية كانت ترفع العـلم التركى كالمعتاد ، ولم يكن هنـاك جدوى من تتبعها فى الميـــاه الاقليمية الكويتية فى ذلك الوقت(٢٣) ٠ ولكن ظل للاتفاق أهمية ليطبق فى المستقبل ٠

ونتيجة لذلك لم يتلزم الشيخ مبـــارك بتطبيق نصـــوص اتفاقية ١٩٠٠م ، بل بدأ يتهرب من شروطها باستخدامه وسائل مختلفة ، من أهمها رفع العلم التركى تخلصا من تفتيش السفن البريطانية ، لأن الدولة العثمانية لم تدخل فى اتفاقية مباشرة مع بريطانيا تنص على تفتيش السفن العثمانية ٠

ولهذا استخدم الشيخ مبارك العلم التركى لأنه طبق المبدأ الدولى الذى ينص على أن « العلم يغطى البضائع » فبينما كان الموقف يتازم بين الدولة العثمانية وبريطانيا حـــول مسألة الكويت ، وكانت العـلاقات البريطانية مع الشيخ مبارك فى طريقها الى التقدم ، وان كان الشيخ

قد تعهد فى شهر مايو ١٩٠٠م ، بأن يمنع حـــركة مرور الأسلحة الى الكويت ، وأن يسمح للسفن البريطانية بتفتيش ومصادرة السفن المشتغلة بتلك التجارة ، الا أن حكومة الهند أخذت تتساهل فى تصدير الأسلحة الى الكويت بالذات على خـــلاف الحال مع غيرها من امارات الخليج الأخرى التى عقدت معاهدات مشابهة ـ كما ذكرنا ـ ويرجع ذلك الى أن حكومة الهند كانت تخشى اذا ما تشددت فى منع استيراد الأسلحة الى الكويت أن تتيح الفرصة للأتراك لتدعيم مراكزهم ، فضــــلا عما كان يتعرض له الشيخ مبارك من تهديدات الأمير ابن الرشيد حاكم حائل ، كما كانت حكومة الهند تهدف من ناحية أخـــرى ، الى مساعدة الأمير عبد العزيز بن سعود أمير نجد الذى كان فى أمس الحاجة للسلاح بعــد استعادته لامارة الرياض فى عام ١٩٠٢م عن طريق حليفه الشيخ مبارك حتى يتمكن من اضعاف سيطرة العثمانيين فى وسط نجد ، وأيضا فى سواحل الخليج ، ويتجلى ذلك فى التعليمات التى بعثت بها حـكومة الهند بعدم تدخل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج فى حركة مرور الأسلحة الى الكويت لفترة معينة(٢٤) • ونتيجة لتدفق الســـلاح فى وسط نجد عن طريق الكويت ، استطاع الأمير عبد العزيز بن سعود أن يفتح شقراء ، وثرمداء والروضة ، وسائر مدن سدير • وقد أصبح جيشه يصل الى ١٠٠٠ جندى ، وكان فى حاجة ماسة الى الذخيرة والســلاح لتكملة فتوحاته فى وسط الجزيرة وفره له الشيخ مبـــارك وابنه الشيخ جابر(٢٥) ، وذلك بسبب تساهل حكومة الهند البريطانية بحركة مرور الأسلحة للكويت فى هذه الفترة الحرجة بالذات •

أما بالنسبة للشيخ مبارك فقد واجه فى نفس العام أحداثا جديدة من قبل يوسف الابراهيم ومن الأتراك أنفسهم ، حيث أن يوسف الابراهيم بدأ يحرض أنصاره على مهاجمة بدو الكويت النازلين بالقرب من صفوان وسلب مواشيهم وأغنامهم(٢٦) بموافقة من السلطات العثمانية • كما قام رجاله بهجوم مباغت على منطقة الصبية ، استولوا خـــلاله على عدد غير قليل من الجمال الكويتية • ولكن هذه الاعتداءات لاتقاس فى خطورتها بما كانت عليه الهجمة المفاجئة التى دبرها يوسف الابراهيم لغزو مدينة الكويت نفسها من جهة البحر • ففى خريف ١٩٠٢م ، جهز

يوسف الابراهيم عددا كبيرا من رجاله وأعدهم لدخـول مدينة الكويت نفسها خلسة من أجل الاستيلاء على الكويت ، وذلك بأن أعد جماعة من عرب الشريقات المقيمين على الساحل الفارسى للتحرك برئاسة عذبى بن محمد الصباح ، وابن عمه حمود بن جراح ، وسلحهم بالبنادق ، وأنزلهم فى قوارب فى الدورة على شط العرب • وقد بلغت أنباء هذه الحركة السرية بالقرب من « الفاو » يوم الثالث من سبتمبر مســامع الانجليز حيث كانت ترسو السفينة لابوينج التى هرع قائدها الى الكويت ليبلغ الشيخ مبارك بما يجرى ، فوجده على علم بالأمر ، ومستعداً لمواجهة الغزو • وانتهت المحاولة بالفشل(٢٧) ، وطـرد يوسف الابراهيم من منطقة الزبير والبصرة ، فلجأ الى الأمير ابن الرشيد فى حائل ، بعد أن طردته السلطات العثمانية من العراق ، ومكث فى حائل الى أن توفى فى شهر يناير ١٩٠٦م •

أما الحادثة الثانية من قبل السلطات العثمانية فى البصرة والتى لا شك أن هزت الشيخ مبارك فى أوائل يناير ١٩٠٢م ، فقد تمثلت فى محاولة الأتراك الوصول الى مناطق أكثر استراتيجية وخاصة فى مدخل الخليج ، وذلك باحتلال جزيرة بوبيان والمراكز الحدودية مثل أم قصر وصفوان(٢٩) • ولقد تقاعست حكمة الهند فى حســم الأمر بطريقة عسكرية ، ودخلت فى جدال بين موظيفها حول الجانب القانونى لتلك الأحداث • وقد تمثل ذلك فى طرح السؤال التالى : هل الحق فى جانب الأتراك أم الشيخ مبارك ؟ وما هو الحل الأمثل فى المستقبل لازالة هــذا العدوان التركى(٣٠) ؟

تلك الأوضاع الدولية العـامة والظروف الخاصــة بمنطقة الخليج ستكون من أسباب لجوء الشيخ مبارك الى التوسع فى تجارة السلاح • كيف حدث ذلك ؟

تعرضنا فى خلال البحث الى الأسباب التى أجبرت الشيخ مبارك الى قيامه بخرق اتفاقاته مع بريطانيا وذلك بسبب ظروفه الخارجية ، ومن ثم عول على استغلال تملكه لأســطول كان يعتبر فى وقته أكبـر أسطول كان ينقل تجارة الخليج ومنطقة البحر الأحمر ، كان ينقل تجارة

المنطقة ، فشجع الشيخ مبارك بعض التجار على تجارة السلاح واستيرادها للكويت ومنطقة الخليج لدعم موقفه الداخلى ، فضلا عما ينجم من استمرار هذه التجارة من أرباح مادية ، لذلك عول على حماية التجار المتورطين بتلك التجارة فى حالة انكشافهم للسلطات البريطانية، وتروى كتب التاريخ الكويتية قصصا كثيرة معتبرة أن ما يقوم به الشيخ مبارك هو ذكاء وبطولة نورد منها بعض الأمثلة · فى عام ١٩٠٤م : كانت احدى السفن الكويتية العائدة الى محمد صادق معرفى وكان ربانها يدعى عباس بن نحى قد شحنت كمية كبيرة من الأسلحة تعود لثلاثة من كبار تجار الأسلحة فى الكويت ، وفى أثناء عزمها على ترك مسقط صدر أمر من الحكومة البريطانية بمنع تجارة الأسلحة فانتشرت قوات بحرية بريطانية فى الخليج لمنع السفن التى تحمل الأسلحة . وعندما علم ربان تلك السفينة بالأمر عزم على الذهاب الى الكويت مهما كلفه الأمر · وكانت احدى الطرادات البريطانية تراقب سفينته وتنتظر خروجها من ميناء مسقط للاستيلاء على ما كان فيها من سلاح فانتهز ربان السفينة انشغاله ، فاطلق العنان لسفينته وغادر الميناء وما كادت السلطات البريطانية تعلم بأمرها حتى أرسلت طرادا يقتفى أثرها ويعود بها الى الميناء فأدركها الطراد فى عرض البحر وكان الوقت ليلا شديد الظلام فحاصرها فى أحد الجيوب البحرية ، ولما شعر ربان السفينة بالخطر المحدق بسفينته عمد الى حيلة لم تخطر ببال أحد ، فقد أشعل سراجا وشده الى لوح كبير من الخشب وأنزله على سطح البحر ثم واصلت السفينة سيرها تحت جنح الظلام · أما الطراد البريطانى فظل فى مكانه يراقب السفينة التى لم تكن سوى خشبة عليها سراج · فلما أصبح الصباح تحقق للطراد أن السفينة قد خدعتهم فتعقبوها ، فلم يهتدوا لها على أثر فظنوا أنها لابد قد قصدت الكويت وستكون تحت قبضتهم متى شاءوا ·

أما ربان السفينة فحال وصوله الكويت راجع محمد صادق ، فذهب الاثنان معا الى مقابلة الشيخ مبارك وأعلماه بما حصل وكان ذلك عند المساء ·

فأصد الشيخ مبارك أمره الى أحد خدمه (الذى كانت وظيفته

مراقب شئون الميناء) ، كما أصدر أوامره الى مدير جمـــرك الكويت بالاسراع بتفريغ جميع حمولة تلك السفينة من السلاح ، وارســاله الى داره ، وأمر تجار الأسلحة الثلاثة بالذهاب الى دار حاج جراغ الحداد ، لكى لا يشعر أحد بمقدمهم ويخبر قائد الطـــراد الانجليزى ، ثم أمر بسحب تلك السفينة الى أعلا الشاطىء وأمر باطلائها بالزيت ليوقن من يراها أنها منذ مدة فى حالة صيانة واعمار ، جرى كل ذلك ليلا ، ولما أصبح الصبح قدم قائد الطـــراد ليخبر الشيخ مبـــارك بمهمته ، أنكر الشيخ مبارك علمه بذلك ، ورغب بأن يجـــرى تفتيشا من قبله للوقوف على أثر تلك السفينة . فجاب قائد الطـــراد جميع شواطىء مـــدينة الكويت ، فلم يقف على أثر لتلك السفينة فتعجب لهذا الأمر غاية العجب ورجع من حيث أتى بدون أن يجد السفينة(٣١) .

لا يمكن انكار أن الشيخ مبـــارك كان له ضلع كبير فى عملية بيع السلاح وتصديره الى الخارج ومما ساعده على ذلك اتصـــاله سرا بتجار السلاح الأجانب وخاصة الفرنسيين وعلى رأسهم المسيو جوجير الذى كان له نشاط واسع فى الخليج يمتد من مسقط والبحرين والى الكويت أيضا. فمنذ زيارة المسيو جوجير الى الكويت ، تزايدت بعدها حركة الاستيراد وكانت الشحنات تدخل على أنها ممتلكات خاصة للشيخ ، ففى الأسبوع الأول من عام ١٩٠٤م ، وصل الى الكويت ١٢ صـــندوقا من الأسلحة ، وفى ١٨ من الشهر نفسه وصلت شحنة أخرى تحتـــوى على ٢٩ صندوقا ووضعت جميعها فى مخازن الشيخ ، وفى نهـــاية اغسطس استوردت الكويت ٨٠٠ بندقية .

وفى عام ١٩٠٤م ، اكدت الاحصائيات أن عملية الاستيراد تســـير بمعدل ١٠٠٠ بندقية فى الشهر تقريبا ، وأن الشيخ يحصل على دخل سنوى قيمته ٥٠٠٠٠ جنيه استرلينى فى السنة .

وفى عام ١٩٠٤م ، طلب المدير العام للجمارك فى بوشهر منحه حق مصادرة جميع الأسلحة التى يجدها على ظهر السفن فى الميـــاه الفارسية ، ومهما كانت وجهتهـــا ، وقد بذلت محـــاولة للاستيلاء على

أسلحة يملكها عرب متجهون من مسقط الى الكويت على سفينة انجليزية، الا أن المحاولة فشلت ، وهى السفينة التى يملكها محمد صادق معرفى سابق الذكر ٠

وفى شهر سبتمبر ١٩٠٤م ، استولت سـفينة الجمارك الشراعية « المظفرى » على كمية من الأسلحة فى مدخل شط العرب ، فاثار هذا التصرف استياءا شديدا فى الكويت ٠

واستمر تدفق الأسلحة من مسقط الى الكويت ، ففى شـهر فبراير ١٩٠٦م ، أنزلت السفينة الروسية « تريفر » ٢٥ صندوقا فى الميناء ، ثم وصلت الى نفس الميناء شحنة تتكون من ٣٠٠ بندقية بذخيرتها فى نفس الشهر ، كما أفادت التقارير وصول ٤٥٠٠ بندقية و ١٥٠٠ صندوق من الذخيرة الى الكويت بطريق البحر فى نفس التوقيت ٠

وفى مواجهة هذا التطور النشط لتجارة السلاح فى الكويت أثار الكابتن نوكس الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت ، وبعد استشارة السفير البريطانى فى اسطنبول المسألة مع الشيخ مبارك فى شهر أبريل ١٩٠٦م ، ولكن الشيخ أبدى علامات الاستياء وعدم الرضا ازاء ما وجهته اليه السلطات البريطانية من لوم ، وألمح الى أن هذا المسلك من جانبها لا يتمشى مع أهمية الصداقة السياسية القائمة بين الجانبين(٣٢) ٠

نستنتج من ذلك أن حكومة الهند قد تساهلت بصـفة خاصة فى تصدير الأسلحة الى الكويت - كما ذكرنا من قبل - حتى يستخدمها الشيخ مبارك ضد أعدائه ، ونتج عن هذا التسـاهل تحول الكويت الى مركز لتجارة السلاح ٠ ومن الانصاف أن نذكر بأن هـدف الشيخ مبارك من الاستمرار فى تجارة السلاح يكمن فى حماية امارته من الأخطار المحدقة بها فى الداخل والخارج ولبيان أن هذه الأسلحة كانت توزع من قبـل السلطات البريطانية على رجال القبائل ، وتحرضهم على استخدامها فى مناوءة السلطات العثمانية(٣٣) ٠

ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه الأحـداث المتعاقبة المفعمة

بالخطر ، كان لابد أن تدفع الشيخ مبارك الى السعى للتزود بالسلاح ، والتحايل على كل الالتزامات التى ارتبطت بتجارته خلال تلك المرحلة ، بل اننا لنلمس أيضا فى هــــذه الفترة ـ كما سبق أن أشرنا ـ تغاضى السلطات البريطانية عن نشاط الشيخ مبارك فى هذا المجال ، عندما كانت المصالح البريطانية تتطلب هذا التغاضى ، وليس من شك أيضا فى أن هزيمة الصريف كان لها أثر بالغ العمق على الشيخ مبارك ، أدرك معه أن القوة والسلاح هما وسيلته الأولى والأساســية لتدعيم مركزه ، وتحقيق ما يصبو اليه من أهداف . وان كانت للعوامل والأخطار الداخلية أثرها على تحديد سياسات الشيخ مبارك ، فلقد كان للأوضاع الخارجية أيضا دور لا يقل أهمية وشأنا كما سبق وأسلفنا القول .

خلاصة القول أن الشيخ مبارك لم يكن تاجر سلاح بالمعنى الضيق والتقليدى ، وانما كان مؤسس دولة ، وكان تأسيســها فى توقيت بالغ الدقة والخطر ، ومحفـــوف بالصراعات والصـــدامات على الصــعيدين الداخلى والخارجى ، ومن ثم أخذ يشق طريقه ـ كقائد فذ ـ بين هذه الأعاصير المتلاطمة ليخرج فى خاتمة المطاف محافظا على استقلاله مهما شاب هذا الاستقلال من قيود أملتها طبيعة العصر وتوازن القوى محليا وعربيا وعالميا .

أولا : الهوامش :

١ - **جمال زكريا قاسم :**

الخليج العربى ، درسة لتاريخ الامارات العربية (١٨٤٠-١٩١٤م) ص : ٢٩٥٠

٢ - **لوريمـــر :**

دليل الخليج . القسم التاريخى ، انجزء السادس ، ص : ٢٩٥ ، وكذلك : أرنولد ويلسن : الخليج العربى ، ص : ٣٠ - ٤٣١ ٠

٣ - **أرنولد ويلســن :**

الخليج العربى ، ص : ٤٣١ ٠

٤ - المصدر السابق ٠

٥ - **عبد العزيز المنصور :**

التطور السياسى لقطر ، (١٨٦٩ - ١٩١٦ م) ص : ٧٠ ٠

* يذكر ويلسون : بلغت التجارة فى بوشهر حوالى ١٨٩٧ ، أبعادا مكنت استيراد أسلحة وذخائر قيمتها مائة ألف جنيه استرلينى ، وذعرت الحكومة الفارسية ، فقامت آنذاك باتخـــاذ الخطـــوات الفعـــالة لفـــرض المنع ، ودخلـــت فى اتفاقية مع حكومتى بريطانيا ومسقط ، حيث قفزت التجارة فى الوقت ذاته الى مالا يقل عن ١١٥٠٠ قطعة سلاح انزلت البر ما بين ١٨٩٠ - ١٨٩٢م ، لمنعها ومحاربتها ٠

راجع أرنولد ويلسون : ص : ٤٣٢ ٠

٦ - **عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم :** بريطانيا وامارات الساحل العمانى ، ص٤٣٢٠

* انضم ميناء جوادر الى مسقط منذ عام ١٧٩٣ عندما حصل عليه سلطان بن أحمد ، سلطان مسقط ، وظل تابعا لسلطنة مسقط حتى عام ١٩٥٨ حين تنازل عنه السيد سعيد بن تيمور لباكستان مقابل ثلاثة ملايين من الجنيهات علاجا لأزمته المالية ٠

٧ - **لوريمـــر :**

دليل الخليج ، القسم التاريخى ، الجزء السادس ، ص : ٢٩٥ ٠

٨ - المصدر السابق ، ص : ٣٥٨٧ ٠

٩ - راجع ويلسون : ص : ٤٣٢ ٠

١٠ ـ راجع لوريمر : جـ٦ ، ص : ٣٥٨٨ ٠

١١ ـ المصدر السابق ، جـ٦ ، ص : ٣٥٩ ٠

١٢ ـ المصدر السابق : جـ٦ ، ص : ٣٥٩٠ ٠

١٣ ـ المصدر السابق ، جـ٦ ، ص : ١٣٩١ ٠

١٤ ـ المصدر السابق : جـ٦ ، ص ٣٥٩٣ ـ ٣٥٩٤ ٠

١٥ ـ المصدر السابق : ص : ٣٥٩٥

١٦ ـ المصدر السابق : ص : ٣٥٩٦

١٧ ـ **عبد العزيز المنصـــور :**
التطور السياسى لقطر ، ص :

١٨ ـ I.O.R. :L/Pas/10/114. Arms Trafic.

١٩ ـ **لوريمــــر :**
دليل الخليج ، القسم التاريخى ، الجزء السادس ، ص : ٣٥٦ ـ ٣٥٩٧ ٠

٢٠ ـ المصدر السابق : ص ٣٦٠٦ ٠

* يوسف الابراهيم من بيت رفيع بالكويت ، وله مصاهرة مع أسرة آل الصباح ، وكان هذا البيت فى ذلك الزمن أثرى بيت فى الكويت ، وقد حصل ليوسف من العز والاقبال ما لم ينله قبله أحد منذ تأسست الكويت ٠ راجع يوسف القناعى صفحات من تاريخ الكويت ، ص : ٢٣ ٠

٢١ ـ **فتوح الخترش :**
تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص : ٦٣ ـ ٦٥ ، وايضا : **عبد العزيز الرشيد :** تاريخ الكويت ، ص : ١٦٢ ـ ١٦٣ ٠

٢٣ ـ
BUSCH. : Britain and the Persian Gulf. 1894 - 1914, pp. 195.

٢٤ ـ **جـــون فيلبى :**
تاريخ نجد ، ص : ، وايضا : حافظ وهبة : خمسون عاما فى جزيرة العرب ص : ٢٧ ٠

٢٥ ـ **ديكســـون :**

الكويت وجاراتها : ص : ١٤٠ ـ ١٤١ ٠

٢٦ ـ **عبد العزيز الرشيد :** ص : ١٨٠ ٠

٢٧ ـ **فتوح الخترش :** ص : ٤٩ ٠

٢٨ ـ **لوريمر :** جـ ١ ، ص : ١٠٤٤ ٠

(٩٢) فتوح الخترش : ص : ٦٨ ٠

٣٠ _ BUSCH. B.C : Britain and the Persian Gulf., pp. 215.

٣١ ـ **حسين الشيخ خزعل :**

* يذكر بوش « أن مبارك اقتنع بعد هذه الحادثة بأن بريطانيا هي مصدر كل متاعبه ، وأصر على أن يتابع مطالبه حول الجزر والمراكز الحدودية ٠
راجع : بوش : مرجع رقم (٣٠) ٠
تاريخ الكويت السياسي ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ٠

٣٢ ـ **لوريمر :** جـ ٦ ، ص : ٣٦٠٧ ٠

٣٣ ـ لوريمر : جـ ٦ ، ص : ٣٦٢١ ٠

ثانيا : اهم المراجـــع

أولا : المصادر والمراجع العربية :

١ ـ **أرنولد ويلسـن :**
الخليج العربى ، الناشر : مكتبة الأمل : الكويت .

٢ ـ **حسين خلف الشيخ خزعل :**
تاريخ الكويت السياسى (خمسة أجزاء) دار مكتبة الهلال .

٣ ـ **حافظ وهبة :**
خمسون عاما فى جزيرة العرب .

٤ ـ **جون فيلبى :**
تاريخ نجد : منشورات المكتبة الأهلية ، بيروت ، لبنان .

٥ ـ **جمال زكريا قاسم :**
الخليج العربى (دراسة لتاريخ الامـــارات العربية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) مطبعة جامعة عين شمس : ١٩٦٦م .

٦ ـ **ديكسـون ، هـ.ر.ب. :**
الكويت وجاراتها ، الطبعة الأولى : ١٩٦٤م .

٧ ـ **عبد العزيز الرشـــيد :**
تاريخ الكويت ـ منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت : ١٩٧٨م.

٨ ـ **عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم :**
بريطانيا وامارات الساحل العمانى ـ مطبعة الارشـــاد ـ بغـداد ١٩٧٨م .

٩ ـ **عبد العزيز المنصـور :**
التطور السياسى لقطر ، (١٨٦٨ ـ ١٩١٦) الناشر : دار ذات *السلاسل* .

١٠ ـ **فتوح الخـــترش :**
التاريخ السياسى للكويت فى عهد الشيخ مبارك (دراسة وثائقية مقارنة بالمؤرخين المحليين) ، منشورات دار ذات السلاسل . الكويت ـ الطبعة الثانية : ١٩٩٠م .

١١ - فتــوح الختــرش :
تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، (١٨٩٠-١٩٢١)٠
منشورات دار ذات السلاسل - الطبعة الأولى ١٩٧٤ م ٠

١٢ - ج٠ج٠ لوريمر :
دليل الخليج الجزء الأول والسادس .- ترجمة : مكتب الترجمة
بديوان حاكم قطر ٠

ثانيا : وثائق أجنبية منشورة :

* India Office Records, (I.O.R.) : L/PKS/10/113 - Arms Traffic.

ثالثا : الكتب الأجنبية :

* B.C. BUSCH : Britain and the Persian Gulf. 1894 - 1914. University of California Press. Berkeley Los Angeles, 1967.

باب عـــرض الكتب

خصصنا هذا الباب لعرض بعض الكتب التاريخية الحديثة ، ذات الطابع العلمى البحت والمنهج التاريخى السـليم • والهدف من هـذا العرض تعريف الباحثين ـ لا سيما أفراد أسرة المؤرخين العرب ـ بهذه الكتب ومؤلفيها ، حيث أن تيار الاعلام فى وطننا العربى لا يعطى ـ بكل أسف ـ الكتب والمؤلفات التاريخية الحديثة الاهتمام الكافى ، اللهم الا على الصعيد المحلى •

والتعريف بالكتاب لابد وأن يصـحبه التعـريف بصاحبه ، حتى ولو كان المؤلف أشهر من أن يعرف به • فلا بد من الاشارة بايجاز الى نشاط المؤلف وعمله وبلده ، والى مؤلفاته السابقة وأهميتها فى حقـل الدراسـات التاريخية ••• وذلك لتحقيق قـدر من الترابط الفـكرى والروحى بين القارىء والمؤلف ، والاحاطة بالظروف التى يعمل فيها المؤلف ، والامكانات المتـاحة له ، والتى فى ضـوئها وضع مؤلفه أو مؤلفـاته •

★ ★ ★

وفى ضـوء هـذه الاعتبارات شرعنا فى التنقيب عن المؤلفات التاريخية ذات الطابع العلمى البحت والتى صدرت فى الفترة الأخيرة لتعالج موضوعات جديدة • ولا نجامل اذا قلنا ان أول ما شد انتباهنا فى هذا المضمار كانت مؤلفات « الحاكم المؤرخ » سمو الدكتور سلطان ابن محمد القاسمى حاكم الشـارقة والحائز على درجة الدكتوراه فى التاريخ من احدى أعرق الجامعات فى انجلترا • واسترعى نظرنا أن الدكتور سلطان يعمل فى صمت ، بعيدا عن أضواء الدعاية والاعلان ، وأنه فى السنوات الأخيرة أنتج عدة مؤلفات تاريخية ثمينة تجعل منه علما من أعلام الدراسات التاريخية فى عالمنا العـربى ، وتتصف كلها بجدة الموضوع وسلامة المنهج وعمق الفكر وسلاسة الاسلوب •

وثمة عامل مشترك فى مؤلفات الدكتور سلطان بن محمد القاسمى ، هو أنها ترتبط جميعا بتاريخ الخليج ، مما جعل منه أحد الثقات المتخصصين فى تاريخ ذلك الاقليم ، الذى نشأ فيه وترعرع بين جنباته ، فأخلص له ولأهله اخلاصا جعله يكرس له جهده وفكره ووقته ٠

ثم ان الجديد فى مؤلفات الدكتور سلطان بن محمد القاسمى هو أنه بحكم امكاناته استطاع جمع عدد كبير من الوثائق التاريخية الخاصة بتاريخ الخليج ، والمحفوظة فى دور الارشيف العالمية غربا وشرقا ؛ وعكف على دراستها وتحليلها واستخراج الحقائق التاريخية منها ، وهو مالم يتوافر لكثيرين غيره من الباحثين فى تاريخ ذلك الاقليم ٠ وهو فى أحكامه يقف موقفا عادلا غير متحيز ، لا يستهدف الا الحقيقة التاريخية ، فيرد على الدعاية الكاذبة التى روجها الاستعمار لتبرير سياسته الاستغلالية فى اقليم الخليج ، ويفند أساليب تلك الدعاية على أسس علمية ، معتمدا على الوثائق والحجج التاريخية متجنبا اسلوب التطرف أو التحيز ، وبذلك أتت مؤلفاته نبعا عذبا ينهل منه الباحثون فى تلك الحلقة الهامة من حلقات التاريخ ٠

وسنكتفى فى هذا العرض بالتركيز على آخر كتابين انتجهما سمو الشيخ الدكتور محمد بن سلطان القاسمى ، مع عدم اغفال الاشارة الى بعض مؤلفاته الأخرى التى سبقت فى الصدور :

★ ★ ★

اسم الكتاب : العلاقة العمانية الفرنسية (١٧١٥ ـ ١٩٠٥)
تاريخ صدور الكتاب : ١٩٩٣
الناشر : دار الغرير للطباعة والنشر ٠

تلقى هذه الدراسة أضواء جديدة على العلاقات العمانية الفرنسية فى فترة من أشد فترات التاريخ فى الخليج والمحيط الهندى حساسية ٠ ومن منطلق تاريخى سليم ، ربط المؤلف ـ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى ،بين العلاقات العمانية الفرنسية فى ذلك الدور من ناحية ،

وما كان يجرى عندئذ من سباق بين انجلترا وفرنسا وتنافس سياسى خطير بين هاتين الدولتين من ناحية أخرى . وهكذا أخذ المؤلف يتتبع فى منهج علمى متين وفكر هادىء متزن تطور الصراع بين انجلترا وفرنسا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، موجها نظر القارىء الى صدى هذا الصراع فى اقليم الخليج بوجه خاص . وطوال تتبع الباحث لمسـيرة الأحداث فى تلك الفترة نراه يحرص على أن ينظر باحدى عينيه الى تطور المواقف بين انجلترا وفرنسـا فى اقليم الخليج ، وينظر بالعين الأخرى الى موقف أهل عمان والخليج من هاتين القوتين الدخيلتين على المنطقة وأهلها . وثمه حقيقة عنى الباحث بالكشف عنها هى أن العلاقات العمانية الفرنسية لم تتسم فى مجملها بالانسجام والود ، وانما تعرضت لهزات واضحة على مدى قرنين من الزمان .

واسـتنادا الى الأدلـة والوثائق المعاصرة التى عنى بدراسـتها واستخلاص الحقائق منها ، تصدى الباحث فى شـجاعة المؤرخ المدقق لآراء بعض الكتاب والمؤرخين الذين خاضوا فى هـذا الموضوع مغلبين عواطفهم وميولهم دون الرجوع الى الوثائق التاريخية المعاصرة ، فناقش هذه الآراء بأمانة وشجاعة ، وفند بعضها وأثبت خطأها ، وكشف عن سياسة المبعوثين الفرنسيين الى عمان ، وما اتسمت به هذه السياسة من نوايا واغراض مستترة . وهـكذا حتى كانت سنة ١٨١٧ عندما دخلت العلاقات العمانية الفرنسـية مرحلة جديدة اتصفت بالتعاون وحسـن النـوايا .

هذا ، وقد راعى المؤلف الترتيب الموضوعى ، واحترام الحاسـة الزمنية فى كتابة التاريخ ، فقسم كتابه الى عشرة فصول ، عدا المقدمة وقائمة المصادر والمراجع ثم ثبت الهوامش والكشاف العـام . واختص كل فصل من فصول الكتاب بمحور محـدد تدور حوله نقاط البحث ؛ الأمر الذى أضفى على الكتاب بأكمله طابع الوضوح والسلاسة ، بعيـدا عن التكلف والتعقيد والاستطراد ، وهى الأمراض التى تشكو منها بعض الكتابات التاريخية .

والكتاب فى حد ذاته مرجع علمى لمن ينشـد الوقوف على خبايا

تلك الصفحة المثيرة فى تاريخ الخليج ، فضلا عن سياسة فرنسا فى الشرق طوال قرنين حافلين بالاحداث والتطورات .

★ ★ ★

اسم الكتاب : الوثائق العربية العمانية فى مراكز الأرشيف الفرنسية
تاريخ صدور الكتاب : ١٩٩٣

هذا هو الكتاب الثانى الذى أصدره سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى فى نفس العام الذى شهد صدور كتابه السابق وكما يبدو، يرتبط الكتابان بعضهما ببعض ارتباطا قويا داخل اطار وحدة الموضوع، اذ يضم الكتاب الثانى عددا من الوثائق العربية التى تلقى أضواء على حقيقة العلاقات العمانية الفرنسية . ولم يكن الوصول الى هذه الوثائق بالأمر السهل ، وانما تطلب من المؤلف الكثير من الجهد والعناء والبحث والتنقيب فى أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ، وفى مكتبة البلدية بمدينة كان فى فرنسا ، ثم فى جزيرة ريو نيون ... وغيرها واستعان المؤلف بهذه الوثائق فى بحوثه ومؤلفاته ، غير أنه رأى أن ينشرها محققه علميا لتكون تحت بصر الباحثين فى كل زمان ومكان ، وهنا تبدو سماحة العلماء وكريم فيضهم .

يقول المؤلف فى مقدمة كتابه :

(بعد الانتهاء من كتابة كتابى (العلاقة العمانية الفرنسية) ، وجدت فى حوزتى مجموعة من الوثائق العربية والفارسية الخاصة بالعلاقة العمانية الفرنسية ، والتى جمعتها من مراكز الأرشيف الفرنسية ؛ عز على ايداعها أدراج مكتبى دون الاستفادة الكاملة بما تحتويه تلك الوثائق من معلومات قيمة تمثل العلاقة العمانية الفرنسية خير تمثيل ، حيث تبرز كثيرا من التفاصيل الدقيقة ، والتى لا مجال لسردها فى كتابى (العلاقة العمانية الفرنسية) . فاخترت من بينها بعض الوثائق العربية الخاصة بالموضوعات الهامة فى تلك العلاقة ، وقمت بترتيبها حسب التواريخ والأحداث ، واضفت اليها معلومات تاريخية حول كل وثيقة ، وقمت بتفسير ما اشتبه فيها من كلمات ...) .

وبهذه الفقرة كفانا المؤلف مؤونة الافاضة فى الـــكلام عن موضوع الكتاب وأهدافه ومنهجه .

ومرة أخرى نؤكد أن الوثائق مصدر من أخطر المصادر التى تعتمد عليها الكتابة التاريخية . والرواية التاريخية بدون الوثائق والأسانيد التى تدعمها وتثبت صحتها تحتمل التغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان ، على مر العصور والأجيال . ولكن الوثيقة هى الشاهد على صحة الرواية أو عدم صحتها ، وخاصة اذا كانت مزوده بشـــهادة الشهود وتوقيعات الحضـور .

والعمل فى مجال الوثائق ليس سهلا ، لأن قـــراءة كل كلمة مع تعدد الخطوط وتباين رسم الحروف ، وتفســـير كل عبارة مع اختلاف معانى الكلمة الواحدة أحيانا من عصر الى آخر ... كل هذا يجعل من دراسة الوثيقة مهمة قاسية صعبة . هذا الى أن الوثيقة تدون بأسـلوب عصرها ، ولكل عصر تعبيراته التى قـــد تغاير ما كانت عليه فى عصر سابق أو ما آلت اليه فى عصر لاحق .

وفى هذا الكتاب واجـــه الدكتور سلطان بن محمد القاسمى كافة هذه الصعاب ؛ وأظهر الكثير من الدقة والصبر والمثابرة ، مما يشهد له بسعة الأفق وغزارة الحصيلة التاريخية . ولعل فيما ذكـره الباحث فى مقدمة كتابه من أنه قام بترتيب الوثائق التى نشرها « حسب التواريخ والأحداث » ما يدل على تمتعه بحاســـة تاريخية مرهفة ، لأن التاريخ يعتمد على التسلسل الزمنى ، وحوادثه متلاحقة مترابطة ، مما يجعل الطريق ممهدا مستقيما أمام الباحثين .

وهكذا لم ينشر المؤلف وثائقة متراكمة ، متداخلة ، أو متشابكة مع بعضها البعض ، وانما قسمها موضوعيا وزمنيا الى تسع مجموعات . وقد حرص - امعانا منه فى الدقة - على نشر الصورة الأصلية لكل وثيقة ، ومعها ما تتطلبه من شروح وتفسيرات علمية ولغوية.وربما ورد فى نص الوثيقة خطأ هجائى ، وعندئذ كان المؤلف يتركه كما هو حفاظا على

روح الوثيقة وطابعها وأصلها، ويكتفى بالاشارة الى ذلك الخطأ وتصويبه فى ذيل الصفحة . وهذا هو المنهج السليم فى نشر الوثائق . ان الوثيقة ينبغى أن تظل شاهدا يعبر عن روح العصر وفكره وأسلوب الكاتب ومستواه .

وبنشر هذه المجموعة من الوثائق العربية ، فتح الدكتور سلطان بن محمد القاسمى الباب أمام الباحثين المهتمين بتاريخ الخليج لمزيد من البحث والدراسة ، بحيث أصبح تاريخ الخليج لا يستقى أساسا من الوثائق الاوربية وحدها بل أيضا من الوثائق العربية التى لم يعن بالرجوع اليها معظم الباحثين الغربيين .

★ ★ ★

واذا كنا قد اقتصرنا فى عرضنا هذا على الكتابين السابقين فقط من مؤلفات الدكتور سلطان بن محمد القاسمى ، فليس معنى هذا أن انتاجه فى حقل الدراسات التاريخية يقف عند هذا الحد . لقد عشق الرجل دراسة التاريخ ، وكرس له جزءا كبيرا من وقته وفكره ووجدانه . واذا كناقد اخترنا هذين الكتابين من مؤلفاته التاريخية العديدة فذلك لأنهما آخر ما توصلنا اليه فى نفس العام الذى كنا نعد فيه لاصدار العدد الثانى من مجلة المؤرخ العربى . وعندما طلبنا منه اهداء مكتبة « المؤرخ العربى » مجموعة كاملة من مؤلفاته ، لم يضن علينا ـ وهو الرجل الكريم الخلق الواسع الأفق ـ فبعث الينا بمجموعة كاملة تحتل مكانها الآن كنواة لمكتبة اتحاد المؤرخين العرب . ومن بين هذه الكتب نكتفى بمجرد الاشارة السريعة الى المؤلفات الآتية التى تحمل اسم الدكتور سلطان بن محمد القاسمى : ـ

ـــ الاحتلال البريطانى لعدن

سفر جليل ، صدرت منه الطبعة الثانية عن مؤسسة البيان بدبى سنة ١٩٩٢ . يوضح بالوثائق أساليب السياسة البريطانية فى تنفيذ مخططاتها الاستعمارية الخاصة باحتلال عدن . ويكشف بالأدلة التاريخية

النقاب عن ألاعيب الاستعمار البريطانى تحت ستار عدد من الاتفاقيات غير المتكافئة والتى تتسم بما عرف عن الاستعمار من خداع ومراوغة .

— تقسيم الامبراطورية العمانية (١٨٥٦ ـ ١٨٦٢)

دراسة تاريخية ثمينة ، تقع فى نحو أربعمائة صفحة ، صدرت عن مؤسسة البيان فى دبى سنة ١٩٨٩ ، تلقى أضواء على تاريخ شرق افريقية فى حلقة هامة من أكثر حلقات تاريخ القرن التاسع عشر نشاطا وازدحاما بالاحداث . وفى ضوء الوثائق المعاصرة كشف الدكتور سلطان بن محمد القاسمى النقاب عن سياسة شركة الهند الشرقية ودورها الخطير فى تثبيت اقدام الاستعمار وتوسيع دائرة نشاطه .

— **The Myth of Arab Piracy in the Gulf, (Second Edition, Routledge, 1988).**

فى هذا الكتاب أوضح الدكتور سلطان بن محمد القاسمى عدم صدق ادعاء بريطانيا بأنها قدمت الى اقليم الخليج ، وبسطت سيطرتها عليه فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر لتحقيق هدف انسانى كبير ، هو القضاء على القرصنة العربية فى الخليج . وبالوثائق الرسمية ، أثبت المؤلف كذب هذه الأسطورة ، وأن التخطيط لسيطرة بريطانيا على الخليج كان من وضع شركة الهند الشرقية التى حثت الحكومة البريطانية على اتخاذ هذه الخطوة لأسباب اقتصادية استغلالية بحتة .

وتنبع أهمية هذا الكتاب من أن المؤلف اعتمد فيه على وثائق دور الارشيف فى بمباى بالهند . وكانت هذه المدينة مقر حكومة شركة الهند الشرقية ومركز نشاطها . ومن الثابت أن الدكتور سلطان بن محمد القاسمى كان أول مؤرخ عربى اتخذ من وثائق بمباى ركيزة لالقاء الأضواء على دور شركة الهند الشرقية فى نشر سيطرة بريطانيا على الخليج .

وبعد ، فانه اذا كانت مجلة المؤرخ العربى ، وهى تفتتح فى عددها الثانى باب (عرض الكتب) قد اختارت أن تبدأ بعرض مؤلفات سمو الدكتور سلطان بن محمد القاسمى - حاكم الشارقة - ، فان هـذا لم يأت اعتباطا ، وانما اعترافا بالقيمة العلمية لهذه المؤلفات أولا ، ثم بعد ذلك بدافع الاحساس بالفخر بأن يكون بين حكام الأمة العربية حاكم على مستوى الدكتور سلطان ، جمع بين وعى المؤرخ المحيط بالأبعاد الحقيقية لفنه ، والحاكم المخلص المتفانى فى خدمة شعبه وأمته .

رئيس التحرير